الآداب
المعنوية للصلاة

للإمام روح الله الموسوي الخميني قدّس سرّه

تعريب العلامة السيد أحمد الفهري رحمه الله

المقالة الأولى

في الآداب التي تكون ضرورية في جميع حالات الصلاة

بل في جميع العبادات والمناسك

وفيها اثنا عشر فصلاً

الفصل الأول

في التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية

من الآداب القلبية في العبادات والوظائف الباطنية لسالك طريق الآخرة التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية، وهذا التوجّه من المنازل المهمّة في السلوك للسالك بحيث تكون قوّة سلوك كل من السالكين بحسب قوة هذا النظر وبمقدارها، بل الكمال والنقص لإنسانية الإنسان تابع لهذا الأمر، وكلما كان النظر إلى الإنّية والأنانية ورؤية النفس وحبّها في الإنسان غالبا كان بعيدا عن كمال الإنسانية ومهجورا من مقام القرب الربوبي، وأن حجاب رؤية النفس وعبادتها لأضخم الحجب وأظلمها، وخرق هذا الحجاب أصعب من خرق جميع الحجب، وفي نفس الحال مقدمة له بل وخرق هذا الحجاب هو مفتاح مفاتيح الغيب والشهادة وباب أبواب العروج إلى كمال الروحانية، وما دام الإنسان قاصرا على النظر إلى نفسه وكماله المتوهم وجماله الموهوم فهو محجوب ومهجور من الجمال المطلق والكمال الصرف والخروج من هذا المنزل هو أول شرط للسلوك إلى الله بل هو الميزان في حقانية الرياضة وبطلانها. فكل سالك يسلك بخطوة الأنانية ورؤية النفس ويطوي منازل السلوك في حجاب الإنّية وحب النفس تكون رياضته باطلة ولا يكون سلوكه إلى الله بل إلى النفس (أمّ الأصنام صنم نفسك) (مصراع بيت للعارف الرومي مشهور: مادربت هابت نفس شما است) قال تعالى: " ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ﴾(النساء ١٠٠).

فالهجرة الصورية وصورة الهجرة عبارة عن هجرة البدن " المنزل الصوري " إلى الكعبة أو إلى مشاهد الأولياء، والهجرة المعنوية هي الخروج من بيت النفس ومنزل الدنيا إلى الله ورسوله، والهجرة إلى الرسول و إلى الوليّ أيضاً هجرة إلى الله، و ما دام للسالك تعلّق ما بنفسانيّته وتوجّه منه إلى إنّيّته فليس هو بمسافر وما دامت البقايا من الأنانية على امتداد نظر السالك وجدران مدينة النفس وإذ أن أعلام حبّ النفس غير مختفية فهو في حكم الحاضر لا المسافر ولا المهاجر.

وفي مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام): (العبودية جوهرة كنهها الربوبية فما فقد في العبودية وجد في الربوبية، وما خفي من الربوبية أصيب في العبودية).

فمن سعى بخطوة العبودية ووسم ناصيته بسمة ذلة العبودية يصل إلى عزّ الربوبية، والطريق للوصول إلى الحقائق الربوبية هو السير في مدارج العبودية فما فقد من الإنّيّة والأنانية في عبوديّته يجده في ظلّ الحماية الربوبية حتى يصل إلى مقام يكون الحق تعالى سمعه وبصره ويده ورجله كما في الحديث الصحيح المشهور عند الفريقين. فإذا ترك العبد التصرفات من عنده وسلم

حكومة وجوده كلها إلى الحق وخلّى بين البيت وصاحبه وفني في عزّ الربوبية فحينئذ يكون المتصرف في الدار صاحبها فتصير تصرفات العبد تصرّفا إلهيا، فيكون بصره بصراً إلهياً وينظر ببصر الحق ويكون سمعه سمعاً إلهياً فيسمع بسمع الحق، وكلما اكتملت ربوبية النفس وكان عزّها منظورا في نظرها نقص بمقدار من العزّ الربوبي لأن هذين: أي عزّ العبودية وعز الربوبية متقابلان " الدنيا والآخرة ضرتان " فمن الضروري للسالك أن يتفطّن إلى ذلّه ويكون ذلّ العبودية وعزّ الربوبية نصب عينيه.

وكلما قوي هذا النظر زادت روحانيته في العبادة وكانت روح العبادة أقوى، حتى إذا تمكن العبد بنصرة الحق وأوليائه الكُمّل عليهم السلام من الوصول إلى حقيقة العبودية، وكنهها فإنه يجد حينئذ لمحة من سرّ العبادة. وهذان المقامان ـ أعني مقام عزّ الربوبية الذي هو الحقيقة ومقام ذلّ العبودية الذي هو رقيقته ـ مرموزان في جميع العبادات وبالأخص في الصلاة التي لها مقام الجامعية. ومنزلتها بين العبادات منزلة الإنسان الكامل ومنزلة الإسم الأعظم بل هي عينه، وللقنوت، من الأعمال المستحبة. وللسجدة، من الأعمال الواجبة اختصاص بهذه الخصوصية وسنشير إليها فيما يأتي إن شاء الله.

وليعلم أن العبودية المطلقة من أعلى مراتب الكمال وأرفع مراتب الكمال وأرفع مقامات الإنسانية وليس لأحد فيها نصيب سوى الأكمل من خلق الله محمد صلى الله عليه وآله وأولياء الله الكمّل، فله صلى الله عليه وآله هذا المقام بالأصالة وللأولياء الكمّل بالتبعية وأما بقية العباد فهم في طريق العبادة عُرج وعبادتهم وعبوديّتهم معلّلة ولا ينال المعراج الحقيقي المطلق إلاّ بقدم العبودية ولهذا قال الله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِه﴾ (الإسراء ١) فقد أسرى الله سبحانه بتلك الذات المقدسة إلى معراج القرب والوصول بقدم العبودية والجذبة الربوبية.

وفي التشهد الصلاتي هو رجوع من الفناء المطلق الذي حصل للمصلّي في السجدة، التوجّه إلى العبودية أيضاً قبل التوجه بالرسالة ويمكن أن يكون إشارة إلى مقام الرسالة هو أيضا نتيجة لجوهرة العبودية ولهذا المطلب ذيل طويل خارج عن نطاق هذه الأوراق.

الفصل الثاني

في مراتب مقامات أهل السلوك

اعلم أن لأهل السلوك في هذا المقام وسائر المقامات مراتب ومدارج لا تحصى. ونحن نـذكر بعض مراتبه على النحو الكلّي، وأما الإحاطة بجميع جوانبه وإحصاء جميع مراتبه فخارج عن عهدتي وفوق طاقتي، فإن " الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق ". (قال الصادق عليه السلام: " الإيمان درجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه ومنه الناقص البيّن نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه "

وقال الباقر عليه السلام: " إن المؤمنين على منازل، منهم على واحدة ومنهم على اثنتين ومنهم على ثلاث ومنهم على أربع ومنهم على خمس ومنهم على ستّ ومنهم على سبع، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة اثنتين لم يقوَ، وعلى صاحب الاثنتين ثلاثا لم يقو " وساق الحديث ثم قال: " وعلى هذه الدرجات ").

فمن تلك المراتب مرتبة العلم وهي أن يثبت بالسلوك العلمي والبرهان الفلسفي ذلة العبودية وعزة الربوبية، وهذا لبّ من لباب المعارف. فقد اتضح في العلوم العالية والحكمة المتعالية أن جميع دار التحقق وتمام دائرة الوجود إنما هو صرف الربط والتعلّق ومحض الفقر والفاقة أما العزّة والملك والسلطان فمختصة بذاته المقدس الكبريائي وليس لأحد من حظوظ العزة والكبرياء نصيب.

وذل العبودية والفقر ثابت في ناصيتهم وفي حاقّ حقيقتهم، وإنما حقيقة العرفان والشهود ونتيجة الرياضة والسلوك هي رفع الحجاب عن وجه الحقيقة ورؤية ذل العبودية وأصل الفقر والتدلي في نفسه وفي جميع الموجودات، ولعل في الدعاء المنسوب إلى سيّد الكائنات صلى الله عليه وآله: " اللهم أرني الأشياء كما هي " إشارة إلى هذا المقام بمعنى أنه صلى الله عليه وآله سأل الله سبحانه أن يشهده ذلة العبودية المستلزمة لشهود عزّ الربوبية.

فسالك طريق الحقيقة ومسافر سبيل العبودية إذا قطع هذا المنزل بالسلوك العلمي وركب مركب السير الفكري يقع في حجاب العلم ويصل إلى المقام الأول للإنسانية، ولكن هذا الحجاب من الحجب الغليظة وقد قالوا: العلم هو الحجاب الأكبر ولا بد إلاّ يبقى في هذا الحجاب وأن يخرقه ولعله إذا اقتنع بهذا المقام وسجن قلبه في هذا القيد يقع في الاستدراج، والاستدراج في هذا المقام هو أن يشتغل بالتفريعات الكثيرة العلمية ويجوّل فكره في هذا الميدان، فيقيم لهذا

المقصد براهين كثيرة فيحرم من المنازل الأخر ويتعلق قلبه بهذا المقام ويغفل عن النتيجة المطلوبة وهي الوصول إلى الفناء في الله ويصرف عمره في حجاب البرهان وشعبه وكلما كثرت الفروع يصير الحجاب والاحتجاب عن الحقيقة أكثر.

فللسالك إلاَّ يغتّر بمكايد الشيطان في هذا المقام ولا يحتجب بكثرة العلم وغزارته، ولا بقوة البرهان عن الحق والحقيقة ويتأخر عن السير في الطلب وله أن يشمّر الذيل بهمّته، ولا يغفل عن الجدّ في طلب المطلوب الحقيقي حتى ينال المقام الثاني.

وهو أن كل ما أدركه عقله بقوة البرهان والسلوك العلمي يكتبه بقلم العقل على صحيفة قلبه كي يوصل حقيقة ذل العبودية وعزّ الربوبية إلى القلب ويفرغ من القيود والحجب العلمية، ونحن نشير إلى ذلك المقام عن قريب أن شاء الله، فإذن، فنتيجة المقام الثاني هي حصول الإيمان بالحقائق.

والمقام الثالث هو مقام الاطمئنان والطمأنينة، وهو في الحقيقة المرتبة الكاملة من الإيمان، قال تعالى مخاطبا خليله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ولعلّنا نشير إلى تلك المرتبة أيضاً فيما سيأتي.

المرتبة الرابعة هي مقام المشاهدة، وهو نور الهي وتجلّ رحماني يظهر في سرّ السالك تبعا للتجليات الأسمائية والصفاتية وينوّر جميع قلبه بنور شهوديّ ولهذا المقام درجات كثيرة لا تتسع هذه الأوراق لذكرها.

وفي هذه المقام يبرز نموذج من قرب النوافل المعبّر عنه بـ " كنت سمعه وبصره ".

ويرى السالك نفسه مستغرقا في البحر اللا متناهي ومن ورائه بحر عميق في غاية العمق تنكشف له فيه نبذة من أسرار القدر، ولكل من هذه المقامات استدراج يختص به وللسالك فيه هلاك عظيم. ولا بدّ للسالك في جميع هذه المقامات من تخليص نفسه من الأنانية وأن يتخلص من رؤية نفسه وحبّها، فإنه منبع أكثر المفاسد ولاسيّما للسالك وسنشير إلى ذلك المطلب إن شاء الله.

الفصل الثالث

في بيان الخشوع

إن من الأمور اللازمة للسالك في جميع عباداته ولاسيما في الصلاة التـي هـي رأس العبـادات ولها مقام الجامعية، الخشوع. وحقيقته عبارة عن الخضوع التام الممزوج بالحب أو الخـوف وهـو يحصل من إدراك عظمة الجلال والجمال وسطوتهما وهيبتهما.

وتفصيل هذا الإجمال هو أنّ قلوب أهل السلوك بحسب الجبِلّة والفطرة مختلفة، فـبعض منهـا عشقّي ومن مظاهر الجمال ومتوجه إلى جمال المحبوب بحسب الفطـرة فهـؤلاء إذا أدركـوا فـي سلوكهم ظل الجميل، أو شاهدوا أصل الجمال تمحوهم العظمة المختفية في سرّ الجمال فتصعقهم، لأنّ في كل جمال جلالا مختفيا وفي كل جلال جمالا مستورا.

ولعله إلى ذلك أشار مولى العارفين وأمير المؤمنين والسالكين صـلوات الله عليـه وعلـى آلـه أجمعين حيث قال:

" سبحان من اتسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته، واشتدت نقمته لأعدائه في سـعة رحمتـه" فتغشاهم هيبة الجمال وعظمته ويأخذهم الخشوع في حيال جمال المحبوب.

وهذه الحالة في أوائل الأمر توجب تزلزل القلب واضطرابه، وبعد التمكين تحصل للسالك حالة الأنس وتتبدل حالة الوحشة والاضطراب المتولدة من العظمة والسطوة إلى الأنس والسكينة وتجيئه حالة الطمأنينة، كما أن حالة قلب خليل الرحمن كانت كذلك.

وبعض من القلوب خوفّي ومن مظاهر الجلال، وأرباب تلك القلـوب يـدركون دائمـاً العظمـة والكبرياء والجلال، وخشوعهم يكون من الخوف، ومن تجلي الأسماء القهرية والجلالية لقلـوبهم، كما أن يحيى، على نبيّنا وآله وعليه السلام، كان هكذا. فالخشوع يكـون ممزوجـا تـارة بالحـب وأخرى بالخوف والوحشة، وان كان في حبّ وحشة، وفي كل خوف حـبّ. ومراتـب الخـشوع على حسب مراتب إدراك العظمة والجلال والحسن والجمال، وحيث أن أمثالنا مع ما لنا من هـذه الحالة، من نور المشاهدات محرومون فلا بد أن نكون بصدد تحصيل الخشوع من طريق العلـم أو الإيمان. قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (١ المؤمنون ١ـ٢) فجعل الخشوع فـي الصلاة من حدود الإيمان وعلائمه. فكل من لم يكن خاشعا في الصلاة فهو خارج عن زمرة أهـل

الإيمان طبقا لما قاله الذات المقدسة الحق تعالى شأنه. (١ قال الصادق عليه السلام ″ إذا دخلت في صلاتك فعليك بالتخشّع والإقبال على صلاتك فإن الله تعالى يقول :

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

قال المحقق الكاشاني ((* لقب العالم الفاضل الكامل العارف المحدّث الحكيم المتألّه محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن القاشاني صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة كالوافي والصافي والشافي والمفاتيح والنخبة والحقائق وعلم اليقين وعين اليقين وخلاصة الأذكار وبشارة الشيعة والمحجة البيضاء في إحياء الأحياء إلى غير ذلك مما يقرب من مئة تصنيف)). في المحجة البيضاء ما حاصله: إن الخشوع في الصلاة على قسمين

الأول: الخشوع القلبي وهو أن يكون تمام همّته في الصلاة ومعرضا عما سواها بحيث لا يكون في قلبه سوى المحبوب.

والثاني: الخشوع في الجوارح وهو يحصل بأن يغمض عينيه ولا يلتفت إلى الجوانب ولا يلعب بأعضائه...

وبالجملة لا تصدر منه حركة سوى الحركات الصلاتية، ولا يأتي بشي من المكروهات.. ثم ينقل الروايات المتضمنة للأمور المكروهة في الصلاة.

وأقول: إن حقيقة الخشوع عبارة عن حالة قلبية تحصل للقلب من إدراك الجلال والجمال، وبمقدار ما يدرك القلب منهما تزول عنه الإنّيّة والأنانية فيخضع ويسلّم لصاحب الجلال والجمال.. وبهذه العناية نسب الخشوع إلى الأرض والجبال، فإن الأرض مسلّمة للعوامل الطبيعية وليس لها إرادة في إنبات النبات، بل هي تسليم محض، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (فصلت ٣٩). وهكذا الجبل بالنسبة إلى نزول القرآن فإن أنيّة الجبل تندكّ ولا يمكنه المقاومة، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر ٢١).

وبما أن صلواتنا ليست مشفوعة بالخشوع فإن ذلك ناجم إمّا عن نقص الإيمان، أو فقدانه. وإن الاعتقاد والعلم مغايران للإيمان، فالعلم بالله وأسمائه وصفاته وسائر المعارف الإلهية الذي يوجد فينا، مغاير للإيمان وليس بإيمان.

والدليل على ذلك إن الشيطان كما يشهد له الذات المقدسة الحق عالم بالمبدأ والمعاد ومع ذلك فهو كافر، لأنه يقول :

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فهو إذا يعترف بالحق تعالى وخالقيته، ويقول أيضاً:

﴿أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فيعتقد بالمعاد وهو كذلك عالم بالكتب والرسل والملائكة، ومع ذلك كله خاطبه الله سبحانه بلفظ الكافر، وأخرجه من زمرة المؤمنين.

فإذا يمتاز أهل العلم من أهل الإيمان، وليس كل من هو من أهل العلم أهل للإيمان، فيلزم للسالك أن يدخل نفسه في سلك المؤمنين بعد سلوكه العلمي، ويوصل إلى قلبه عظمة الحق وجلاله وبهاءه، وجماله جلّت عظمته كي يخشع قلبه، وإلا فمجرد العلم لا يوجب خشوعا كما ترونه في أنفسكم فإنكم مع كونكم معتقدين بالمبدأ والمعاد، ومع اعتقادكم بعظمة الله وجلاله ليست قلوبكم خاشعة. وأما قوله تعالى :

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (سورة الحديد /١٦) فلعلّ المراد منه هو الإيمان الصوري أي الإيمان بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله، وإلا فالإيمان الحقيقي يلازم مرتبة من الخشوع لا محالة أو أن المراد من الخشوع في هذه الآية، هو الخشوع بمراتبه الكاملة، كما أن العالم ربما يطلق على من وصل من حد العلم إلى حد الإيمان، ويحتمل أن تكون الآية الشريفة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ﴾ إشارة إلى هؤلاء.

وقد أطلق العلم والإيمان والإسلام في الكتاب والسنة على المراتب المختلفة منها وبيانها خارج عن وظيفة هذه الأوراق، وبالجملة على السالك لطريق الآخرة وخصوصا على السالك بالخطوة المعراجية الصلاتية أن يحصّل الخشوع بنور العلم والإيمان وان يمكّن هذه الرقيقة الإلهية، والبارقة الرحمانية في قلبه بمقدار ما يمكنه، فلعله يستطيع أن يحتفظ بهذه الحالة في جميع الصلاة من أولها إلى آخرها.

وحالة التمكّن والاستقرار وان كانت لا تخلو في أول الأمر من صعوبة وأشكال لأمثالنا، ولكنها مع الممارسة والارتياض القلبي أمر ممكن جدًا.

عزيزي، أن تحصيل الكمال وزاد الآخرة يستدعي طلبا وجدا، وكلما كان المطلوب أعظم فهو أحرى بالجدّ.

ومن الواضح أن معراج القرب إلى حضرة الألوهية، ومقام جوار رب العزة، لا يتيسر مع هذه الرخوة والفتور والتسامح، فيلزمك القيام الرجولي حتى تصل إلى المطلوب، وطالما أنك تؤمن بالآخرة وتعلم بأن النشأة الآخرة لا يمكن أن تقاس بهذه النشأة من حيث السعادة والكمال ولا في جانب الشقاوة والوبال، لأن تلك النشأة عالم أبدي دائم لا موت فيه ولا فناء له سعيدة في راحة وعزة ونعمة أبدية وهي راحة لا يوجد لها شبيه في هذا العالم، وعزة وسلطنة ألاهيان ليس لهما نظير في هذه النشأة، و نِعَمُ ما خطرت على مخيِّلة أحد وكذلك الأمر في جانب الشقاوة فإن عذابها ونقمتها ووبالها ليس لها في هذا العالم مثيل ولا نظير، وتعلم أن طريق الوصول إلى السعادة إنما

هو إطاعة رب العزة، وليس في العبادات ما يضاهي هذه الصلاة فإنها معجون جامع إلهـي يتكفـل بسعادة البشر (وان قبلت قبلت جميع الأعمال) فلا بدّ لك من الجدّ التام في طلبها ولا تتضايق في السعي إليها ومن تحمل المشاق في سبيلها مع أنه ليس فيها مشقة بل انك إذا واظبت عليهـا مـدة يسيرة، وحصل لقلبك الأنس بها لتجدنَّ في هذا العالم من المناجاة مع الحق تعالى شأنه لَـذّات لا يقاس بها لذّة من لذّات هذا العالم كما يظهر ذلك من السير فـي أحـوال أهـل المناجـاة مـع الله سبحانه.

وبالجملة فخلاصة ما ذكرنا في هذا الفصل، أنه إذا علم الإنسان بالبرهان أو ببيان الأنبياء عليهم السلام عظمة الله وجماله وجلاله، فلا بدّ إن يذكِّر القلب بها حتى يدخل الخشوع شيئا فـشيئا فـي القلب بواسطة التذكُّر والتوجه القلبي والمداومة على ذكر عظمة الله وجلاله حتى تحـصل النتيجـة المطلوبة. ولا بد للسالك إلاَّ يقنع في حال من الحالات بالمقام الذي هو فيه، فإنه مهمـا حـصلت المقامات لأمثالنا فلا تساوي اصغر نقد في سوق أهل المعرفة، ولا تقابل في سوم أصحاب القلوب حبة خردل.

فليتذكر السالك في جميع حالاته نقائصه ومعايبه، فعلّه ينفتح له طريق إلى الـسعادة مـن هـذه السبيل والحمد لله.

الفصل الرابع

في بيان الطمأنينة

من الآداب القلبية المهمة للعبادات ـ وخصوصا العبادات الذكرية ـ الطمأنينة. وهذه غير الطمأنينة التي اعتبرها الفقهاء رضوان الله عليهم في خصوص الصلاة، فهذه عبارة عن أن السالك يأتي بالعبادة مع سكون القلب، واطمئنان الخاطر، لأن العبادة إذا أتي بها في حال اضطراب القلب وتزلزله فالقلب لا ينفعل بمثل هذه العبادة ولا يحصل أثر من العبادة في ملكوت القلب ولا تصير حقيقة العبادة صورة باطنية للقلب، والحال إن من إحدى جهات تكرار العبادات وتكثير الأذكار والأوراد أن يتأثر القلب منها وينفعل حتى يتشكل باطن السالك شيئا فشيئا من حقيقة الذكر والعبادة، ويتحد قلبه بروح العبادة، وطالما لم يكن للقلب اطمئنان وسكون وطمأنينة ووقار لم يكن للأذكار والنسك فيه تأثير ولا يسري أثر العبادة في ظاهر البدن وملكه إلى ملكوته وباطنه ولا يؤدي إلى القلب حظوة من العبادة. وهذا من الأمور الواضحة التي لا تحتاج إلى بيان، ويعلم بأدنى تأمّل، وإذا كانت العبادة بهذه الكيفية بحيث لا يشعر القلب بها أصلا ولا يظهر منها أثر في الباطن لا يتحفظ عليها في سائر العوالم ولا تصعد من نشأة الملك إلى نشأة الملكوت، ومن الممكن أن تمحى صورتها بالكلية عن صفحة القلب (ونعوذ بالله) عند شدائد مرض الموت وسكراته المهيبة والأهوال والمصائب التي تكون بعد الموت فيقدم الإنسان على الله وهو صفر اليدين.

ونذكر لذلك مثلا، وهو أن الذكر الشريف: ″ لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله ″ إذا قاله أحد من قلبه وباطمئنان من لبّه وراح يعلّم القلب هذا الذكر الشريف، فيتعلم القلب الذكر ويتكلم به شيئا فشيئا حتى يتبع لسان القلب اللسان الظاهر فيكون القلب ذاكراً أولا ثم يتبعه اللسان الظاهر، ويكون ذاكرا وإلى هذا المعنى أشار الإمام الصادق عليه السلام، على ما في رواية مصباح الشريعة قال:

″ فاجعل قلبك قبلة للسانك لا تحركه إلاَّ بإشارة القلب وموافقة العقل ورضى الإيمان ″.

ففي أول الأمر ما لم ينطق لسان القلب فلسالك طريق الآخرة إن يعلّمه النطق ويلقي عليه الذكر. مع طمأنينة وسكون، فإذا انفتح لسان القلب بالنطق يكون القلب قبلة للّسان ولسائر الأعضاء. فإذا شرع القلب في ذكر تكون مدينة وجود الإنسان بأسرها ذاكرة، وأما إذا قال هذا الذكر الشريف بلا سكون في القلب ولا طمأنينة منه ومع العجلة والاضطراب واختلال الحواس فلا يكون منه أيّ تأثير في القلب ولا يتجاوز عن حدّ اللسان والسمع الحيواني الظاهري، إلى الباطن والسمع الإنساني ولا تتحقق حقيقته في الباطن ولا يصير صورة كمالية للقلب غير ممكنة الزوال فإن إصابته

الأهوال والشدائد وبالخصوص أهوال الموت وسكراته وشدائد نزع الروح الإنساني فينسى الـذكر بالمرّة وينمحي الذكر الشريف عن صحيفة قلبه بل اسم الله سبحانه وتعالى واسم الرسـول الخـاتم والدين الشريف الإسلام، والكتاب المقدس الإلهي والأئمة الهداة وسائر المعارف التي مـا أنهاهـا إلى القلب فينساها كلها وعند السؤال في القبر لا يحير جوابا، والتلقين أيضاً لا يفيد حالـه لأنـه لا يجد في نفسه من حقيقة الربوبية والرسالة وسائر المعارف أثراً. وما قاله بقلقلة لسانه وما حـصلت له صورة في القلب قد انمحى من خاطره ولم يكن له نصيب من الشهادة بالربوبية والرسالة وسائر المعارف.

وفي الحديث أن طائفة من أمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسـلم، إذا أوردوهـم فـي النار ونظروا إلى مالك: خازن جهنم نسوا اسم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من هيبته مع أنهم من أهل الإيمان كما هو في نفس ذلك الحديث.

قال المحدّث العظيم الشأن المجلسي (إذا أطلق، فهو شيخ الإسلام والمسلمين مروّج المـذهب والدين الإمام العلامة المحقق المدقق محمد باقر بن محمد تقي بن المقصود علي المجلسي قدس الله أرواحهم. قال صاحب المستدرك المحدّث العلامة النوري قدس سرّه لم يوفق أحد في الإسلام مثل ما وفّق هذا الشيخ المعظم والبحر الخضم والطود الأشم من ترويج المـذهب وإعـلاء كلمـة الحق وكسر صولة المبتدعين وقمع زخارف الملحدين وإحياء دارس سنن الدين المبين ونشر آثار أئمة المسلمين بطرق عديدة وأنحاء مختلفة أجلّها وأبقاها التصانيف الرائقة الأنيقـة الكثيـرة التـي شاعت في الأنام وينتفع بها في آناء الليل والأيام العالم والجاهـل والخـواص والعـوام والعجمـي والعربي مع ما خرج من مجلسه جماعة كثيرة من الفضلاء وصرّح تلميذه الأجل الميـرزا عبـد الله الاصبهاني في (ض) أنهم بلغوا إلى ألف نفس. (انتهى). ومن أجلِّ تأليفاته وأعظمها موسوعة بحار الأنوار وكل مؤلفاته الشريفة على ما وقع عليها التخمين تبلغ ألف ألف بيـت وأربعـة آلاف بيـت وكسرا. توفي سنة ١١١٠ (غقي) في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان وعمـره إذ ذاك ثـلاث وسبعون فانه ولد في سنة ١٠٣٧ وهو يوافق عدد (جامع كتاب بحار الأنوار) ومرقده الشريف الآن ملجأ الخلائق بأصبهان في الباب القبلي من جامعهـا العتيـق الأعظـم ومـن المجرّبـات اسـتجابة الدعوات عند مضجعة المنيف قدّس الله نفسه الزكيّة.)

رحمه الله في مرآة العقول في شرح الحديث الشريف: (كنت سمعه وبصره) ما حاصله أن مـن لم يصرف بصره وسمعه وسائر أعضائه في سبيل إطاعة الحق تعالى لـم يكـن لـه بـصر وسـمع روحاني وهذا البصر والسمع الملكي الجسماني لا ينتقل إلى ذاك العالم ويكون الإنسان في عـالم

القبر والقيامة بلا سمع وبلا بصر، والميزان في السؤال والجواب في القبر تلك الأعضاء الروحانية (انتهى ملخصا).

والأحاديث الشريفة في هذا النحو من الطمأنينة وآثارها، كثيرة، ومن هذه الجهة أمر بترتيل القرآن الشريف، وفي الحديث: عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سمعته يقول: " من نسي سورة من القرآن مُثّلَت له في صورة حسنة ودرجة رفيعة، فإذا رآها قال من أنت ما أحسنك ليتك لي، فتقول: أما تعرفني، أنا سورة كذا وكذا لو لم تنسني لرفعتك إلى هذا المكان ".

وفي الحديث قال: " من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بدمه ولحمه ".

والسّر في ذلك أنّ اشتغال القلب وتكدره في أيام الشباب أقل. لذا يتأثر القلب من القرآن أكثر أسرع ويكون أثره أيضاً أبقى. وفي هذا الباب أحاديث كثيرة نذكر منها في باب القراءة إنشاء الله. وفي الحديث الشريف: " ما من شيء أحبّ إلى الله عزّ وجل من عمل يداوم عليه وإن قلّ " ولعل السر العمدة فيه أنه مع المداومة يكون العمل صورة باطنية للقلب كما ذكرنا.

الفصل الخامس

في بيان الحفاظ على العبادة من تصرف الشيطان

من الآداب المهمة القلبية للصلاة وغيرها من العبادات الحفاظ عليها من التصرفات الشيطانية، وهو في الوقت نفسه من أمهات الآداب القلبية والقيام به من عظائم الأمور ومشكلات الدقائق، ولعل الآية الشريفة في وصف المؤمنين الذين هم على صلواتهم يحافظون إشارة إلى جميع مراتب الحفظ التي تكون أحداها بل أهمها الحفاظ عليها من تصرفات الشيطان.

وتفصيل هذا الإجمال إن من الواضح عند أصحاب المعرفة وأرباب القلوب أنه كما أن للأبدان غذاء جسمانيا تتغذى به، ولا بد أن يكون الغذاء مناسبا لحالها وموافقا لشأنها حتى تتيسر لها التربية الجسمانية والنمو النباتي، كذلك فإن للقلوب والأرواح غذاء لا بد أن يكون مناسبا لحال كل منها وموافقا لنشأتها كي تتربى به وتتغذى منه وتنمو نموا معنويا وتترقى ترقيا باطنيا. والغذاء المناسب لنشأة الأرواح هو المعارف الإلهية اعتبارا من مبدأ المبادئ للوجود إلى منتهى النهاية للنظام الوجودي كما قال أعاظم أرباب الصناعة الفلسفية في تعريف الفلسفة " هي صيرورة الإنسان عالما عقليا مضاهيا للعالم العيني في صورته وكماله ". وهذا القول إشارة إلى هذا التغذي من المعارف الإلهية في حين أن تغذي القلوب يستمد من الفضائل والمناسك الإلهية.

وليعلم أن كلا من هذه الأغذية إذا خلص من تصرف الشيطان وأوعدّ على يد الولاية للرسول الخاتم وولي الله الأعظم صلوات الله عليهما وآلهما يتغذى الروح والقلب منه وينالا الكمال اللائق بالإنسانية، ويعرجان معراج القلوب إلى الله، ولا يحصل الخلاص من تصرف الشيطان الذي هو مقدمة للإخلاص بحقيقته إلاَّ أن يكون السالك في سلوكه طالباً لله. ويضع حب النفس وعبادتها الذي هو المنشأ للمفاسد كلها وأمُّ الأمراض الباطنية تحت قدميه، وهذا لا يتيسر بتمام معناه في غير الإنسان الكامل وبتبعية في خُلَّص أوليائه، وأما سائر الناس فغير ميسّر لهم هذا الخلاص، ولكن على السالك إلاَّ ييأس من الألطاف الباطنية لله سبحانه فإن اليأس من روح الله رأس كل برودة وفتور ومن أعظم الكبائر. والذي يمكن من الإخلاص لصنف الرعايا هو أيضاً قرّة العين لأهل المعرفة، فعلى سالك طريق الآخرة لزوما حتما أن يخلص معارفه ومناسكه من تصرف الشيطان والنفس الأمارة مهما بلغ من الجهد وأن يغوص في حركاته الباطنية، وتغذياته الروحية، ولا يغفل عن حيل النفس والشيطان وحبائل النفس الأمارة وإبليس وان يسوء ظنه سوء الظن الكامل في جميع حركاته وأفعاله، ولا يخلي نفسه على رسلها آنا ما، فربما تتغلب على الإنسان وتصرعه إذا

تسامح معها وتوسقه إلى الهلاك والفناء، لأن الأغذية الروحانية إذا لم تكن خالصة من تصرف الشيطان وتدخلت يده في أعدادها فمضافا إلى أنه لا تتربى بها الأرواح والقلوب ولا تصل إلى الكمال اللائق بها، يحصل لها النقصان الفاحش أيضاً، ولعلها تجعل صاحبها منسلكا في سلك الشياطين والبهائم والسباع. وما هو السبب للسعادة ورأس المال لكمال الإنسانية والوصول إلى المدارج العالية ليعطي النتيجة المعكوسة ويسوق الإنسان إلى الهاوية المظلمة للشقاوة كما رأينا في بعض أهل العرفان الاصطلاحي أشخاصا انتهت بهم هذه الاصطلاحات والغور فيها إلى الضلالة وجعلت قلوبهم منكوسة وبواطنهم مظلمة وصارت الممارسة في المعارف موجبة لقوة أنانيتهم وإنيتهم وصدرت منهم الدعاوى غير اللائقة والشطحات غير المناسبة. وكذلك رأينا في أرباب الرياضات والسلوك أفرادا أوجبت رياضتهم واشتغالهم بتصفية النفس جعل قلوبهم أكدر وباطنهم أظلم وما جاءهم ذلك كله إلاَّ من قبل أنهم لم يتحفظوا على سلوكهم المعنوي الإلهي ومهاجرتهم إلى الله وكان سلوكهم العلمي وارتياضهم بتصرف الشيطان والنفس وإلى الشيطان والنفس.

و كذلك رأينا في طلاب العلوم النقلية الشرعية أفراد أثّر فيهم العلم الأثر السيئ وزاد في المفاسد الأخلاقية لهم، والعلم الذي لابد أن يكون موجبا للفلاح والنجاة لهم صار سببا لهلاكهم ودعاهم إلى الجهل والمماراة والاستطالة.

وكذلك في أهل العبادة والمناسك، والمواظبين على الآداب والسنن ربما يكون أشخاص جعلت العبادة والنسك التي هي رأس مال إصلاح الأحوال والنفوس قلوبهم كدرة و مظلمة وحملتهم على العجب ورؤية النفس والكبر والتغمزّ وسوء الظن في عباد الله، وهذا كله أيضاً من عدم المواظبة على هذه المعاجين الإلهية، ومن المعلوم أن معجونا هُيئ وأعدّ بيد العفريت الخبيث وبتصرف النفس الطاغية لا يتولد منه إلاَّ الخلق الشيطاني، وحيث أن القلب يتغذى من تلك الأغذية على أي حال وتصير الأغذية صورة باطنية للنفس، فبعد أن يداوم عليها مدة يصير الإنسان وليدا من مواليد الشيطان قد تربى بيد تربيته، ونشأ ونما تحت تصرفه، فإذا أغمضت عينه الملكية وانفتحت عينه الملكوتية يرى نفسه واحدا من الشياطين، فلا نتيجة في تلك الحال سوى الخسران ولا تغني عنه الحسرات والندامات شيئا.

فسالك طريق الآخرة في كل مسلك من المسالك الدينية، وفي كل طريق من الطرق الإلهية

عليه: أولاً ـ أن يواظب بكمال المواظبة والدقة على حالة كطبيب رفيق ورقيب شفيق، ويفتش بالدقة عن عيوب سيره وسلوكه.

ثانياً ـ إلاَّ يغفل في خلال هذه المراقبة والتفتيش عن التعوذ بالذات المقدسة الحق جلّ وعلا في خلواته والتضرع والاستكانة إلى جنابه الأقدس ذي الجلال.

اللهم انك تعلم ضعفنا ومسكنتنا، وتعلم أنا لا نستطيع الهرب من هذا العدو القوي القدير الـذي قد طمع في السلطة على الأنبياء العظام والكمّل من الأولياء الرفيعي المقام، فإن فقدنا بارقة لطفك ورحمتك أوقعنا هذا العدو القوي في مصارعتنا إيّاه إلى أرض الهلاك والدمار وكنّـا تـائهين فـي الظلمة والشقاوة، فأسألك بالخاصة في جنابـك والمحـارم فـي حـضرتك أن تأخـذ بيـدنا نحـن المتحيرين في وادي الضلالة، والحائرين في صحراء الغواية وان تطهّر قلوبنـا مـن الغـلّ والغـش والشرك والشك، انك وليّ الهداية.

الفصل السادس

في بيان النشاط والبهجة في العبادة

ومن الآداب القلبية للصلاة وسائر العبادات وله نتائج حسنة بل هو موجب لفتح بعض الأبواب وكشف بعض أسرار العبادات، أن يجتهد السالك في أن تكون عبادته عن نشاط وبهجة في قلبه وفرح وانبساط في خاطره ويحترز احترازا شديداً أن يأتي بالعبادة مع الكسل وأدبار النفس، فلا يكون لها تعب وفتور لأنه إذا حمل على النفس العبادة في حين الكسل والتعب، يمكن أن تترتب عليه الآثار السيئة ومنها :

أن يتضجر الإنسان من العبادة ويزيد تكلفة وتعسفه، ويوجب ذلك وبالتدريج تنفر طباع النفوس منها، وهذا مضافاً إلى أنه من الممكن أن يصرف الإنسان بالكلية عن ذكر الحق، ويؤذي الروح بالنسبة إلى مقام العبودية التي هي منشأ لجميع السعادات ينتج عنه إلاَّ يحصل للعبادة بهذه الصفة نور في القلب، ولا ينفعل باطن النفس منها ولا تصير صورة العبودية صورة باطنية للقلب، وقد ذكرنا من قبل أن المطلوب في العبادات هو صيرورة باطن النفس صورة عبودية.

والآن نقول: إن من أسرار العبادات والرياضيات ونتائجهما أن تكون إرادة النفس في ملك البدن نافذة وتكون دولة النفس منقهرة ومضمحلة في كبريائها وتتملك الإرادة القوى المنبثّة والجنود المنتشرة في ملك البدن وتمنعها عن العصيان والتمرد والأنانية والاستقلال وتكون القوى مسلمة لملكوت القلب وباطنه، بل تصير القوى بالتدريج فانية في الملكوت. ويجرى أمر الملكوت في الملك وينفذ فيه وتقوى إرادة النفس وتخلع اليد عن الشيطان والنفس الأمارة في المملكة وتساق جنود النفس من الإيمان إلى التسليم ومن التسليم إلى الرضا ومن الرضا إلى الفناء. وفي هذه الحالة تجد النفس رائحة من أسرار العبادة، ويحصل لها شيء من التجليات الفعلية وما ذكرنا لا يتحقق إلاَّ بأن تكون العبادة عن نشاط وبهجة ويحترز فيها من التكلف والتعسف والكسل احترازا تامّا كي تحصل للعابد حالة المحبة والعشق لذكر الحق ولمقام العبودية ويحصل له الأنس والتمكن

وان الأنس بالحق وبذكره من أعظم المهمات ولأهل المعرفة بها عناية شديدة وفيها المتنافسون من أصحاب السير والسلوك، وكما أن الأطباء يعتقدون بأن الطعام إذا أكل بالسرور والبهجة يكون أسرع في الهضم، كذلك يقتضي الطب الروحاني بأن الإنسان إذا تغذى بالأغذية الروحانية بالبهجة

والاشتياق محترزا من الكسل والتكلف يكون ظهور آثارها في القلب وتصفية باطن القلب بها أسرع.

وقد أشير إلى الأدب في الكتاب الكريم الإلهي والصحيفة القويمة الربوبية حيث يقول في مقام تكذيب الكفار والمنافقين: ﴿وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة ٥٤).

وقد فسرت آية ﴿لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ (النساء ٤٣)

في حديث بأن المراد من سكارى كسالى، وأشير في الروايات إلى هذا الأدب ونحن نذكر بعضا منها كي تفخر هذه الأوراق به.

محمد بن يعقوب (هو الشيخ الأجل قدوة الأنام وملاذ المحدثين العظام ومروّج المذهب في غيبة الإمام عليه السلام أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي الملقب ثقة الإسلام ألّف الكافي الذي هو من أجلّ الكتب الإسلامية وأعظم المصنفات الإمامة والذي لم يعمل للإمامة مثله. ألّفه في العشرين سنة ومات قدس الله سره ببغداد سنة ٣٢٩ (شكط) وصلّى عليه محمد بن جعفر الحسني أبو قيراط ودفن بباب الكوفة.)

بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: " لا تكرهوا إلى أنفسكم العبادة ".

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " يا عليّ انّ هذا الدين متين فأوغل برفق ولا تبغّض إلى نفسك عبادة ربّك ".

وفي الحديث عن العسكري (١ هو الإمام الحادي عشر وسبط سيد البشر ووالد الخلف المنتظر السيد الرضيّ الزكي أبو محمد الحسن علي العسكري صلوات الله عليه وعلى آبائه الكرام وخلفه خاتم الأئمة الأعلام. ولد عليه السلام بالمدينة الطيبة يوم العاشر أو الثامن من شهر ربيع الآخر وقيل في رابعة سنة اثنتين وثلاثين ومئتين، أمّه عليه السلام حُدَيق (مصغّرا) أو سليل ويقال لها الجدّة وكانت من العارفات الصالحات قال القطب الراوندي وأمّا الحسن بن علي العسكري عليه السلام فقد كانت أخلاقه كأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وكان رجلا أسمر حسن القامة جميل الوجه جيّد البدن حدث السّن له جلالة وهيبة وهيئة حسنة يُعظِّمه العامة والخاصة اضطرارا ويعظّمونه لفضله ويقدّمونه لعفافه وصيانة وزهده وعبادته وصلاحه وإصلاحه وكان جليلا نبيلا فاضلا كريما يحمل الأثقال ولا يتضعضع للنوائب أخلاقه خارقة العادة على طريقة واحدة. (انتهى).

ومناقبه أكثر من أن تحصى وقبض عليه السلام بِسُرّ من رأى يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الأول سنة ستين ومئتين (رس) في خلافة المعتمد وهو ابن ثمان وعشرين سنة ودفن في داره في البيت الذي دفن فيه أبوه عليه السلام بِسُرّ من رأى.)

عليه السلام: إذا نشطت القلوب فأودعوها وإذا نفرت فودّعوها.

وهذا دستور جامع منه عليه السلام بأن أودعوا في القلوب في وقت نشاطها وأما في وقت نفارها فخلّوها تستريح، فلا بد في كسب المعارف والعلوم أيضاً من رعاية هذا الأدب وألا يحمل على القلوب اكتسابها مع الكراهة والنفور. (ومن الروايات التي تشير إلى هذا الأدب ما رواه الصدوق عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم على يسر ".

وقال الباقر ((* ـ الإمام الخامس أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب باقر علم النبيين، ولد بالمدينة يوم الاثنين ثالث صفر سنة سبع وخمسين من الهجرة وقيل غرّة رجب، أمّه أم عبد الله فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب وهو هاشمي من هاشميين وعلوي من علويّين، سُمي أبو جعفر عليه السلام باقرا لأنه بَقَرَ العلم بقْراً أي شقّه شقا وأظهره إظهارا وقال السبط ابن جوزي سمي الباقر من كثرة سجوده بَقَرَ السجود جبهته أي فتحها ووسعها. وقال لغزارة علمه، وقال الشيخ المفيد ولم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدين والآثار والسنة وعلم القرآن والسيرة وفنون الأدب ما ظهر عن أبي جعفر عليه السلام وقال ابن حجر في صواعقه في حقه عليه السلام: هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه صفا قلبه وذكا علمه وعمله وطهرت نفسه وشرف خلقه وعمرت أوقاته بطاعة الله وله من الرسوخ في مقامات العارفين ما تكلّ عنه السنة الواصفين وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف لا تحملها هذه العجالة. (انتهى كلام ابن حجر). توفي أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام بالمدينة يوم الاثنين سابع ذي الحجة سنة أربع عشرة ومئة (قيد) وله سبع وخمسون سنة ودفن في البقيع.))

عليه السلام: " إلاّ إنّ لكلّ عبادة شرة ثم تصير إلى فترة، فمن صارت شرة عبادته إلى سُنَّتي فقد اهتدى ومن خالف سنّتي فقد ضلّ وكان عمله في النار، أما إني أصلّي وأصوم وأفطر وأضحك وأبكي فمن رغب عن منهاجي وسُنَّتي فليس مني ".)

ويستفاد من هذه الأحاديث وأحاديث أُخَر أدب آخر وهو أيضاً من المهمات في باب الرياضة وهو أدب الرعاية.

وكيفيته أن يراعي السالك في أي مرتبة هو فيها في الأعم من الرياضات والمجاهدات العلمية أو النفسانية أو العمليّة حاله ويتعامل مع نفسه بالرفق والمداراة ولا يحمّلها أزيد من طاقته وحاله، ورعاية هذا الأدب بالنسبة إلى الشباب وحديثي العهد من المهمات فإنه إذا لم يعامل الشباب أنفسهم بالرفق والمداراة ولم يؤدّوا الحظوظ الطبيعية إلى أنفسهم بمقدار حاجتها من الطرق المحللة يوشك أن يوقعوا في خطر عظيم لا يتيسر لهم جبره، وهو أن النفس ربما تصير بسبب الضغط عليها وكفها عن مشتهياتها بأكثر من العادة مطلقة للعنان في شهواتها ويخرج زمام الاختيار من يد صاحبها، واقتضاءات الطبيعة إذا تراكمت ونار الشهوة الحارّة إذا وقعت تحت ضغط الرياضة خارجة عن الحد لاشتعلت لا محالة وأحرقت جميع المملكة، وإذا صار سالك مطلق العنان أو زاهد بلا اختيار فإنه يقع في مهلكة لا يرى وجه النجاة أبداً ولا يعود إلى طريق السعادة والفلاح وقتا ما، فعلى السالك أن يتملك نفسه في أيام سلوكه كطبيب حاذق ويعاملها على حسب اقتضاءات الأحوال وأيام السلوك ولا يمنع نفسه الطبيعة في أيام اشتعال نار الشهوة وغرور الشباب من حظوظها بالكلية. وعليه أن يخمد نار الشهوة بالطرق المشروعة فإن في إطفاء الشهوة بطريق الأمر الإلهي إعانة كاملة على سلوك طريق الحق فلينكح وليتزوج فإنه من السنن الكبيرة الإلهية ومضافا إلى أنه مبدأ البقاء للنوع الإنساني فإنه له دوراً واسعا أيضاً في سلوك طريق الآخرة. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله " من تزوّج فقد أحرز نصف دينه " وفي حديث آخر: " من أحب أن يلقى الله مطهَّراً فليلقه بزوجة ".

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال " وأكثر أهل النار العزّاب ".

وعن عليّ عليه السلام قال " إن جماعة من الصحابة كانوا حرّموا على أنفسهم النساء والإفطار بالنهار والنوم بالليل فأخبرت أم سلمه رسول الله فخرج إلى أصحابه فقال :

(أترغبون عن النساء ؟ إني آتي النساء، وآكل بالنهار، وأنام بالليل، فمن رغب عن سنّتي فليس مني. وأنزل الله ﴿لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (سورة المائدة / ٨٧، ٨٨).

وبالجملة يلزم لسالك طريق الآخرة رعاية أحوال إدبار النفس وإقبالها، فكما أنه لا يجوز له الكف عن الحظوظ مطلقا فإنه منشأ لمفاسد عظيمة لا ينبغي له أن يزعج نفسه في العبادات والرياضات العملية وألا يجعلها تحت الضغط خصوصاً في أيام الشباب وابتداء السلوك فإنه أيضاً يكون منشأ لانزعاج النفس ونفورها وربما ينصرف الإنسان به عن ذكر الحق. والإشارة إلى هذا المعنى في أحاديث كثيرة، ففي الكافي الشريف:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: " اجتهدت في العبادة وأنا شابّ فقال لي أبي يا بنيّ دون ما أراك تصنع فإن الله عزّ وجلّ إذا أحبّ عبدا رضي منه باليسير ".

وعن أبي جعفر قال: قال رسول الله " إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله فتكونوا كالراكب المنبتّ الذي لا سفرا قطع ولا ظهرا أبقى ".

وفي حديث آخر " ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله ".

وبالجملة الميزان في باب المراعاة أن يكون الإنسان ملتفتا إلى أحوال النفس ويسلك معها بنسبة قوتها وضعفها فإذا كانت النفس قوية في العبادات والرياضات وتقدر على المقاومة، فليجدّ ويسعى في العبادة. وأما الذين طووا أيام عنفوان الشباب، وانطفأت نائرة الشهوات شيئا ما لديهم فالمناسب لهم أن يجدّوا في الرياضات النفسانية أكثر ويدخلوا في السلوك والرياضة بخطوة رجولية فكلما عوّدوا النفس على الرياضات فتح لهم باب آخر إلى أن تغلب النفس القوى الطبيعية وتصير القوى الطبيعية مسخّرة تحت كبرياء النفس.

وما ورد فيها من المدح للذين يجتهدون في العبادة والرياضة، وما ورد في عبادات أئمة الهدى عليهم السلام، من جهة وما ورد من هذه الأحاديث الشريفة المادحة للاقتصاد في العبادة من جهة أخرى مبنيّ على اختلاف أهل السلوك ودرجات النفوس وأحوالها، والميزان الكلّي هو نشاط النفس وقوّتها أو نفور النفس وضعفها.

الفصل السابع

في بيان التفهيم

ومن الآداب القلبية في العبادات ـ وخصوصا العبادات الذكرية ـ التفهيم، وكيفيته :

إن الإنسان يعدّ قلبه في أول الأمر كطفل ما انفتح لسانه وهو يريد أن يعلّمه كلاً من الأذكار والأوراد والحقائق وأسرار العبادات بكمال الدقة والسعي و يفهّم القلب الحقيقة التي أدركها في أيّ مرتبة هو فيها فإذا لم يكن من أهل فهم معاني القرآن والأذكار وليس له نصيب من أسرار العبادات فيفهّم القلب المعنى الإجمالي وهو أن القرآن كلام إلهي والأذكار مذكرات بالحق تعالى والعبادات والطاعة إطاعة لأمر الربّ ويفهم القلب هذه المعاني الإجمالية. وإن كان أهلا لفهم المعاني الصورية للقرآن والأذكار فيفهّم القلب المعاني الصورية من الوعد والوعيد والأمر والنهي ومن علم المبدأ والمعاد بالمقدار الذي أدركه.

وان كشفت له حقيقة من حقائق المعارف أو كشف له سرّ من أسرار العبادات فيعلّم القلب ذاك المكشوف بجدّ واجتهاد (الظاهر أن مراد الإمام دام ظله من الكشف، هو الكشف العلمي، وإلا، فالكشف الحقيقي لا يكون إلاّ للقلب، ولا يبقى بعده مجال للتفهيم. فتدبر.)، ونتيجة هذا التفهيم هو أنه بعد المواظبة بمدة ينفتح لسان القلب ويكون القلب ذاكراً ومتذكرا. ففي أول الأمر كان القلب متعلما واللسان كان معلّما والقلب كان ذاكرا بذكر اللسان وتابعا له في الذكر، وأما بعدما انفتح لسان القلب فيكون الأمر معكوسا فيكون القلب ذاكرا أوّلا ويتبعه اللسان في الذكر والحركة.

بل ربما يتفق أن الإنسان في حالة النوم يكون لسانه ذاكرا تبعا للذكر القلبي لأنّ الذكر القلبي لا يختصّ بحال اليقظة فإذا كان القلب متذكرا يكون اللسان التابع له أيضاً ذاكرا ويسري الذكر من ملكوت القلب إلى الظاهر ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء ٨٤).

وبالجملة ففي أول الأمر لابد أن يلاحظ الإنسان هذا الأدب: أي التفهيم حتى ينفتح لسان القلب الذي هو المطلوب الحقيقي وعلامة انفتاح لسان القلب أن يرتفع تعب الذكر ومشقته ويحصل النشاط والفرح ويرتفع الملل والألم كشأن الإنسان إذا أراد أن يعلّم الطفل الذي لم يشرع في التكلّم، فما دام الطفل لم يتعلم التكلّم فإن المعلم يكون في تعب وملالة فإذا انفتح لسان الطفل وأدّى الكلمة التي علّمها له ارتفعت ملالة المعلم. ويؤدي المعلم الكلمة تبعا لأداء الطفل من دون ألم وتعب.

فالقلب أيضاً في أول الأمر طفل ما انفتح لسانه بالكلام ولابدّ له من التعليم وأن تلقّن له الأذكار والأوراد فإذا انفتح لسان القلب يكون تابعا له وترتفع مشقة الذكر وتعب التعليم وملالة الذكر، وهذا الأدب بالنسبة إلى المبتدئين ضروري.

وليعلم أن من أسرار تكرار الأذكار والأدعية ودوام الذكر والعبادة انفتاح لسان القلب فيكون ذاكراً وداعياً وعابداً وما دام لم يلاحظ الأدب المذكور لا ينفتح لسان القلب، وقد أشير إلى هذا المعنى في الأحاديث الشريفة كما في الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام أن عليّاً عليه السلام قال في ضمن بيان بعض آداب القراءة: " ولكن اقرعوا به قلوبكم القاسية ولا يكن همّ أحدكم لآخر السورة ". وفيه أيضاً أن أبا عبد الله الصادق عليه السلام قال لأبي أسامة: " يا أبا أسامة أوعوا قلوبكم ذكر الله واحذروا النكت ".

وقد كان أولياء الله يلاحظون هذا الأدب حتى الكمّل منهم كما في الحديث أن مولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كان في صلاته فغشي عليه فلمّا أفاق سئل عن سببه فقال: مازلت أردد هذه الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته. (والرواية على ما ذكرها العارف الفقيه جمال العارفين السيد بن طاووس ((*ـ ابن طاووس يطلق غالباً على رضي الدين أبي القاسم على بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني الحسيني السيد الأجل الأورع الأزهد قدوة العرفين الذي ما اتفقت كلمة الأصحاب على اختلاف مشاربهم وطريقتهم على صدور الكرامات عن أحد ممّن تقدمه أو تأخّر عنه غيره. قال العلامة في إجازته الكبيرة: وكان رضي الدين علي صاحب كرامات حكى لي بعضها وروى لي والدي رحمة الله عليه البعض الآخر (انتهى).

قال المحدث النوري في المستدرك، ويظهر في مواضع من كتبه خصوصا (كشف المحجة) :

" أن باب لقائه الإمام الحجة عليه السلام كان مفتوحا ". وقال رحمه الله :" وكان رحمة الله من عظماء المعظِّمين لشعائر الله تعالى لا يذكر في أحد تصانيفه الاسم المبارك " الله " إلاَّ يعقبه بقوله جلّ جلاله ". توفي رحمه الله يوم الاثنين خامس ذي العقدة سنة ٦٦٤ (خسد))) ـ في كتابه (فلاح السائل): فقد روي " إن مولانا جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام كان يتلو القرآن في صلاة فغشي عليه فلما أفاق سئل ما الذي أوجب ما انتهت حالتك إليه ؟ فقال عليه السلام (ما معناه): ما زلت أكرر آيات القرآن حتى بلغت إلى حال كأنني سمعتها مشافهة ممّن أنزلها على المكاشفة والعيان فلم تقم القوة البشرية بمكاشفة الجلالة الإلهية ". ثم يقول العرف المذكور: وإياك يا من لا تعرف حقيقة ذلك أن تستبعده أو يجعل لك الشيطان في تجويز الذي رويناه عندك شكا بل كن

مصدقا، أما سمعت الله يقول " فلمّا تجلى ربّه للجبل جعله دكّاً وخـرّ موسـى صـعقاً " (الأعـراف ١٤٣) (انتهى))

وروي عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة يردّد قولـه تعـالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.(المائدة ١١٨).

وبالجملة فحقيقة الذكر والتذكر هي الذكر القلبي. أما الذكر اللساني فهو بدونه ذكـر بـلا لـبّ وساقط عن درجة الاعتبار بالمرة، كما أشير إلى ذلك في الأحاديث الشريفة غير مرة فعن الرسـول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال لأبي ذرّ: يا أبا ذرّ ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة والقلب لاه (ساه) ".

وروي عنه صلى الله علية وآله أيضاً " أن الله سبحانه لا ينظر إلى صوركم بل ينظر إلى قلـوبكم ". وسيأتي في أحاديث حضور القلب أنه يقبل من الصلاة بقدر ما أقبل، وكلما كان القلـب غـافلا فبمقدار الغفلة كانت الصلاة غير مقبولة، وما لم يلاحظ الأدب المذكور لا يحصل الذكر القلبي ولا يخرج القلب من السهو والغفلة، وفي الحديث أن الصادق عليه السلام قال: فاجعل قلبك للـسانك لا تحركه إلاَّ بإشارة القلب. ولا يتحقق كون القلب قبلة ولا يتحقق تبعية اللسان وسائر الأعضاء له إلاَّ بملاحظة هذا الأدب، وان اتفق في مورد حصول الأمور المذكورة بدون هذا الأدب فهـو مـن النوادر ولا يجوز للإنسان أن يغترّ به.

الفصل الثامن

في بيان حضور القلب

من الآداب القلبية حضور القلب الذي يمكن أن يكون كثير من الآداب مقدمة له والعبادة بدونه ليس لها روح وهو بنفسه مفتاح قفل الكمالات وباب أبواب السعادات وقلّ ما ذكر في الأحاديث الشريفة شيء بهذه المثابة، وقلّ ما اهتمّ بشيء من الآداب كهذا الأدب، ونحن وان ذكرنا في رسالة سر الصلاة، وهكذا في كتاب الأربعين قدرا مستوفى منه وبيّنا درجاته ومراتبه ولكن نذكر في هذا المقام أيضاً شيئا منه تتميما للفائدة وتحرزا عن الإحالة فنقول :

كما ذكرنا سابقا بأن العبادات والمناسك والأذكار والأوراد إنما تنتج نتيجة كاملة إذا صارت صورة باطنية للقلب وتخمّر باطن ذات الإنسان بها ويتصور قلب الإنسان بصورة العبودية ويخرج عن الهوى والعصيان، وذكرنا أيضاً أن من أسرار العبادات وفوائدها أن تتقوى إرادة النفس وتتغلب النفس على الطبيعة وتكون القوى الطبيعية مسخّرة تحت قدرة النفس وسلطتها وتكون الإرادة الملكوتية نافذة في ملك البدن بحيث تكون القوى بالنسبة إلى النفس كملائكة الله بالنسبة إلى الحق تعالى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ (التحريم ـ ٦) ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(الأنبياء ـ ٢٧).

ونقول الآن: إن من أسرار العبادات وفوائدها المهمة التي تكون بقية الفوائد مقدمة لها. أن تكون مملكة البدن بجميعها، ظاهرها وباطنها، مسخّرة تحت إرادة الله ومتحركة بتحريك الله تعالى وتكون القوى الملكوتية والملكية للنفس من جنود الله وتكون كلها كملائكة الله بالنسبة إلى الحق تعالى، وهذه من المراتب النازلة لفناء القوى والإرادات في إرادة الحق ويترتب على هذا بالتدريج النتائج العظيمة ويكون الإنسان الطبيعي إلهيا وتكون النفس مرتاضة بعبادة الله وتنهزم جنود إبليس بالمرة وتنقرض ويكون القلب مع قواه مسلّما للحق ويبرز الإسلام ببعض مراتبه الباطنية في القلب وتكون نتيجة هذا التسليم لإرادة الحق في الآخرة أن الحق تعالى ينفذ إرادة صاحب هذا القلب في العوالم الغيبية ويجعله مثلا أعلى لنفسه تعالى، فكما أنه تعالى وتقدس يوجد كل ما أراد بمجرد الإرادة يجعل إرادة هذا العبد أيضاً كذلك كما رواه بعض أهل المعرفة عن النبي صلى اله عليه وآله في وصف أهل الجنة (ما معناه) أنه يأتيهم ملك فيستأذن للدخول عليهم وبعد الاستئذان يدخل فيبلّغ السلام من الله تعالى عليهم ويعطيهم رسالة مكتوباً فيها (يخاطب الإنسان الذي هو مخاطب به) من الحي القيوم الذي لا يموت إلى الحي القيوم الذي لا يموت أما بعد فإنني أقول للشيء كن فيكون وقد جعلتك تقول للشيء كن فيكون، فقال صلى الله عليه وآله: فلا يقول أحد من أهل الجنة

للشيء كن إلاَّ ويكون. (قال الشيخ الأكبر في باب الواحد والستين وثلاثمئة مـن الفتوحـات وورد في الخبر في أهل الجنة أن الملك يأتي إليهم فيقول لهم بعد أن يستأذن عليهم في الـدخول فـإذا دخل ناولهم كتابا من عند الله بعد أن يسلّم عليهم من الله وإذا في الكتاب لكلّ إنسان يخاطب بـه: من الحّي القيوم الذي لا يموت إلى الحّي القيوم الذي لا يموت. أما بعد: فإني أقول للـشيء كـن فيكون وقد جعلتك... وقال أيضاً في السؤال السابع والأربعين ومئة من الباب ثلاثة وسـبعين مـن الفتوحات، بعد أن نقل القول الشريف بسم الله من العبد بمنزلة كن من الحـق قـال: اليـوم تقـول للشيء كن فيكون فقال صلى الله عليه وآله وسلم فلا يقول أحد من أهـل الجنـة لـشيء كـن إلاَّ ويكون. وقال الشيخ في الفصّ الاسحاقي من فصوص الحِكَم: العارف يخلق بهمته مـا يكـون لـه وجود من خارج محل الهمّة ولكن لا تزال الهمّة تحفظه.

تبصرة: الخبر المذكور لو كان صحيحا فليس من مختصات أهل المرتبة العالية مـن الجنـة لان من أهل من يتلقّى السلام والكلام والمقام من الله سبحانه بدون واسطة كما أشير إلـى ذلـك فـي بعض الأحاديث والمتناولون الكتاب من الله في هذا الخبر بواسطة الملك فهذا المقام عام لجميـع أهل الجنة ومن المقامات العامة، ولذلك قال فلا يقول أحد من أهل الجنة بشيء كن إلاَّ ويكـون. فافهم).

وهذه هي السلطنة الإلهية التي أعطي العبد إياها لأجل تركه إرادة نفسه وتركه سـلطنة الهـوى النفسانية وتركه إطاعة إبليس وجنوده، ولا تحصل كل من هذه النتـائج المـذكورة إلاَّ بالحـضور الكامل للقلب، وإذا كان القلب في وقت العبادة غافلا وساهيا لا تكون عبادته حقيقيـة بـل تـشبيه اللهو واللعب ولا يكون لمثل هذه العبادة أثر في الـنفس البتـة ولا تتجـاوز العبـادة مـن الـصورة والظاهر إلى الباطن والملكوت كما أشير إلى ذلك في الأحاديث، ولا تكون القوى النفسانية بمثـل تلك العبادة مسلمة للنفس ولا تظهر سلطنة النفس لها، كذلك القوى الظاهرية والباطنيـة لا تكـون مستسلمة لإرادة الله ولا تنقهر المملكة تحت كبرياء الحق كما هو واضح جدا، ولذا ترون أنه بعـد مضيّ أربعين أو خمسين سنة لا يحصل أثر في أنفسنا بل تزداد يوما فيوما ظلمة القلـب وتعـصيّ القوى ويزيد اشتياقنا إلى الطبيعة وإطاعتنا الأهواء النفسانية والوساوس الشيطانية آنا فآناً وليس هذا كله إلاَّ من جهة أن عبادتنا قشور بلا لبّ وفاقدة للشرائط الباطنية والآداب القلبية، ولولا هذه الجهة ففي حين أننا نرى أن كتاب الله سبحانه قد نصّ على أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهـذا النهي ليس صوريا البتة بل لا بد أن يزهر مصباح في القلب ويضيء نور في الباطن يهدي الإنسان إلى عالم الغيب، ويوجد زاجر إلهي ينهى الإنسان عن العصيان والتمرد، وها نحـن أولاء نحـسب لأنفسنا في زمرة المصلين وقد مضت علينا سنون ونحن مشتغلون بهذه العبادة العظيمة ومع ذلك لا

نرى في أنفسنا هذا النور ولا نجد في باطننا هذا الزاجر والمانع فالويل لنا يوم نعطى صور أعمالنا وصحيفة أفعالنا في ذلك العالم بأيدينا ويقال ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء ـ ١٤) وانظر هل تليق تلك العبادات بالقبول من جنابه، وهل هذه الصلاة مع هذه الصورة المشوّهة الظلمانية مقرّبة لك إلى بساط الحضرة الكبريائية ؟ وهل ينبغي لك أن تسلك مع هذه الأمانة الإلهية ووصية الأنبياء هذا السلوك، وهل يجوز أن تسمح للشيطان الرجيم الذي هو عدو الله أن يتدخل فيها بيده الخائنة ؟ ولماذا صارت الصلاة التي هي معراج المؤمن وقربان كل تقيّ مبعدة لكم عن الساحة المقدسة ومهجرة لكم عن جناب القرب الإلهي ؟ فهل لنا في ذلك اليوم سوى الحسرة والندامة والشقاوة والخجلة والانفعال نصيب ؟ يا لها من حسرة وندامة ليس لها في هذا العالم شبيه، ويا لها من خجلة وانفعال لا نقدر أن نتصور لها نظيرا، فإن الحسرات في هذا العالم مهما بلغت ممزوجة بآلاف من الرجاء، وكذلك الخجلات في هذه النشأة سريعة الزوال وهذا بخلاف ذلك العالم فإنه يوم بروز الحسرة والندامة كما قال تعالى ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (مريم ـ ٣٩) فالأمر المنقضي لا يجبر والعمر التالف لا يستعاد فوا حسرتاه على ما فرطت في جنب الله

فيا أيها العزيز: اليوم يوم الإمهال والعمل وقد جاء الأنبياء وأتوا بالكتب ودعوا بدعوات مع هذه التشريفات ومع تحملهم الآلام والشدائد كي يوقظونا من نوم الغفلة وينبهونا من سكر الطبيعة ويوصلونا إلى عالم النور ونشأة البهجة والسرور وإلى الحياة الأبدية والنعم السرمدية واللذائذ الدائمة وينجونا من الهلاك والشقاوة والنار والظلمة والحسرة والندامة وكل ذلك لأجل أنفسنا ومن دون أن تعود عليهم ـ سلام الله عليهم ـ نتيجة ومن دون أن تكون لتلك الذوات المقدسة حاجة بإيماننا وأعمالنا، ومع ذلك ما أثّرت فينا دعوتهم وقد أخذ الشيطان بمسامع قلوبنا وتسلط على باطننا وظاهرنا بحيث لم يؤثر فينا شيء من مواعظهم أيّ أثر بل لم يصل إلى سمع قلوبنا شيء من الآيات والأخبار وما تجاوز ظاهر السمع الحيواني.

وبالجملة أيها القارئ المحترم الذي تطالع هذه الأوراق لا تكن ككاتبها خاليا من جميع الأنوار وصفر اليد عن جميع الأعمال الصالحة ومبتلىً بالأهواء النفسانية وارحم أنت نفسك واكتسب من عمرك نتيجة وانظر بالدّقة في حال الأنبياء والأولياء الكمّل وارم الرغبات الكاذبة والوعود الشيطانية ولا تغترّ بغرور الشيطان ولا تنخدع بخدع النفس الأمّارة فإن تدليسات الشيطان والنفس دقيقة وإنما ليعمّيان على الإنسان كل أمر باطل فيراه بصورة الحق ويغران الإنسان حينما يأمل التوبة في آخر العمر وينتهيان بالإنسان إلى الشقاوة. ومع أن التوبة في آخر العمر وعند تراكم ظلمات المعاصي وكثرة مظالم العباد وكثرة حقوق الله أمر صعب ومشكل للغاية. فاليوم مع أن

الإرادة في الإنسان قوية والقوى الحيوانية على حالها وشجرة العصيان بعد لم تكبر وسلطنة الشيطان في النفس لم تستحكم والنفس جديدة العهد بالملكوت وقريبة الأفق إلى فطرة الله وشرائط حصول التوبة وقبولها سهلة فهما لا يدعان الإنسان يقوم بالتوبة ويخلع جذور هذه الشجرة الواهنة ويقضي على هذه السلطنة غير المستقلة ويعدانه بالتوبة في أيام الشيب التي تكون الإرادة فيها ضعيفة والقوى نحيفة والأشجار المختلفة للمعاصي ذات جذور عميقة وقوية وسلطنة إبليس في الظاهر والباطن مستقلة ومستقرة وألفة الإنسان للطبيعة شديدة والبعد عن الملكوت أزيد ونور الفطرة خافتا وشرائط التوبة صعبة وشديدة وليس هذا إلاَّ الغرور والافتتان.

وحيناً آخر يبعدان الإنسان بوعد شفاعة الشافعين عليهم السلام عن ساحة قدسهم ويجعلانه عن شفاعتهم مهجورا، فإن الانغمار في المعاصي يجعل القلب بالتدريج مظلما ومنكوسا ويجرّ أمر الإنسان إلى سوء العاقبة، وانّ طمع الشيطان في أن يسرق إيمان الإنسان وإنما يجعل الدخول في المعاصي مقدمة لها حتى يصل إلى النتيجة المطلوبة. فهذا الإنسان إن كان طمعه في شفاعة الشافعين فلا بدّ له أن يسعى ويجتهد في هذا العالم في الحفاظ على الرابطة بينه وبين الشافعين وأن يتفكر في حال شفعاء يوم الحشر كيف كان حالهم في العبادة والرياضة، ولو فرضنا أنكم ترتحلون من هذه الدنيا مع الإيمان بالله ولكن إذا كانت أثقال الذنوب والمظالم كثيرة يمكن إلاَّ يشفع فيكم في أنواع الذنوب في البرزخ والقبر، وكما نقل عن الصادق عليه السلام من أن البرزخ على عهدتكم وعذاب البرزخ لا يقاس بعذاب هذه الدنيا وطول مدة البرزخ لا يعلمه إلاَّ الله ولعله يطول ملايين من السنين.

ويمكن أن يكون في القيامة أيضاً بعد مدة طويلة في أنواع العذاب التي لا تطاق، إنكم لا تنالون الشفاعة، كما أن هذا المعنى وارد في الأحاديث أيضاً، فهذا الغرور من الشيطان يمسك الإنسان عن العمل الصالح و يخرجه من الدنيا، إما بلا إيمان أو مع أثقال ذنوب كثيرة ويبتليه بالشقاوة والخسران.

وربما يعد الشيطان الإنسان بالرحمة الواسعة لأرحم الراحمين، وبنفس هذا الوعد يقطع الشيطان يد الإنسان عن ذيل الرحمة. وهذا الإنسان غافل عن أن بعث الرسل وإرسال الكتب وإنزال الملائكة والوحي والإلهام على الأنبياء والهداية إلى طريق الحق كل ذلك من شؤون الرحمة لأرحم الراحمين، وقد اتسعت الرحمة الواسعة لجميع العالم ونحن على جانب عين الحياة نهلك من الظمأ، هذا القرآن هو أكبر رحمة الله فان كنت تطمع في رحمة أرحم الراحمين فتأمل رحمته الواسعة واستفد من هذه الرحمة فانه قد فتح طريق الوصول إلى السعادة وبيّن طريق الهداية من الضلالة، وأنت تلقي نفسك في الهلاك وتنحرف عن الطريق المستقيمة. فليس في الرحمة إذن أي

نقصان، ولو كان من الممكن أن يُري الله الإنسان طريق الخير والسعادة في طور آخر لكان سبحانه أراه إيّاه بمقتضى رحمته، ولو كان من الممكن أن يوصل الإنسان إلى السعادة إكراها لكان الأنبياء يوصلونه بالإكراه، لكن هيهات، إن طريق الآخرة طريق لا يمكن أن يسعى فيها إلاَّ بقدم الاختيـار، وان السعادة لا تحصل بالجبر، وان الفضيلة والعمل الصالح بلا اختيار ليسا فضيلة ولا عملا صالحا، ولعل هذا معنى الآية الشريفة ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة ـ ٢٥٦).

نعم ما يمكن أن يعمل فيه الإكراه والإجبار هو صورة الـدين الإلهيـة لا حقيقتـه، وان الأنبيـاء عليهم السلام كانوا مأمورين أن يفرضوا على الناس صورة الدين ما أمكنهم، وبـأي نحـو ممكـن حتى صورة العالم صورة العدل الإلهي، ولكنهم بالنسبة إلى الباطن فليس لهم إلاَّ مجـرّد الإرشـاد حتى يمشي الناس في هذه الطريق بأنفسهم وينالوا الـسعادة باختيـارهم. وبالجملـة، هـذا الوعـد بالرحمة الواسعة لأرحم الراحمين هو أيضاً من غرور الشيطان ليقطع يد الإنسان عن الرحمة بطمع الرحمة.

الفصل التاسع

أحاديث في الترغيب في حضور القلب

في ذكر قليل من أحاديث أهل البيت العصمة والطهارة سلام الله عليهم في الترغيب في حضور القلب، ونحن نكتفي هنا بذكر بعضها :

فعن الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله: " اعبد الله كأنك تراه، وان لم تكن تراه فإنه يراك"، يستفاد من هذا الحديث مرتبتان من مراتب حضور القلب، الأولى: أن السالك يكون مشاهدا جمال الجميل في تجليات حضرة المحبوب على نحو تكون جميع مسامع قلبه مسدودة عن سائر الموجودات، وتكون بصيرته مفتوحة لجمال ذي الجلال الطاهر ولا يشاهد غيره، وبالجملة يكون مشغولا بالحاضر وغافلا عن المحضر والحضور. والمرتبة الثانية التي هي دون تلك المرتبة أن يرى السالك نفسه حاضرا في محضرة ويلاحظ أدب الحضور والمحضر. فالرسول الأكرم كأنه يقول إن كنت تستطيع أن تكون من أهل المقام الأول وتأتي بعبادة الله على ذلك النحو فافعل وإلا فلا تغفل عن أنك في المحضر الربوبي. ولمحضر الحق تعالى أدب تكون الغفلة عنه لا محالة بعدا عن مقام العبودية، وإلى هذا أشير في الحديث الذي رواه أبو حمزة الثمالي (الثمالي هو أبو حمزة ثابت بن دينار الثقة الجليل صاحب الدعاء المعروف في أسحار شهر رمضان. كان من زهّاد أهل الكوفة ومشايخها وكان عربيّا أزديّا، روى عن الفضل بن شاذان قال: سمعت الثقة يقول: سمعت الرضا عليه السلام يقول: أبو حمزة الثمالي في زمانه كسلمان الفارسي وذلك أنه خدم أربعة منّا علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمّد وبرهة من عصر موسى بن جعفر عليهم السلام. انتهى. (كش) عن علي بن أبي حمزة في خبر قال: قال الصادق عليه السلام لأبي بصير: إذا رجعت إلى أبي حمزة الثمالي فأقرئه منّي السلام وأعلمه انه يموت في شهر كذا في يوم كذا. قال أبو بصير: جعلت فداك والله لقد كان فيه أنس، وكان لكم شيعة. قال: صدقت ما عندنا خير لكم. قلت: شيعتكم معكم ؟ قال: إن هو خاف الله وراقب نبيّه وتوقى الذنوب فإذا هو فعل كان معنا في درجتنا. قال علّي: فرجعنا تلك السنة فلما لبث أبو حمزة إلاَّ يسيرا حتّى توفّي رحمه الله. مات في سنة خمسين ومئة (قن).) رضي الله عنه، قال: " رأيت علّي بن الحسين عليه السلام يصلي فسقط رداؤه عن منكبه فلم يسوّه حتى فرغ من صلاته، قال: فسألته عن ذلك، فقال: ويحك أتدري بين يديّ من كنت ؟ ".

وفي حديث أيضاً عن الرسول صلى الله عليه وآله ″ إنّ الرجلين من أمتي يقومان إلـى الـصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وان ما بين صلاتهما ما بين السماء والأرض ″ وقال النبـي صـلى الله عليه وآله: ″ أما يخاف الذي يحول وجهة في الصلاة أن يحول الله وجهه إلى حمار ″. وقال صـلى الله عليه وآله: ″ من صلّى ركعتين لم يحدّث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ذنوبـه ″ وعنـه صلى الله عليه وآله ″ إن من الصلاة لما يقبل نصفها وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر وإن منها لما تلفّ كما يلفّ الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها ″ وان ″ مالك في صلاتك إلاَّ ما أقبلت عليه بقلبك ″. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صـلى الله عليـه وآلـه: ″ إذا قـام العبـد المؤمن في صلاته نظر الله إليه، أو قال أقبل الله عليه حتى ينصرف وأظلّته الرحمة من فوق رأسـه إلى أفق السماء والملائكة تحفّه من حوله إلى أفق السماء ووكل الله به ملكا قائما على رأسه يقول أيها المصلّي لو تعلم من ينظر إليك ومن تناجي ما التقتّ ولا زلت من موضعك أبدا ″.

وقال الصادق عليه السلام: ″ لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب إلاَّ وجبت له الجنة فإذا صـلّيت فأقبل بقلبك إلى الله عزّ وجلّ فإنه ليس من عبد يقبل بقلبه على الله عزّ وجلّ في صلاته ودعائه إلاَّ أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين وأيّده مع مودّتهم إيّاه بالجنة ″. وعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا: ″ إن مالك في صلاتك إلاَّ ما أقبلت عليه فيهما فإن أوهمها كلهـا أو غفـل عـن آدابها لفت فضرب بها وجه صاحبها ″. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: ″ إن العبد ليرفع لـه مـن صلاته نصفها أو ثلثها أو ربعها أو خمسها فما يرفع منها له إلاَّ ما أقبل عليه منها بقلبه وإنما أمرنـا بالنافلة ليتمّ لهم بها ما نقصوا من الفريضة ″.

وعن الصادق عليه السلام ″ إذا أحرمت في الصلاة فأقبل إليها لأنك إن أقبلت أقبـل الله إليـك وإن أعرضت أعرض الله عنك فربّما لا يرفع من الصلاة إلاَّ ثلثها أو ربعها أو سدسها بقدر ما أقبـل المصلّي إليها وان الله لا يعطي الغافل شيئا ″.(أقول: نقلت الحديث الصادقي عن الترجمة للأسـتاذ دام ظله).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ″ يا أبا ذر ركعتان مقتصدتان في تفكر خير مـن قيـام ليلة والقلب ساه (لاه) ″ والأحاديث في هذا الباب كثيرة وهذا المقدار كاف لأرباب القلوب اليقظة وأصحاب الاعتبار. (قال المحدث الجليل الفيض الكاشاني.. إن قيل: المستفاد مـن هـذه الآيـات والأخبار أن الصلاة من يغفل عما يقول فيها ويفعل، ليست مقبولة إلاَّ بقدر مـا أقبـل عليـه منهـا. والفقهاء لم يشترطوا إلاَّ حضور القلب عند التكبير والتوجّه عنـده. فكيـف التوفيـق، وأيـضا فـإن المصلّي في صلاته ودعائه مناج ربّه كما هو معلوم. وقد ورد في الخبر أيضا، ولا شكّ أن الكـلام مع الغفلة ليس بمناجاة، والكلام إعراب عما في الضمير ولا يصحّ الإعراب عمّـا فـي الـضمير إلاَّ

بحضور القلب فأي سؤال في قوله إهدنا الصراط المستقيم إذا كان القلب غافلا ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار، الحمد والثناء والتضرع والدّعاء. والمخاطب هو الله تعالى وقلب العبد بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة. فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرّعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله ورسوخ عقد الإيمان بها هذا حكم القراءة والذكر، وأما الركوع والسجود فالمقصود التعظيم بهما قطعا. والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة ؟ وإذا خرج عن كونه تعظيما لم يبق إلاَّ مجرّد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ثم يجعل عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويقدّم على ساير العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص.

فاعلم أن بين القبول والإجزاء فرقا، فإن القبول من العبادة ما يترتب عليه الثواب في الآخرة وتقرّب إلى الله زلفى، والأجزاء ما يسقط التكليف عن العبد وان يثب عليه، والناس مختلفون في تحمّل التكلف، فالتكليف إنما هو بقدر حوصلة الخلق وقابليتهم في سعتهم وقصورهم، فلا يمكن أن يشترط عليهم جميعا إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلاَّ الأقلين، وكذا لم يكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مردّ له إلاَّ أن يشترط منه ما يطلق الاسم ولو في اللحظة الواحدة وأولي الخطاب به لحظة التكبير والتوجّه فاقتصر على التكليف بذلك، ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهرا وأحضر للقلب لحظة، وكيف لا والذي صلى مع الحديث ناسيا، صلاته باطلة عند الله ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر تصوّره وعذره، وقد ذكرنا في باب العقائد في الفرق بين العلم الباطن والظاهر أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع.

وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وان أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير، فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه يبسط الروح في أجزاء الصلاة، وكم من حيّ لا حراك به قريب من الميت. فصلاة الغافل في جميعها إلاَّ عند التكبير حيّ لا حراك به.

وقال أيضا: اعلم أن المعاني الباطنة التي بها يتم حياة الصلاة بجمعها ست جمل وهي: حضور القلب والتفهّم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء. فالأول حضور القلب، ونعني به أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ولا يكون الفكر جاريا في غيرهما، ومهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عنه فقد حصل حضور القلب ثم التفهّم لمعنى الكلام وهو أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ولا يكون حاضرا مع معنى اللفظ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى

اللفظ هو الذي أردنا بالتفهّم، وهذا مقام يتفاوت فيه الناس إذ ليس يشترك الناس في تفهّم المعاني للقرآن والتسبيحات، وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك، ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر فإنها تفهم أمورا، تلك الأمور من الفحشاء والمنكر لا محالة.

ثم التعظيم وهو أمر وراء حضور القلب والفهم، إذ الرجل، ربما يخاطب غيره بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظما له.

ثم الهيبة: وهي زائدة على التعظيم، إذ هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لان من لا يخاف لا يسمى مهابة، بل الهيبة خوف مصدره الإجلال.

ثم الرجاء: فالعبد ينبغي أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله.

ثم الحياء: ومبدؤه استشعار تقصير وتوهّم ذنب، ولنذكر أسباب هذه المعاني الستة :

فاعلم أن حضور القلب سببه الهمّه، فان قلبك تابع لهمّك فلا يحضر إلاَّ فيما يهمّك، ومهما أهمّك أمر حضر القلب شاء أم أبى فهو مجبول عليه ومسخّر فيه، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا بل كان حاضرا فيما الهمّة مصروفة إليه من أمور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلاَّ بصرف الهمة إلى الصلاة، والهمّة لا ينصرف إليها ما لم يتبيّن أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وان الصلاة وسيلة إليه، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهانتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة.

وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى، وعلاجه ما هو إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمّر لرفع الخواطر الشاغلة، وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تتحدث الخواطر إليها، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر، فمن أحب شيئا أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة، ولذلك ترى من أحب غير الله لا تصفو صلاته عن الخواطر.

وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد بين معرفتين، أحدهما معرفة جلالة الله وعظمته وهي من أصول الإيمان، فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه.

الثانية: معرفة حقارة النفس وخسّتها وكونها عبدا مسخّرا مربوبا حتى يتولد من المعرفتين: الاستكانة والانكسار والخشوع لله، فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم يمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الربّ لا ينتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغني عن غيره، الآمن على نفسه يجوز أن

يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهـي معرفـة حقارة النفس وحاجيها لم تقترن بها.

وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس يتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به وانه لو أهلك الأولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة، هذا مع مطالعة ما يجري علـى الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع.

وبالجملة، كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة.

وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله وكرمه وعميم أنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء لا محالة. وأما الحياء فباستشعار التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وخبث داخلها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعاله مـع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله، والعلم بأنه مطّلع علـى الـسريرة وخطـرات القلـب، وان دقّـت وخفيت، وهذه المعارف إذا حصلت يقينا أنبعث منها بالضرورة تسمّى الحياء. (انتهى كلامـه رفـع مقامه))

الفصل العاشر

في طريق تحصيل حضور القلب

إذا عرفت الآن فضيلة حضور القلب وخواصّه عقلا ونقلا وفهمت الأضرار الكبيرة في تركه فلا يكفي العلم وحده بل يجعل الحجة عليك أتمّ، فشمّر عن ذيل الهمّة وكن في صدد تحصيل ما علمته وأخرج علمك إلى مرحلة العمل كي تستفيد منه وتربح فتفكر قليلا في أن قبول الصلاة شرط لقبول سائر الأعمال بحسب أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام الذين هم معادن الوحي وإنّ أقوالهم وعلومهم من الوحي الإلهي والكشف المحمّدي صلى الله عليه وآله وسلم وان الصلاة إذا لم تكن مقبولة فلا ينظر إلى سائر الأعمال أصلا وإن قبول الصلاة بإقبال القلب فلو لم تكن الصلاة مشتملة عليه فهي ساقطة من درجة الاعتبار ولا تليق بمحضر الحق تعالى ولا تقبل كما علم ذلك من الأحاديث السابقة فمفتاح خزينة الأعمال وباب أبواب جميع السعادات حضور القلب فيه يفتح باب السعادة للإنسان ومن دونه تسقط جميع العبادات من درجة الاعتبار. فالآن تفكّر قليلا بنظر الاعتبار وانظر بعين البصيرة أهمية المقام وعظمة الموقف وقم بالأمر بجدّ تامّ فإن مفتاح باب السعادة وأبواب الجنة ومفتاح باب الشقاوة جهنم لفي جيبك في هذه الدنيا فتستطيع أن تفتح أبواب الجنة والسعادة لنفسك وتستطيع أن تكون على خلاف ذلك فزمام الأمر بيدك ولله الحجة البالغة قد هدى سبيل السعادة والشقاوة وأعطى التوفيقات الظاهرية والباطنية فما منه تعالى ومن أوليائه فقد تمّ وإنما الآن فرصتنا في الإقدام فإنهم الهادون إلى الطريق ونحن السائرون فيه إنهم قضوا ما عليهم على الوجه الأحسن ولم يتركوا لنا عذرا ولم يقصّروا ولو لمحة فانتبه أنت أيضاً من نومك واطْوِ طريق السعادة واستفد من عمرك وقوّتك فإن الوقت إذا انقضى وفاتك العمر الحاضر و الشباب الموجود وفقدت كنز القدرة والقوة فلا ينجبر أبدا فإن كنت الآن في عهد الشباب فلا تؤخر أمرك إلى الشيب فإن للشيب مصائب لا يعلمها إلاّ الشيب وأنت في غفلة عنها، إن الإصلاح في حال الشيب والضعف لمن الأمور الصعبة جدا، وان كنت شايبا فلا تدع بقية العمر تفوت منك فإنك مادمت في هذا العالم فلك طريق إلى السعادة ولك منها باب مفتوح فلا سمح الله إذا أغلق هذا الباب وانسدّ هذا الطريق فيخرج زمام الاختيار من يدك ولا يبقى لك نصيب سوى الحسرة والندامة والأسف على ما مضى من أمرك.

فأنت أيها العزيز إن كنت تؤمن بما ذكر بما أنه قول الأنبياء عليهم السلام وهيّأت نفسك لتحصيل السعادة وسفر الآخرة وعلمت بلزوم حضور القلب الذي هو مفتاح كنز السعادة فطريق

تحصيله أن ترفع أولا موانع حضور القلب وتنحّي الأشواك عن طريق السلوك بجذورها وبعد رفع الموانع تقدم على تحصيل حضور القلب.

أما موانع حضور القلب في العبادات فهي تشتّت الخواطر وكثرة الواردات القلبية وهـذه ربمـا تحصل من الأمور الخارجية ومن طرق الحواس الظاهرية مثل أن يسمع في حال العبادة شيئا يتعلق الضمير به ويكون مبدأ للتخيلات والتفكرات الباطنية وتتصرف فيه الواهمة والمتصرفة فيطير الخيال من غصن إلى غصن.

أو أن عين الإنسان ترى شيئا ويكون منشأ تشتّت الخاطر وتصرُّف المتصرفة أو أن سائر حواس الإنسان تدرك شيئا فتحصل منه انتقالات خيالية. وطريق علاج هذه الأمور، وان كان العلماء ذكروا أن العلاج هو رفع هذه الأسباب مثل أن يصلي الإنسان في غرفة مظلمة أو مكان خال ويغضّ عينه ولا يصلي في المواضع التي تجلب النظر كما نقله الشهيد السعيد(هو الشيخ الأجل زين الدين بـن نور الدين علي بن أحمد بن جمال الدين بن تقي بن صالح بن مشرف العاملي الجبعي أمـره فـي الثقة والجلالة والعلم والفـضل والزهـد والعبـادة والـورع والتحقيـق والتبحّـر وجميـع الفـضائل والكمالات أشهر من أن يذكر. ومحاسنه وأوصافه الحميدة أكثر من أن تحصر وُلِـد الـشيخ زيـن الدين ثالث عشر شوال سنة ٩١١ (ظيا) وختم القرآن وعمره تسع سنين وقرأ علـى والـده العربيـة وتوفي والده سنة ٩٢٥ (ظكه) وعمره إذ ذاك أربع عشرة سنة وارتحل إلى ميس وهو أول رحلتـه فقرأ على الشيخ الجليل علي بن عبد العالي الميسي الشرايع والإرشاد وأكثر القواعد. ولـه قـدّس سرّه رحلات إلى كرك و إلى جبع و إلى دمشق ثم الرجوع إلى جبع والرحلة منها إلى دمشق يريد مصر فسافر إلى مصر يوم الأحد منتصف ربيع الأول سنة ٩٤٢ واتفق له في الطريق ألطـاف خفيـة وكرامات جليّة ذكرها تلميذه ابن العودي. ودخل مصر بعد شهر من خروجه واشتغل على جماعة منهم الشيخ أبو الحسن البكري صاحب كتاب الأنوار في مولد النبي صلى الله عليه وآله، ثم ارتحل إلى الحجاز في شوال ٩٢٣، ولما قضي مناسكه زار النبي صلى الله عليه وآله وقد وعده بالخير في المنام بمصر ثم ارتحل إلى بلده جبع في صفر سنة ٩٤٤ وأقام بها إلـى سـنة ٩٤٦ وتوشـح ببـرد الاجتهاد إلاَّ أنه بالغ في كتمان أمره إلى أن أقام ببعلبك بعد رحلات سنة ٩٥٣ يدرس في المذاهب الخمسة واشتهر أمره وصار مرجع الأنام ومفتي كل فرقة بما يوافق مذهبها وصار أهل البلد كلّهـم في انقياده ورجعت إليه الفضلاء من أقاصي البلاد ثم انتقل بعـد خمـس سـنين إلـى بلـده، بنيّـة المفارقة وأقام في بلده مشتغلا بالتدريس والتصنيف. ومـصنفاته كثيـرة مـشهورة أولهـا الـروض وآخرها الروضة. ألّفها في ستة أشهر وستة أيام وكان غالب الأيام يكتب كراسا ومن عجيب أمـره انه كان يكتب بغمسة واحدة في الدواة عشرين أو ثلاثين سطرا وخلّف ألفَي كتاب منها مئتا كتاب

كانت بخطه الشريف من مؤلفاته وغيرها مع أنه قال تلميذه الشيخ محمد بن علي بن الحسن العودي الجزيني في رسالة (بغية المريد في أحوال شيخه الشهيد): ولقد شاهدت منه سنة وردي إلى خدمته انه كان ينقل الحطب في الليل لعياله ويصلّي الصبح في المسجد ويجلس للتدريس والبحث كالبحر الزاخر ويأتي بمباحث غفل عنها الأوائل والأواخر. وذكر أنه (رحمه الله) كان يتعاطى جميع مهمّاته بقلبه وبدنه مضافا إلى مهمّات الواردين ومصالح الضيوف المتردّدين إليه مع أنه كان غالب الزمان في الخوف الموجب لإتلاف النفس والتستّر والإخفاء الذي لا يسع الإنسان أن يفكّر معه في مسألة من الضروريات البديهية. ولمّا كان في سنة ٩٦٥ وهو في سن أربع وخمسين ترافع إليه رجلان فحكم لأحدهما على الأخر فذهب المحكوم عليه إلى قاضي صيدا واسمه معروف وكان الشيخ مشغولا بتأليف شرح اللمعة فأرسل القاضي إلى جبع من يطلبه وكان مقيما في كرم له مدة منفردا عن البلدة متفرّغا للتأليف، فقال بعض أهل البلد قد سافر عنا منذ مدّة فخطر ببال الشيخ ان يسافر إلى الحج. وكان قد حج مرارا لكنه قصد الاختفاء فسافر في محمل مغطّى وكتب القاضي إلى السلطان انه قد وجد ببلاد الشام رجل مبدع خارج عن المذاهب الأربعة فأرسل السلطان في طلب الشيخ فقبض عليه، وروي أنه كان في المسجد الحرام بعد فراغه من صلاة العصر وأخرجوه إلى بعض دور مكة وبقي هناك محبوسا شهرا وعشرة أيام ثم ساروا به على طريق البحر إلى القسطنطينيَّة وقتلوه بها وبقي مطروحا ثلاثة أيام ثم ألقوا جسده الشريف في البحر.

وفي رواية ابن العودي قتلوه في مكان من ساحل البحر وكان هناك جماعة من التركمان، فرأوا في تلك الليلة أنوار تنزل من السماء وتصعد فدفنوه هناك وبنوا عليه قبة وحُمل رأسه إلى السلطان وسعى السيد عبد الرحيم العباسي في قتل فقتله السلطان.

وحكي عن شيخنا البهائي (رحمه الله) قال أخبرني والدي أنه دخل في صبيحة بعض الأيام على شيخنا الشهيد المعظّم فوجده متفكّرا فسأله عن سبب تفكره فقال يا أخي أظن أن أكون ثاني الشهيدين لأني رأيت البارحة في المنام أن السيد المرتضى علم الهدى رضي الله عنه عمل ضيافة جمع فيها العلماء الإمامية بأجمعهم في بيت فلمّا دخلت عليهم قام السيد المرتضي ورحّب بي وقال لي يا فلان اجلس بجنب الشيخ الشهيد فجلست بجنبه فلما استوى بنا المجلس انتبهت. ومنامي هذا دليل ظاهر على أني أكون تالياً له في الشهادة.(انتهى).

قيل في تاريخ وفاته (تاريخ وفاة ذلك الأوّاه الجنة مستقرة والله) رضوان الله عليه حيث قال: " كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعته بقدر ما يمكن الصلاة فيه ليكون أجمع للهمّ " ولكن من المعلوم أن هذا لا يرفع المانع ولا يقلع المادة لان العمدة هي تصرّف الخيال فإن الخيال يعمل عمله بحصول منشأ جزئي له بل ربما يكون تصرف الخيال والواهمة في البيت المظلم والصغير وفي حال الوحدة أكثر، ويتمسكان لأجل الدعابة واللهو بمبادئ أخرى فيتوقف حينئذ قلع

المادة بالكلية على إصلاح الخيال والوهم ونحن نشير بعد ذلك إليه. نعم هذا النحو من العلاج ربما لا يكون في بعض النفوس بلا تأثير وخاليا من الإعانة ولكننا بصدد العلاج القطعي ونتطلب السبب الحقيقي للقلع وهو لا يحصل بما ذكر.

وربما يكون تشتت الخاطر والمانع عن حضور القلب من الأمور الباطنية وعمدة المنشأ له على نحو كلّي أمران إليهما ترجع عمدة الأمور الأخر.

الأول: إن طائر الخيال هو بنفسه فرّار يتعلق دائما كطائر من غصن إلى غصن ويطير من إفريز إلى إفريز وهذا ليس مرتبطا بحب الدنيا والتوجه بأمور دنيّة ومال دنيوي بل كون الخيال فرّارا مصيبة يبتلي بها الناس حتى التاركين للدنيا. وتحصيل سكون الخاطر وطمأنينة النفس وتوقف الخيال من الأمور المهمة التي بإصلاحها يحصل العلاج القطعي، ونحن نشير إليه بعد ذلك.

الأمر الثاني الموجب لتشتّت الخاطر هو حب الدنيا وتعلق الخاطر بالحيثيات الدنيوية التي هي رأس الخطايا وأم الأمراض الباطنية، وهذا التعلّق هو شوك طريق أهل السلوك ومنبع المصيبات، وما دام القلب متعلقا به، ومنغمرا في حب الدنيا فالطريق لإصلاح القلوب مسدود، وباب جميع السعادات في وجه الإنسان مغلق ونحن نشير إلى رفع هذين المنشأين العظيمين والمانعين القويين ضمن فصلين إن شاء الله.

الفصل الحادي عشر

في بيان الدواء النافع في علاج كون الخيال فرار

الذي يحصل منه حضور القلب أيضا

فاعلم أن كلا من القوى الظاهرية والباطنية من النفس قابل للتربية والتعليم بارتياض مخصوص، فعين الإنسان مثلا لا تقدر أن تنظر إلى نقطة معيّنة أو إلى نور شديد كنور عين الشمس مدة طويلة من دون أن تغمض ولكن إذا ربّاها كبعض أصحاب الرياضات الباطلة لمقاصدهم فيمكن أن تنظر إلى عين الشمس ساعات مديدة من دون أن تغمض عينه أو يجد فيها تعبا، وكذلك يمكن له أن ينظر إلى نقطة معيّنة ساعات من دون أي حركة وكذلك سائر القوى حتى حبس النفس فإن في أصحاب الرياضات الباطلة أفرادا يحبسون أنفاسهم مدة زائدة عما هو متعارف عليه.

ومن القوى التي تقبل التربية قوة الخيال وقوة الواهمة فإنهما قبل التربية كطائر فرار ومتحرك بلا نهاية يطير من غصن إلى غصن ويتحرك من شيء إلى شيء آخر بحيث أن الإنسان إذا حاسبها دقيقة واحدة يرى أنها انتقلت مسلسلة إلى أشياء بمناسبات ضعيفة جدا وارتباطات غير متناسبة حتى ظنّ كثير من العلماء أن حفظ طائر الخيال طائعا من الأمور الخارجة عن حيّز الإمكان وملحق بالمحالات العادية، ولكن الأمر ليس كذلك ويمكن تطويعه بالرياضة والتربية وصرف الوقت بحيث يكون طائر الخيال في قبضته لا يتحرك إلاَّ بإرادته واختياره فيحبسه متى أراد في أي مقصد أو أي مطلب بحيث يكون في ذلك المقصد ساعات.

والطريق العمدة لهذا التطويع هو العمل على الخلاف وطريقه إن الإنسان حينما يريد أن يصلي يهيئ نفسه بأن يحفظ خياله في الصلاة ويحبسه في العمل وبمجرد أن الخيال يريد أن يفّر من يد الإنسان يسترجعه فورا ويلتفت إلى حاله في جميع حركات الصلاة وسكناتها وأذكارها وأعمالها ويفتش عن حاله ولا يدعه بحاله، وهذا في أول الأمر ربما يبدو أمرا صعباً، ولكنه بعدما عمل فيه مدة بدقة وعلاج يصير طائعا حتما ويرتاض على الإطاعة، فأنت لا تتوقع أن تتمكن في أول الأمر من حفظ طائر الخيال في جميع الصلاة فإن هذا أمر غير ممكن ومحال البتة ولعل الذين ادّعوا استحالة هذا الأمر كانوا يتوقّعون ذلك ولكن هذا الأمر لابد أن يكون بكمال التدريج والتأنّي والصبر والتأمل فيمكن أن يحبس الخيال في أول الأمر في عشر من الصلاة ويحصل حضور القلب في عشر منها وبالتدريج إذا كان الإنسان بصدده ويرى نفسه محتاجا إليه فيصل إلى نتيجة أكثر. وشيئا فشيئا يتغلّب على شيطان الوهم وطائر الخيال بحيث يكون في أكثر حال الصلاة زمام

الاختيار بيده، ولا بد للإنسان إلاَّ ييأس فإن اليأس هو المنبع للوهن والضعف كله ونور الرجاء في القلب يوصل الإنسان إلى كمال سعادته، ولكن العمدة في هذا الباب هو حسّ الاحتياج الذي هو فينا قليل وان قلوبنا لم تؤمن بأن رأس المال في سعادة العالم الآخر ووسيلة العيش في الأيام غير المتناهية هو الصلاة، نحن نحسب أن الصلاة أمر مفروض علينا ونراها تكليفا وتحميلا.

إن حبّ الشيء يحصل من إدراك نتائجه فنحن نحب الدنيا فقد أدركنا نتيجتها وآمنت قلوبنا بها ولهذا لا نحتاج في اكتساب الدنيا إلى الدعوة والوعظ والاتعاظ.

وانّ الذين يظنّون أن الدعوة النبي الخاتم والرسول الهاشميّ صلى الله عليه وآله جهتين دنيوية وأخروية، ويحسبون هذا فخرا لصاحب الشريعة وكمالا لنبوّته، فهؤلاء ليس عندهم معرفة عن الدين وهم عن مقصد النبوّة ودعوتها غافلون.

إن الدعوة إلى الدنيا خارجة عن مقصد الأنبياء العظام بالكلّية ويكفي في الدعوة إلى الدنيا حسّ الشهوة والغضب والشيطان الباطن والظاهر ولا تحتاج إلى بعث الرسل. إن إدارة الشهوة والغضب لا تحتاج إلى القرآن والنبي، وإنما الأنبياء بعثوا لينهوا الناس عن التوجّه إلى الدنيا وإنهم ليقيّدون إطلاق الشهوة والغضب ويحدّدون موارد المنافع. والغافل يظن أنهم يدعون إلى الدنيا، إن الأنبياء يقولون إن المال لا يجوز تحصيله كيفما كان. ونار الشهوة لا يجوز إطفاؤها بأيّ نحو بل لا بدّ من إطفائها عن طريق النكاح، وهكذا تحصيل فلا بدّ يكون عن طريق التجارة والصناعة والزراعة مع أن في أصل الشهوة والغضب إطلاقا، فالأنبياء يصدّون طريق إطلاقهما لا إنهم يدعون إلى الدنيا، فروح الدعوة إلى التجارة هو التقييد والنهي عن الأكل بالباطل، وروح الدعوة إلى النكاح هي تحديد الطبيعة والنهي عن الفجور وعن إطلاق قوة الشهوة.

نعم إنهم عليهم السلام ليسوا مخالفين على الإطلاق، فإن المخالفة على الإطلاق مخالفة للنظام الأتمّ.

وبالجملة نحن لما أحسسنا الاحتياج إلى الدنيا وجدناها رأس مال للحياة ومنبعا للّذات نتوجّه إليها ونسعى في تحصيلها فإذا آمنّا بالحياة الآخرة وأحسسنا أنا محتاجون إلى العيش هناك والعبادات كلها والصلاة على الخصوص رأس مال للعيش في ذلك العالم ومنبع لسعادات تلك النشأة فلا محالة نسعى في تحصيله ولا نجد لأنفسنا في هذا السعي والاجتهاد أي تعب أو مشقة أو تكلّف، بل نكون بصدد تحصيله مع الاشتياق والشوق الكامل ونحصّل شرائط حصوله و قبوله بإقبال من أرواحنا وقلوبنا، فهذه البرودة التي فينا إنما هي من برودة أشعة الإيمان وهذا الوهن الذي نجده إنما هو من وهن أساس الإيمان ولو كانت أخبار الأنبياء والأولياء عليهم السلام وبراهين الحكماء والعرفاء عليهم الرضوان أوجدت في أنفسنا مجرد الاحتمال بالصدق لكان اللازم

علينا أن نقوم بالأمر ونجتهد في تحصله بأحسن مما نحن فيه ولكن مع الآلاف مــن الأســف فــإن الشيطان قد تسلّط على باطننا وتصرّف بمجامع قلوبنا ومسامع باطننــا وهــو لا يــدع كــلام الحــق وأنبيائه وكلمات العلماء ومواعظ الكتاب الإلهي تصل إلى سمعنا، فسمعنا الآن إنمــا هــو الــسمع الحيواني الدنيوي ومواعظ الحق تعالى لا تتجاوز الحد الظاهر، ولا تصل إلى الباطن، وذلك لمــن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومن الوظائف المهمة للسالك إلى الله والمجاهد في سبيل الله أن يرفع اليد بالكلية فــي خــلال مجاهدته وسلوكه عن الاعتماد على نفسه ويكون بجبلته متوجها إلــى مــسبّب الأســباب وبفطرتــه متعلقا بمبدأ المبادئ ويتطلب من ذاته المقدسة العصمة والحفظ ويعتمد على تأييد ذاتــه الأقــدس ويتضرع في خلواته إلى حضرته ويطلب إصلاح حاله مع كمال الجد في الطلب منه تعالى فانه لا ملجأ دون ذاته المقدسة والحمد لله.

الفصل الثاني عشر

في الإشارة إلى أن حب الدنيا منشأ لتشتت الخيال ومانع من حضور القلب وفي بيان علاجه بالمقدار الميسور

فليعلم أن القلب بحسب فطرته إذا تعلّق بشيء وأحبه يكون ذاك المحبوب قبلة لتوجّهه وان شغله أمر ومنعه عن التفكر في حال المحبوب وجمال المطلوب فبمجرّد أن يخفّ الاشتغال ويرتفع ذلك المانع يطير القلب شطر محبوبة فورا ويتعلق بذيله، فأهل المعارف وأرباب الجذبة الإلهية إذا كانت قلوبهم قوية وصاروا متمكنين في الجذبة والحب فيشاهدون في كل مرآة جمال المحبوب وفي كل موجود كمال المطلوب ويقولون: " ما رأيت شيئا إلاَّ ورأيت الله فيه ومعه ".

وان سيدهم أن قال " لَيُغان على قلبي واني لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة " إنما ذلك لأجل أنّ مشاهدة جمال المحبوب في المرآة خصوصا المرائي الكدرة، كمرآة أبي جهل هي بنفسها موجبة للكدورة في قلوب الكمّل و إذا كانت قلوبهم غير قوّية ويكون الاشتغال بالكثرات مانعا عن الحضور، فبمجرد أن الاشتغال تطير قلوبهم إلى وكر القدس وتتعلق بجمال الجميل. والطالبون لغير الحق أيضا الذين هم عند أهل المعرفة كلهم طالبون للدنيا فما يكون مطلوبا لهم فهم يتوجهون إليه ويتعلّقون به فهؤلاء إن كانوا مفرطين في حب محبوبهم ويكون حب الدنيا آخذا بمجامع قلوبهم فلا ينسلبون عن التوجه إليه في وقت ويعيشون مع جمال محبوبهم على كل حال ومع كل شيء وأمّا إذا كان حبّهم للحق قليلاً فقلوبهم في وقت الفراغ ترجع إلى محبوبها وأما الذين يكون في قلوبهم حب المال والرياسة والشرف فأولئك يشاهدون مطلوبهم في المنام أيضا ويتفكرون في محبوبهم في يقظتهم، وما داموا يشتغلون بالدنيا فهم يعتنقون محبوبهم فإذا حان وقت الصلاة وحصل للقلب فراغ فانه يتعلق بمحبوبه فورا فكأنما تكبيرة الإحرام هي مفتاح دكان أو رافعة للحجاب بينه وبين محبوبه فيتنبّه وقد سلم في صلاته وما توجّه إليها أصلا وهو في جميع الصلاة كان معتنقا فكر الدنيا، فلهذا نرى أن الصلاة في مدى أربعين أو خمسين سنة ما أثرت في قلوبنا غير الظلمة والكدورة وما هو معراج قرب جناب الحق ووسيلة الأنس بذلك المقام المقدس قد صرنا مهجورين به من ساحة القرب وأبعدنا عن مقام الأنس بفراسخ، ولو كان في صلاتنا رائحة العبودية لكانت ثمرتها المتربة والتواضع لا العجب والكبر والافتخار التي يصلح كل واحد منها سببا مستقلا وموجبا منفردا لهلاك الإنسان وشقاوته.

وبالجملة فإن قلوبنا لما كانت مختلطة بحب الدنيا وليس لها مقصد ولا مقصود غير تعميرها فلا محالة أن هذا الحب مانع من فراغ القلب وحضوره في ذلك المحضر القدسيّ، وعلاج هذا المرض المهلك والفساد المبيد هو العلم والعمل النافعان.

أما العلم النافع لهذا المرض فهو التفكر في ثمراته ونتائجه والمقايسة بينها وبين مضاره ومهالكه الحاصلة منه. وكاتب هذه الأوراق قد كتب في شرح الأربعين شرحا في هذا الباب وفسّر الموضوع فيه بالمقدار الميسور، وهنا في هذا المجال أيضا نكتفي بشرح بعض أحاديث أهل بيت العصمة.

في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: " رأس كل خطيئة حب الدنيا ". والروايات بهذا المضمون كثيرة مع اختلاف في التعبير ويكفي للإنسان اليقظان هذا الحديث الشريف، ويكفي لهذه الخطيئة العظيمة المهلكة أنها منبع لجميع الخطايا وأساس جميع المفاسد، فبقليل من التأمل يعلم أن جميع المفاسد الخلقية والعملية على التقريب من ثمرات هذه الشجرة الخبيثة فما أسّس في العالم دين كاذب ولا مذهب باطل وما اتفق في الدنيا فساد إلاّ بواسطة هذه الموبقة العظيمة. وإنّ القتل والنهب والظلم والتعدي هي نتائج هذه الخطيئة. وان الفجور والفحشاء والسرقة وسائر الفجائع وليدة هذه الجرثومة للفساد، والإنسان الذي وقر فيه هذا الحب مجانب لجميع الفضائل المعنوية، وان الشجاعة والعفّة والسخاء والعدالة التي هي مبدأ جميع الفضائل النفسانية لا تجتمع مع حب الدنيا، وان المعارف الإلهية والتوحيد في الأسماء والصفات والأفعال والذات وتطلب الحق ورؤية الحق متضادة مع حب الدنيا وان طمأنينة النفس وسكون الخاطر واستراحة القلب التي هي روح السعادة في الدنيا لا تجتمع مع حب الدنيا وان غنى القلب والكرامة وعزّة النفس والحرية كلها من لوازم عدم الاعتناء بالدنيا، كما أن الفقر والذلّة والطمع والحرص والرقّيّة والتملّق من لوازم حب الدنيا، وان العطف والرحمة والمواصلة والمودة والمحبة متعارضة مع حب الدنيا، وان البغض والحقد والجور وقطع الرحم والنفاق وسائر الأخلاق الفاسدة وليدة أم الأمراض هذه.

وفي مصباح الشريعة قال الصادق علية السلام " الدنيا بمنزلة صورة رأسها الكبر وعينها الحرص وأذنها الطمع ولسانها الرياء ويدها الشهوة ورجلها العجب وقلبها الغفلة وكونها الفناء وحاصلها الزوال فمن أحبها أورثته الكبر ومن استحسنها أورثته الحرص ومن طلبها أوردته إلى الطمع ومن مدحها ألبسته الرياء ومن أرادها مكّنته من العجب ومن اطمأنّ إليها أولته الغفلة ومن أعجبته متاعها أفتنته ومن جمعها وبخل بها ردّته إلى مستقرها وهي النار ".

وروى الديلمي (هو أبو محمد الحسن بن أبي الحسن محمد الديلمي الشيخ المحدّث الوجيه النبيه صاحب كتاب إرشاد القلوب المعروف الذي قال في مدحه السيد علي خان كما في(ضا) :

هــــذا كتـــاب فـــي معانيـــه حــــسن || للـــــديلمي أبـــــي محمـــــد الحـــــسن
أشهى إلـى المـضنى العليـل مـن الـشفا || وألــذّ فــي العينــين مــن غمــض الوســن

وله أيضا في مدحه :

إذا ضــــلت قلـــوب عـــن هـــداها || فلــــم تــــدر العقــــاب مــــن الثــــواب
فأرشــــــدها جــــــزاك الله خيـــــرا || بإرشـــــاد القلـــــوب إلـــــى الـــــصواب

وله كتاب غرر الأخبار ودرر الآثار، وأعلام الدين في صفات المؤمنين. و الظاهر أنه كـان فـي عصر الشهيد الأول وينقل عنه الشيخ ابن فهد في عدّة الداعي بعنـوان الحـسن بـن أبـي الحـسن الديلمي قيل إن حديث الكساء المشهور الذي يعدّ من منفردات منتخب الطريحي موجود في غرر هذا الشيخ.) في إرشاد القلوب عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في ليلة المعراج ممّا خاطب الله به نبيه ″ يا أحمد لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض وصـام صـيام أهل السماء والأرض وطوى من الطعام مثل الملائكة ولبس لباس العابدين ثم أرى في قلبـه مـن حب الدنيا ذرة أو سمعتها أو رياستها أو حيلتها أو زينتها لا يجاورني في داري ولأنزعنّ من قلبـه محبّتي ولأظلمنّ قلبه حتى ينساني ولا أذيقه حلاوة محبّتي ″. (أقول: ما بين القوسين لم يكـن فـي النسخة المطبوعة وإنما نقلته من ترجمة الأستاذ دام ظلّه). والأحاديث في هذا الباب أكثـر مـن أن تسعها هذه الأوراق، فإذا علم أن حبّ الدنيا هو مبدأ ومنشأ جميع المفاسد فعلى الإنـسان العاقـل المعتني بسعادته أن يخلع هذه الشجرة بجذورها عن القلب.

وأما طريق العلاج العلمي فهي أن يعامله بالضدّ فإذا كان تعلقه بمال ومنال فانه يقطع جذورها عن القلب ببسط اليد والصدقات الواجبة والمستحبة، وان مـن أسـرار الـصدقات تقليـل العلاقـة بالدنيا، ولهذا يستحبّ للإنسان أن يتصدّق بالشيء الذي يحبّه ويتعلق قلبه به، كما قـال الله تعـالى في كتابه الكريم: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾. (آل عمران ٩٢).

وان كانت علاقته بفخر وتقدّم ورياسة واستطالة فليعمل ضدّها ويرغم النفس حتى تـصير إلـى الصلاح، وليعلم الإنسان أن الدنيا بمثابة أنه كلّما اتبعها أكثر وكان في صدد تحصيلها أكثر تكـون علاقته بها أكثر ويكون أسفه على فقدانها أزيد، فكأنّ الإنسان دائما طالبك لشيء لا يناله فهو يظن أنه طالب للحد الفلاني من الدنيا فما دام فاقدا لذلك الحد فإنه يطلبه ويتحمل في سبيل تحـصيله المشاق ويلقي بنفسه إلى المهالك، وبمجرد أن ينال ذلك الحد من الدنيا يغدو في نظره أمرا عاديا. ويرتبط عشقه وعلاقته بشيء آخر فوق ذلك الحد فيتعب نفسه له ولا تطفأ نار عشقه أبداً بل تزداد

اتّقادا يوما فيوما ويشتدّ تعبه ومشقّته أكثر وليس لهذه الفطرة والجبلة توقف أبدا، وأهل المعرفة قد أثبتوا بهذه الفطرة كثيراً من المعارف بيانها خارج عن مجال هذه الأوراق، وقد أشير إلى بعض هذه المطالب في الأحاديث الشريفة كما في الكافي الشريف عن باقر العلوم عليه السلام :

" مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القزّ كلما ازدادت من القزّ على نفسها لفّا كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً ". وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: " مثل الدنيا كماء البحر كلما شربه إنسان عطشان يزيد عطشه حتى يقتله ".

فأنت يا طالب الحق والسالك إلى الله إذا طوّعت طائر الخيال وقيّدت شيطان الواهمة وخلعت نعليَ حبّ النساء والأولاد وسائر الشؤون واستأنست بجذوة نار العشق لفطرة الله وقلت إني آنست نارا ووجدت نفسك خاليا من موانع السير وهيّأت أسباب السفر فقم من مكانك واهجر هذا البيت المظلم للطبيعة والمعبر الضيق المظلم للدنيا واقطع سلاسل الزمان وقيوده وانج بنفسك من هذا السجن وأطر طائر القدس إلى محفل الأنس.

تووراز كنكره عرش ميزننـد صفير   نـدانمت كه درايـن دامكه جه افتاده

(البيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي

تنادى من العرش العظيم ولا أدري   لماذا مقيم أنت في ذلك الفخ)

فقو عزمك وأحكم إرادتك فان أول شرط للسلوك هو العزم وبدونه لا يمكن أن يسلك طريق ولا ينال كمال، والشيخ الأجلّ شاه آبادي، روحي فداه كان يعبّر عنه بلبّ الإنسانية بل يمكن أن يقال أن، من إحدى الجهات المهمة للتقوى والتجنّب عن المشتهيات النفسانية وترك أهوائها والرياضات الشرعية والعبادات والمناسك الإلهية تقوية العزم وانقهار القوى الملكية تحت ملكوت النفس كما ذكر من قبل، ونحن نختم الآن هذه المقالة بالتحميد والتسبيح للذات المقدسة الكبريائية جلّ وعلا وبالثناء على السيد المصطفى والنبي المجتبى وآله الأطهار عليم السلام، ونستمدّ لهذا السفر الروحاني والمعراج الإيماني من تلك الذوات المقدسة.

المقالة الثانية

في مقدمات الصلاة وفيها خمسة أبواب

الباب الأول: في التطهيرات والوضوء وآدابهما

وفيه سبعة فصول

الفصل الأول

في التطهيرات الثلاثة

كما أشرنا سابقا أن للصلاة غير هذه الصورة لحقيقة، وغير هذا الظاهر لباطنا، فكما أن لظاهرها آدابا وشروطا صورية وكذلك لباطنها أيضا آدابك وشروطك ولا بد للسالك من مراعاتها فللطهارة الصورية آداب وشروط صورية خارج بيانها عن وظيفة هذه الأوراق، وفقهاء الجعفرية أعلى الله كلمتهم ورفع الله درجتهم قد بيّنوها. وأما الآداب الباطنية والطهور الباطني فنحن نبيّنها على نحو الإجمال.

فليعلم أنه طالما كانت حقيقة الصلاة هي العروج إلى مقام القرب والوصول إلى مقام حضور الحق جلّ وعلا فللوصول إلى المقصد الأعلى والغاية القصوى يلزم طهارات غير هذه الطهارات، وأشواك هذا الطريق وموانع هذا العروج هي قذارات لا يتمكن السالك مع اتصافه بإحدى تلك القذارات من الصعود إلى هذه المرقاة والعروج بهذا المعراج وما يكون من قبيل تلك القذارات فهو موانع الصلاة ورجس الشيطان وما يكون معينا للسالك في السير، ومن آداب الحضور فهو من شروط هذه الحقيقة ويلزم للسالك إلى الله في بداية الأمر رفع الموانع أولا كي يتّصف بالطهارة ويتيسّر له الطهور الذي هو من عالم النور، وما دام السالك لم يتطهّر من جميع القذارات الظاهرية والباطنية والعلنيّة والسرية لا يكون له أي حظ من المحضر والحضور.

فأول مرتبة من مراتب القذارات هي تلوّث الآلات والقوى الظاهرية للنفس بلوث المعاصي وتقذرها بقذارة المعصية لوليّ النعم، وهذه هي الشبكة الصورية لإبليس، وما دام الإنسان مبتلى بهذه الشبكة فهو عن فيض المحضر وحصول القرب الإلهي محروم ولا يظنّن أحد أنه يمكن أن يرقى إلى مقام حقيقة الإنسانية من دون تطهير ظاهر مملكة الإنسانية، أو انه يستطيع أن يطهّر باطن قلبه من دون تطهير ظاهره، وهذا الظّن غرور من الشيطان ومن مكائده العظيمة وذلك لان الكدورات والظلمات القلبية تزداد بالمعاصي التي هي غلبة الطبيعة على الروحانية، وما دام السالك ما افتتح المملكة الظاهرية فهو محروم بالكلية من الفتوحات الباطنية التي هي المقصد الأعلى ولا ينفتح له طريق إلى السعادة، فأحد الموانع الكبيرة لهذا السلوك هو قذارات المعاصي التي لابدّ أن تطهّر بماء التوبة النصوح الطاهر الطهور، وليعلم أن جميع القوى الظاهرية والباطنية التي أعطانا الله إياها وأنزلها من عالم الغيب هي أمانات إلهية كانت طاهرة عن جميع القذارات وكانت طاهرة مطهّرة بل كانت متنورة بنور الفطرة الإلهية وبعيدة عن ظلمة تصرّف إبليس وكدورته، فلما نزلت

إلى ظلمات عالم الطبيعة وامتدت يد تصرّف شيطان الواهمة ويد الخيانة الإبليسية إليها خرجت عن الطهارة الأصلية والفطرة الأولية وتلوّثت بأنواع القذارات والأرجاس الشيطانية. فالسالك إلى الله إذا تمسك بذيل عناية ولّي الله وأبعدها عن أن تتناولها يد الشيطان وطهّر المملكة الظاهرية وردّ الأمانات الإلهية كما أخذها فهو ما خان الأمانة حينئذ وإن صدرت منه خيانة فهو مورد للغفران والستارية فيستريح خاطره من ناحية الظاهر ويقوم بتخلية الباطن من أرجاس الأخلاق الفاسدة وهذه هي المرتبة الثانية من القذارات التي فسادها أكثر وعلاجها أصعب، وعند أصحاب الارتياض أهم لأنه ما دام الخلق الباطني للنفس فاسدا والقذارات المعنوية محيطة بها لا تليق بمقام القدس وخلوة الأنس بل مبدأ فساد المملكة الظاهرية للنفس هو الأخلاق الفاسدة والملكات الخبيثة لها وما دام السالك لم يبدّل بالملكات السيئة الملكات الحسنة فليس مأمونا عن شرور الأعمال. وإذا وُفّق للتوبة والاستقامة عليها التي هي من المهمات لا تتيسّر له. فتطهير الظاهر أيضا متوقف على تطهير الباطن مضافا إلى أن القذارات الباطنية موجبة للحرمان من السعادة ومنشأ لجهنم الأخلاق التي هي كما يقول " أهل المعرفة " أشدّ حرّاً من جهنم الأعمال، وقد أشير كثيراً إلى هذا المعنى في أخبار أحاديث أهل بيت العصمة. فيلزم السالك إلى الله هذه الطهارة أيضا.

وبعد أن غُسل عن روح النفس التلوث بالأخلاق الفاسدة بماء العلم النافع الطاهر الطهور وبارتياض شرعي صالح يشتغل حينئذ بتطهير القلب الذي هو أم القرى وبصلاحه تصلح المملكة وبفساده تفسد كلها. وقذارات عالم القلب مبدأ القذارات كلها وهي عبارة عن تعلّقه بغير الحق وتوجّهه إلى نفسه إلى العالم، ومنشؤها جميعا حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة وحبّ النفس الذي هو أمّ الأمراض. وما دامت جذور هذه المحبة في قلب السالك لا يحصل فيها أثر من محبة الله ولا يهتدي طريقا إلى منزل المقصد والمقصود، ومادام للسالك في قلبه بقايا من هذه المحبة لم يكن سيره إلى الله بل يكون سيره إلى النفس و إلى الدنيا و إلى الشيطان، فالتطهير عن حب النفس والدنيا هو أول مرتبة تطهير السلوك إلى الله في الحقيقة لأنه قبل هذا التطهير ليس السلوك سلوكا وإنما يطلق السلوك والسالك على سبيل المسامحة (وقال بعض علماء الآخرة في المقام بعد ذكر بعض الآيات والروايات فتفطّن ذوو البصائر بهذه الظواهر، إن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وآله: " الطهور نصف الإيمان " عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإنقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحونا بالأخباث والقذارات هيهات هيهات.. ثم قال: والطهارة لها أربع مراتب. المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات. المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام. المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة. المرتبة الرابعة: تطهير السرّ عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء

صلوات الله عليهم والصدّيقين. والطهارة في كل مرتبة نصف العمل الذي هو فيها فان الغاية القصوى من عمل السرّ أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته ولن تحلّ معرفة الله تعالى بالحقيقة في السرّ ما لم يرتحل ما سوى الله تعالى عنه. ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام ٩١).. لأنهما لا يجتمعان في قلب واحد.

﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (الأحزاب ٤) وأما عمل القلب والغاية القصوى فيه عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة، ولن يتّصف بها ما لم ينظّف من نقائضها من العقائد الفاسدة والرذائل الممقوتة، فتطهيره أحد الشطرين، وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني فكان الطهور شطر الإيمان بهذا المعنى، وكذلك تطهير الجوارح عن المناهي أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول وعمارتها بالطاعات الشطر الثاني.

فهذه مقامات الإيمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية إلاَّ أن يجاوز الطبقة السافلة فلا يصل إلى طهارة السر من الصفات المذمومة وعمارته بالخلق المحمود، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ من طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات وكلما عزّ المطلوب وشرف، صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته. فلا تظن أن هذا الأمر يدرك وينال بالهوينى.

انتهى موضع الحاجة من كلامه أقول: ومن طلب العلى سهر الليالي) ومن وراء هذا المنزل منازل البلاد السبعة لعشق العطار يظهر النموذج منها للسالك وذاك القائل رأى نفسه في أول منعطف من زقاقها (إشارة إلى الشعر المعروف للعارف الرومي يقول فيه:

هفت شعر عشق را عطّار كَشت | ما هنوز اندر خم يك كوجه ايم

يعنى أن عطّار النيشابوري (العارف المعروف) سار ودار في المدن السبعة التي هي مدن العشق وبلاده ولكنّا مع الأسف إلى الآن لم نتجاوز من منعطف زقاق واحد لتلك المدن). ونحن وراء الأسوار والحجب الضخمة ونحسب تلك البلاد وحكامها من الأساطير.

أنا لست أركز على الشيخ العطار (هو فريد الدين محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالشيخ العطّار صاحب الأشعار والمصنّفات في التوحيد والحقايق والمعارف وله أشعار في مدح مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام وفي ذمّ الدنيا. توفي سنة ٤٢٧ (خكز) بعد عمر طويل وقيل أنّه قُتل في فتنة التتر وقبره خارج نيسابور معروف. وميثم التمّار الصحابي المعروف). أو على ميثم التمّار ولكن لا أنكر المقامات من أصلها وأتطلب صاحبها بالقلب والروح وأرجو الفرج لهذه المحبة وأنت كن كما شئت واتصل مع من شئت :

مدّعي خواست كه آيد بتماشا كه راز | دست غيب آمد وبر سينه نا محرم زد

(البيت للعارف الحافظ الشيرازي يقول: أراد المدّعي أن يدخل منتزه السرّ فظهرت اليد الغيبية وضربت في صدر المدعي وردّه عن الورود لأنه ما كان محرماً للسرّ. فبيّن أن من شروط الدخول في حرم سرّ الله رفض الدعوى وترك الأنانية).

ولكن لم أكن خائنا للأحباء العرفانيين في الأخوة الإيمانية ولا أضيق بالنصيحة لهم التي هي من حقوق المؤمنين.

فإن أعظم القذارات المعنوية التي لا يمكن تطهيرها بسبعة أبحر وأعجزت الأنبياء العظام هي قذارة الجهل المركب الذي هو منشأ الداء العضال إلاَّ وهو إنكار مقامات أهل الله وأرباب المعرفة ومبدأ سوء الظنّ لأصحاب القلوب، وما دام الإنسان ملوّثا بهذه القذارة لا يتقدّم خطوة إلى المعارف بل ربما تطفئ هذه الكدورة نور الفطرة الذي هو مصباح طريق الهداية وينطفئ بها نار العشق التي هي براق العروج إلى المقامات ويخلّد الإنسان في أرض الطبيعة، فاللازم على الإنسان أن يغسل هذه القذارات عن باطن القلب بالتفكر في حال الأنبياء والأولياء الكمل صلوات الله عليهم وتذكر مقاماتهم و إلاَّ يقنع بالحدّ الذي هو فيه فإن الوقوف على الحدود والقناعة في المعارف، من التلبيسات العظيمة لإبليس والنفس الأمّارة نعوذ بالله منها، وحيث أن هذه الرسالة كتبت على وفق ذوق العامة فقد أمسكنا عن التطهيرات الثلاثة للأولياء والحمد لله. (بالاستئذان من حضرة الأستاذ أشير إلى التطهيرات الثلاثة للأولياء وأن كان لا يخلو عن التجاسر وسوء الأدب عند أرباب المعنى.

فأقول: المرتبة الأولى من التطهيرات الثلاثة للأولياء تطهير الأعضاء والجوارح من الأعمال والأفعال البشرية، وهذا التطهير هو نتيجة قرب النوافل كما في الحديث المتفق عليه " لا يزال يتقرّب إلي عبدي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت أنا سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ".

فالسالك الكامل الواصل إذا خرج من بيت النفس المظلم وطوى عالم النفس بالكلية واندك جبل إنّيّته وأنانيته بتجلي الأنوار الربوبية وخرق الحجب النورانية والظلمانية يتجلى الحق تعالى في وجوده فيسمع بالحق ولا يسمع غير الحق ويبصر بالحق ولا يبصر سوى الحق ويبطش بالحق ولا يصدر منه إلاَّ الحق وينطق بالحق ولا ينطق إلاَّ الحق.

فإذا تمكن في هذا المقام وتقرّب إلى الله سبحانه بقدر استعداده فتحصل له المرتبة الثانية من التطهير وهو التطهير من الصفات الخلقية فالجذبات الإلهية الرحمانية تجذبه ويأنس بنار العشق من جانب طور تجلّي الأسماء فتقربه من بساط الأنس، فإن جذبه من جذبات الرحمان توازن عمل الثقلين كما في الحديث ويكون كالحديدة المحماة كما في الحديث أيضاً، فكلما يتمكن من

القرب يتأدّب بالآداب الربوبية المستفادة من قوله صلى الله عليه وآله " أدّبني ربي فأحسن تأديبي ". فتكمل فيه الصفات والملكات الخلقية وتصل جوهرة العبودية إلى كنها وتختفي العبودية وتظهر الربوبية وتتحقق بحقيقة " وتخلّقوا بأخلاق الله ". ثم في منتهى قرب النوافل يصل إلى المرتبة الثالثة من التطهير وهي تطهير الذات وكشف سبحات الجلال ويحصل الفناء الكلّي والصعق التام والاضمحلال المطلق والتلاشي التام ويصير القلب إلهيا ولاهوتيا وتتجلى حضرة اللاهوت في مراتب الباطن والظاهر فيصل على معدن العظمة ويصير روحه معلقا بعزّ القدس كما أشار عليه السلام في المناجاة الشعبانية: " الهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرنا إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور وتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك ". فعند ذلك يكون وجوده حقانيا، والحق تعالى يشاهد الموجودات في مرآة وجوده، وإذا كان إنسانا كاملا فيوافق المشيئة المطلقة، كما ورد في زيارة الأولياء الكمّل " إرادة الربّ في مقادير أموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم " وتكون روحانية عين مقام الظهور الفعلي للحق تعالى كما قال علي عليه السلام: " نحن صنائع الله والخلق بعد صنائعنا " فيه يبصر الحق تعالى وبه يسمع وبه يبطش كما في زيارة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: " السلام على عين الله الناظرة وأذنه الواعية ويده الباسطة السلام على جنب الله الرضي ووجهه المضيء " وربما تستفاد هذه اللطيفة الربانية من حديث قرب النوافل: " كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به.. إلى آخره.. " فليتدبّر.. وفي دعاء رجب: " لا فرق بينك وبينها إلاّ أنهم عبادك وخلقك ".

وليعلم أنه يمكن تطهير الفطرة بعد تلوثها. وما دام الإنسان في هذه النشأة فالخروج من تصرّف الشيطان له مقدور وميسور، والورود في حزب ملائكة الله التي هي جنود رحمانية إلهية له ميسّر. وحقيقة جهاد أعداء الدين كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الخروج من تصرف جنود إبليس والورود تحت تصرّف جنود الله، فأول مرتبة الطهارة هي التسنّن بالسنن الإلهية والائتمار بأوامر الحق.

والمرتبة الثانية هي التحلي بفضائل الأخلاق وفواضل الملكات. والمرتبة الثالثة هي الطهور القلبي وهو عبارة عن تسليم القلب إلى الحق تعالى، وبعد هذا التسليم يصير القلب نورانيا بل يكون القلب نفسه من عالم النور ومن درجات النور الإلهي، ويسري نور القلب إلى سائر الأعضاء والجوارح والقوى الباطنية وتكون المملكة كلها نورا ونورا على نور وينتهي الأمر إلى حد يكون القلب إلهيا ولاهوتيا، وتتجلى حضرة اللاهوت في جميع مراتب الباطن والظاهر، وفي هذه الحال تفنى العبودية كل الفناء وتختفي، فتظهر الربوبية وتبين. ويحصل لقلب السالك في هذه الحال الطمأنينة والأنس ويصير جميع العوامل محبوبا له وتحصل له الجذبات الإلهية وتغفر له الخطايا والزلاّت وتستتر في ظلّ التجلّيات الحبّيّة وتحصل له بدايات الولاية ويليق بالورود على محضر الأنس، وللسالك بعد هذا منازل لا يناسب هذه الأوراق ذكرها).

الفصل الثاني

في الإشارة إلى مراتب الطهور

اعلم أن الإنسان مادام في عالم الطبيعة ومنزل مادة الهيولانية فهو تحت تصرفات جنود إلهية وجنود إبليسيه. والجنود الإلهية هي جنود الرحمة والسلامة والسعادة والنور والطهارة والكمال، وجنود إبليس مقابلاتها، وحيث أن الجهات الربوبية غالبة على الجهات الإبليسية فللإنسان في مبدأ الفطرة نور وسلامة وسعادة فطرية إلهية كما صرّح بذلك في الأحاديث الشريفة وأشير إليه في الكتاب الشريف الإلهي، وما دام الإنسان في هذا العالم فهو بقدر الاختيار يستطيع أن يجعل نفسه تحت تصرّف أحد هذين الجنديين، فإذا لم يكن لإبليس من أول فطرة الإنسان إلى آخرها تصرّف في فطرته فهو إنسان الهي لاهوتي، وهو من قرنه إلى قدمه نور وطهارة وسعادة فقلبه نور الحق ولا يتوجّه لغير الحق وقواه الباطنية والظاهرية نورانية وطاهرة ولا يتصرف فيها سوى الحق وليس لإبليس فيها حظ ولا لجنوده فيها تصرّف. ومثل هذا الموجود الشريف طاهر مطلقا ونور خالص وما تقدم من ذنبه وما تأخّر فهو مغفور له، وهو صاحب الفتح المطلق وواجد لمقام العصمة الكبرى بالأصالة وبقية المعصومين واجدون لذاك المقام تبعا لتلك الذات المقدسة وهو صاحب مقام الخاتمية الذي هو الكمال على الإطلاق، وحيث أن أوصياءه مشتقون من طينته ومتصلون بفطرته فهم أصحاب العصمة المطلقة بتبعة ولهم التبعية الكاملة. وأما بعض المعصومين من الأنبياء والأولياء عليهم السلام فليسوا أصحاب العصمة المطلقة ولم يكونوا خالين من تصرّف الشيطان، كما أن توجّه آدم عليه السلام إلى الشجرة كان من تصرفات إبليس الكبير إبليس الأبالسة مع أن تلك الشجرة الجنة الإلهية ومع ذلك كانت له الكثرة الأسمائية التي تنافي مقام الآدمية الكاملة، وهذا أحد معاني الشجرة المنهي عنها أو أحد مراتبها و إذا تلوّث نور الفطرة بالقذارات الصورية والمعنوية فبمقدار التلوّث يبعد عن بساط القرب ويهجر من حضرة الأنس حتى يصل إلى مقام ينطفئ فيه نور الفطرة بالكلّية وتصير المملكة شيطانية كلها ويكون ظاهرها وباطنها وسرّها وعلنها في تصرّف الشيطان فيكون الشيطان قلبه وسمعه وبصره ويده ورجله وتكون جميع أعماله شيطانية، وإذا وصل أحد ـ والعياذ بالله ـ إلى هذا المقام فهو الشقّي المطلق ولا يرى وجه السعادة أبدا، وبين هاتين المرتبتين مقامات ومراتب لا يحصيها إلاَّ الله وكل من يكون إلى أفق النبوة أقرب فهو من أصحاب اليمين وكل من كان إلى أفق الشيطان أقرب فهو من أصحاب الشمال.

الفصل الثالث

في الآداب القلبية للسالك حينما يتوجه إلى الماء للطهارة

ونذكر في المقام الحديث الشريف لمصباح الشريعة كي يحصل للقلوب الصافية لأهل الإيمان منه نورانية.

ففي مصباح الشريعة قال الإمام الصادق عليه السلام: " إذا أردت الطهارة والوضوء فتقدم إلى الماء تقدمك إلى رحمة الله فإن الله قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته ودليلاً على بساط خدمته، وكما أن رحمة الله تطهّر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غير"، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (الفرقان ٤٨). وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء ٣٠). فكما يحيي به كل شيء من نعيم الدنيا كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب الطاعات. وتفكر في صفاء الماء ورقّته وطهارته وبركته ولطيف امتزاجه بكل شيء واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها، وات بآدابها في فرائضه وسننه فإن تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة، فإذا استعملها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب ثم عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالأشياء يؤدي كل شيء حقّه ولا يتغير معناه معتبرا لقول رسول الله صلى الله عليه وآله مثل المؤمن المخلص الخالص كمثل الماء، ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسمّاه طهورا وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء ".

وفي هذا الحديث لطائف ودقائق وإشارات وحقائق تحيي قلوب أهل المعرفة وتعطي الأرواح الصافية لأصحاب القلوب حياة جديدة. ففي هذا الحديث شبه الماء بل أوله إلى رحمة الحق فمن نكات هذا التشبيه أو التأويل أن الماء أحد المظاهر العظيمة لرحمة الحق التي أنزلها في عالم الطبيعة وجعلها سببا لحياة الموجودات بل أهل المعرفة يعبّرون بالماء عن الرحمة الواسعة الإلهية التي نزلت من السماء رفيعة الدرجات لحضرة الأسماء والصفات فأحيا بها أراضي التعيّنات للأعيان. وحيث أن تجلّي الرحمة الواسعة الإلهية في الماء الملكي الظاهري أكثر من سائر الموجودات الدنيوية جعله الله تعالى لتطهير القذارات الصورية بل ماء الرحمة للحق تعالى إذا نزل وظهر في كل نشأة من نشآت الوجود وفي كل مشهد من مشاهد الغيب والشهود يطهّر ذنوب عباد الله وفقا لتلك النشأة وبما يناسب ذلك العالم.

فماء الرحمة النازل من سماء الأحدية تطهر ذنوب غيبة تعينات الأعيان، وبماء الرحمة الواسعة النازلة من سماء الواحدية تطهر ذنوب عدمية الماهيات الخارجية في كل مرتبة من مراتب الوجود طبقا لتلك المرتبة، وفي مراتب نشآت الإنسانية أيضا لماء الرحمة ظهورات مختلفة كما أنه بالماء النازل من حضرة الذات بالتعينات الجمعية البرزخية تطهر ذنوب سر الوجود " وجودك ذنب لا يقاس به ذنب " وبالماء النازل من حضرات الأسماء والصفات وحضرة التجلي الفعلي تطهر رؤية الصفة والفعل وبالماء النازل من سماء الحضرة الحكم العدل تطهر القذارات الخلقية الباطنية، وبالماء النازل من سماء الحضرة الحكم العدل تطهر القذارات الخلقية الباطنية، وبالماء النازل من سماء الغفارية تطهر ذنوب العباد، وبالماء النازل من سماء الملكوت تطهر القذارات الصورية، فعلم أن الحق تعالى جعل الماء مفتاح قربه ودليل بساط رحمته ثم يعين عليه السلام في الحديث الشريف وظيفة أخرى ويفتح طريقا آخر لأهل السلوك والمراقبة.

يقول عليه السلام: " تفكَّرْ في صفاء الماء ورقته وطهره وبركته ولطيف امتزاجه بكل شيء واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها وائت بآدابها في فرائضه وسننه فإن تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة فإذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب ".

أشار عليه السلام في هذا الحديث الشريف إلى مراتب الطهارة بالطريق الكلية وبيّن أربع مراتب كليّة احدها ما ذكر في الحديث الشريف إلى حد الذي ذكرناه وهو تطهير الأعضاء، وأشار عليه السلام إلى أنّ أهل المراقبة والسلوك إلى الله يلزم إلاَّ يتوقّفوا عند صور الأشياء وظواهرها بل لابدّ أن يجعلوا الظاهر مرآة للباطن ويستكشفوا من الصور الحقائق ولا يقنعوا بالتطهير الصوري فإن القناعة بالتطهير الصوري فخّ إبليس فينتقلوا من صفاء الماء إلى تصفية الأعضاء ويصفونها بأداء الفرائض والسنن الإلهية ويرقّقون الأعضاء برقة الفرائض والسنن ويخرجونها من غلظة التعصي ويسرون الطهور والبركة في جميع الأعضاء ويدركون من لطف امتزاج الماء بالأشياء كيفية امتزاج القوى الملكوتية الإلهية بعالم الطبيعة ولا يدعون القذارات الطبيعية تؤثّر فيها فإذا تلبست أعضاؤهم بالسنن والفرائض الإلهية وآدابها تظهر فوائدها الباطنية بالتدريج وتنفجر عيون الأسرار الإلهية وتنكشف لهم لمحة من أسرار العبادة والطهارة.

ولما فرغ عليه السلام من بيان المرتبة الأولى من الطهارة وكيفية تحصيلها شرع في بيان الوظيفة الثانية وقال: ثم عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالأشياء يؤدي كل شيء حقه ولا يتغّير عن معناه معتبرا لقول رسول الله صلى الله عليه وآله " مثل المؤمن المخلص (الخالص) كمثل الماء " فبيّن عليه السلام في الحكم الأول ما يربط بتعامل الإنسان السالك مع قواه الداخلية وأعضائه، والحكم الثاني الذي هو في هذه الفقرة من الحديث الشريف يرتبط بتعامل الإنسان مع خلق الله وهذا هو

حكم جامع يبيّن كيفية معاشرة السالك للمخلوق ويستفاد منه ضمنا حقيقة الخلوة وهي أن السالك إلى الله في نفس الحال الذي يعاشر كل طائفة من الناس بالمعروف ويرد الحقوق الخلقية ويـراود كل أحد ويعامله بطور يناسب حاله فهو في الوقت نفسه لا يتجاوز عن الحقوق الإلهية ولا يتـرك المعنى من نفسه وهو العبادة والعبودية والتوجّه إلى الحق وفي نفس الحال التي يكـون فيهـا فـي الكثرة يكون في الخلوة وقلبه الذي هو منزل المحبوب خاليا من الأغيار وفارغا مـن كـل صـورة ومثال. (أقول: وقد أشير إلى هذا المعنى في كثير من الأحاديث، ففي نهج البلاغة لعلي عليه السلام في خطبته المعروفة التي يصف فيها المتقين قال (عليه الـسلام): " إن كـان مـن الغـافلين كتـب الذاكرين وان كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين " وفي الكـافي الـشريف روايـات متقاربـة المضمون: إن الله سبحانه أوحى لموسى بن عمران: " يا بن عمران لا تدع ذكري على كل حـال". وقال الصادق عليه السلام: قال الله تعالى " يا بن آدم اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي ". إلى أن قال " اذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملئك ". وقال " ما من عبد يـذكر الله فـي مـلأ مـن الناس إلاَّ ذكره الله في ملأ من الملائكة " وأيضا في الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام قال: " الذاكر لله عز وجل في الغافلين كالمقاتل في المحاربين الغازين".)

ثم ذكر عليه السلام الحكم الثالث وهو كيفية تعامل السالك مع الحق تعـالى، يقـول: " ولـتكن صفوتك مع الله في جميع طاعتك كصفوة الماء حين أنزله من السناء وسمّاه طهورا " يعنـي يلـزم للسالك إلى الله أن يكون خالصا من تصرف الطبيعة ولا يكون لكدورتها وظلمتها طريق إلى قلبـه، وتكون جميع عباداته خالية عن جميع الشرك الظاهري والباطني، وكما أن الماء في وقت نزوله من السماء طاهر وطهور وما امتدّت إليه يد تصرف القذارات كذلك قلب السالك الذي نزل من سماء عالم غيب الملكوت طاهراً ومنزّهـاً لا يتركـه يقـع تحـت تـصرّف الـشيطان والطبيعـة ويتلـوث بالقذارات.

وبعد هذا بين عليه السلام الحكم الأخير وهو وظيفة لأهل الرياضة والسلوك ويقـول: " وطهّـر قلبك بالتقوى واليقين عند تطهير جوارحك بالماء " وفي هذا إشارة إلى مقـامين شـامخين لأهـل المعرفة. الأول: التقوى وكماله ترك غير الحق. والثاني: اليقين وكماله مشاهدة حضور المحبوب.

الفصل الرابع

في الطهور وهو إما الماء وهو الأصل في هذا الباب وإما الأرض.

(قال العارف السعيد القاضي سعيد القمّي ((*ـ هو محمد بن مفيد القُمّي العالم الفاضل الحكيم المتشرع العارف الربّاني والمحقّق الصمداني من أعاظم علماء الحكمة والأدب والحديث. انتهى إليه منصب القضاء في بلده قم.

كان من تلامذة المحقق الفيض الكاشاني والمولى عبد الرزّاق اللاهيجي له مصنفات فائقة منها شرحه على كتاب توحيد الصدوق في مجلّدات والأربعينيات وغير ذلك. وأشهر مصنفاته شرحه على التوحيد وهو مشتمل على الفوائد الكثيرة فلنذكر فائدة مختصرة منها:

روى الصدوق عن أبي عبد الله عليه السلام قال لمّا أمر الله عز وجل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببنيان البيت وتمّ بناؤه أمره أن يصعد ركنا ينادي في الناس إلاَّ هلمّ الحجّ فلو نادى هلمّوا إلى الحج لم يحجّ إلاَّ من كان يومئذ انسيّا مخلوقا ولكن نادى هلمّ الحجّ فلبّى الناس في أصلاب الرجال لبيك داعي الله لبيك داعي الله فمن لبىّ عشرا حجّ عشرا ومن لبّى خمسا حج خمسا ومن لبّى أكثر فبعدد ذلك ومن لبى واحدا حجّ واحدا ومن لم يلبّ لم يحج.

قال القاضي سعيد في معنى الخبر: عندي إن الوجه فيه أن استعمال هلم لمجرّد الأمر وطلب الحضور مع تجريد من خصوصية المخاطب بالأفراد والتذكير والتأنيث، والمعنى ليكن إتيان بالحجّ وليصدر قصد إلى البيت ممّن يأتي منه هذا القصد من أفراد البشر وهذا إنّما يصحّح في صيغة المفرد حيث لم يكن فيه علامة الزيادة لأجل التأنيث والتثنية والجمع بخلاف صيغة الجمع فان الزيادة فيه مانعة عن ذلك كما لا يخفى على المتدرّب في العلوم (انتهى).)) وهو (أي الطهور) أمّا الماء الذي هو سرّ الحياة التي هي العلم ومشاهدة الحيّ القيّوم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا* لِنُحْيِيَ بِهِ﴾ (الفرقان ٤٨ و ٤٩). وقال جل وعلا: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ (الأنفال ١١) وأما التراب الذي هو أصل نشأة الإنسان قال عزّ من قائل ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ (طه٥٥). وقال جلّ جلاله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (النساء ٤٣) وذلك لتتفكر في ذاتك لتعرف من أوجدك ومم أوجدك ولم أوجدك، فتخضع له وترفع التكبّر من رأسك لان التراب هو الأصيل في الذلّة والمسكنة.

ثم إعلم أن ماء الغيث لطيف في غاية الصفا وله مزاج واحدا ولا يمازجه شيء في الخارج فهو في الباطن العلم اللدني الذي له طعم واحد إذ الأنبياء والأولياء كلهم على قول متحد وان اختلفت المشارب والمناهل فليكن معتمدك في طهورك الظاهري والباطني هذا الماء، وأما ماء العيون

والآبار فهو مختلف الطعم بحسب تلك البقعة والأرض التي خرج منها وامتزج بتربتها فهو العلم المستفاد من الأفكار الصحيحة التي لا تخلو من شائبة التغيّر بحسب مزاج المتفكر لأنه ينظر في مواد محسوسة تقوم عليها البراهين، فاختر لنفسك أي الماءين يقرب من ذوقك ويناسب مشربك.. (انتهى).

وكأنّ الإمام أطال الله بقاه ينظر إلى كلام هذا العارف في هذا المبحث ولكن شتّان ما بين الكلامين، فتأمّل تعرف).

اعلم أن للإنسان السالك في الوصول إلى المقصد الأعلى ومقام القرب الربوبي طريقين على نحو كلي أحدهما وله مقام الكلّية والأصالة وهو السير إلى الله بالتوجّه إلى مقام الرحمة المطلقة وخصوصا الرحمة الرحيمية وهي رحمة توصل كل موجود إلى كماله اللائق به، ومن شعب الرحمة الرحيمية ومظاهرها بعث الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم الذين هم هداة السبل والمساعدون للمتأخرين عن السير، بل إن دار التحقق في نظر أهل المعرفة وأصحاب القلوب هي صورة الرحمة الإلهية، والخلائق دائما مستغرقون في بحار رحمة الحق تعالى ولكنهم لا يستفيدون منها.

فهذا الكتاب العظيم الإلهي الذي نزل من عالم الغيب الإلهي والقرب الربوبي، ولأجل استفادتنا نحن المهجورين وخلاصنا نحن المسجونين في سجن الطبيعة والمغلولين في سلاسل أهواء النفس والآمال وقد صار في صورة اللفظ والكلام هو أحد مظاهر العظيمة للرحمة المطلقة الإلهية، وما استفدنا نحن الصم العمي منه بشيء ولا نستفيد. وان الرسول الخاتم والوليّ المطلق الأكرم الذي شرّفنا وقد من محضر القدس ومحفل القرب والأنس الإلهي إلى هذا المنزل منزل الغربة والوحشة وابتلي بمعاشرة أمثال أبي جهل وشرّ منه مراودته وان أنين ليغان على قلبي منه صلى الله عليه وآله قد أحرق قلوب أهل المعرفة والولاية ويحرقها الآن أيضا هو الرحمة الواسعة والكرامة المطلقة الإلهية التي كان قدومها في هذه الدويرة للرحمة على الموجودات وعلى سكنة العالم الأسفل الأدنى وإخراجهم من هذه الدار دار الغربة والوحشة، فهو صلى الله عليه وآله كالحمامة المطوقة التي تلقي نفسها إلى الفخ لتنجي رفقاءها منه.

فلابد للسالك إلى الله أن يرى التطهير بماء الرحمة صورة لاستفادته من الرحمة الإلهية النازلة، وما دامت الاستفادة له ميسورة، لابد أن يقوم بأمرها وإذا قصرت يده عنها بسبب القصور الذاتي أو تقصيره وبسبب فقد ماء الرحمة لم يكن له بدّ من التوجّه بذلّه ومسكنته وفقره وفاقته، فإذا جعل ذلّة عبوديته نصب عينيه وتوجّه باضطراره الذاتي وفقره الذاتي وإمكانه الذاتي وخرج من التعزز والغرور وحب النفس ينفتح له باب آخر من الرحمة وتبدل بأرض الطبيعة أرض الرحمة

البيضاء ويصير التراب أحد الطهورين ويصير موردا لترحم الحق تعالى وتلطفه، وكلما قوي هذا النظر في الإنسان أي النظر إلى ذلّة نفسه يكون موردا للرحمة أكثر. وأما إذا أراد الإنسان أن يسلك هذا الطريق بقدم الاعتماد على النفس وعلى عمله فهو هالك لا محالة لأنه من الممكن إلاَّ يؤخذ بيده فمثله كالطفل الذي يتجاسر على المشي ويغتر بقدمه، ويعتمد على قوته، فمثل هذا الطفل لا يكون موردا لعناية أبيه ويكله الأب إلى نفسه وأما إذا عرض اضطراره وعجزه على جناب الأب الشفيق وخرج عن الاعتماد على نفسه وعلى قوّته بالكلّية فيصير حينئذ موردا لعناية الأب ويأخذ الأب بيده بل يأخذه في حضنه ويمشي به بقدمه فالأحرى بالسالك إلى الله أن يكسر رجل سلوكه وان يستدعي البراءة من الاعتماد على نفسه وارتياضه وعمله بالكلّية وينفى عن نفسه وقدرته وقوّته، ويجعل فناءه واضطراره دائما نصب عينيه حتى يقع دائما موردا للعناية، فربما يسلك حينئذ طريقا يطول سيره مئة سنة في ليلة واحدة بالجذبة الربوبية ، وحينما يفنى عن نفسه وقوته وقدرته ويقول في محضر القدس الربوبي بلسان باطنه وحاله بالعجز والافتقار: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾. (النمل ــ ٦١).

الفصل الخامس

في نبذة من آداب الوضوء الباطنية والقلبية

فمن ذلك ما ورد عن الإمام الرضا (هو الإمام الثامن من أئمة الهدى بضعة سيد الورى مولاي علي بن موسى الرضا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين المعصومين، ولد عليه السلام حادي عشر ذي القعدة يوم الخميس أو يوم الجمعة بالمدينة سنة ١٤٨ ثمان وأربعين ومئة بعد وفاة جدّه الصادق عليه السلام بأيام قليلة ومكارم أخلاقه ومعالي أموره أكثر من أن تحصى وتذكر فعن إبراهيم بن العباس قال: ما رأيت أبا الحسن الرضا عليه السلام جفا أحدا بكلامه قطّ ولا اتّكى بين يدي جليس له قطّ ولا رأيته شتم أحدا من مواليه ومماليكه قطّ ولا رأيته تفل قط ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط بل كان ضحكه التبسّم وكان إذا خلا ونصبت مائدته أجلس معه على مائدته مماليكه حتى البواب والسايس، وكان عليه السلام قليل النوم بالليل كثير السهر يحيي أكثر لياليه من أولها إلى الصبح وكان كثير الصيام فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر ويقول ذلك صوم الدهر. وكان عليه السلام كثير المعروف والصدقة في السرّ وأكثر ذلك يكون منه في الليالي المظلمة فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقوه (انتهى).

وقبض أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام في آخر صفر كما اختاره ابن الأثير والطبرسي والسيد الشبلنجي من سنة ٢٠٣ (رج) ثلاثة ومئتين وهو ابن خمس وخمسين سنة وتوفي بطوس في قرية يقال لها سناباد من نوقان على دعوة ودفن بها صلوات الله عليه. وكتب المأمون إلى أهل بغداد وبني العباس والموالي يعلمهم بموته عليه السلام وأنّهم إنّما نقموا ببيعته وقد مات وسألهم الدخول في طاعته فكتبوا إليه أغلظ جواب.

وقال الصدوق: ولعلي بن أبي عبد الله الخوافي يرثي الرضا عليه السلام :

يا أرض طوس سقاك الله رحمته   ماذا حويت من الخيرات يا طوس

طابت بقاعك في الدنيا وطاب بها   شخص ثوى بسنا آباد مرموس

شخص عزيز على الإسلام مصرعه   في رحمة الله مغمور ومغموس

يا قبره أنت قبر قد تضمّنه   حلم وعلم وتطهير وتقديس

فخراً بأنك مغبوط بجثّته   لملائكة الأبرار محروس)

وإنه عليه السلام: ″ إنما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهرا إذا قام بين يدي الجبّار وعند مناجاته إيّاه مطيعا له فيما أمر نقيّا من الأرجاس والنجاسة مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النعاس وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبّار ″.

فبيّن عليه السلام إلى هنا النكتة (النُكتهْ: المسألة العلمية الدقيقة، يُتَوَصَلُ إليها بدقة، وإنعام فكر (المعجم الوسيط) (الناشر)) من أصل الوضوء ونبّه أهل المعرفة وأصحاب السلوك بأن للوقوف في محضر الحق جلّ وعلا وللمناجاة مع قاضي الحاجات آدابا لابد أن تلاحظ حتى أنه مع القذارات الصورية والكثافات وكسالة العين الظاهرة أيضا لا يحضر في ذلك المحضر فكيف إذا كان القلب معدنا للكثافات ومبتلىً بالقاذورات المعنوية التي هي أصل القذارات مع أن في الرواية: ″ إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم بل ينظر إلى قلوبكم ″. ومع أن ما يتوجّه به الإنسان إلى الحق تعالى وما يليق من العوالم الخلقية أن ينظر إلى كبرياء ونصيب مع ذلك ما أهملت الطهارة الصورية والنظافة الظاهرية فقرروا صورة الطهارة لصورة الإنسان وباطنها لباطنه ومن جعله عليه السلام تزكية القلب في هذا الحديث الشريف من فوائد الوضوء يعلم أن للوضوء باطنا يكون به تزكية الباطن ويعلم أيضا الرابطة بين الظاهر والباطن والشهادة والغيب ويستفاد أيضا أن الطهور الظاهري والوضوء الصوري من العبادات وإطاعة للرب ومن هذه الجهة الطهور الظاهر موجب للطهور الباطن ومن الطهارة الصورية تحصل تزكية الفؤاد.

وبالجملة السالك إلى الله لابد أن يتوجه في وقت الوضوء إلى انه يريد التوجّه إلى المحضر المقدّس لحضرة الكبرياء ومع هذه الحالات القلبية التي له لا يليق للمحضر بل أنه يطرد من جناب العزّ الربوبي فيشمّر ذيله بأن يسري الطهارة الظاهرية إلى الباطن ويجعل قلبه موردا لنظر الحق بل منزلا لحضرة القدس ويطهره من غير الحق ويخرج من رأسه التفرعن وحب النفس الذي هو أصل أصول القذارات كي يليق للمقام المقدّس. (أقول: اعلم ان النجاسة التي يجب إزالتها للصلاة على أنواع منها ما هو على اللباس وظاهر البدن، وهذه النجاسة تغسل بالماء المطلق وتحصل الطهارة من الخبث التي هي من شروط الصلاة، ونظير هذه النجاسة في عالم الباطن والمعنى التلوث بقذارة المعاصي الصغيرة التي تصدر من المؤمن، وحيث أن مرتبة النجاسة فيها ضعيفة فتطهّر بالآلام الدنيوية وتوجب رفعها الابتلاءات في عالم الطبيعة. قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء ٣١) ومنها ما يسري ويجري إلى باطن الجسد وهو أيضا على قسمين :

القسم الأول: ما يسري في جميع الجسد وهو ما يسمى بالحدث الأكبر والتطهير من هذه النجاسة والخباثة يحتاج إلى غسل جميع البدن بنيّة القربى إلى الله تعالى والتعبد له حتى يكون

بواسطة اقتران الغسل بقصد القربة وانتسابه إلى حضرة الباري جلّ شأنه، تأثير الماء في رفع النجاسة أقوى وأنفذ وان كان على حساب المقدار والوزن قليلا فيكون مثله مثل الإكسير الذي يؤثر قيراط منه في قنطار من النحاس فيصير ذهبا خالصا، ومن المعاصي ما هو بمنزلة الحدث الأكبر في الروح وهي المعاصي التي رسخت جذورها في القلب وصارت منشأ للملكات الخبيثة والرذائل النفسانية من الكبر والحسد والشرك ونحوها وتسمّى بالموبقات وقد أوعد الله سبحانه صاحبها النار وآثار تلك المعاصي لا تزول عن القلب بسهولة بل لابدّ من التوبة الحقيقة بشرائطها وإلا فآخر الدواء الكيّ، أعاذنا الله منه.

والقسم الثاني: النجاسة التي تسري إلى الباطن ولكن بمرتبة ضعيفة من السراية بحيث لا تصل إلى جميع البدن ويكفي في تطهيرها غسل بعض الأجزاء توأما بقصد القربة والعبودية كما ذكرنا في الغسل وتسمى بالحدث الأصغر، ونموذج هذه النجاسة في عالم الروح بعض المعاصي الكبيرة التي ليس لها جذر نفساني وكبعض المعاصي الذي قد يتفق للإنسان وخصوصا في عهد الشباب ولكن حيث العصيان أمر عارضي وليس ناشئا عن ملكة التعصي لقرب العهد من الفطرة فهو أقرب إلى رحمة الله والتوبة من أسهل. وقد أشير إلى ذلك في الروايات. منها ما رواه الصدوق قدس سره في الأمالي عن الصادق عليه السلام أنه قال: " إن العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة فإذا بلغ أربعين سنة أوحى الله عزّ وجلّ إلى ملكية أنّي قد عمّرت عبدي عمرا فغلّظا عليه وشددا وتحفظا واكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره. "

فإذا لم يتمكن المصلي من الماء لتطهيره فقد جعل الله سبحانه التراب احد الطهورين لأن التراب أذلّ الأشياء على وجه الأرض يطؤه الناس بأقدامهم فلا بدّ للعبد أن يتّصف بصفته في جناب الحق فيمسح جبينه ويسمه بسمة الذّلة والافتقار والعبودية، ويرمز بهذا أيضا إلى أن ناصية الخلق بيد قدرته يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، كما قال سبحانه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (هود ٥٦).فلعله بإظهار الخضوع والمسكنة يجلب رحمة الله يوم يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ثم يمسح يديه بالتراب وهما مظهر قدرته فيذلّله في حضرة القادر المطلق ويقف بعد ذلك في صف الحاضرين في المحضر.

وقال فقيه الفرقة الناجية الشهيد الثاني (قدّس سره) :

فأمّا الطهارة، فليستحضر في قلبه أن تكليفه فيه بغسل الأطراف الظاهرة و تنظيفها لاطلاع الناس عليها و لكون تلك الأعضاء مباشرة للأمور الدنيوية منهمكة في الكدورات الدنية فلأن يطهر مع ذلك قلبه الذي هو موضع نظر الحق تعالى فإنه لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم.. و لأنه الرئيس الأعظم لهذه الجوارح و المستخدم لها في تلك الأمور المبعدة عن جنابه تعالى و

تقدس أولى و أحرى، بل هذا تنبيه واضح على ذلك و بيان شاف على ما هنالك، و ليعلم من تطهير تلك الأعضاء عند الاشتغال بعبادة الله تعالى و الإقبال عليه و الالتفات عن الدنيا بالقلب والحواس لتلقي السعادة في الأخرى إن الدنيا والآخرة ضرتان كلما قربت من إحداهما بعدت عن الأخرى، فلذلك أمر بالتطهير من الدنيا عند الاشتغال و الإقبال على الأخرى. فأمر في الوضوء بغسل الوجه لأن التوجه و الإقبال بوجه القلب على الله تعالى به و فيه أكثر الحواس الظاهرة التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا فأمر بغسله ليتوجه به و هو خال من تلك الأدناس و يترقى بذلك إلى تطهيرها ما هو الركن الأعظم في القياس ثم أمر بغسل اليدين لمباشرتهما أكثر أحوال الدنيا الدنية و المشتهيات الطبيعية ثم بمسح الرأس لان فيه القوة المفكرة التي يحصل بواسطتها القصد إلى تناول المرادات الطبيعية و تنبعث الحواس للإقبال على الأمور الدنيوية المانع من الإقبال على الآخرة السنية، ثم يمسح الرجلين لأن بهما يتوصل إلى مطالبة و يتوصل إلى تحصيل مآربه على نحو ما ذكر في باقي الأعضاء، فيسوغ له الدخول في العبادة و الإقبال عليها فائزا بالسعادة، و أمر في الغسل بغسل جميع البشرة لأن أدنى حالات الإنسان و أشدها تعلقا بالملكات الشهوية حالة الجماع و موجبات الغسل و لجميع بدنه مدخل في تلك الحالة و لهذا قال صلى الله عليه و آله: " إن تحت كل شعرة جنابة ".. فحيث كان جميع بدنه بعيدا عن المرتبة العلية منغمسا في اللذات الدنية كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة و الدخول في العبادة المنيفة و يبعد عن القوى الحيوانية و اللذات الدنيوية. و لما كان للقلب من ذلك الحظ الأوفر و النصيب الأكمل كان الاشتغال بتطهيره من الرذائل و التوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير تلك الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل. و أمر في التيمم بمسح تلك الأعضاء بالتراب عند تعذر غسلها بالماء الطهور وضعا لتلك الأعضاء الرئيسية و هضما لها بتلقيها بأثر التربة الخسيسة، و هكذا يخطر أن القلب إذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق و الرذيلة و تحليته بالأوصاف الجميلة فليقمه في مقام الهضم و يسقه بسياط الذل و الأعضاء عسى أن يطلع عليه مولاه الرحيم و سيده الكريم و هو منكسر متواضع فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع فإنه عند القلوب المنكسرة كما ورد في الأثر فترق من هذه الإشارات و نحوها إلى ما يوجب لك الإقبال أو تلافي سالف الإهمال).

ثم بيّن الرضا سلام الله عليه وجه اختصاص الأعضاء المخصوصة للوضوء فقال :

" وإنّما وجب على الوجه واليدين والرأس والرجلين لان العبد إذا قام بين يدي الجبار فإنما يكشف من جوارحه ويظهر ما وجب به الوضوء وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتّل وبرأسه يستقبله في ركوعه وسجوده، وبرجليه يقوم ويقعد ".

وحاصل ما قاله عليه السلام انه حيث أن لهذه الأعضاء دخلا في عبودية الحق تعالى والعبودية تظهر من هذه الأعضاء فلهذا وجب تطهيرها.. وبعد هذا بيّن عليه السلام الأمور التي تظهر من هذه الأعضاء، وبهذا فتح باب الاعتبار والاستفادة لأهلهما، وأرشد أهل المعارف إلى أسرارها بأن ما هو محل للعبودية في محضر الحق تبارك لا بد أن يكون طاهرا ومطهرا والأعضاء والجوارح الظاهرية التي يكون لها حظ ناقص من تلك المعاني لا تليق لذلك المقام من دون طهارتها ومع أن الخضوع ليس من صفات الوجه على الحقيقة والسؤال والرغبة والرهبة والتبتل والاستقبال ليس شيء منها من شؤون الأعضاء الحسيّة ولكن حيث أن هذه الأعضاء مظاهر تلك الأمور لزم تطهيرها، فعلى هذا فإنّ تطهير القلب الذي هو محل حقيقي للعبودية ومركز واقعي لتلك المعاني يكون ألزم، وبدون تطهير القلب لو غسلت الأعضاء الصورية بسبعة أبحر ما تطهّرت ولا توجد فيها لياقة لذلك المقام بل يكون للشيطان فيها تصرّف ويكون المرء مطرودا من حضرة العزّة. (يجب على السالك الطالب أن يراعي آداب الوضوء كما قال الصادق عليه السلام: " وات بآدابها في فرائضه و سننه " ليستعد للحضور و يستفيد من عيون فوائده كما وعدها الإمام الصادق عليه السلام فالأدب الأول أن يتوجه إلى القبلة و مركز العبادة و نقطة التوحيد التي هي من عمدة الشرائط الصلاتية ليستفيد من فوائد الاستقبال التي سنذكرها في محلها، و قد أشير إلى هذا الأدب في الرواية: " و إن من توضأ حيال القبلة كان له ثواب صلاة ركعتين " و ينبغي أن يكون وقوفه الوقوف في مقام الحمد حيث أذن له رب العزة و السلطان بالحضور و هو الآن في مقام تحصيل مقدمات التشرف لينال هذا الشرف فيأخذ غرفة من الماء و يغسل يديه من المرفقين و ليتفطن أنه كما يغسل بالماء الظاهر الذي هو سبب حياة لكل حي ظاهره كذلك يغسل باطنه بالعلم و هو الموجب لحياة القلوب و الأرواح فينور به قلبه وروحه، فأخذه الماء صورة تناول الرحمة الإلهية ليطهر بها من كل عيب و نقص و يغسل يديه من العيوب و من حوله و قوته أشواك طريق السلوك و لعل غسل اليد اليسرى يرمز إلى أنه لا حول عن المعاصي إلاَّ بالله، واليد اليمنى إلى أنه لا قوة على الطاعات إلاَّ بالله.

وأيضا أن اليد مظهر الإمساك والقبض وبواسطة الحرص والبخل تمسك عن البسط في الخيرات، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء﴾ (المائدة ٦٤). فليتنبه بأن قبض اليد الظاهرية مانع عن اغتراف الماء النازل من سماء الدنيا كذلك قبض اليد المعنوية مانع عن تناول ماء الرحمة النازل من سماء العلم والحكمة وبصبّ الماء باليمنى على اليسرى يتنبّه انه لابد له من بسط اليد في البذل والإعطاء والإيثار في سبيل رضى المحبوب، ولا يمسك يده، قال تعالى :﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران ٩٢).

وأيضا يرمز بغسل اليد إلى غسل يده عّما نهى عنه الشارع وبالخصوص المنهيات التي تتحقق باليد كالسرقة والتعدّي والغصب وأمثالها.

ويتفطن أيضا إلى أنه كما أن النوم في الليل أو النهار حدث يوجب هذا الوضوء الذي هو في صدده كذلك الغفلة عن مقام الغيب والشهود حدث لابد لك من رفعة فبغسل يديه مستمدا من مقام الرحمانية والرحيمية للحق تعالى شأنه يرفع ذاك الحدث. وقد ورد في الحديث " لا وضوء لمن لا يسمّ الله " فيغسل يديه قائلا بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقول: " الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً ولم يجعله نجسا " وهذا إشارة إلى مقام الحمد الذي ذكرناه، ثم يتنبه إلى الجهات التي ذكرها الأستاذ في الطهارة ويقول :" اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين " ويجدّد التوبة على حسب المرتبة التي هو فيها ويسأل التوبة من الله ثم يتمضمض ويجري ذكره الجميل على اللسان بقوله: " اللهم لقّني حجّتي يوم ألقاك وأطلق لساني بذكرك " ومعنى تلك المضمضة التي يطّهر بها فمه من فضول الطعام أنه يطهر فمه ولسانه من الذكر القبيح ومن فضول الكلام (وفضول الكلام يميت القلب) وممّا يجري على لسانه ويخرج من فمه ممّا يمقته الله ويدخله النار كما قال صلى الله عليه وآله: " وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم ". فيزيده بذكر الله وتلاوة القرآن.

ثم يستنشق، وحقيقة إخراج الكبر والتعالي من دماغه كما يخرج بالاستنشاق فضولات الدماغ من طريق أنفه وينقي مجراه ويستعد لشم الروائح العطرة المعنوية التي تهب من حي الحبيب ووجدان نفس الرحمن من جانب اليمن والوادي الأيمن، ويقول بلسانه رمزا لذلك المعنى :

" اللهم لا تحرمني ريح الجنة واجعلني ممن يشم ريحها وروحها وطيبها " ثم يغسل وجهه ويتوجّه إلى أنّ ذلك يرمز إلى بياض الوجه وتحصيل ماء الوجه عند الله سبحانه فيتذكّر قصوره وتقصير وخجلته وسواد وجهه ويستجير بالله من أن يلقى الله سبحانه بهذه الحالة كما يحكيها الله سبحانه :

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ (الزمر ٦٠).. وقال تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ (عبس ٤٠ ـ ٤١). وليستحي من الله سبحانه لما رآه حيث نهاه ولما توجّه إلى غير مولاه. ونعم ما قيل :

قالوا غدا نأتي ديار الحمى   ونتزل الركب بمغناهم
فكلّ من كان محبّا لهم   يصبح مسرورا بلقياهم
قلت فلي ذنب وما حيلتي   بأي وجه أتلقّاهم
قالوا أليس العفو من شأنهم   لاسيما عمّن ترجّاهم

وقد ورد في الحديث أنه يقول عند غسل وجهه " اللهم بيّض وجهي يوم تسودّ الوجوه ولا تسوّد وجهي يوم تبيضّ الوجوه ".

ويتذكر عندما يغسل اليدين أن باطنه غسل الأيدي من مرافق رؤية الأسباب التي هي أيادي صنع المعبود إلى منتهى أنامل المباشرة والاكتساب.

وأيضا هو غسل اليد عن الخلق وتفويض الأمر إلى الله والاستعداد للتمسك بذيل المحبوب وقرع بابه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في حق عباد الله وأصحاب الذكر " لكل باب رغبة إلى الله منهم يد قارعة ".

ويتذكر أيضا موقف القيامة وتطاير الكتب وأحوال الناس في ذاك الوقت كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (الانشقاق ٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ (الحاقة ٢٥).. فيقول عند غسله اليمنى " اللهم أعطني كتابي بيميني والخلد في الجنان بيساري وحاسبني حسابا يسيرا ".

ويقول أيضا عند غسله اليسرى: " اللهم لا تعطني كتابي بشمالي ولا من وراء ظهري ولا تجعلها مغلولة إلى عنقي وأعوذ بل من مقطّعات النيران "

ويمسح رأسه من الخضوع لغير الله ومن الكبرياء العارضة له إذ عدّ نفسه شيئا ومن التشمخ الذي عرض له من النظر إلى نفسه ويتذكر عند مسح رأسه خطيئة أبيه آدم وميله إلى الشجرة المنهية ووضعه يد الذّلة والافتقار على أمّ رأسه كما في الرواية يجيء شرحها وينادي ربه كما نادى أبوه ربّنا ظلمنا أنفسنا ليشمله غفران الرب الرحيم من قرنه إلى قدمه، ويتحقق معنى الدعاء الوارد عند مسح الرأس من قوله: " اللهم غشّني برحمتك وبركاتك وعفوك ومغفرتك ".

ويمسح رجليه من المشي إلى دار الغربة وأرض المذّلة، ويطهّرها أيضا عن المشي بالكبر. قال تعالى: " ولا تمش في الأرض مرحا " (الإسراء ٣٧) ويمشي بقدم العبودية والهوان ليصدق عبوديته للرب الرحمن.. قال تعالى: " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا (الفرقان ٦٣) " ويلزم تصميماً على الثبات في طريق الجهاد وميدان الجهاد الأصغر والأكبر والمشي على الصراط المستقيم ويقول بلسان قاله " اللهم ثبّت قدمي على الصراط يوم تزلّ فيه الأقدام واجعل سعيي فيما يرضيك عني ".

وبالجملة، فانه يراعي حالة الخضوع والحضور في جميع حالات الوضوء فانه من العبادات، والعبادة بلا حضور كجسم بلا روح.

ونتبرك في ختام هذا البحث بذكر رواية شريفة حاوية لأسرار عظيمة وهي ما رواه العارف السعيد القاضي سعيد القمّي بعد كلام له قال في كتاب المعراج للشيخ أبي محمد الحسن رضي الله عنه في حديث طويل، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " ثم قال لي ربي يا محمد مدّ يديك

فيتلقاك ما يسيل من ساق العرش الأيمن فنزل الماء فتلقيته باليمين ثم قال: يا محمد خذ ذاك الماء فاغسل به وجهك وعلة غسل الوجه انك تريد أن تنظر إلى عظمتي وأنت طاهر ثم اغسل ذراعيك اليمين واليسار وعلة ذلك أنك تريد أن تتلقى بيديك كلامي وامسح رأسك بفضل ما بيدك من الماء ورجليك إلى كعبيك وعلة المسح أني أريد أوطئك موطئا لم يطأه أحد قبلك ولا يطؤه أحد غيرك ").

وصل: ومن ذلك ما عن العلل بإسناده قال: " جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه عن مسائل، وكان فيما سألوه أخبرنا يا محمد لأيّ علّة نتوضأ هذه الجوارح الأربع وهي أنظف المواضع في الجسد ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: لما أن وسوس الشيطان إلى آدم ودنا من الشجرة فنظر إليها فذهب ماء وجهه ثم قام ومشى إليها وهي أول قدم مشت إلى الخطيئة ثم تناول بيده منها ما عليها وأكل فتطاير الحلي والحلل عن جسده فوضع آدم يده على أمّ رأسه وبكى فلما تاب الله عليه فرض الله عليه وعلى ذريته تطهير هذه الجوارح الأربع فأمر الله عزّ وجلّ بغسل الوجه لما نظر إلى الشجرة وأمره بغسل اليدين إلى المرفقين لما تناول بهما وأمر بمسح الرأس لما وضع يده على أمِّ رأسه وأمره بمسح القدمين لما مشى بهما إلى الخطيئة ".

وفي باب علّة وجوب الصوم أيضا: عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام قال :

" جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم عن مسائل، فكان فيما سأله أن قال له: لأيّ شيء فرض الله عز وجل الصوم على أمّتك بالنهار ثلاثين يوما وفرض على الأمم السالفة أكثر من ذلك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله أن آدم لما أكل من الشجرة بقي في بطنه ثلاثين يوما ففرض الله تعالى على ذرّيته ثلاثين يوما الجوع والعطش والذي يأكلونه تفضّل من الله تعالى عليهم " (الحديث).

فمن هذه الأحاديث لأهل الإشارات وأصحاب القلوب إستفادات منها أن خطيئة آدم عليه السلام مع أنها ما كانت من قبيل خطايا غيره بل لعلها كانت خطيئة طبيعية أو أنها كانت خطيئة التوجّه إلى الكثرة التي هي شجرة الطبيعة أو كانت خطيئة التوجّه إلى الكثرة الأسمائية، بعد جاذبة الفناء الذاتي ولكنها ما كانت متوقعة من مثل آدم عليه السلام الذي كان صفيّ الله والمخصوص بالقرب والفناء الذاتي ولهذا أعلن الذات المقدسة وأذاع بمقتضى الغيرة الحبية عصيانه وغوايته في جميع العوالم وعلى لسان الأنبياء عليهم السلام، وقال تعالى:

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. (طه ـ ١٢١). ومع ذلك لا بد من التطهير والتنبيه بهذه المثابة له ولذرّيته التي كانت مستكنة في صلبه ومشتركة في خطيئته بل اشتركوا في الخطيئة بعد الخروج من صلبه أيضا فكما أن لخطيئة آدم وأبنائه مراتب ومظاهر فأول مرتبتها التوجه إلى الكثرات الأسمائية

وآخر مظهرها الأكل من الشجرة المنهية التي صورتها الملكوتية شجرة فيها أنواع الثمار والفواكه وصورتها الملكية هي الطبيعة وشؤونها، وان حب الدنيا والنفس هما موجودان باستمرار في الذرية لمن شؤون هذا الميل إلى الشجرة والأكل منها كذلك لتطهيرهم وتنـزيههم وطهارتهم وصلاتهم وصيامهم للخروج من خطيئة الأب الذي كان هو الأصل أيضا مراتب كثيرة مطابقة لمراتب الخطيئة.

وقد علم من هذا البيان أن جميع أنواع المعاصي القلبية لابن آدم هي من شؤون أكل الشجرة، وتطهيرها على نحو خاص: وان جميع أنواع المعاصي القلبية لهم أيضا من شؤون تلك الشجرة وتطهيرها بطور آخر، وأن جميع أنواع المعاصي الروحية من تلك وتطهيرها بطور خاص وأن تطهير الأعضاء الظاهرية هو ظلّ الطهارات القلبية والروحية للكمّل ووظيفة ووسيلة لتطهير القلب والروح لأهل السلوك. وما دام الإنسان في حجاب تعيّن الأعضاء وطهارتها وواقف في ذلك الحد فليس هو من أهل السلوك، وهو باق في الخطيئة، فإذا اشتغل بمراتب الطهارات الظاهرية والباطنية وجعل الطهارات الصورية القشرية وسيلة للطهارات المعنوية اللبية ولاحظ في جميع العبادات والمناسك حظوظها القلبية وتمتع منها بل اهتم بالجهات الباطنية أكثر من الظاهرية وعرف أنها هي المقصد الأعلى دخل في باب سلوك الإنسانية كما أشار إليه في الحديث الشريف في مصباح الشريعة حيث يقول فيه: " وطهّر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء " فيلزم للإنسان السالك العلمي كي يشخص ببركة أهل الذكر عليهم السلام مراتب العبادات ويرى العبادات الصورية مرتبة نازلة للعبادات القلبية والروحية ثم يشرع في السلوك العملي الذي هو حقيقة السلوك، وغاية هذا السلوك هي تخلية النفس عن غير الحق وتحليتها بالتجليات الأسمائية والصفاتية والذاتية، فإذا حصل للسالك هذا المقام فحينئذ ينتهي سلوكه وتحصل له الغاية في السير الكمالي فينال أسرار النسك والعبادات ولطائف السلوك وهي التجليات الجلالية التي هي أسرار الطهارات والتجليات الجمالية التي هي غايات العبادات الأخر، وتفصيلها خارج عن مجال هذه الأوراق.

الفصل السادس

في الغسل وآدابه القلبية

يقول أهل المعرفة أن الجنابة هي الخروج عن وطن العبودية والدخول في الغربة و إظهار الربوبية و دعوى المنيّة والدخول في حدود المولى و الاتصاف بوصف السيادة و الغسل للتطهير من هذه القذارات و الاعتراف بالتقصير. و قد ذكر بعض المشايخ في ضمن عشرة فصول، مئة و خمسين حالا لابد للعبد السالك التطهير منها في خلال الغسل يرجع أغلبها أو كلها إلى العزة و الجبروت و كبرياء النفس و حب النفس و رؤيتها.

يقول كاتب هذه الأوراق: الجنابة هي الفناء في الطبيعة و الغفلة عن الروحانية و الغاية القصوى لكمال السلطنة الحيوانية و البهيمية، و الدخول في أسفل السافلين و الغسل هو التطهير من هذه الخطيئة و الرجوع عن حكم النفس التي فنيت في الطبيعة و ابتليت بغرور الشيطان.

فالآداب القلبية للغسل هي إلاَّ يتوقف السالك في حين غسله بتطهير الظاهر و غسل البدن الذي هو القشر الأدنى و الحظ الدنيوي، و تكون جنابة باطن القلب و سرّ الروح موردا لعنايته، و يكون غسله أهم في نظره فيتجنب عن غلبة النفس البهيمية و الشأن الحيواني على النفس الرحمانية و الشؤون الرحمانية و يتوب عن رجز الشيطان و غروره و يطهر باطن الروح الذي هو نفخة إلهية و قد نفخ فيه بالنفس الرحماني عن الحظوظ الشيطانية و هي التوجّه إلى الغير الذي هو أصل الشجرة المنهية حتى يليق بهذا التطهير للدخول على جنة أبيه آدم عليه السلام.

وليعلم أن الأكل من هذه الشجرة شجرة الطبيعة و الإقبال على الدنيا و التوجه إلى الكثرة هو أصل أصول الجنابة، و ما دام لم يطهر من هذه الجنابة بانغماسه في ماء الرحمة للحق تعالى أو تطهيره التام بذاك الماء الذي يجري عن ساق العرش الرحماني و الخالص عن التصرف الشيطاني لا يليق للصلاة التي هي حقيقة معراج القرب فإنه لا صلاة إلاَّ بطهور، و قد أشار إلى ما ذكر في الحديث الشريف في الوسائل عن الشيخ الصدوق رضوان الله عليه قال: وبإسناده قال: " جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فسأله أعلمهم عن مسائل، و كان فيما سأله أن قال: لأي شيء أمر الله تعالى بالاغتسال من الجنابة و لم يأمر بالغسل من الغائط و البول ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و آله أن آدم لما أكل من الشجرة دبّ ذلك في عروقه و شعره و بشره فإذا جامع الرجل أهله خرج الماء من كل عرق وشعرة في جسده، فأوجب الله عز وجل على ذريّته الاغتسال من الجنابة إلى يوم القيامة ". الخبر.

وفي رواية أخرى عن الرضا عليه السلام: " إنما أمروا بالغسل من الجنابة و لم يـأمروا بالغسل من الخلاء و هو أنجس من الجنابة و أقذر من أجل أن الجنابة من نفس الإنسان و هو شيء يخرج من جميع جسده، و الخلاء ليس هو من نفس الإنسان و إنما هو غذاء يدخل من باب و يخرج من باب ".

وظاهر هذه الأحاديث وان كان عند أهل الظاهر هو أن النطفة لما كانت تخرج من جميع البدن فوجب غسل جميعه. وهذا مطابق لرأي جمع من الأطباء والحكماء الطبيعيين ولكن تعليله عليه السلام بأكل الشجرة كما في الحديث الأول ونسبة الجنابة إلى النفس كما في الحديث الثاني يفتح طريقا إلى المعارف لأهل المعرفة والإشارة لأن قضية الشجرة و أكل آدم منها من أسرار علوم القرآن وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، و كثير من المعارف مرموز فيها، ولذا جعلوا عليهم السلام في الأحاديث الشريفة قضية آدم، والأكل من الشجرة علّة لتشريع كثير من العبادات ومن جملتها باب الوضوء والصلاة والغسل وصوم شهر رمضان وكونه ثلاثين يوما وكثير من مناسك الحج، وفي نيّتي منذ سنين أن أفرد رسالة في هذا الباب ولكن الإشتغالات الأُخر منعتني عن ذلك، وأسأل الله تعالى التوفيق والسعادة لذلك.

وبالجملة، فأنت يا ابن آدم وقد جعلت بذرا للّقاء وخلقت للمعرفة واصطفاك الله تعالى لنفسه وخمّرك بيدي جماله وجلاله وجعلك مسجوداً للملائكة ومحسودا لإبليس إذا أردت أن تخرج عن جنابة أبيك الذي هو أصلك وتليق للقاء حضرة المحبوب وتحصل استعدادا للوصول إلى مقام الإنس وحضرة القدس فلا بد لك من أن تغسل باطن قلبك الذي هو محفل لجناب الجميل وجمال الجليل عن حب الدنيا وشؤونها الخبيثة التي هي رجز الشيطان فان جنة لقاء الحق تعالى محل الأطهار ولا يدخل الجنة إلاَّ الطيب.

* شست وشوئي كن وآنكه بخرابات خرام *. (مصراع من بيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي يقول: تنظف عن القذارات ثم يقصد الخرابات. الخرابات في الأدب الفارسي محل اجتماع السكارى وفي الأدب العرفاني يعبّر به عن مجتمع المجذوبين والمصعوقين من تجليات الجلال والجمال).

الفصل السابع

في نبذة من الآداب الباطنية لإزالة النجاسة والتطهير من الخبائث

اعلم أن إزالة الحدث كما مرّ هي في الخروج من الإنيّة والأنانيّة والفناء عن النفس بل هي الخروج من بيت النفس بالكلية، وما دام في العبد بقايا من نفسه فهو محدث للحدث الأكبر والعابد والمعبود فيه هو الشيطان والنفس. وإن منازل سير أهل الطريقة والسلوك إذا كانت لأجل الوصول إلى المقامات وحصول المعارج والمدارج فليست خارجة عن تصرف النفس والشيطان وإنما السير والسلوك معللة، فالسلوك إذن في منازل النفس والسير في جوف البيت ومثل هذا السالك ليس بمسافر ولا سالك وليس مهاجرا إلى الله ورسوله، وما طهّر من الحدث الأكبر الذي هو عينيّة العبد فإذا تطهّر من هذا الحدث بالكلية يكون العابد والمعبود هو الحق تعالى ويحصل نتيجة قرب النافلة أي: كنت سمعه وبصره.. فمن هذه الجهة يلزم غسل جميع البدن في الطهارة من الحدث الأكبر لأنه مادامت عينيّة العبد باقية بوجه من الوجوه لم يرتفع الحدث فان تحت كل شعرة جنابة فالتطهير من الحدث هو التطهير من الحدوث، ثم الفناء في بحر القدم وكما له الخروج من الكثرة الأسمائية التي هي باطن الشجرة ويخرج بهذا الخروج من الخطيئة السارية لآدم أصل الذرية، فالحدث هو من القذارات المعنوية وتطهيره أيضا من الأمور الغيبية الباطنية وهو نور لكن الوضوء نور محدود والغسل نور مطلق، وأيّ وضوء أنقي من الغسل (قال فقيه الأمة الشهيد الثاني (قدّس سرّه): " وأما إزالة النجاسة فالكلام فيها نحو الكلام في الطهارة في التزكية بتطهير القلب من نجاسة الأخلاق ومساوئها فانك إذا أمرت بتطهير ظاهر الجلد وهو القشر وبتطهير الثياب وهو أبعد عن ذاتك فلا تغفل عن تطهير لبّك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له بالتوبة والندم على ما فرط وتصميم العزم على ترك العود في المستقبل، وطهّر بها باطنك فإنها موقع نظر المعبود).وأما هذه المكانة فليست لإزالة الخبث والنجاسات الظاهرية لأنها تنظف صوري وتطهير ظاهري والآداب القلبية لها هي أن يعلم السالك الذي يريد الحضور في محضر الحق انه لا يمكن التطرق إلى محضر الحق مع رجس الشيطان ورجس هذا الخبيث. وما لم يحصل الخروج من أمهات المذام الأخلاقية التي هي مبدأ لفساد المدينة الفاضلة الإنسانية ومنشأ للخطيئات الظاهرية والباطنية لم يجد السالك طريقا إلى المقصد ولا سبيلا إلى المقصود.

إن الشيطان الذي كان مجاورا للعالم القدس ويعد في سلك الكروبيين فإنه آخر الأمر بواسطة الملكات الخبيثة أبعد عن جناب مقام المقربين وأرجم بنداء فأخرج منها فإنك رجيم (ص ٧٧ والحجر ٣٤). فإذا نحن المتأخرين عن قافلة عالم الغيب والساقطين في بئر الطبيعة العميق

والمردودين إلى أسفل السافلين كيف نقدر مع وجداننا الملكات الخبيثة الشيطانية أن نليق لمحضر القدس ونكون مجاورين للروحانيين ورفقاء للمقربين.

إن الشيطان رأى نفسه ورأى ناريته وقال أنا خير منه، وهذا الإعجاب بالنفس صار سببا لعبادة نفسه وتكبره وتحقير آدم وإهانته وقال خلقته من طين، وقاس قياسا باطلا ولم ير حسن آدم وكمال روحانيته بل رأى ظاهره ومقام طينته وترابيته ورأى من نفسه مقام ناريته وغفل عن الشرك وحب النفس ورؤيتها، فصار حب النفس حجابا لرؤية نقصه وشهود عيوبه وصارت هذا الرؤية للنفس والحب لها سببا للتعبد لنفسه والتكبر والتظاهر والرياء والاستقلال في الرأي والعصيان وأبعد عن معراج القدس إلى تيه الطبيعة المظلمة. فاللازم للسالك إلى الله أن يطهّر نفسه من أمهات الرذائل والأرجاس الباطنية الشيطانية عند تطهيره الأرجاس الصورية وان يغسل المدينة الفاضلة بماء رحمة الحق وارتياض شرعي ويصفّي قلبه الذي هو محلّ لتجلّي الحق ويخلع نعلي حبّ الجاه والشرف كي يليق للدخول في الوادي المقدس الأيمن ويكون قابلا لتجلي الرب، وما دام لم يحصل التطهير من الأرجاس الخبيثة لا يمكن له التطهير من الإحداث لأن تطهير الظاهر مقدمة لتطهير الباطن، وما لم تحصل التقوى التامة الملكية الدنيوية على وفق دستور الشريعة المطهّرة لم تحصل التقوى القلبية، وما لم تحصل التقوى القلبية من الأمور التي ذكرناها لم تحصل التقوى الروحية السرية الحقيقية. وجميع مراتب التقوى مقدمة لهذه المرتبة وهر ترك غير الحق، ومادام في السالك بقية باقية من الأنانية فلن يتجلّى الحق عن سرّه.

نعم ربما يكون بمقتضى سبق الرحمة وغلبة جهة يلي اللّهي يدرك السالك الإمداد الغيبي ويحرق بالجذوة الإلهية ما بقي من الأنانية إن كانت، ولعل في كيفية تجلي الحق للجبل واندكاكه وصعق موسى إشارة لما ذكر، وهذا الفرق أيضا موجود بين السالك المجذوب والمجذوب السالك.

وقد يتفطّن أهل الحقيقة مما ذكر إلى نكتة قابلة لان تعلم ومطلب مهم والجهل به منشأ لكثير من الضلالات والغوايات والتأخر عن سلوك طريق الحق ولا ينبغي لطالب حق الجهل به ولا يجوز له الغفلة عنه، وهو أن السالك وطالب الحق لابد أن يبرئ نفسه من الإفراط والتفريط اللذين يكونان في بعض جهلة أهل التصوّف وبعض غفلة أهل الظاهر حتى يمكن السير إلى الله لان بعضهم يعتقد أن العلم والعمل الظاهري القالبي حشو وهما للجهّال والعوام، وأما الذين هم أهل السر والحقيقة وأصحاب القلوب وأرباب السابقة الحسنى فلا يحتاجون إلى هذه الأعمال، وإن الأعمال القالبية لأجل حصول الحقائق القلبية والوصول إلى المقصد فإذا وصل السالك إلى المقصد فالاشتغال بالمقدمات تبعيد له والاشتغال بالكثرات حجاب له. والطائفة الثانية قامت في

قبال هذه الطائفة فوقعوا في جانب التفريط وأنكروا جميع المقامات المعنوية والأسرار الإلهية وسوى محض الظاهر والصورة والقشر أنكروا سائر الأمور ونسبوها إلى التخيلات والأوهام ولا زال التنازع والمجادلة والمخاصمة بين الطائفتين، كل يرى الآخر على خلاف الشريعة والحق أن كلتا الطائفتين قد تجاوز عن الحد ووقعوا في الإفراط والتفريط، ونحن أشرنا في رسالة سرّ الصلاة إلى هذا الموضوع، وفي هذا المقام أيضا نُرى حدّ الاعتدال الذي هو الصراط المستقيم في الكافي عن علي بن الحسين عليهما السلام((* ـ هو الإمام الرابع زين العابدين وسيد الساجدين ومصباح المتهجدين وقدوة المتّقين أبو محمد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ولد عليه السلام بالمدينة المنوّرة يوم النصف من جمادى الأولى سنة ٣٦ ستّ وثلاثين يوم فتح البصرة ونزول النصر على أمير المؤمنين عليه السلام وغلبته على أصحاب الجمل. وقيل في الخامس من شعبان سنة ٣٨ وأمّه ذات العلى والمجد شاه زنان بنت يزد جرد. وهو ابن شهريار بن كسرى ذو سؤدد ليس يخاف كسرى، وقيل كان اسمها شهربانويه وفيه يقول أبو الأسود :

وإن غلاما بين كسرى وهاشم لأكرم من نيطت عليه التمائم

قال الزهري ما رأيت هاشميا أفضل من علي بن الحسين عليه السلام وعن أبي جعفر عليه السلام قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة وكانت الريح تميله بمنزله السنبلة، وكان إذا توضأ للصلاة يصفرّ لونه فيقول له أهله ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول تدرون بين يدي من أريد أن أقوم ؟!

وعن ابن عايشة قال: سمعت أهل المدينة يقولون: فقدنا صدقة السرّ حين مات علي بن الحسين عليه السلام وكان عليه السلام إذا حضرت اقشعرّ جلده واصفر لونه وارتعد كالسعفة وكان إذا قام في صلاته غشى لونه لون آخر، وكان قيامه في صلواته قيام العبد الذليل بين يدي الملك الجليل، كانت أعضاؤه ترتعد من خشية الله وكان في الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه إلاَّ ما حركت الريح منه وإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفضّ عرقا. وإذا كان شهر رمضان لم يتكلم إلاَّ بالدعاء والتسبيح والاستغفار والتكبير وكان له خُريطة فيها تربة الحسين (عليه السلام) وكان لا يسجد إلاَّ على التراب وكان إذا قرأ " مالك يوم الدين " يكرّرها حتى يكاد أن يموت. وفضائله ومكارم أخلاقه أكثر من أن تعدّ ومعجزاته أكثر من أن تحصى وله الصحيفة السجادية زبور آل محمد. توفي عليه السلام يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت أو مضت من المحرّم سنة ٩٥ خمس وتسعين من الهجرة وله يومئذ سبع وخمسون سنة سمّة هشام بن عبد الملك وكان في ملك الوليد بن عبد الملك. وسمّيت سنة وفاته سنة الفقهاء لكثرة من مات فيها من العلماء والفقهاء. قال السبط في التذكرة وكان عليه السلام سيّد الفقهاء مات في أولها وتتابع الناس بعده سعيد بن المسيب وعروة

بن الزبير وسعيد بن جبير وعامة فقهاء المدينة وقبره بالبقيع في القبة التي فيها العباس وعمّه الحسن بن على عليه السلام وعن أبي الحسن عليه السلام قال: إن علياً بن الحسين لمّا حضرته الوفاة أغمي عليه ثم فتح عينيه وقرأ ″ إذا وقعت الواقعة ″ و ″ إنا فتحنا لك ″، وقال: ﴿الْحَمْدُ للَّه الَّذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ منَ الْجَنَّة حَيْثُ نَشَاء فَنعْمَ أَجْرُ الْعَاملينَ﴾ (الزمر ٧٤) ثم قبض من ساعته ولم يقل شيئا)).: ″ إن الله تعالى أوحى إلى دانيال عليه السلام: إنّ أمقت عبيدي إليّ الجاهل بحق أهل العلم التارك للاقتداء بهم، وإنّ أحب عبيدي إليّ التقيّ الطالب للثواب الجزيل اللازم للعلماء التابع للحكماء القابل عن الحكماء ″ وأهل العلم هم الأئمة المعصومون.
وقال الحكيم والفيلسوف الإسلامي أبو نصر الفارابي ((* ـ الفارابي أبو نصر محمد بن طرخان الفارابي التركي الحكيم المشهور صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى قالوا انه كان من أكبر فلاسفة المسلمين ولم يكن فيهم من بلغ رتبته في فنونه ويحكى أنه كان منفردا بنفسه لا يجالس الناس وكان مدّة مقامه بدمشق لا يكون غالبا إلاّ عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ويؤلف هناك كتبه ويتناوبه المشتغلون عليه. وكان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأمر مكسب ولا مسكن وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم من بيت المال أربعة دراهم وهو الذي اقتصر عليها لقناعة ولم يزل على ذلك إلى أن توفي بدمشق سنة ٣٣٩ (شلط) وقد ناهز ثمانين سنة وصلى عليه سيف الدولة في أربعة من خواصه ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير.
″ينبغي لمن أراد أن يشرع في الحكمة أن يكون صحيح المزاج متأدّبا بآداب الأخيار قد تعلّم القرآن واللغة وعلوم الشرع أولا، ويكون عفيفا صدوقا معرضا عن الفسق والفجور والغدر والخيانة والمكر والحيلة فارغ البال عن مصالح المعاش مقبلا على أداء الوظائف الشرعية غير مخلّ بركن من أركان الشريعة ولا بأدب من آدابها معظّما للعلم والعلماء ولا يكون عنده لشيء قدر إلاّ الحكمة وأهلها ولا يتخذ العلم حرفة وإذا كان بخلاف ذلك فهو عالم زور وحكيم كذب بل لا يعدّ منهم″).فليعلم أن المناسك الصورية والعبادات القالبية ليس لحصول الملكات الكاملة الروحانية والحقائق القلبية فقط بل هي إحدى ثمراتها لكن عند أهل المعرفة وأصحاب القلوب جميع العبادات هي إسراء المعارف الإلهية من الباطن إلى الظاهر ومن السرّ إلى العلن، وكما أن نعمة الرحمة الرحمانية بل الرحيمية منبسطة إلى جميع النشآت القلبية والقالبية للإنسان ولكل من المراتب حظ من النعم الجامعة الإلهية ولكل منها حظ ونصيب من ثناء الحق وشكر النعمة الرحمانية والرحيمية للواجب المطلق وما دام للنفس حظ من النشأة الصورية الدنيوية ولها من حياة الملك نصيب، ولا ينطوي بساط الكثرة بالكلية ولا ترتفع حظوظ الطبيعة. والسالك إلى الله كما أنه لا بد إلاّ يكون قلبه مشغولا بغير الحق كذلك لابد إلاّ يكون صدره وخياله وملك الطبيعة

مصروفه في غير الحق حتى يكون للتوحيد والتقديس في جميع النشآت قدم راسخ، وإذا كان للجذبة الروحية في ملك الطبيعة نتيجة غير التعبد والتواضع للحق ففي النفس بقية من الأنانية. وسير السالك إنما هو في جوف بيت النفس وليس سيرة إلى الله وغاية سير أهل الله هي أن تكون الطبيعة وملك البدن منصبغة الله.

ولعل من المراتب والبواطن للحديث الشريف الذي يحكي عن لسان الحق تعالى شأنه أن الله قال: " وأنا الرحمان خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته " فلعلها هي قطع الطبيعة التي هي أم الأرواح عن موطنها الأصلي ووصلها هو إرتياضها وإرجاعها إلى موطن العبودية.

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: " استوصوا بعمّتكم النخلة خيرا فإنها خلقت من طينة آدم ". وهذا الحديث يشير إلى الرحم الذي ذكرناه.

وبالجملة إخراج مملكة الظاهر عن موطن العبودية وإرسالها على رسلها من غاية الجهل لمقامات أهل المعرفة ومن تسويلات الشيطان الرجيم فانه يمنع كل طائفة عن الحق تعالى بطريق خاص، كما أن إنكار المقامات وسدّ طرق المعارف التي هي قرّة عين أولياء الله عليهم السلام وتحديد الشرائع الإلهية بالظاهر الذي هو حظ الدنيا وملك النفس ومقام حيوانيتها والغفلة عن الأسرار والآداب الباطنية للعبادات التي توجب تطهير السرّ وتعمير القلب وارتقاء الباطن من غاية الجهالة والغفلة وكل من هاتين الطائفتين بعيد عن طريق السعادة والصراط المستقيم للإنسانية ومهجور عن مقامات أهل المعارف. والعارف بالله والعالم بالمقامات لابد له أن يراعي جميع الحقوق الباطنية والظاهرية ويوصل إلى كل صاحب حق حقه ويطهّر نفسه من الغلوّ والتقصير والإفراط والتفريط ويزيل عن نفسه قذارة إنكار صورة الشريعة الذي هو في الحقيقة تحديد ويزيل عن نفسه خباثة إنكار باطن الشريعة الذي هو تقييد وكلاهما من الوساوس الشيطانية ومن أخباث ذلك اللعين حتى يتيسّر له طريق السير إلى الله والوصول إلى المقامات المعنوية. فإزالة أخباث الأوهام الفاسدة المانعة من القرب إلى الله ومن معراج المؤمنين إحدى مراتب إزالة الخبث، وأن من إحدى معاني جامعية النبوّة الخاتمية ومقاماتها بل من دلائل الخاتمية أنه في جميع المقامات النفسية قد استوفى جميع حقوقها وحظوظها من جميع شؤون الشريعة، وكما أنه في معرفة شؤون الربوبية جلّت عظمته عُرّف الحق سبحانه في العلّو الأعلى والدنو الأدنى لمقام الجامعية وقال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾(الحديد ٣). و ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور ٣٥) إلى آخره، ولو دليتم بحبل من الأرضين السفلى لهبطتم على الله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾ (البقرة

١١٥). إلى غير ذلك مما يحصل به للعارف بالمعارف الإلهية والمجذوب بالجذبات الرحمانية طرب ملكوتي ووجد لاهوتي.

كذلك فقد أسرى التوحيد العملي القلبي إلى آخر مراتب أفق الطبيعة وملك البدن ولم يحرم موجودا من حظ معرفة الله. وبالجملة أهل التصوف يترنّمون بالحكمة العيسوية من حيث لا يشعرون، وأهل الظاهر يتكلمون بالحكمة الموسوية، والمحمديون يتبرّؤون من هذين بطريق التقييد، وتفصيل هذا الإجمال خارج عن مجال هذا المقام ولا ينبغي ذكره في هذه الأوراق.

وصل: عن مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام:

"سمي المستراح مستراحا لاستراحة النفوس من أثقال النجاسات واستفراغ الكثافات والقذر فيها، والمؤمن يعتبر عندها أن الخالص من حطام الدنيا كذلك يصير عاقبته فيستريح بالعدول عنها وتركها، ويفرّغ نفسه وقلبه عن شغلها ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر ويتفكر في نفسه المكرمة في حال، كيف تصير ذليلة في حال، ويعلم أن التمسّك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين وان الراحة في هوان الدنيا والفراغ من التمتع بها وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها، ويفرّ من الذنوب ويفتح باب التواضع والندم والحياء ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه طلبا لحسن المآب وطيب الزلفى ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات إلى أن يتصل بأمان الله في دار القرار ويذوق طعم رضاه، فان المعوّل ذلك وما عداه لا شيء ". (انتهى كلامه الشريف).

وفي هذا الكلام الشريف حكم (دستور) جامع لأهل المعرفة والسلوك وهو أن الإنسان اليقظان السالك إلى دار الآخرة لابد أن يستوفي في كل حال من الحالات حظوظة الروحانية ولا يغفل في حال عن ذكر مرجعه ومآله، ولهذا قالت الحكماء: النبي خادم القضاء كما أن الطبيب خادم البدن. فإن الأنبياء العظام والأولياء الكرام عليهم السلام حيث أنهم لا يرون إلاَّ القضاء الإلهي ولا ينظرون سوى الجهة يلي اللهي. والحاكم في قلوبهم هو ملكوت القضاء الإلهي فيرون جريان الأمور بأيدي ملائكة الله التي هي جنود الله ويجدونها كذلك والطبيب والطبيعي حيث أنه بعيد عن هذه المرحلة ومهجور عن هذا الوادي فينسب جريان الأمور الطبيعية إلى القوى الطبيعية. الإنسان الإلهي يرى في كل شيء الحظ الإلهي. و العين المشاهدة للحق والبصيرة العارفة بالله تشاهد في كل موجود نور الحق، كما روي عن أمير المؤمنين والإمام جعفر الصادق سلام الله عليهما: " ما رأيت شيئا إلاَّ ورأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه ".

موسئي نيست كه دعوى أنا الحق شنود   ورنه اين زمزمه در هر شجرى نيست كه نيست

(البيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي يقول: ليس ثمة شجرة خالية من نداء ″ أنا الحق ″ ولكن ليس هناك كموسى حتى يسمع هذا النداء).

وبالجملة الإنسان السالك في جميع أحواله ومن جميع أموره لابد أن يستفيد حظوظ سلوكه، فإذا رأى أن الحطام الدنيوي ولذائذ عالم الملك كلها زائلة ومتغيرة وعاقبة أمرها إلى الفساد والأفول فيعرض قلبه عنها بسهولة ويفرغ قلبه عن الاشتغال بها وجمعها ويستنكف عنها كما يستنكف عن القذارات. إن باطن عالم الطبيعة هو القذارة وتعتبر الكثافة والقذارة في الرؤيا التي هي باب من المكاشفة تعبيرا عن الدنيا والمال، وفي المكاشفة العلوية: ″الدنيا جيفة وميتة ″ (قال علي عليه السلام: ″ اقبلوا على جيفة افتضحوا بأكلها واصطلحوا على حبّها ″ وقال أيضا: يتنافسون في دنيا دنيّة ويتكالبون على جيفة مريحة ″). فالمؤمن كما يفرغ نفسه عن الأثقال والفضولات الطبيعية ويريح المدينة الطبيعية من إذاها كذلك يريح قلبه من التعلق والاشتغال بها ويرفع عن القلب ثقل حب الدنيا والجاه ويريح ويفرغ المدينة الفاضلة الروحانية منها، ويتفكر في الاشتغال في الدنيا كيف أذلّ النفس الشريفة بعد ساعات وأحوجها إلى أقبح الحالات وأفضحها، كذلك الاشتغال القلبي بالعالم بعدما يرتفع حجاب الملك والطبيعة وما هو ببعيد يذلّ الإنسان ويبتليه بالحساب والعقاب، ويعلم أن التمسّك بالتقوى والقناعة موجب راحة الدارين، وأن الراحة في هوان الدنيا، فلذلك لا يلتذّ ولا يتمتع منها وكما أنه طهّر نفسه من النجاسات الصورية كذلك سيطهّر نفسه من نجاسات المحرّمات والمشتبهات، وإذا عرف نفسه ووجد ذلّة احتياجها فيغلق باب الكبر والتعظيم عن نفسه ويفر من العصيان والذنوب ويفتح على نفسه باب التواضع والندامة ويجدّ ويجتهد في إطاعة أوامر الحق ويجتنب عن عصيانه حتى يكون له حسن المآب إلى الحق ويتقرب إلى مقام القدس بطهارة النفس وصفائها وليسجن هو بنفسه نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات النفسانية كي يأمن من سجن العذاب الإلهي ويلحق إلى الحق في دار القرار و إلى كنف ذاته المقدسة فيذوق في تلك الحال طعم رضا الحق تعالى وهذا غاية آمال أهل السلوك وليس لغيره أي قيمة.

الباب الثاني

في نبذة من آداب اللباس وفيه مقامان

المقام الأول

في آداب مطلق اللباس

اعلم أن النفس الناطقة الإنسانية حقيقة، هي: ـ في عين الوحدة وكمال البساطة ـ ذات نشآت عمدتها كلّيّة ثلاث :

الأولى: النشأة الملكية الدنيوية الظاهرة ومظهرها الحواس الظاهرة والقشر الأدنى لها هو الحواس الملكيّة.

الثانية: النشأة البرزخية المتوسطة ومظهرها الحواس الباطنية والبدن البرزخي والقالب المثالي.

الثالثة: النشأة الغيبية الباطنية ومظهرها القلب والشؤون القلبية.

ونسبة كل من هذه المراتب إلى الأخرى نسبة الظاهرية والباطنية، ونسبة التجلي والمتجلي، ومن هذه الجهة تسري الآثار والخواص والانفعالات من مرتبة إلى أخرى، فمثلا إذا أدركت حاسّة البصر شيئا يقع منه أثر في الحسّ البصري البرزخي مناسب لتلك النشأة ويقع منه أثر في البصر الباطني القلبي يناسب تلك النشأة، وهكذا الآثار القلبية تظهر في النشأتين الأخيرتين. وهذا المطلب مضافاً إلى أنه مطابق للبرهان القوي المتين مطابق للوجدان أيضاً، فمن هذه الجهة يكون لجميع الآداب الصورية الشرعية في الباطن أثر بل آثار، ولكل من الأخلاق الجملية التي هي من حظوظ مقام برزخية النفس أيضا آثار في الظاهر والباطن ولكل من العارف الإلهية والعقائد الحقّة في النشأتين البرزخية والظاهرة آثار.

فمثلا الإيمان بأن المتصرف في مملكة الوجود وعوالم الغيب والشهود هو الحق تعالى وليس لسائر الموجودات فيها تصرّف إلاّ التصرّف الأدنى الظلّي يوجب كثيرا من الكمالات النفسانية والأخلاق الفاضلة الإنسانية مثل التوكل والاعتماد على الحق وقطع الطمع من المخلوق التي هي أمّ الكمالات، ويوجب كثيراً من الأعمال الصالحة والأفعال الحسنة وترك كثير من القبائح، وهكذا سائر المعارف التي تعدادها وتعداد تأثيراتها خارج عن مجال هذه الأوراق، والقلم القاصر للكاتب، ويحتاج إلى تحرير كتاب ضخم لمؤلف صاحب قلم قويّ من أهل المعرفة، أو من نفس حار لأحد

أهل الحال (دست ما كوتاه وخرما بر نخيل) (مصراع معروف يعد كمثل دارج مضمونة: إن أيدينا قصيرة والتمر على النخل فلا تصل إليه أيدينا). وهكذا مثلا خلق الرضا فانه من الأخلاق الكمالية الإنسانية وله تأثيرات كثيرة في تصفية النفس وتجلياتها، ويجعل القلب موردا للتجليات الخاصة الإلهية ويوصل الإيمان إلى كماله، وكمال الإيمان إلى الطمأنينة، والطمأنينة إلى كمالها وكمالها إلى المشاهدة، والمشاهدة إلى كمالها، وكمالها إلى المعاشقة، والمعاشقة إلى كمالها و كمالها إلى المراودة، والمراودة إلى كمالها وكمالها إلى المواصلة، والمواصلة إلى كمالها ويرتقي إلى ما لا يسعه وهمي ووهمك.

وفي ملك البدن والآثار والأفعال الصورية التي هي أغصان وأوراق تلك الشجرة تأثيرات غريبة فيصير السمع والبصر وسائر القوى والأعضاء إلهية ويظهر سرّ كنت سمعه وبصره شيئا ما كما أن لتلك المراتب في الظاهر تأثيرا بل تأثيرات وللهيئة الظاهرة وجميع الحركات والسكنات عادية وغير عادية ولجميع التروك والأفعال أيضا فيها تأثيرات عجيبة بحيث ربما يتفق أن السالك يسقط من الأوج الأعلى إلى أسفل السافلين بنظرة واحدة تحقيرية إلى عبد من عباد الله ولا يستطيع جبران هذا السقوط في السنين المتوالية، وحيث أن قلوبنا نحن المساكين ضعيفة خفيفة وضئيلة ومثل شجرة الصفصاف (لهذه الشجرة صنف خاص يقال له بالفارسية (بيد مجنون) أي الصفصاف المجنون لها أغصان ضئيلة جدا متدلية إلى الأرض وهي كما مثل بها الأستاذ تتحرك بأدنى نسيم).

تضطرب بالنسيم الرقيق وتفقد حالة السكون، فاللازم لنا أن نلاحظ الحالات القلبية حتى في الأمور العادية وأحدها، اتخاذ اللباس ونتحفظ على القلب، وحيث أن للنفوس والشيطان حبائل مستحكمة وتسويلات دقيقة جدا والإحاطة بها خارجة عن طاقاتنا فلا بد لنا أن نقوم في مقابلها بقدر قوّتنا ونطاق وسعنا ونطلب التوفيق والتأييد من الحق تعالى.

فنقول بعدما اتضح أن للباطن في الظاهر وللظاهر في الباطن تأثيرا لابد للإنسان الطالب للحق والارتقاء الروحاني أن يحترز في انتخاب مادة اللباس وهيئته مما يكون له تأثير السوء في الروح ويخرج القلب عن الاستقامة ويغفله عن الحق ويجعل وجهة الروح دنيوية، ولا يتوهّم أن تسويل الشيطان وتدليس النفس الأمّارة إنما هو في اللباس الفاخر الجميل فقط وفي التجمّل والتزين فحسب بل اللباس الخلق الذي لا قيمة له ربما يسقط الإنسان عن درجة الاعتبار، ومن هذه الجهة لابد للإنسان أن يحترز من لباس الشهرة بل من مطلق المشي على خلاف المعمول والمتعارف، كما أنه لابدّ أن يحترز عن الألبسة الفاخرة التي تكون مادتها وجنسها قيمة وتكون هيئتها وخياطها جالبة للأنظار ومشارا إليها بالبنان لان قلوبنا ضعيفة وغير ثابتة، فبمجرد الامتياز والتعين يزلّ وينحرف عن الاعتدال فالإنسان المسكين الضعيف العاري من جميع مراحل الشرف والإنسانية

وعزة النفس وكمال الآدمية والبريء منها ربما يتفق أنه بواسطة أذرع من الثوب الأبريسم أو من الصوف وقد قلّد في خياطته الأجانب مع أنه تمكن منه بقيمة هي بيعه شرفه وارتكابه المنكرات، ينظر إلى عباد الله بنظر الحقارة والكبر ولا يعيّن لموجود قيمة، وهذا ليس إلاَّ من كمال ضعف نفسه وقلّة ظرفيّته حيث يتوهّم أن فضلات القزّ ولباس الغنم موجبة لاعتباره وشرفه.

أيها الإنسان المسكين، ما هذا الضعف ؟ وما هذه المسكنة فيك ؟ فشأنك أن تكون فخرا لعالم الإمكان وخلاصة للكون والمكان، أنت ابن آدم وشأنك أن تكون معلّما للأسماء والصفات، أنت ابن خليفة الله وشأنك أن تكون من الآيات الباهرات (تورا زكنكره عرش ميزنند صفير) (مصراع بيت للحافظ الشيرازي يقول: أنت الطائر الذي تركت مكانك فمن أعالي العرش يصفرون لك كي ترجع إلى وكرك). أيها الشقيّ والخلف غير الصالح غصبت مقدارا قليلا من فضلات الحيوانات وملبوساتها وتفتخر بها. لو كان هذا فخرا فهو للقزّ والغنم والإبل والسنجاب والأرنب. لماذا تفتخر بلباس غيرك وتدلّل بما هو فخر لهم وتتكبّر به ؟ وبالجملة كما أن لمادة اللباس وجنسه وكونه قيّما ومزيّنا تأثيرا في النفوس، ومن هذه الجهة قال أمير المؤمنين عليه السلام كما رواه القطب الراوندي (هو أبو الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسن العالم المتبحّر الفقيه المحدّث صاحب الخرائج والجرائح وقصص الأنبياء ولب اللباب وشرح النهج وغيره وهو أحد مشايخ ابن شهر آشوب يروي عن جماعة كثيرة من المشايخ. توفي القطب ٤ شوال سنة ٥٧٣ (تعج) كما في البحار نقلا عن خطّ الشهيد وقبره ببلد قُم في جوار الحضرة الفاطمية عليها السلام، مزار معروف). عليه الرحمة: " من لبس ثوبا عاليا فلا بد من التكبر ولابد للمتكبّر من النار ".

كذلك في هيئته وكيفيّة قصّه وخياطته آثار ربما يحصل للإنسان بواسطة أنه شبّه لباسه بالأجانب عصبية جاهلية للأجانب ويتضجّر ويتنفّر من الله ورسوله ويكون أعداء الله وأعداء رسوله محبوبين عنده ولذا ورد في الرواية عن الصادق عليه السلام: " إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى بعض أوليائه: قل للمؤمنين لا تلبسوا ملابس أعدائي ولا تأكلوا كأعدائي ولا تمشوا كأعدائي فتكونوا أعدائي كا هم أعدائي ".

فكما أن للألبسة الفاخرة جدا في النفوس تأثيرا، كذلك للألبسة الدنية جدا من حيث المادة والجنس ومن حيث الهيئة والشكل في النفوس تأثير، وربما يكون فساد هذا اللباس أشد بمراتب من تلك الألبسة الفاخرة لان للنفس مكائد دقيقة جدا فبمجرد أن يرى السالك نفسه من النوع الممتاز بأنه لبس اللباس الخشن والكرباس ولبس سائر الناس الألبسة اللينة اللطيفة، فبواسطة حب النفس يغفل هو عن عيوبه ويحسب هذا الأمر العرضي وغير المربوط به سببا لافتخاره، وربما يعجب بنفسه ويتكبّر على عباد الله ويحسب سائر الناس مبعدين عن ساحة القدس للحق ويرى

نفسه من المقربين ومن خلّص عباد الله وربما يبتلى بالرياء وسائر المفاسد العظيمة، فالمسكين اقتنع من جميع مراتب المعرفة والتقوى والكمالات النفسانية باللباس الخشن ولبس الخلق وغفل عن الآلاف من عيوبه التي من أعظمها هذا العيب الذي حدث فيه من سوء تأثير هذا اللباس، وحسب نفسه من أهل الله مع أنه من أولياء الشيطان وحسب عباد الله لا شيء وبلا قيمة.

وكذلك أيضا ربما يكون أن هيئة اللباس وكيفيته يبلي الإنسان بمفاسد مثل أن يرتّب اللباس على نحو يشتهر بالزهد والقدس، وبالجملة لباس الشهرة سواء في جانب الإفراط أو في جانب التفريط من الأمور التي تزلزل القلوب الضعيفة وتخلعها من مكارم الأخلاق وتوجب العجب والرياء والكبر (وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذرّ: " يا أبا ذرّ البس الخشن من اللباس والصفيق من الثياب لئلا يجد الفخر فيك مسلكه "). التي كل واحد منها من أمهات الرذائل النفسانية والموجب للركون إلى الدنيا. وعلاقة القلب بها الذي هو رأس كل الخطيئات ومنبع جميع القبائح.

وفي الأحاديث أيضا أشير إلى كثير من الأمور المذكورة كما في الكافي الشريف عن الصادق عليه السلام: " إن الله يبغض شهرة اللباس ".

وعنه أيضا قال: " الشهرة خيرها وشرها في النار ". وعنه عليه السلام: " إن الله يبغض الشهرتين، شهرة اللباس وشهرة الصلاة ".

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله ما معناه: " من لبس ثياب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثياب الذلّ يوم القيامة ".

المقام الثاني

في نبذة من آداب لباس المصلى

وفيه فصلان:

الفصل الأول

في سر طهارة اللباس

اعلم أن الصلاة هي مقام العروج إلى مقام القرب والحضور في محضر الأنس، ويلزم للسالك مراعاة آداب الحضور في محضر القدس لملك الملوك، وحيث أن أدنى المراتب والمراحل لظهور النفس التي هي قشر القشور والبدن الصوري الملكي إلى أعلى المقامات والحقائق التي هي لبّ اللباب ومقام سرّ القلوب كما أنها حاضرة في المحضر المقدس للحق، فالسالك أيضا لابد أن يستحضر ويُرى جميع الجنود الباطنة والظاهرة لممالك السر والعلن إلى محضر الحق جلّ وعلا ويقدم إلى محضره المقدس جميع الأمانات التي وهبها الله سبحانه بيدي قدرة الجمال والجلال له وكانت تلك الأمانات في كمال الطهارة والصفاء ومن دون تصرف أحد من الموجودات ويرد الأمانات إليه كما أعطاه سبحانه إياها. ففي أدب الحضور خطرات كثيرة لا يجوز للسالك أن يغفل عنها لحظة واحدة ولا بد له أن يجعل طهارة اللباس الذي هو ساتر للقشر بل قشر القشر وسيلة لطهارة الألبسة الباطنية وليتفطّن أنه كما أن هذا اللباس الصوري ساتر فهو لباس للبدن الملكي، فالبدن ساتر للبدن البرزخي والبدن البرزخي موجود الآن ولكنه في ستر البدن الدنيوي وحجابه وهذا البدن ساتر له والبدن البرزخي ساتر ولباس وحجاب للنفس وهي ساترة للقلب والقلب ساتر للروح والروح ساتر السر وهو ساتر اللطيفة الخفية إلى غير ذلك من المراتب وكل مرتبة نازلة ساترة للمرتبة العالية ومجموع هذه المراتب وان كان موجودا خلّص أهل الله وسائر الناس عنها محرومون، ولكن حيث أن بعض المراتب موجودة في الكل فلهذا نشير إليه فقط.

فليعلم أنه كما لا تتحقق صورة الصلاة بدون طهارة اللباس والبدن وأن القذارات التي هي رجس للشيطان ومستبعد محضر الرحمن هي من موانع ورود المحضر. وكما أنه يبعد المصلّي الملوّث لباسه وبدنه برجز الشيطان عن محضر القدس ولا يترك أن يدخل إلى مقام الأنس، كذلك

قذارات المعاصي وعصيان الحق التي هي من تصرفات الشيطان ومن رجس ذاك الخبيث وقاذوراته من موانع ورود المحضر، فالمتلبّس بالمعاصي قد نجّس ساتر البدن البرزخي ولا يتمكن مع هذه القذارة أن يرد إلى محضر الحق، وتطهير هذا اللباس من شرائط تحقق الصلاة الباطنية وصحتها وما دام الإنسان في حجاب الدنيا لا يطّلع على ذلك البدن الغيبيّ وطهارة لباسه وقذارته وشرطية الطهارة ومانعية القذارة فيها، ولكن في اليوم الذي خرج عن هذا الحجاب ورائد السلطنة الباطنية، ويوم الجمع طويا بساط تفرقة الظاهر وطلعت شمس الحقيقة من وراء الحجب المظلمة الدنيوية وانفتحت البصيرة الباطنية الملكوتية وأغلقت البصيرة الحيوانية الملكية فهو يدرك بعين البصيرة أن صلاته كانت فاقدة للطهارة إلى نهاية الأمر وكان مبتلى بآلاف من الموانع التي كان كل واحد منها سببا مستقلا للتبعيد عن محضر الحق المقدس، ومع آلاف الأسف أنه ليس في ذلك اليوم طريق للجبران ولا حيلة للإنسان بل ما يبقى له حين ذاك فقط هو الحسرات والندامات، ندامات لا نهاية لها وحسرات لا انتهاء لها ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (مريم ٣٩).

فإذا حصلت الطهارة للباس الباطني فيلزم طهارة البدن الملكوتي أيضا من رجز الشيطان وهو عبارة عن التطهير من أرجاس الأخلاق الذميمة التي يلوّث كل منها الباطن ويبعّد الإنسان عن المحضر ويهجّره من بساط قرب الحق، وهي أيضا من رجس الشيطان البعيد عن الرحمة، وإنما أصول جميع الذمائم ومبادئها هي العجب وحبّ النفس والتكبّر والتظاهر والتعصّب، وكل منها مبدأ كثير من الذمائم الأخلاقية ورأس كثير من الخطيئات، فإذا فرغ السالك من هذه الطهارة وطهّر لباس التقوى بماء التوبة النصوح والرياضة الشرعية فيلزمه أن يشتغل بتطهير القلب الذي هو الساتر الحقيقي، وتصرّف الشيطان فيه أكثر وقذاراته سارية إلى سائر الألبسة والسواتر وما لم يطهّر ذاك لا تتيسرّ سائر الطهارات ولتطهيره مراتب يشار إلى بعضها الذي يناسب هذه الأوراق :

أحدها: التطهير من حبّ الدنيا الذي هو رأس كل الخطيئات ومنشأ جميع المفاسد، وما دامت هذه المحبة في قلب الإنسان لا يتيسّر له الورود إلى محضر الحق ولا تتحقق المحبة الإلهية التي هي أم الطهارات مع هذه القذارة ولعله ما اهتم بشيء في كتاب الله ووصايا الأنبياء والأولياء عليهم السلام وخصوصا أمير المؤمنين عليه السلام مثلما اهتم بترك الدنيا والزهد فيها والاتقاء منها الذي هو من حقائق التقوى. ولا تحصل هذه المرتبة من التطهير إلاَّ بالعلم النافع والرياضيات القوية القلبية وصرف الهمّة في التفكر في المبدأ والمعاد وانشغال القلب بالاعتبار في أفول الدنيا وخرابها وكرامة العوالم الغيبية وسعادتها " رحم الله امرءاً علم من أين وفي أين و إلى أين ؟ " ومنها التطهير من الاعتماد على الخلق الذي هو شرك خفيّ بل هو عند أهل المعرفة شرك جليّ، ويحصل هذا التطهير بالتوحيد الفعلي للحقّ جلّ وعلا الذي هو منبع الطهارات القلبية ولا بد أن يعلم أن مجرد

العلم البرهاني والقدم التفكّري في باب التوحيد الفعلي لا ينتج النتيجة المطلوبة بل ربما تكون كثرة الاشتغال بالعلوم البرهانية سببا لظلمة القلب وكدورته وتمنع الإنسان من المقصد الأعلى، وفي هذا المقام قالوا العلم هو الحجاب الأكبر، وفي عقيدة الكاتب أن جميع العلوم هي عملية حتى علم التوحيد ولعله يستفاد كونه عمليا من كلمة التوحيد التي هي تفعيل لأنه بحسب ما يناسب الاشتقاق التوحيد عبارة عن التوجه من الكثرة إلى الوحدة وجعل جهات الكثرة مستهلكة ومضمحلة في عين الجمع ولا يحصل هذا المعنى بالبرهان بل يلزم أن ينّبه القلب بالرياضيات القلبية والتوجّه الغريزي إلى مالك القلوب ما أفاده البرهان نقطع حتى يحصل حقيقة التوحيد نعم، إن البرهان يقول لنا لا مؤثر في الوجود إلاَّ الله وهذا أحد معاني لا إله إلاَّ الله وببركة هذا البرهان نقطع يد تصرف الموجودات عن ساحة كبرياء الوجود ونردّ ملكوت العوالم وملكها إلى صاحبها ونظهر حقيقة كبرياء الوجود ونردّ ملكوت العوالم وملكه إلى صاحبها ونظهر حقيقة له ما في السموات والأرض وبيده ملكوت كل شيء وهو الذي في السماء اله وفي الأرض اله ولكن ما لم يصل هذا المطلب البرهاني إلى القلب ولم يعد صورة باطنية للقلب، لم نصل من حد العلم إلى حد الإيمان ولم يكن لنا من نور الإيمان الذي ينوّر مملكة الباطنية والظاهرية سهم ونصيب، فلهذه الجهة لنا نحن مع العلم بالبرهان لهذا المطلب الشامخ الإلهي واقع في التكثير وليس عندنا خبر من التوحيد الذي هو قرّة عين أهل الله، ندق طبل لا مؤثر في الوجود إلاَّ الله ومع ذلك نمد عين الطمع ويد الطلب إلى كل مستأهل وغير مستأهل :

باي استدلاليان جوبين بود   باي جوبين سخت بي تمكين بود

(بيت شعر للمولى الرومي يقول: ″ إن للاستدلاّليين رِجلاً من خشب ولا يمكن الاعتماد على الرجل الخشبية ″).

وهذا التطهير من المقامات الجليلة للسالكين وبعد هذا المقام مقامات أخر خارجه عن حدودنا ولعله في خلال هذه الأوراق يجيء منها ذكر بما يناسب هذه الأوراق.

الفصل الثاني

في الاعتبارات القلبية لستر العورة

(قال الشهيد قدّس سرّه: " وأما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فإن ظاهر بدنك موقع نظر الخلق فما رأيك في عورات باطنك ومقابح سرّك التي لا يطلّع عليها إلاَّ ربك فاحضر تلك المقابح ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله تعالى ساتر وإنما يسترها ويكفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها من مكانها في قلبك انبعاث جنود الخزف والحياء من مكانها فتذل به نفسك وتسكن تحت الخجلة وتقوم بين يدي الله قيام العبد المجرم المسيء الآبق ندم فرجع إلى مولاه بانكسار رأسه من الحياء والخوف ".

إذا رأى السالك نفسه حاضرا في محضر الحق المقدس جلّ وعلا بل وجد باطنه وظاهره وسره وعلنه عين الحضور. كما روي عن الكافي والتوحيد أن الصادق عليه السلام قال: " إن روح المؤمن لأشدّ اتصالا بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها " بل ثبت بالبرهان القوي المتين في العلوم العالية أن جميع دائرة الوجود من أعلى مراتب الغيب إلى أدنى مراتب الشهود هي عين التعلق والروابط ومحض التدلي والفقر إلى القيوم المطلق جلّت عظمته، ولعلة أشير إلى هذا المعنى في الآية المباركة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّه وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَميدُ﴾ (فاطر ١٥) فإذا كان موجود من الموجودات في حال من الحالات وآن من الآنات وحيثيّة من الحيثيّات غير متعلّق بعزّ القدس الربوبي يخرج عن بقعة الإمكان الذاتي والفقر ويدخل في حريم الوجوب الذاتي والغني، وعلى العارف بالله والسالك إلى الله أن يكتب هذا المطلب الحق البرهاني وهذه اللطيفة الإلهية العرفانية في لوح القلب بواسطة الرياضات القلبية ويخرجها من حد العقل والبرهان إلى حد العرفان حتى تتجلى في قلبه حقيقة الإيمان ونوره، فان أصحاب القلب وأهل الله لا يقفون في حد الإيمان بل يقدمون منه إلى منزل الكشف والشهود وهو يحصل بالمجاهدة الشديدة والخلوة مع الله والعشق لله، كما في مصباح الشريعة أن الصادق عليه السلام قال: " العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله لو سها قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقا إليه، والعارف أمين ودائع الله وكنز أسراره ومعدن نوره ودليل رحمته على خلقه ومطية علومه وميزان فضله وعدله، قد غني عن الخلق والمراد والدنيا ولا مؤنس له سوى الله ولا نطق ولا إشارة ولا نفس إلاَّ بالله لله من الله مع الله".

وبالجملة إذا رأى السالك نفسه بجميع شؤونه عين الحضور يستر جميع عوراته الظاهرية والباطنية لحفظ المحضر وذلك إذ وجد أن كشف العورات الباطنية في محضر الحق أقبح وأفضح

من كشف العورات الظاهرية بمقتضى الحديث " إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ".. وهذه العورات الباطنية والذمائم الأخلاقية وخبائث العادات والأحوال الرديئة الخلقية هي التي تسقط الإنسان عن لياقة المحضر وأدب الحضور وهذه هي المرتبة الأولى من هتك الستور وكشف العورات، وليعلم أن الإنسان إن لم يستر نفسه بحجاب الستارية والغفارية من الحق جلّ وعلا ولم يقع تحت اسم الستّار والغفار مع طلبة الغفارية والستارية. فبعد انطواء ساتر الملك وارتفاع حجاب الدنيا فربما تهتك ستوره في محضر الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين عليهم السلام ولا يعلم قباحة كشف تلك العورات الباطنية وفضاحتها ونتن سوى الله.

أيها العزيز لا تقس أوضاع عالم الآخرة بهذا العالم فإن هذا العالم لا يتسع لظهور نعمة من نعم ذاك العالم أو نقمة من نقماته، هذا العالم مع ما فيه من سعة السموات والعوالم لا يتسع لظهور حجاب من الحجب الملكوتية السفلى التي من جملتها عالم القبر فكيف بالملكوت الأعلى الذي يكون عالم القيامة أنموذجا منه. ففي الحديث المفصّل والذي رواه الشيخ الشهيد الثاني رضوان الله عليه في منية المريد عن الصديقة الكبرى سلام الله عليها قالت: " سمعت أبي صلى الله عليه وآله يقول: إن علماء شيعتنا يحشرون فيخلع عليهم من خلع الكرامات على قدر كثرة علومهم وجدّهم في إرشاد عباد الله حتى يخلع على الواحد منهم ألف ألف خلعة من نور.. إلى أن قالت عليها السلام: أن سلكا من تلك الخلع لأفضل مما طلعت عليه الشمس ألف ألف مرة ". هذا بالنسبة إلى النعيم، وأما بالنسبة إلى العذاب فقد روى الفيض رحمه الله في العلم اليقين عن المرحوم الصدوق بإسناده عن الصادق عليه السلام في ضمن حديث " أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعا وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها ولو أن قطرة من زقّومها وضريعها قطرت في مياه أهل الدنيا لمات أهلها من نتنها " نعوذ بالله من غضب الرحمن.

فيلزم على السالك إلى الله أن يبدّل أوصافه وأخلاقه السيّئة إلى الأوصاف والأخلاق الكاملة ويفنى في بحر الأوصاف الكمالية للحق، هذا البحر المتلاطم غير المتناهي ويبدّل الأرض المظلمة الشيطانية بأرض بيضاء مشرقة ويجد في نفسه ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر ٦٩) ويحقق في مملكة وجوده مقام أسماء الجمال والجلال للذات المقدسة فيقع في هذا المقام في ستر الجمال والجلال ويتخلّق بأخلاق الله ويستر مقابح التعينات النفسية والظلمات الوهمية فإذا تحقق هذا المقام يقع موردا للعنايات الخاصة للحق جلّ جلاله ويؤيده الحق بلطفه الخفيّ الخاص ويستره تحت حجاب كبريائه على نحو لا يعرفه غيره وهو أيضا لا يعرف غير الحق " إن أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري " وفي الكتاب المقدس الإلهي إشارات كثيرة في هذا الموضوع لأهله

كما في قوله تعالى: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ (البقرة ٢٥٧) إن أهل المعرفة وأصحاب السابقة الحسنى يعلمون أن جميع التعينات الخلقية والكثرات العينية ظلمات والنور المطلق لا يحصل إلاَّ بإسقاط الإضافات وكسر التعينات التي هي أصنام طريق السالك فإذا اضمحلت وانطمست ظلمات كثرات الفعلية والوصفية في عين الجمع تكون جميع العورات مستورة ويتحقق الحضور المطلق والوصول التام.

والمصلي في هذا المقام كما أنه مستور بالحق فهو مصلّ بصلاة الحق ولعل صلاة معراج خاتم الرسل صلى الله عليه وآله وسلم كانت بهذه الطريقة في بعض المقامات والمدارج، والله العالم.

وصل: عن مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام: " أزين اللباس للمؤمنين لباس التقوى وأنعمه الإيمان ". قال الله عز وجل: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف ٢٦). وأما اللباس الظاهر فنعمة من الله يستر عورات بني آدم وهي كرامة أكرم الله بها عباده ذرية آدم لم يكرم غيرهم وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عزّ وجلّ بل يقرّبك من شكره وذكره وطاعته ولا يحملك فيها إلى العجب والرياء والتزين والمفاخرة والخيلاء فإنها من آفات الدين ومورثة القسوة في القلب، فإذا لبست ثوبك فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته والبس باطنك بالصدق كما ألبست ظاهرك بثوبك وليكن باطنك في ستر الرهبة وظاهرك في ستر الطاعة واعتبر بفضل الله عز وجل حيث خلق أسباب اللباس لتستر العورات الظاهرة وفتح أبواب التوبة والإنابة لتستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء (في الكافي بإسناده إلى معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: "إذا تاب العبد توبة نصوحا أحبّه الله فستر الله عليه في الدنيا والآخرة، فقلت: وكيف يستر عليه ؟ قال: يُنسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب و (ثم خ ل) يوحي إلى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه ويوحي إلى بقاع الأرض اكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذنوب فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب ") ولا تفضح أحدا حيث ستر الله عليك أعظم منه (إنَّ الستّارية من أوصاف الله تعالى وطوبى لعبد تخلّق بأخلاق الله.. وقد شدّد النكير في الروايات على من كان بصدد إفشاء عيب من أخيه المؤمن كما قال الصادق عليه السلام: "من اطلّع من مؤمن على ذنب أو سيئة فأفشى ذلك عليه ولم يكتمها ولم يستغفر الله له كان عند الله كعاملها وعليه وزر ذلك الذي أفشاه عليه وكان مغفورا لعاملها وكان عقابه ما أفشى عليه في الدنيا مستور عليه في الآخرة ثم يجد الله أكرم من أن يثنّي عليه عقابا في الآخرة ".

وقال عليه السلام: " من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروّته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان ". والروايات في ذلك أكثر من أن تذكر.

وذكر المحدّث القمّي في السفينة في مادة عيب عن سفيان بن عيينة ((* ـ ابن عيينه بضم عينه أبو محمد سفيان بن عيينه ابن أبي عمر أن الكوفي المكي تابعي التابعين كان جدّه أبو عمران من عمّال خالد بن عبد الله القسري فلّما عزل خالد عن العراق وولى يوسف بن عمر طلب عمّال خالد فهرب منه إلى مكة فنزلها وولد سفيان سنة ١٠٧ ذكره الخطيب في تاريخه وأثنى عليه، وقال: كان له في العلم قدر كبير ومحلّ خطير وأدرك نيّفاً وثمانين نفساً من التابعين وسمع ابن شهاب الزهري وعمرو بن دينار وأبا إسحاق السبيعي ثم ذكر جماعة كثيرة من نظرائهم (انتهى). وهو عندنا كسفيان الثوري وينقل منه بعض الكلمات الحكيمة التي ينبغي أخذها فان الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها. حكي أنه كتب إلى أخ له: أما آن لك يا أخي أن تستوحش من الناس ولقد أدركنا الناس وهم إذا بلغ أحدهم أربعين سنة جن (أي ستر) عن معارفه وصار كأنه مختلط العقل من شدّة تأهّبه للموت وكان إذا أعطاه الناس شيئا قال أعطوه لفلان فإنه أحوج مني.

وقال خصلتان يعسر علاجهما: الطمع فيما بأيدي الناس وإخلاص العمل لله. ويقول: إذا كان نهاري نهار سفيه وليلي ليل جاهل ماذا أصنع بالعلم الذي كتبت ؟.

توفّي في غرّة رجب سنة ١٩٨ (فصح) بمكة ودفن بالحجون بتقديم الحاء المهملة على الجيم موضع بمعلاة مكة ومعلاة مقبرة بها دفنت خديجة رضي الله عنها)). قال في قوله تعالى: إلاَّ أمم أمثالكم.. ما في الأرض آدمي إلاَّ وفيه شبه من بعض البهائم، فمنهم من يقدم إقدام الأسد ومنهم من يعدو عدو الذئب ومنهم من ينبح نباح الكلب ومنهم من يتطوّس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنزير، فانه لو ألقي إليه الطعام الطيّب تركه وإذا قام الرجل عن رجيعه ولغ فيه، وكذلك نجد الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها فإن أخطأت مرة واحدة حفظها ولم يجلس مجلسا إلاَّ رواه عنه.. ثم قال: فاعلم يا بنيّ انك إنما تعشر البهائم والسباع فبالغ في الاحتراز. قال المحدث القمي بعد نقل هذا الكلام أقول وأحسن من هذا ما قال أمير المؤمنين عليه السلام: " إن الأشرار يتتبّعون مساوئ الناس ويتركون محاسنهم كما يتتبّع الذباب المواضع الفاسدة من الجسد ويترك الصحيح "). واشتغل بعيب نفسك واصفح عمّا لا يعنيك حاله وأمره واحذر أن تفني عمرك لعمل غيرك ويتّجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله تعالى في العاجل وأوفر أسباب العقوبة في الآجل وما دام العبد مشتغلا بطاعة الله تعالى ومعرفة عيوب نفسه وترك ما يشين في دين الله فهو بمعزل عن الآفات خائض في رحمة الله عز

وجل يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان وما دام ناسيا لذنوبه جاهلا لعيوبه راجعا إلى حوله وقوته لا يفلح إذا أبدا "

إنَّ مقاصد الحديث الشريف وإن اتضحت في الجملة في البيانات السابقة ولكن الإشارة إلى بعض إشاراته بعنوان شبه الترجمة موجب لصفاء القلوب.

يقول الإمام عليه السلام: أزين اللباس للمؤمنين هو لباس التقوى وألطفه لهم هو لباس الإيمان، كما قال الله تعالى: ولباس التقوى ذلك خير.. وأما لباس الظاهر فهو من نعم الله تعالى فانه يستر عورة بني آدم، وهذه الكرامة كرامة خاصة لذرية آدم عليه السلام ولم يعطها سبحانه إلى سائر الموجودات ولكن المؤمنين يصرفون هذه النعمة أيضا في أداء الواجبات الإلهية، وخير لباسك ما لا يغفلك عن الله ولا يشغلك بغير الله بل يقربك إلى شكره وذكره وطاعته، فلا بد لك أن تحترز في مادة اللباس وهيئته مما يوجب الغفلة والبعد عن ساحة قدس الحق وتعلم أن في اللباس بل في جميع الأمور العادية أمورا تغفل الإنسان عن الحق وتشغله بالدنيا وتؤثر في قلبه الضعيف تأثيرات السوء وتبتله بالعجب والرياء والتزين والفخر والكبر وكل ذلك آفات للدين وموجبة لقسوة القلب، وإذا لبست اللباس الظاهر فتذكر أن الله تعالى ستر بساتر رحمته ذنوبك ومعاصيك، وكما أنك لبّست ظاهرك باللباس الظاهري فلا تغفل عن الألبسة الباطنية ولبّس باطنك بلباس الصدق ولا بد لك أن تجعل باطنك في ستر الخوف والرهبة وظاهرك في ستر الطاعة وتعتبر من فضل الله تعالى حيث أنه تعالى أعطى اللباس الظاهر كي تستر به عيوبك الظاهرة وفتح لك أبواب التوبة والإنابة كي تستر بها العورات الباطنية التي هي المعاصي والأخلاق الذميمة. ولا تفضح أحدا كما أن الله سبحانه لم يفضحك فيما أهو أعظم واشتغل بعيب نفسك كي ينفتح لك باب الإصلاح واصفح عما لا يكون معينا لك (أقول: ويمكن أن يكون الاشتقاق من عني فيكون المعنى: واصفح عما لا يفيدك والمعنيان متقاربان) واحذر أن تفني عمرك لعمل غيرك وتكتب نتيجة أعمالك في صحيفة أعمال غيرك ويتّجر الآخرون برأس مالك وتلقي بنفسك إلى الهلاك لان نسيانك ذنوبك من أعظم العقوبات التي ابتلى الله تعالى الإنسان في الدنيا بها لأنه إذا نسي ذنوبه لم يقم بإصلاح نفسه، ونسيان الذنوب من أوفر أسباب العذاب في الآخرة وما دام العبد مشتغلا بطاعة الحق عز وجل ومشغولا بمعرفة عيوب نفسه وتاركا للأمور التي هي عيب في دين الله فهو بمعزل عن الآفات وغائص في بحر رحمة الله وفائز بجواهر الحكمة والبيان، وما دام العبد ناسيا ذنوبه وجاهلا بعيوبه ومعتمدا على حوله وقوته لا يحصل له الفلاح أبدا.

الباب الثالث

في الآداب القلبية لمكان المصلّى وفيه فصلان:

الفصل الأول

في معرفة المكان

(قال الشهيد رضوان الله عليه: وأما المكان فاستحضر فيه أنك كائن بين يدي ملك الملوك تريد مناجاته والتضرّع إليه والتماس رضاه ونظره إليك بعين الرحمة، فانظر مكانا يصلح لذلك كالمساجد الشريفة والمشاهد المطهّرة مع الإمكان فانه تعالى جعل تلك المواضع محلاّ لإجابته ومظنّة لقبوله ورحمته ومعدنا لمرضاته ومغفرته على مثال حضرة الملوك الذين يجعلونها وسيلة لذلك فادخلها ملازما للسكينة والوقار ومراقبا للخشوع والانكسار سائلا أن يجعلك من خاص عبادة وان يلحقك بالماضين منهم وراقب الله كأنك على الصراط جائز وكن مترددا بين الخوف والرجاء وبين القبول والطرد فيخشع حينئذ قلبك ويخضع لبّك وتتأهل لان تفيض عليك الرحمة وتنالك يد العاطفة وترعاك عين العناية.

وقال العارف القاضي سعيد القمّي: إن للأماكن أثرا في حجاب القلب عن الله وإقباله إليه تعالى اللهم إلاَّ لأصحاب الأحوال حيث لا يشغلهم حال عن حال فانظر في أي مكان ومرتبة بالنظر إلى حضرة ذي الجلال فإن لم تكن خارجا عن مقام الحسّ فذلك كمال النقص، فاجهد أن تسعى إلى مسجد القلب لتفوز بصلاة جميع القوى وجماعة المشاعر والأعضاء، وان اجتهدت ان تدخل كعبة الروح فتصلي مع جماعة الأرواح المقدسة والنفوس القدسية فتلك الصلاة نور، وإن ارتقيت بروحك إلى الملأ الأعلى وتدخل المسجد الأقصى والعالم الإلهي العقلي فذلك نور على نور).

إعلم أن للسالك إلى الله بحسب النشآت الوجودية أمكنة، ولكل منها آداب مخصوصة ما لم يتحقق السالك بها لم يتوصّل إلى صلاة أهل المعرفة.

المقام الأول: النشأة الطبيعية والمرتبة الظاهرية الدنيوية ومكانها أرض الطبيعة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ".. فالسالك في هذه المرتبة أدبه في أن يفهم قلبه أن نزوله من النشأة الغيبية وهبوط النفس من المحل الأعلى الأرفع إلى أرض الطبيعة السفلى ورده من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين لأجل سلوكه الاختياري إلى الله وعروجه إلى

معراج القرب ووصوله إلى فناء الله والجناب الربوبي الذي هو غاية الخلقة ونهاية المقصد لأهل الله. العارف يقول من الله وفي الله و إلى الله فللسالك أن يفهم نفسه ويذوق بذائقة روحه أن دار الطبيعة هي مسجد عبادة الحق وأنه قدم إلى هذه النشأة لأجل هذا المقصد كما يقول الحق جلّ وعلا: ″ وما خلقت الإنس والجن إلاَّ ليعبدون ″.. فإذا وجد دار الطبيعة مسجدا للعبادة ورأى نفسه معتكفا فيه لا بدّ وأن يقوم بآدابه ويصوم عن تذكر غير الحق وألاّ يخرج عن مسجد العبودية إلاَّ بقدر الحاجة فإذا انقضت حاجته يعود ولا يستأنس بغير الحق ولا يتعلق قلبه بغيره، فان هذا كله خلاف آداب العكوف على باب الله، وللعارف بالله في هذا المقام حالات لا يصح كتابتها وحيث أن الكاتب خارج عن الفطرة الإنسانية، ومستغرق في البحر المسجور والظلماني للطبيعة وعار عن الحق والحقيقة وعن جميع مقامات السالكين والعارفين فالأفضل إلاَّ يفضح نفسه أكثر من هذا المقام ويشكو من النفس الأمارة إلى جناب ذي الجلال المقدّس لعله يؤيد باللطف العام والرحمة الشاملة ويجبر ما سبق من عمره في بقيّته ربنا ظلمنا أنفسنا وان تغفر لنا وترحمنا لنكونَنّ من الخاسرين.

المقام الثاني: مرتبة القوى الظاهرة والباطنة التي هي جنود ملكية وملكوتية للنفس ومحلّها الأرض الطبيعية الإنسانية وهي هذه البنية والبدن وأدب السالك في هذا المقام أن يفهم باطن قلبه بأن أرض الطبيعة نفسه وهي مسجد الربوبية ومحل السجدة للجنود الرحمانية فلا ينجسها بقاذورات تصرف إبليس ولا يجعل الجنود الإلهية تحت تصرف إبليس كي تشرق ارض الطبيعة بشروق نور الرب وتخرج عن ظلمة البعد عن الساحة الربوبية وكدورته فيرى قواه الملكية الملكوتية معتكفة في مسجد البدن ويعامل بدنه معاملة المسجد ومع قواه بعين العكوف إلى فناء الله، وتكليف السالك في هذا المقام أكثر لأن تنظيف المسجد وطهارته أيضا على عهدته كما أنه بنفسه أيضا يتكفل أدب المعتكفين في هذا المسجد.

المقام الثالث: النشأة الغيبية للسالك: ومحلها البدن البرزخي الغيبي للنفس الذي يتكون بإنشاء النفس وخلاّقيتها، والأدب للسالك في هذا المقام أن يذوّق نفسه أن التفاوت بين هذا المقام والمقامات الأخر كثير وحفظ هذا المقام هو من مهمات السلوك لان القلب هو أمام المعتكفين في هذا الجناب وبفساده يفسد الجميع إذا فسد العالم فسد العالم فقلب العالِم عالَم صغير وعالم القلب هو العالم الكبير وتكاليف السالك في هذا المقام تكون أكثر من ذين المقامين لأنه قد كلف بناء المسجد أيضا بنفسه ومن الممكن لا سمح الله أن يكون مسجده مسجد ضرار وكفر وتفريق بين المسلمين ولا يجوز في هذا المسجد عبادة الحق ويجب تخريبه، فإذا أسّس السالك المسجد الملكوتي الإلهي بيد التصرف الرحماني ويد الولاية وطهّر بنفسه هذا المسجد عن جميع

القاذورات والتصرفات الشيطانية واعتكف فيه فلا بد له أن يجاهد حتى يخرج نفسه من العكـوف في المسجد ويعتكف بفناء صاحب المسجد فإذا تطهّر عن التملّق بالنفس وخرج عـن قيـد نفـسه يصير هو بنفسه منزلا للحق بل مسجدا للربوبية ويثني الحق على نفسه في ذاك المسجد بالتجليات الفعلية ثم الأسمائية ثم الذاتيّة وهذا الثناء هو صلاة الـرب يقـول سـبّوح قـدّوس رب الملائكـة والروح، وللسالك إلى الله في جميع مقامات السلوك مهمة أخرى لا يجوز له الغفلة عنها مطلقا بل هذه المهمة هي غاية السلوك ولب لبابة وهي أن لا يغفل في جميع الحالات والمقامات عن ذكـر الحق ويطلب في جميع المناسك والعبادات معرفة الله ويطلب الله في جميـع المظـاهر ولا تمنعـه النعمة والكرامة عن الصحبة والخلوة فانه نوع من الاستدراج.

وبالجملة يرى روح العبادات والمناسك وباطنها معرفـة الله ويتطلـب فيهـا المحبـوب ولعلـه تستحكم في قلبه علاقة المحبة والمحبوبية ويكون موردا للعنايات الخفية والمراودات السرية.

وصل: في مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: " إذا بلغت باب المسجد فاعلم أنـك قـد قصدت باب ملك عظيم لا يطأ بساطه إلاَّ المطهرون ولا يـؤذن لمجالـسته إلاَّ الـصدّيقون " (قـد تفطّنت بفضل الله تعالى لنكتة لطيفة في المقام وهي أن الرواية الشريفة كأنها قررت للوافدين إلـى حضرة ذي الجلال مرحلتين، الأولى: الوفود على حضرته والورود إلى جنابـه والثانيـة: المجالـسة والمؤانسة معه جلّت وعظمت نعماؤه. فخصّت الأولى بالمطهّرين والثانية بالصدّيقين كمـا أن فـي القرآن الكريم إشارة لطيفة إلى هاتين، أما بالنسبة إلى الأولى فهو قول الله سبحانه في شـأن مـريم الطاهرة: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَـالَمِينَ ٤٢ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران٤٢، ٤٣)، حيث أن الأمر بـالقنوت والسجود والركوع مع الراكعين وقيامها في صفّهم بعد اصطفائها وتطهيرهـا وخـصوصا إذا جعلنـا الواو في وطهّرك للعطف التفسيري وهو أفضل لئلاّ يلزم التكرار في قوله تعالى واصـطفاك علـى نساء العالمين.. فيكون المعنى أن قيامها عليها السلام في مجلس الـذكر بعـد كونهـا مطهّـرة، وان جعلها الواو لمطلق العطف فلا يضرّ أيضا بالمعنى الذي نحن بصدده وهو أنه لابد للوافد علـى الله أن يكون مطهّرا كما أشار إليه في الرواية الشريفة بقوله: " لا يطأ بساطه إلاَّ المطهّرون ".

وأما بالنسبة إلى المرحلة الثانية، فقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالـشُّهَدَاء عِنـدَ رَبِّهِـمْ﴾ (الحديد ١٩). فان فيها أيضا إشارة في غاية اللطافة لما ذكرنا وهي أن الكون عنـد الـربّ تعـالى يختصّ بالصدّيقين سواء جعلنا الظرف متعلقا بالشهداء كما هو الظـاهر لكونـه أقـرب أو جعلنـاه متعلقا بأولئك، وان كان بعيدا لبعده وعلى كلا التقديرين يستفاد ما ذكرنا من الآية الـشريفة فـافهم واغتنم ولله الحمد). فهب القدوم إلى بساط خدمة الملك هيبته فانك على خطـر عظـيم ان غفلـت

فاعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك فان عطف عليك برحمته وفضله قبل منك يسير الطاعة وأجزل لك عليها ثوابا كثيرا (في الكافي الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ″ مرّ بي أبي وأنا بالطواف وأنا حَدَث وقد اجتهدت في العبادة فرآني وأنا أتصابّ عرقا فقال لي: يا جعفر يا بنيّ إن الله إذا أحب عبدا يدخله الجنة ورضي عنه باليسير ″.

وفيه أيضا عن حنان بن سدير قال: ″ سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله إذا أحبّ عبدا فعمل قليلا جزاه بالقليل الكثير ولم يتعاظمه أن يجزي بالقليل الكثير له ″.

أقول: ذكر صاحب الوسائل (قدّس سرّه) هاتين الروايتين في الوسائل في باب (استحباب الاقتصاد في العبادة) وعندي أنها لا تناسب الباب بل الأولى أن ينعقد باب في كتب الأحاديث بعنوان: (باب أنّ الأصل في اشتراط القبول في الأعمال محبة الله عز وجل للعبد) وتذكر هاتان الروايتان في ذلك الباب). وان طالبك باستحقاق الصدق والإخلاص عدلا بك حجبك ورد طاعتك وان كثرت فهو فعال لما يريد واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه فانك قد توجّهت للعبادة والمؤانسة به واعرض أسرارك عليه ولتعلم أنه لا يخفى عليه أسرار الخلق أجمعين وعلانيتهم وكن كأفقر عباده بين يديه وأخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك فانه لا يقبل إلاَّ الأطهر والأخلص، فانظر من أي ديوان يخرج اسمك فان ذقت حلاوة مناجاته ولذيذ مخاطباته وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن إقباله عليك وإجابته فقد صلحت لخدمته فادخل فلك الإذن والأمان، وإلا فقف وقوف من انقطعت عنه الحيل وقصر عنه الأمل وقضي عليه الأجل فان علم الله عز وجل من قلبك صدق الالتجاء إليه نظر إليك بعين الرأفة والرحمة واللطف، ووفقك لما يحب ويرضى فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطّرين إليه المحترقين على بابه لطلب مرضاته.

قال تعالى: ″ أمّن يجيب المضطّر إذا دعاه ويكشف السوء ″.

وحيث أن هذا الكلام الشريف دستور جامع لأصحاب المعرفة وأرباب السلوك إلى الله نقلته بتمامه فلعله يحصل حال من التدبّر فيه، ومحصل قوله عليه السلام أنه إذا وصلت إلى باب المسجد فانتبه إلى أيّ باب وصلت ؟ وأيّ جناب قصدت ؟ فاعلم أنك وصلت إلى جناب السلطان العظيم الشأن الذي لا يضع أحد قدمه على بساط قربه إلاَّ إذا طهر وتطهر من جميع أرجاس عالم الطبيعة والأرجاس الشيطانية ولا يصدر الإذن لمجالسته إلاَّ الذين يقدمون عليه بالصدق والصفاء والخلوص من جميع أنواع الشرك الظاهر والباطن، فاجعل عظمة الموقف والهبة والعزّة والجلال الإلهي نصب عينك ثم ضع قدمك إلى جناب القدس و بساط الأنس فانك واقع في مخاطرة عظيمة (باخبر باش كه سر ميشكند ديوارش) فانك وردت إلى جناب القادر المطلق يجري ما يشاء في مملكته فإما أن يعاملك بالعدالة ويناقش في الحساب فيطالب بالصدق والإخلاص وتحجب عن

الجناب وتردّ طاعتك وان كثرت، وإما أن يعطف إليك طرفه ويقبل بفضله ورحمته طاعتك التي هي لا شيء ولا قيمة لها ويعطيك ثوابه العظيم فإذا عرفت الآن عظمة الموقف فاعترف بعجزك وتقصيرك وفقرك وإذا توجهت إلى عبادته وقصدت المؤانسة معه ففرّغ قلبك عن الانشغال بالغير الذي يحجبك عن جمال الجميل وهذا الاشتغال بالغير قذارة وشرك ولا يقبل الحق تعالى إلاّ القلب الطاهر الخالص، وإذا وجدت في نفسك حلاوة مناجاة الحق وذقت حلاوة ذكر الله وجرعت من كأس رحمته وكراماته ورأيت حسن إقباله وإجابته في نفسك فاعلم انك صرت لائقا لخدمته المقدسة، فادخل فانك مأذون ومأمون وإذا ما وجدت في نفسك هذه الحالات فقف بباب رحمته كالمضطر الذي انقطعت عنه جميع العلاجات وبعد عن الآمال وقرب إلى أجله فإذا عرضت ذلّتك ومسكنتك والتجأت إلى بابه ورأى سبحانه منك الصدق والصفاء فينظر إليك بعين الرحمة والرأفة ويؤيدك ويوفّقك لتحصيل رضاه فانه الذات المقدسة لكريم ويحب الكرامة لعباده المضطرين كما يقول تعالى: أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

(اعلم أن المصلي في الحقيقة ونفس الأمر العقل لان مقام العقل مقام العبادة وهو الواقف في مقام إياك نعبد وإياك نستعين، ومقام العقل أول مقام الصحو، وما قبله مقام السكر والفناء والزوال وفقدان النفس ووجدان الربّ. قال تعالى: " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ". قال الباقر عليه السلام: " كان شيئا ولم يكن مذكورا ".

في المجمع عن الباقر والصادق عليهما السلام: " كان مذكورا في العلم ولم يكن مذكورا في الخلق ". وروايات أخر تقرب من هذا المعنى.

فالمصلي هو العقل فقط ولذا ترى أن المجنون والصبي والنائم والمغمى عليه والسكران ليسوا مكلّفين بالصلاة وإن كان بالنسبة إلى السكران من باب الامتناع بالاختيار وهو لا ينافي الاختيار.. فليتدبّر.

ثم أن عدم التكليف في الموارد المذكورة من جهة أن الأصل الذي عليه مدار الصلاة وسائر التكاليف مفقود في هذه الموارد وان المكلّف الأصلي هو العقل كما قاله تعالى حين خلقه: " أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر فقال بك أثيب وبك أعاقب "، وأما غير العقل فالتكليف له تبعي وبالعرض.

ومكان العقل ومحلّه القلب الذي هو عرش الرحمن، وحيث أن حقيقة الصلاة عبارة عن توجّه العقل بكينونته إلى الله سبحانه فالمسجد ومكان الصلاة والعبادة هو القلب، ولا بدّ أن يكون المسجد ومحل العبادة طاهرا من لوث النجاسات كما في الحديث: " جنّبوا مساجدكم عن النجاسات ". فمن الواجب أن يكون المصلّى الواقعي ومحل المصلي الحقيقي طاهرا من لوث

الكفر والنفاق والشرك بجميع مراتبها ومن كل ما هو مكروه للمحبوب من قبيل الحسد والعجب والكبر وحبّ الرئاسة وأمثالها. وحيث أن الصلاة معراج المؤمن فإذا كان في القلب شيء من ظلمة الكفر والفسق وأثقالها فذلك القلب لا يقدر على العروج. فالواجب أن تصدر الصلاة عن قلب خاص مزكّى وذي بصيرة تامة ومعرفة كاملة لله سبحانه وصفاته وأسمائه ومعرفة أنبيائه وأوليائه ومعاداة أعدائه، ويكون مؤمنا بكل ما جاء به الأنبياء والرسل ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة ٢٨٥).. ولا يصحّ صدور الصلاة عن القلب الكافر غير البصير وغير المؤمن بالله وأوليائه وغير المعادي لأعداء الله سواء كان عدم إيمانه في هذا العالم أو في العالم الأول، فان صلاته حينئذ من لطخ أصابه في العالم الأول من طينة الأولياء وصار سببا لإيمانه الصوري وحسن خلقه العرضي غير الذاتي كما في الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل: من أن حسن شيم أعداء الله من لطخ أصحاب اليمين كما أن الصورة الإنسانية للكافر مغصوبة عنده في هذه الدنيا لينال بواسطتها شهواته ومقاصده الحيوانية، وفي يوم تبلى السرائر وتنكشف الحقائق تؤخذ الصورة منه ويحشر على غير صورة الإنسان، فما في وجودهم من النور والخير والصلاح مغصوبة وكله من مقتضيات لباس التقوى المختصّ بالمؤمنين، فأعمال هؤلاء تقع في المكان المغصوب ولا تنفعهم شيئا بل نفعها عائد إلى صاحب اللطخ ومتعلقة به، فان الغاصب يؤخذ بأشدّ الأحوال وترجع الأعمال إلى أصلها والأعمال غير المرضية الصادرة عن المؤمن فهي من اللطخ الذي أصابه من أصحاب الشمال وظلّه وشعاعه فترجع إليهم لا محالة كرجوع شعاع الشمس إليها كما صرّح بذلك في الرواية التي رواها الصدوق في العلل عن الباقر عليه السلام وفيها: " اخبرني يا إبراهيم عن الشمس إذا طلعت وبدا شعاعها في البلدان أهو بائن في القرص ؟ قلت: في حال طلوعه بائن. قال: أليس إذا غابت الشمس اتصل ذلك الشعاع بالقرص حتى يعود إليه ؟ قلت: نعم. قال: كذلك يعود كل شيء إلى سنخه وجوهره وأصله، فإذا كان يوم القيامة نزع الله عز وجل سنخ الناصب وطينته مع أثقاله وأوزاره من المؤمن فيلحقها كلها بالناصب وينزع سنخ المؤمن وطينته مع حسناته وأبواب برّه، واجتهاده من الناصب فيلحقها كلها بالمؤمن".

فبالتدقيق فيما ذكرنا، وفي الروايات الواردة في باب الطينة والميثاق ربّما يتّضح حقيقة الأمر في الإيمان المستقر والمستودع وانه لابد للإيمان المستودع أن يزول وهذا مقتضى عدله سبحانه لتجزى كل نفس بما كسبت ومن هذه الجهة فقد ركز في روايات الباب على العدل الإلهي والحكمة الربانية كقول الباقر عليه السلام في الرواية المتقدمة فإذا عرضت هذه الأعمال كلها على الله عز وجل قال: أنا عدل لا أجور ومنصب لا أظلم وحكم لا أحيف ولا أميل ولا أشطط الحقوا

الأعمال السيئة التي اجترحها المؤمن بسنخ الناصب وطينته والحقوا الأعمال الحسنة التي اكتسبها الناصب بسنخ المؤمن وطينته وردّوها كلها إلى أصلها فاني أنا الله لا إله إلاّ أنا عالم السرّ وأخفى وأنا المطّلع على قلوب عبادي لا أحيف ولا أظلم ولا ألزم أحدا إلاّ ما عرفته منه قبل أن أخلقه.

وحيث أن الرواية مشتملة على أسرار من العارف ممّا يصعب على القلوب فهمه وعلى القلوب إدراكه كما صرّح عليه السلام في آخرها بقوله: خذها إليك يا أبا إسحاق فو الله انه لمن غرر أحاديثنا وباطن سرائرنا ومكنون خزائننا فنقرّبها إلى الأذهان البسيطة ببيان بسيط وهو أنّا نفرض أن إنساناً يريد أن يعلّم ولده ويربّيه فاستأجر له معلّما ومربيّا وهيأ له جميع ما له دخل وتأثير في تعلّمه وتربيته ولكن إنساناً أخر منع الولد عن التعلّم بإغوائه وتدليساته وأخذ من ماله واتّجر لنفسه فأصبح الولد جاهلا وفقيرا، أليس مقتضى العدل حينئذ أن يكون وزر جهل الولد وفقره على ذلك الغاصب ويؤخذ منه ما اتّجر لنفسه بمال الولد فأصبح هو غنيّا والولد فقيرا فيعطى المال للولد ليجبر ما أصابه من الظلم والحرمان فعلى ذلك فما جزاء الكفّار والمنافقين وأمثالهم الذين ضيّعوا ما تحملّ الأنبياء والأولياء في سبيل إصلاح المجتمع وأفسدوا على المؤمنين آراءهم وأعمالهم، وفي نفس الوقت استفادوا لأنفسهم فوائد كانت نتيجة مشاقّ الأنبياء ومساعيهم وكان المؤمنون أحقّ بها منهم، أليس جزاؤهم ما ذكر في الرواية الشريفة من نزع حسناتهم وإعطائها للمؤمنين ؟ وكذلك نزع سيّئات المؤمنين وإعطاؤها لهم. وقد أشير إلى هذا الحكم العدل في موارد كثيرة تأويلا وتصريحا.

فمن التأويل ما أشار إليه الباقر عليه السلام وقال: يا إبراهيم اقرأ هذه الآية قلت يا بن رسول الله أيّه آية ؟ قال قوله تعالى قال ﴿مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّـآ إِذاً لَّظَالِمُونَ﴾ (يوسف ٧٩) هو في الظاهر ما تفهمونه وهو الله في الباطن هذا بعينه يا إبراهيم إن للقرآن ظاهرا وباطنا ومحكما ومتشابها وناسخا ومنسوخا إلى أن قال عليه السلام وان ما أخبرتك لموجود في القرآن كلّه قلت هذا بعينه يوجد في القرآن ؟ قال نعم يوجد في أكثر من ثلاثين موضعا في القرآن أتحب أن أقرأ ذلك عليك ؟ قلت: بلى يا بن رسول الله فقال قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ..﴾ (العنكبوت١٢، ١٣) أزيدك يا إبراهيم ؟ قلت بلى يا بن رسول الله قال: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ (النحل ٢٥). أتحب أن أزيدك ؟ قلت: بلى يا بن رسول الله. قال: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا﴾ (الفرقان ٧٠) إلى أن قال عليه السلام: ألم أبيّن لك أمر المزاج والطينتين من القرآن ؟ قلت: بلى يا بن رسول الله. قال: اقرأ يا إبراهيم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ

كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ...﴾ (يعني من الأرض الطّيبة والأرض المنتنة)... ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم ٣٢). يقول لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه لان الله عز وجل أعلم بمن اتّقى منكم فإن ذلك من قبل اللمم (وهو المزاج).

أزيدك يا إبراهيم ؟ قلت بلى يا بن رسول الله. قال: " كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حقّ عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.. أئمة الجور دون أئمة الحق ويحسبون أنهم مهتدون "، خذها إليك يا أبا إسحاق فو الله انه لمن غرر أحاديثنا. " الحديث " فعلى المتعلم البصير والقارئ الخبير أن يتأمل في الحديث الشريف ويتفحّص القرآن الكريم ليقف على بقية الآيات الدالّة على ما ذكرنا وهي على ما ذكره الإمام باقر العلوم عليه الصلاة والسلام ما يزيد على ثلاثين موضعا في القرآن.

وسيجيء الإشارة إلى بعض ما ذكرنا من المؤلف دام ظلّه في تفسير إياك نعبد وإياك نستعين فانتظر).

الفصل الثاني

في بعض آداب إباحة المكان

(منها ما رواه الكلبي (رحمه الله) في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: وجدنا في كتاب على ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف ١٢٨) أنا وأهل بيتي الذين أورثنا الله الأرض ونحن المتقون والأرض كلها لنا.

ورواية أخرى فيه أيضا ومفادها أوسع من الأولى قال عليه السلام: " الدنيا وما فيها لله تبارك وتعالى ولرسوله ولنا.. وفي ثالثة ومفادها أوسع من السابقتين عن أبي بصير قال: قلت له: أما على الإمام زكاة ؟ فقال: أحلت يا أبا محمد علمت أن الدنيا والآخرة للإمام يضعها حيث يشاء ويدفعها إلى من يشاء جائز له وذلك من الله. ").

إذا فهم السالك إلى مراتب المكان بحسب المقامات والنشآت الوجودية لنفسه فله أن يجتهد في آدابه القلبية لإباحتها حتى تخرج صلاته من التصرفات العصبية لإبليس الخبيث فيقوم في المرتبة الأولى بآداب صورية للعبودية والرقّية ويفي بالعهود السابقة في عالم الذرّ ويوم الميثاق ويبعّد يد تصرف إبليس عن ملك طبيعة حتى تحصل له المراودة والمخاطبة مع صاحب البيت ولا تكون تصرفاته في عالم الطبيعة غصبا. يقول بعض أهل الذوق: ان معنى الآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ...﴾(المائدة /١) بحسب الباطن أن حليّة بهيمة الأنعام موقوفة على الوفاء بعهد الولاية. وقد روي في الأحاديث أن جميع الأرض للإمام وغير الشيعة غاصبة لها، وأهل المعرفة يرون ولّي الأمر مالكا لجميع ممالك الوجود ومدارج الغيب والشهود ولا يجوّزون تصرّف أحد فيها بدون إذن الإمام.

يقول الكاتب: إن إبليس اللعين هو عدّو الله وتصرفاته وكل تصرف إبليسيّ في عالم الطبيعة جور وغصب فالسالك إلى الله إن أخرج نفسه من تصرفات ذلك الخبيث يكون تصرّفه تصرّفا رحمانيا ويباح ويطهر مكانه وملبسه ومطعمه ومنكحه وبمقدار ما يقع تحت تصرف إبليس يخرج عن الحلّيّة ويتصرّف فيه شرك الشيطان، فإذا وقعت الأعضاء الظاهرة للإنسان في تصرف إبليس تكون أعضاؤه إبليسية ويكون غاصبا لمملكة الحق كما أنه عكوف القوى الملكوتية في مسجد البدن يكون مباحا وعدلا إذا كانت القوى من الجنود الرحمانية وإلا فجنود إبليس ليس لها الحق بأن تتصرف في مملكة البدن الإنساني التي هي ملك للحق تعالى، فإذا قصّر يد تصرف الشيطان عن مملكة القلب الذي هو منزل خاص للحق تعالى وخلّص قلبه لتجليات الحق ولا يترك أحدا غير الحق يتطرق إليه ـ فان غير الحق إبليس الطريق ـ يباح له المساجد الظاهرة والباطنة والأمكنة الملكية والملكوتية وتكون صلاته صلاة أهل المعرفة وتتضح بهذا الميزان طهارة المسجد أيضا.

الباب الرابع

في الآداب القلبية للوقت وفيه فصلان:

الفصل الأول

في آداب أوقات الصلاة

اعلم أن لأهل المعرفة وأصحاب القلوب على قدر قوة معرفتهم للمقام المقدس الربوبي واشتياقهم إلى مناجاة حضرة الباري عز اسمه مراقبة ومواظبة لأوقات الصلاة التي هي ميقات المناجاة وميعاد الملاقاة مع الحق، ولا يزالون يراقبون ذلك فالمجذوبون لجمال الجميل والعاشقون للحسن الأزلي والمشغوفون به والسكارى من كأس المحبة والمصعوقون من قدح ألست الذين فرغوا عن الكونين وأعرضوا عن جميع أقاليم الوجود وتعلقوا بعز قدس جمال الله فلهم دوام الحضور وليسوا مهجورين عن الذكر والفكر والمشاهدة و المراقبة لحظة واحدة.

والذين هم أصحاب المعارف وأرباب الفضائل والفواضل وهم شرفاء النفس وكرماء الطينة فلا يختارون على المناجاة مع الحق شيئا ويطلبون من الخلوة مع الحق ومن مناجاته نفس الحق ويرون أن العزة والشرف والفضيلة والمعرفة كلها في تذكر الحق ومناجاته فهم إذا توجهوا إلى العالم ونظروا إلى الكونين يكون توجههم ونظرهم إليها توجه العارفين لها ونظرهم، ويتطلبون الحق في العالم ويطلبونه ويرون جميع الموجودات جلوة للحق ولجمال الجميل (عاشقهم برهمه عالم كه همه عالم ازاوست) (مصراع بيت للشاعر المعروف السعدي الشيرازي يقول: أنا للعالم عاشق حيث منه الكون أجمع).

فهم يواظبون على أوقات الصلاة بتمام أرواحهم وقلوبهم وينتظرون وقت المناجاة مع الحق ويحضّرون أنفسهم ويهيئّونها لميقات الحق فقلوبهم حاضرة ويطلبون من المحضر الحاضر ويحترمون المحضر لأجل الحاضر ويرون أن العبودية هي المراودة والمعاشرة مع الكامل المطلق فاشتياقهم إلى العبادة من هذا الباب والذين يؤمنون بالغيب وعالم الآخرة ويعشقون كرامات الحق جل جلاله ولا يستدلون النعم الأبدية الجنانية واللذات والبهجات الدائمة السرمدية بالحظوظ

الداثرة الدنيوية واللذائذ الناقصة المؤقتة المشوبة، فهؤلاء أيضا في وقت العبادة التي هي بذور النعم الأخروية يحضرون قلوبهم ويقومون بالأمر بإقبال واشتياق وينتظرون أوقات الصلاة فإنها وقت حصول النتائج واكتساب الذخائر ولا يختارون على النعم الدائمة شيئا فهؤلاء أيضا حيث أن قلوبهم خبيرة بعالم الغيب وقد آمنت قلوبهم بالنعم الأبدية واللذائذ الدائمة لعالم الآخرة يغتنمون أوقاتهم ولا يضيّعونها أولئك أصحاب الجنة وأرباب النعمة هم فيها خالدون.

هذه الطوائف التي ذكرت، وبعضها التي لم يذكر لهم من العبادة نفسها أيضا لذائذ على حسب مراتبهم ومعارفهم وليس لهم كلفة وتكليف فيها أصلا.

وأما نحن المساكين المبتلين بالآمال والأماني والمقيدين بسلاسل الهوى والهوس والمنغمرين في البحر المسجور الظلماني للطبيعة الذين ما وصلت إلى شامّة أرواحنا رائحة من المحبة والعشق وما ذائقة قلوبنا لذة من العرفان والفضيلة، فلسنا لا من أصحاب العرفان والعيان ولا من أرباب الإيمان والاطمئنان، نرى العبادات الإلهية تكليفا وكلفة والمناجاة مع قاضي الحاجات تحميلا وتكلّفا لا نركن إلى شيء غير الدنيا التي هي معلف للحيوانات ولا نتعلق بسوى دار الطبيعة التي هي معتكف للظالمين قد عميت أبصار قلوبنا عن جمال الجميل وهجرت ذائقة أرواحنا ذوق العرفان.

نعم إن رئيس سلسلة أهل الحق وخلاصة أصحاب المحبة والحقيقة يترنم بقوله: أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني فيا رب ما هذه البيتوتة التي كانت لمحمد صلى الله عليه وآله معك في دار الخلوة والأنس ؟. وما هذا الطعام والشراب الذي أذقته بيدك هذا الموجود الشريف وأخلصته من جميع العوالم، ففي شأن ذلك السيد العظيم أن يقول: " لي مع الله وقت لا يسعه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل " فهل هذا الوقت من أوقات عالم الدنيا والآخرة أو أنه وقت الخلوة في قاب قوسين وطرح الكونين..

أن موسى عليه السلام صام صوما موسويا أربعين يوما ونال إلى ميقات الحق، وقال تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾(الأعراف ١٤٢)، ومع ذلك أين هذا الميقات من الميقات المحمدي ولا نسبة بينه وبين الوقت الأحمدي.

إن موسى في الميعاد خوطب بخطاب فاخلع نعليك وقد فسّر بمحبة الأهل، والرسول الخاتم قد أمر في ميعاده بأن يحب عليا، وفي القلب من هذا السر جذورة ما أبرَّ منها شيء (توخود حديث مفصل بخوان ازاين مجمل) (مصراع معروف. مضمونه: أنت اقرأ بنفسك الحديث المفصل عن هذا المجمل).

الفصل الثاني

في الآداب القلبية للصلاة

فأنت أيها العزيز اغتنم وقت المناجاة هذا بالقدر الميسور والمقدار المقدور وقم بآدابه القلبية وفهّم قلبك أن وسيلة الحياة الأبدية الأخروية ومنبع الفضائل النفسانية ورأس مال الكرامات غير المتناهية هو المراودة والمؤانسة مع الحق ومناجاته وخصوصا الصلاة فإنها معجون روحاني قد هيّئ بيدي الجمال والجلال للحق وأجمع وأكمل من جميع العبادات، فبقدر ما يمكنك حافظ على أوقاتها وانتخب أوقات فضيلتها فإن فيها نورا ليس في غيرها من الأوقات وأقلل فيها من الاشتغالات القلبية بل اقطعها، وهذا يحصل بأن تقسم وتعيّن أوقاتك وتعيّن للصلاة المتكفّلة لحياتك الأبدية وقتا خاصا لا يكون لك فيه أشغال أخر ولا تكون للقلب تعلّقات أخرى، ولا تجعل الصلاة تزاحم الأمور الأخر كي تستطيع أن تريح القلب وتحضره، والآن نذكر الأحاديث الواردة في أحوال المعصومين عليهم السلام على قدر اقتضاء المقام فلعلّه بالتدبّر في حالات أولئك الأكرمين يتمّ التنبيه وتدرك عظمة الموقف وأهمية المقام وخطره وتستيقظ من نوم الغفلة.

فعن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وآله أنها قالت: " كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدّثنا ونحدّثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلا بالله عن كل شيء ".

وروي عن علي عليه السلام: " كان إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلوّن، فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول عليه السلام: جاء وقت الصلاة وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ".

ونقل السيد ابن طاووس في فلاح السائل: كان الحسين عليه السلام " إذا توضأ يتغير لونه ويضطرب مفاصله فقيل له في ذلك فقال: حق لمن يقف بين يدي ذي العرش أن يصفرّ لونه وتضطرب مفاصله " ونقل عن الحسن عليه السلام أيضا مثل ذلك.

وعن علي بن الحسين عليه السلام: " كان إذا حضر للوضوء اصفرّ لونه فيقال له ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول: ما تدرون بين يدي من أقوم ؟ ".

ونحن أيضا إذا تفكرنا قليلا وفهّمنا قلبنا المحجوب أنّ أوقات الصلاة هي أوقات الحضور في جناب القدس بحضرة ذي الجلال، وأن الحق تعالى ملك الملوك والعظيم المطلق في تلك الأوقات دعا عبده الضعيف الذي هو لا شيء إلى مناجاته وأذن له بالدخول إلى دار الكرامة حتى يفوز بالسعادات الأبدية ويجد السرور والبهجات الدائمية لكنّا مبتهجين ومسرورين من دخول

وقت الصلاة بمقدار معرفتنا وإذا استشعر القلب عظمة المقام وخطره فيحصل فيه الخوف والخشية بمقدار فهمه العظمة وحيث أن قلوب الأولياء مختلفة وحالاتهم متفاوتة على حسب التجليات اللطفيّة والقهرية واستشعار العظمة والرحمة فحينا يحملهم اشتياق الملاقاة واستشعار الرحمة والجمال على السرور والبهجة ويقولون: أرحنا يا بلال، وحينا يجعلهم التجليات بالعظمة والقهر والسلطنة في حالة الصعق ويرتعشون ويرتعدون.

وبالجملة أيها الضعيف إن الآداب القلبية للأوقات هي أن تهيئ نفسك للورود إلى حضرة مالك الدنيا والآخرة ومخاطبة الحق جل وعلا ومكالمته، فانظر بعين إلى ضعفك ومسكنتك وذلّتك وعجزك و إلى العظمة والجلال والكبرياء للذات المقدسة جلّت عظمته، ذلك أن الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين في جناب عظمته مصعوقون، وبالعجز والمسكنة والذلّة معترفون فإذا نظرت هذه النظرة وفهّمت قلبك فليستشعر القلب الخوف ويرى نفسه وعباداته لا شيء وانظر بعين أخرى إلى سعة رحمة الذات المقدسة وكمال عطفها وإحاطة رحمانيتها حيث أنه أذن للعبد الضعيف مع ما له من أنواع التلوّثات وكمال عجزه ومسكنته في الدخول إلى حضرة قدسه ودعاه إلى مجلس أنسه بتشريفات من إهباط الملائكة وإنزال الكتب السماوية وبعث الأنبياء والمرسلين من دون أن يكون لهذا الممكن المسكين سابقة استعداد أو يتصورّ لحضرته جل وعلا ونعوذ بالله أو لملائكة الله أو الأنبياء عليهم السلام في هذه الدعوة والحضور نفع فإذا توجّه القلب إلى ذلك فيحصل له الأنس البتة ويستشعر الرجاء فهيئ نفسك للحضور بقدمي الخوف والرجاء والرهبة والرغبة بقلب خجل وفؤاد وجل واستشعار الانكسار والذلة والضعف والمسكنة ولا ترَ لنفسك أية لياقة للحضور في هذا المحضر ولا تعدّ نفسك لائقا للعبادة والعبودية وترّ الأذن في الدخول في العبادة والعبودية من شمول الرحمة وعميم اللطف فحسب لحضرة الأحدية جلّت قدرته، فانك إذا جعلت ذلّتك نصب عينيك وتواضعت لذات الحق المقدسة بروحك وقلبك وعرفت نفسك وعبوديتك كلا شيء يتلطف الحق تعالى ويرفعك ويخلّعك بخلعة كراماته.

الباب الخامس

في بعض آداب الاستقبال وفيه فصلان:

الفصل الأول

في السر الجمالي للاستقبال

اعلم أن ظاهر الاستقبال متقوّم بأمرين: أحدهما المقدمي وهو صرف الوجه الظاهر عن جميع الجهات المتشتتة، والآخر النفسي وهو الاستقبال بالوجه إلى الكعبة أم القرى ومركز بسط الأرض، ولهذه الصورة باطن وللباطن سرّ بل أسرار وأصحاب الأسرار الغيبية يصرفون باطن الروح عن الجهات المتشتتة لكثرات الغيب والشهادة ويجعلون جهة السرّ والروح أحدية التعلق ويجعلون جميع الكثرات فانية في سرّ أحدية الجمع، فإذا تنزّل هذا السر الروحي في القلب فيظهر الحق في القلب بظهور الاسم الأعظم الذي هو مقام الجمع الأسمائي، وتفنى الكثرات الأسمائية وتضمحل في الاسم الأعظم وتكون وجهة القلب في هذا المقام إلى حضرة الاسم الأعظم فإذا ظهرت هذه عن باطن القلب إلى ظاهر الملك فينتقش إفناء الغير في الانصراف عن غرب عالم الملك وشرقه وينتقش التوجه إلى حضرة الجمع في التوجه إلى مركز بسط الأرض الذي هو يد الله في الأرض، وأما بالنسبة إلى السالك الذي يسير من الظاهر إلى الباطن ويترقى من العلن إلى السر فلا بد له أن يجعل هذا التوجّه الصوري إلى مركز البركات الأرضية وترك الجهات المتشتتة المتفرقة التي هي الأصنام الحقيقية، ويتوجّه إلى القبلة الحقيقية التي هي أصل أصول بركات السموات والأرض ويرفع رسوم الغير والغيرية حتى يصل شيئا ما إلى سرّ وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ويحصل في قلبه انموذجة من تجليات عالم الغيب الأسمائي وبوارقه وتحترق الجهات المتشتتة والكثرات المتفرقة ببارقة إلهية ويؤيده الحق تعالى وتتحطم الأصنام الصغيرة والصنم الأعظم عن باطن القلب بيد الولاية، ولا انتهاء لهذه القصة فاتركها وامضِ.

الفصل الثاني

في بعض الآداب القلبية للاستقبال

اعلم أيها السالك إلى الله انك إذا صرفت وجهك الظاهر من الجهات المتشتتة لعالم الطبيعة وتوجهت إلى النقطة الواحدة فقد ادّعيت فطرتين من الفطر التي خمّرت بيد الغيب واختفيت في ذاتك وقد خمّر الحق تعالى طينتك بها بيد الجلال والجمال وقد أظهرت هاتين الحالتين الفطريتين بصورة ظاهرة دنيوية وأشهدتهما بها وأقمت البينة على عدم احتجابك من نور هاتين الفطرتين الإلهيتين، والبينتان هما صرف الظاهر عن الغير والتوجه إلى القبلة التي هي محل ظهور يد الله وقدرة الله، وهاتان الفطرتان الإلهيتان أحداهما هي التنفّر عن النقص والناقص، والثانية هي العشق للكمال والكامل، وهذان اللذان أحدهما أصلي ذاتي والثاني تبعي ظلّي من الفطر التي خمرت بها جميع عائلة البشر ومن دون استثناء أحد منهم. ففي جميع سلسلة البشر مع اختلافهم في العقائد والأخلاق والطبائع والأمزجة والأمكنة والعادات في البدوي منهم والحضري والوحشي والمتمدن والعالم والجاهل والإلهي والطبيعي. هاتان الفطرتان مخمرتان وان كانوا هم محجوبين عن هذه الفطرة ويختلفون في تشخيص الكمال والنقص والكامل والناقص، فذاك الوحش السفّاك الفتّاك القتّال يرى الكمال في أن يغلب على نفوس الناس وأعراضهم ويرى السفك والقتل كمالا فيصرف فيه عمره، وذاك الطالب للدنيا الطالب للجاه والمال يرى الكمال بالمال والجاه ويعشقهما.

وبالجملة فصاحب كل مقصد يرى مقصده كمالا وصاحبه كاملا ويعشقه ويتنفّر عن غيره. فالأنبياء عليهم السلام والعلماء بالله وأصحاب المعرفة قد جاؤوا ليخرجوا الناس عن الاحتجاب ويخلصوا نور فطرتهم من ظلمات الجهل ويفهموهم الكامل والكمال، فإنهم بعدما عرفوا شخص الكمال والكامل فالتوجّه إليه وترك غيره لا يحتاج إلى الدعوة بل نور الفطرة هو أعظم هاد الهي وهو موجود في جميع سلالة البشر.

وفي هذا المعجون الإلهي، أعني الصلاة التي هي معراج القرب الإلهي الاستقبال إلى القبلة والتوجه إلى النقطة المركزية ورفع اليد وصرف الوجه عن الجهات المتفرقة ادعاء بأن الفطرة قد تيقّظت وخرج نور الفطرة عن الإحتجابات وهذا الادّعاء حقيقي بالنسبة إلى الكمّل وأصحاب المعرفة. وأما بالنسبة إلينا أصحاب الحجاب فأدبه أن نفهّم القلب أنه لا كمال ولا كامل في جميع دار التحقق سوى الذات المقدسة الكاملة على الإطلاق فان تلك الذات المقدسة كمال بلا نقص وجمال بلا عيب وفعلية بلا شوب القوة وخير بلا اختلاط بالشرّ ونور بلا شوب ظلمة، وما يوجد في جميع دار التحقق من الكمال والجمال والخير والعزّة والعظمة والنورانية والفعلية والسعادة فهو

من نور جمال تلك الذات المقدسة وليس لأحد شركة للذات المقدسة في كمالها الـذاتي، ولـيس لموجود جمال ولا كمال ولا نور ولا بهاء إلاَّ بجمال تلك الذات المقدسة وكمالها ونورها وبهائها.

وبالجملة، إن العالم قد تنوّر بجلوة جماله المقدس وأعطي له الحياة والعلم والقدرة والا فجميع دار التحقق كانت في ظلمة العدم وكمون الليس وبكون بل من كان قلبه منورا بنور المعرفة يـرى كل شيء غير نور جمال الجميل باطلا ولا شيء، ومعدوما أزلا وأبدا.

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما سمع هذا الشعر للبيد: * إلاَّ كـل شـيء مـا خلا الله باطل * قال صلى الله عليه وآله: ″ هذا الشعر أصدق شعر قاله العرب ″ فإذا فهّمـت قلبـك بطلان جميع دار التحقّق وفهّمته كمال الذات المقدسة فلا تحتاج في توجّه القلـب إلـى القبلـة الحقيقية والعشق لجمال الجميل على الإطلاق والتنفّر من جميع دار التحقق سـوى جلـوة الـذات المقدسة إلى إعمال رويّة بل فطرة الله بنفسها تدعو الإنسان إليه بالدعوة الجبلّيّة الفطريـة وتكـون وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض لسان الذات والقلب والحال وتكـون إنـي لا أحـب الآفلين لسان فطرة الإنسان.

فاعلم أيها الفقير أن العالم بوجهته السوائية زائل وداثر وفانٍ وباطل ليس لأحد من الموجودات من قبل نفسه شيء وليس في ذاته جمال ولا بهاء ونور وسناء، والجمال والبهاء منحـصر بالـذات المقدسة، فتلك الذات المقدسة كما أنها متفردة في الإلوهية ووجوب الوجـود، متفـردة بالجمـال والبهاء والكمال أيضا بل متفرّدة بالوجود، وان الذلّ والعدم الذاتي والبطلان ثابتة فـي ناصـية مـا سواه، فاصرف قلبك الذي هو مركز لنور فطـرة الله مـن الجهـات المتـشتتة للأباطيـل والانعـدام والنواقص ووجهه إلى مركز الجمال والكمال وليكن لسان فطرتك في ضميرك الصافي.. ما يقولـه العارف الشيرازي :

در ضمير ما نمى كنجد بغير از دوست كس هر دو عالم رابد شمن ده كه ما را دوست بـس (لا تسع قلوبنا أحد غير الحبيب فدع الكونين للعدوّ فان الحبيب يكفينا).

وصل: عن الإمام الصادق عليه السلام: ″ إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيهـا والخلـق وما هم فيه واستفرغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله تعالى وعاين بـسرّك عظمـة الله تعـالى واذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كل نفس ما أسلفت وردّوا إلى الله مولاهم الحق وقف على قـدم الخوف والرجاء ″.

وهذا الدستور الشريف دستور جامع لأمثالنا المحجوبين الذين لا نستطيع أن نحافظ دائما علـى حالات قلوبنا ونجمع بين الوحدة والكثرة ونتوجّه إلى الحق والخلق فحينئذ لا بد لنا أن نيأس مـن الدنيا وما فيها عند التوجّه إلى الحق واستقبال القبلة ونقطع طمعنا عن الخلق وشؤونه ونخرج عـن

روحنا وقلبنا المشاغل القلبية والشواغل الروحية لنصير لائقين للحضور في الحضرة ويتجلـى فـي سر روحنا جلوة من جلوات العظمة، فإذا وجدنا نور العظمة على مقدار استعدادنا نتذكر رجوعنـا إلى الحق ووقوفنا في محضره المقدس يوم يظهر لكل نفس ما عملت وردّوا إلى الله مولاهم الحق ويقع خط البطلان على جميع الأهواء النفسانية والمعبودات الباطلة، ففي محضر هذا العظيم الشأن الذي جميع دار التحقق هي جلوة من جلوات فعله فإن مسكينا مثلك ومثلي لا بد وان يرد بقـدمي الخوف والرجاء ويقوم على تينك القدمين وإذا رأينا الضعف والفتـور والمـسكنة والفقـر والذلّـة لأنفسنا والعظمة والحشمة والجلال والكبرياء في الذات المقدسة فنقع في الخوف والخـشية علـى خطر المقام وإذا وجدنا الرحمة والعطوفة والألطاف غيـر المتناهيـة والكرامـات اللانهائيـة نكـون راجين وآملين.

المقالة الثالثة

في مقارنات الصلاة وفيها ثمانية أبواب

الباب الأول: بعض آداب الأذان والإقامة

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في سرّهما الجمالي وآدابهما الإجمالية

(روى الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) في كتابه من لا يحضره الفقيه عن عبد الله بن علي قال: " حملت متاعي من البصرة إلى مصر فقدمتها فبينا أنا في بعض الطريق فإذا أنا بشيخ طويل شديد الأدمة (شديد السمرة) أبيض الرأس واللحية عليه طمران أحدهما أسود والآخر أبيض فقلت من هذا ؟ قالوا: بلال مولى رسول الله فأخذت ألواحي فأتيته ".

أقول: الظاهر أن الراوي وهو عبد الله بن علي كان تاجرا، وقوله أخذت ألواحي فأتيته مما يلفت النظر إلى أن المسلمين في الصدر الأول كانوا حريصين على أخذ العلم والحديث. فهذا الرجل التاجر في حين انه كان يدور البلدان في تجارته فان له ألواحا معدّة لكتابة الحديث كمتعلم مستعدّ للدراسة، وبمجرد أن عرف بلالا أخذ ألواحه وأسرع في حضور مجلس الدرس.

قال: فأتيته فسلّمت عليه فقلت له: السلام عليك أيها الشيخ. فقال: وعليك السلام. فقلت: يرحمك الله حدّثني بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال: وما يدريك من أنا ؟ فقلت: أنت بلال مؤذن رسول الله. قال: فبكى وبكيت حتى اجتمع الناس علينا ونحن نبكي.

أقول الظاهر أن بلالا لما سمع اسم رسول الله، تذكّر تلك الأيام الذهبية ومثل له رسول الله بسيمائه الملكوتيّة وتجدّدت له خواطر اللطف و المحبة التي كانت له من رسول الله فبكى حتّى أبكى الرجل التاجر أيضا وانجذب الناس إليه ينظرون ويتفكرون في أمره.

قال: ثم قال: يا غلام من أي البلاد أنت ؟ قلت: من أهل العراق. قال: بخ بخ ثم سكت ساعة ثم قال اكتب يا أخا أهل العراق: بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: المؤذنون أمناء المؤمنين على صلاتهم وصومهم ولحومهم ودمائهم لا يسألون الله عز وجل إلاّ أعطاهم ولا يشفعون في شيء إلاّ شفعوا.

أقول: إن قبول الشفاعة وإعطاء السؤال للمؤذنين في مقابل ما لهم من كلفة المسؤولية ومشقة أداء الوظيفة التي على عهدتهم كالشرطة في المدينة والدرك في البرّ فإنهم وان كانوا متعهدين حفظ أموال الناس ونفوسهم والوفاء بهذا العهد أمر صعب ولكنه في مقابل هذا التعهدّ تقبل تقريراتهم وشهاداتهم عند الحكومة، فكذلك المؤذنون موظّفون أن يعلنوا إسلام أهل المدينة أو القرية عندما يمرّ عليهم جند الإسلام، وكذلك أن يعلنوا أن اللحوم التي تباع في سوقهم يجوز أكلها لان السوق سوق المسلمين، وفي الإفطار في الصوم وكذلك الإمساك عن الأكل والشرب

وسائر المفطرات الاعتماد على أذانهم وكذلك دخول أوقات الصلاة فلابد أن يكونوا أمناء وأن يتحملوا ويراقبوا الوقت وهذا يلازم المشقة وبإزاء هذه المشقة تكون شفاعتهم مقبولة ودعاؤهم مستجابا.

رجعنا إلى الحديث :

قلت: زدني رحمك الله تعالى. قال: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: " من أذن أربعين عاما محتسبا بعثه الله عز وجل يوم القيامة وله عمل أربعين صدّيقا عملا مبرورا مستقبلا ".

قلت: زدني رحمك الله. قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: " من أذن عشرين عاما بعثه الله عز وجل يوم القيامة وله من النور مثل زنة السماء ".

أقول: إن تلقين توحيد الله وعظمته جل جلاله للنفس طوال عشرين سنة كل يوم من أيامها خمس مرات مرافقاً للتلقين السمعي يوجد في سماء الروح والقلب نوراً أضاء صراطه في الآخرة ظهوراً تاماً عند مروره بالصراط الجسر الممدود بين الجنة والنار فتقول لهم جهنم جَزْياً فلان فقد أطفأ نورك ناري.

رجعنا إلى الحديث :

قلت: زدني رحمك الله. قال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: " من أذن عشر سنين أسكنه الله مع إبراهيم الخليل في قبّته أو درجته. ".

قلت: زدني يرحمك الله. قال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: " من أذن سنة واحدة بعثه الله عز وجل يوم القيامة وقد غفرت له ذنوبه كلّها بالغة ما بلغت ولو كانت مثل زنة جبل أحد ".

قلت: زدني يرحمك الله. قال: نعم فاحفظ واعمل واحتسب. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: " من أذّن في سبيل الله صلاة واحدة إيمانا واحتسابا وتقرّبا إلى الله تعالى غفر الله له ما سلف من ذنوبه ومنّ عليه بالعصمة فيما بقي من عمره وجمع بينه وبين الشهداء في الجنة ".

أقول: هذا تفضّل من الله سبحانه بأنه يعطي لمن أذن في سبيل الله صلاة واحدة وقام بالإيثار والفداء والتفدّي لله سبحانه ولو بهذا المقدار اليسير أجر الذين ضحوّا بأنفسهم ودمائهم واستشهدوا في سبيل الله وان الله يجمع بينه وبنيهم في الجنة ولا يذهب عليك أن الاجتماع مع الشهداء في الجنة لا يلازم الاشتراك معهم في المقام والمرتبة والتنعّمات الروحانية كما هو كذلك في هذا العالم فإن الاجتماع روحاني أو كبير من الكبراء وان كان فخرا وشرفا في حدّ نفسه لكنه لا يلازم البلوغ إلى مرتبته كما هو واضح.

بقية الحديث:

قلت: زدني يرحمك الله، حدّثني بأحسن ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: ويحك يا غلام قطعت نياط قلبي.

وبكى وبكيت حتى أني والله لرحمته ثم قال :

أقول: لا ندري مِمَّ كان بكاء بلال وهذه الجذبة الجديدة من أين كانت له أكان من مضمون الحديث الذي ذكره بعد هذا السؤال أو أن كيفية سؤال الراوي جدّدت في قلبه خواطر كانت منسيّة ؟ وعلى كل حال ثم قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: " إذا كان يوم القيامة وجمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد بعث الله إلى المؤذنين ملائكة من نور ومعهم ألوية وأعلام من نور يقودون نجائب أزمّتها من زبرجد أخضر وخفائفها المسك الأذفر يركبها المؤذنون فيقومون عليها قياما تقودهم الملائكة ينادون بأعلى صوتهم بالآذان".

أقول: اهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله بتعريف الأزمة والخفائف فلعله من جهة أن الزمام والخفّ يرمزان إلى المبدأ والمنتهى، فالأذان الذي هو يبدأ بالتكبير والتعظيم لله سبحانه ويختتم بكلمة التوحيد ففي عالم تجسّم الأعمال وتبدّل الإعراض بالجواهر ينبغي أن يتمثّل هذا العمل النوراني ووسيلة السلوك إلى الله بمركوب من نور يكون مبدؤه جوهرة قيّمة وعظيمة كزبرجد باللون الأخضر الذي هو مبتدأ اللون للجماد عند تحوله إلى عالم الحياة وهو عالم النبات ويكون منتهاه وخفّه من المسك الأذفر الذي يرمز إلى تعطّر فضاء الروح بعطر التوحيد أو أنّ الزمام يرمز إلى الإمام والمقصد هو سيادة الإسلام ولواء الفتح الأخضر وأن الأذان يفوح كالمسك الأذفر حيثما حلّ وقدم ويكون أثر قدومه تعطير ذاك المحيط. وعلى أي حال فالمؤذنون يركبون تلك المراكب النورية وهم قيام عليها وعلى هيئة موقرة وبعظمة وجلال لأنهم أذنوا في الدنيا وهم قائمون وأظهروا عظمة الإسلام وجلاله.

(قال الراوي): ثم بكى بكاء شديدا حتى انتحب وبكيت فلما سكت قلت: ممّ بكاؤك ؟ فقال: ويحك ذكّرتني أشياء سمعت حبيبي وصفيّي صلى الله عليه وآله يقول: " والذي بعثني بالحق نبيّا إنهم يمرون على الخلق قياما على الجنائب فيقولون: الله أكبر فإذا قالوا ذلك سمعت لأمّتي ضجيجا فسأله أسامة بن زيد عن ذلك الضجيج ما هو ؟ قال: الضجيج: التسبيح، والتحميد، والتهليل. وإذا قالوا أشهد أن لا إله إلاَّ الله قالت أمتي إيّاه نعبد في الدنيا. فيقال: صدقتم. وإذا قالوا: أشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله: قالت أمتي: هذا الذي أتانا برسالة ربنا جل جلاله وآمنّا به ولم نره فيقال لهم صدقتم هذا الذي أدّى إليكم الرسالة من ربّكم وكنتم به مؤمنين فحقيق على الله

عز وجل أن يجمع بينكم وبين نبيّكم فينتهي بهم إلى منازلهم وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ". ثم نظر اليّ فقال: إن استطعت ولا قوّة إلاَّ بالله إلاَّ تموت إلاَّ وأنت مؤذن فافعل.

فقلت يرحمك الله، تفضّل علّي وأخبرني فإني فقير محتاج وأدّ إليّ ما سمعت من رسول الله فانك قد رأيته ولم أره وصف لي كما وصف لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بناء الجنة.

فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: " أن سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطه المسك الأذفر وشرفها الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر ". قلت: فما أبوابها ؟ قال: إن أبوابها مختلفة.

أقول: إن الرجل التاجر شرع في السؤال عن بناء الجنة وتضرّع إلى بلال أن يحدّثه بما سمع من رسول الله فأجابه بلال بما تحمّله من التكلّف كما يظهر من الحديث فحدّث بلال عن جنة المأوى وجنة عدن وجنة الفردوس ولكنه قبل أن يحدّث عنه هذه الجنّات حدّث عن بناء الجنة وأبوابها ومن أجل فهم أسرار الحديث وبالخصوص كلمة الباب لابد أن نتوجّه إلى معنى الباب في المقام وما معنى باب الجنة ؟

نحن نرى في المجتمع أن أبواب المدينة تسمّى باسم الناحية التي يفتح الباب إليها ففي طهران مثلا يقال باب خراسان أو باب مازندران أو باب شميران مع أن الباب على مدينة طهران لا على خراسان ومازندران وشميران فإن خراسان مثلا منطقة وسيعة ومحافظة كبيرة لا يمكن نصب الباب عليها وكذلك مازندران وشميران فالباب إنما هو لأهل طهران وإنهم إذا أرادوا أن يصلوا إلى خراسان مثلا فيمرّون بذلك الباب، فكذلك باب الجنة ليس على الجنة بل هو باب لأهل الجنة وعلى مدينة أهل الجنة وبلدهم وعلى أوضاعهم الأخلاقية وأفراد ملّتهم وكذلك باب الرحمة الإلهي أو باب مغفرته فانه أطوار وأحوال لنا لا أن الرحمة الإلهية عليها باب فإن الرحمة غير المتناهية لا تقبل الباب، وهكذا أبنية الجنة هي الأبنية التي تبنى في مجتمع كل ملّة يوجب استحقاقها الجنة، وهكذا سيد شباب أهل الجنة مع أن أهل الجنة بأجمعهم شبّان، فمعنى سيد شباب أهل الجنة أنّ شباب هذه الدنيا إذا أرادوا أن يكونوا من أهل الجنة فلا بد أن يكون سيدهم وأميرهم وقائدهم الحسين عليه السلام وإلا لم يكونوا من أهلها، فهذا معنى باب الجنة وسورها وإلا فالجنة أعلى وأعظم من أن نقول عليها باب أو سور، فان الجنة ليست محلا وسيعا ومكانا عظيما فحسب بل هي عالم وسيع وغير متناه وأوسع من السموات والأرض ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (آل عمران ١٣٣) كعالم الحياة فباب عالم النطفة

مفتوح للنطفة وإذا مرتّ النطفة به وهو الأحوال والأوضاع والشرايط المعيّنة فتدخل في عالم الحياة الوسيع الذي لا مبدأ له ملا منتهى، كعالمنا هذا بل أوسع.

ولكن حيث أن العالم الوسيع الشريف لكل فرد وأمّة في حياتهم لا يتيسّر إلاَّ بـصرف الـذهب والفضة وتأسيس المشاريع الخيرية بهما وتقديم مهجته الياقوتية ولا يتمكن أحـد مـن أن يـدخل الجنة إلاَّ من هذا الطريق. وأيضا حيث أن أهل الجنة هم مبادئ الخير والصلاح لمجتمعهم وأهلهم وعوائلهم وحيثما كانوا يعطّرون فضاءه بعطر الخدمات الحسنة فلهذا صار سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطه المسك الأذفر. فالتاجر وذوو الثروة يتمكنون أن يحـصروا الجنة بالذهب والفضة وصرف مهجتهم الياقوتية أن يجعلون أنفسهم من أهـل الجنـة وإلا فالبنـاء والقصر والحصن والسور ممّا يتعلّق بهذا العالم لا الجنة التي هي أوسع من السماء والأرض فإنهـا لا تقبل السور والجدار إلاَّ من جهتها التي إلى هذا العالم والوجهة الدنيوية وإلى الجدران التي هي حيّة وناطقة كما في الحديث أن جدران الجنة تتكلم. فبناء المشروعات الخيرية وإنشاء المؤسسات الحيوية بالإنفاقات من الذهب والفضة يحسب لأبناء الشعب الإسلامي لبنة لبنـة وكـل نفقـة مـن الذهب والفضة تكون كلبنة في بناء جنتهم أي في كونهم من أهل الجنة فـإن بنـاء عـالم الآخـرة يكون في عالم الدنيا والدنيا مزرعة الآخرة.

وبعد هذا التمهيد نقول: إن السؤال الأول للرجل التاجر من بلال السؤال عن بناء الجنة بتـضرّع وابتهال، فأجاب بلال بأن سور الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطه المسك الأذفر وشرفها الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر. قلت: فما أبوابها ؟..

فقبل أن نتكلم عن أبواب الجنة نتوقف قليلا في شـرف الجنـة ونقـول: إن الـشرف المدرّجـة ومسنّنات حصون التاريخ المحققة والمؤسسة لكل فرد وأمّة نتيجة جهاد المجاهدين تمثل المهـج الياقوتية التي بذلها المجاهدون فتارة أصابهم الفتح فحقّقوا لأنفسهم أو لأمـتهم النـشاط والـسرور والاخضرار، وأخرى أسروا وسجنوا واصفرّت وجوههم وعوارضهم نتيجة الجوع وتحمّل المـشاق في السجن وثالثة أصبحوا حمر الوجوه وحمر الألوان لما ضرّجوا بدمائهم. والنموذج الواضح لهذا، الأمة الأولى للإسلام وحصرهم في شعب أبي طالب وسجن المـؤمنين كعمـارة وبـلال وصـهيب وخباب ابن مسعود، والتعذيب الذي كان من الكفار عليهم وما أصابهم من الجوع وأنواع التعذيب التي صارت سببا لاصفرار وجوههم، ثم الملطّخون بدمائهم في سـاحات التعـذيب التـي صـارت كبدر وأحد وكربلاء وفي الأمة الإسلامية الأخيرة ما حدث في الثورة الإسلامية بإيران مـن الفـتح والاستشهاد والأسر والسجن.

وعلى أي حال، إن تاريخ الإسلام في امتداد الزمان مدرّج بالارتفاع والانخفاض وشرفه ملوّنة بهذه الألوان الثلاثة. ويبدو في النظر أن البناء الذي يكون مدرّجا أوضح وأبين في مدّ البصر مما لم يكن كذلك. هذا وأما الكلام في أبواب الجنة فقال الراوي وهو عبد الله بن علي قلت: فما أبوابها ؟ فعدّ بلال منها خمسة مع أن أبواب الجنة ثمانية فلعلها سقطت من قلم الراوي أو الناسخ أو أنها انمحت عن خاطر بلال ولكنه ذكر الأبواب من أخلاق الأمة لا أعمالها: كباب الرحمة والشكر والصبر والبلاء وذكر لبعضها حلقة دون البعض الأخر وذكر أن لبعضها مصراعين ولبعض مصراعا واحدا. وذكر أن باب واحدا من هذه الأبواب له نطق وباقي الأبواب صامتة. وقد ذكر في بعض الأحاديث أيضا أن حلقة باب الجنة إذا دقّت تقول يا علي ولعله يرمز إلى العلّي الاسم الإلهي ويستمدّ من العلوّ ويشير إلى قانون التكامل وسنّة النموّ والارتقاء وتكامل الفرد والأمة الذي يوجب كونهم من أهل الجنة أو لعله يرمز إلى المحبة والتبعية للقائد المتعالي الإسلامي علي عليه السلام الذي يقود الأمة إلى الجنة.

فالآن يشرع بلال في البحث عن أبواب الجنة جوابا لسؤال الرجل التاجر البصراوي فيقول: أن أبوابها مختلفة ثم عدّها طبقا للأخلاق الخمسة الرحمة والصبر والشكر والبلاء والباب الأعظم الأنس بالله، ثم شرع في بيان شؤون جنة المأوى وجنة عدن وجنة الفردوس. فمن المعلوم أن أبواب الجنة تنفتح للفرد والأمة من هذه الأخلاق العالية الفاضلة فيطؤون طريق التكامل وسبيل الارتقاء والتعالي فينفتح باب الجنة للأفراد أصحاب الرحمة على الفقراء والمستضعفين، ومن خلق الشكر للأغنياء والصبر في البأساء والضرّاء، فالرحمة والشفقة والعاطفة الغريزية في الأمهات بالنسبة إلى الأولاد تفتح باب الجنة على الأطفال الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرّا، فكل قدم للام بالنسبة إلى طفلها تفتح لها بابا إلى الجنة فإن الجنة تحت أقدام الأمهات لأن قائدها الرحمة وتفكرها الرحمة وتتابع الرحمة على الضعفاء، وبما أن هذه الرحمة غريزية فإنها مأمونة عن النسيان ولا يؤثر في زوالها الحدثان فلا يعطّل أمر الصغار الضفاف وهذا النوع من الرحمة موجود في الآباء بالنسبة إلى الأولاد والأسرة. فهم يقضون حوائجهم ويرتّبون أمورهم ويتعبون أنفسهم لتأمين معاشهم ومسكنهم وملبسهم وهكذا الرحمة في المعلم بالنسبة إلى التلميذ والعلماء بالنسبة إلى الجهال، فبمقدار ما تقل الرحمة في كل قشر وطبقة تقل مظاهرها وأسباب السعادة فأظهر مصاديقها الأمهات والآباء الذين يربّون أولادهم بمعاناة المشقة.

وأما شكر الضعفاء للأقوياء والفقراء للأغنياء على ما يخدمونهم ويقضون حوائجهم فيشكرونهم ويقدّمون لهم عواطفهم ومحبتهم، وان كان أيضا ياقوتا إلاّ انه ياقوت ابيض لما فيه من الصفاء والتبلور ولذا يعطي الصفاء والنور لقلوب الساعين في حوائجهم.

وأما باب الشكر فإنه ناطق يتكلم وفيه إشعار بأن الشكر له ظهور وبروز ويكون مع الصلوات والتحيات وتحنّ قلوب الشاكرين إلى من قام بخدمتهم، وله مصراعان فالضعفاء يشكرون الأقوياء بواسطة شكرهم تصير رغبتهم للخدمة أكثر وشوقهم أشدّ فشكر المستضعفين من حيث أنه يشوّق القائمين بالخدمة ويدعو غيرهم بالشركة معهم فهو أيضا باب إلى الجنة، كما أن القيام بحوائجهم باب إليها فلباب الشكر مصراعان وله في نفس الوقت أنين وحنين فالمجالس والاحتفالات التي تقام شكرا لإيثار الشهداء وبالخصوص لعاشوراء الحسين وأصحابه والصرخات والزفرات فيها والسلام على عباد الله الصالحين في الصلوات وجماعات المسلمين كلها لإظهار الإحساس والمحبة كما أن صياح فليعش فلان أو فليحَى فلان أو الأصوات: أحسنت أحسنت كلها تقوى وتشجّع روح الإيثار والتضحية في الأفراد.

وبالجملة، باب الشكر باب واسع وله ضجيج وأنين. وأما باب الرحمة فليس له نطق بل هو صامت بلا ضجيج يتجلى بصورة عاطفية. واليك نص حديث بلال :

قلت فما أبوابها ؟ فقال: إن أبوابها مختلفة، باب الرحمة من ياقوته حمراء، قلت: فما حلقته؟ فقال: ويحك كفّ عني فقد كلّفتني شططا.

قلت: ما أنا بكافّ عنك حتى تؤدي إليّ ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم أما باب الصبر فباب صغير مصراع واحد من ياقوته حمراء لا حلقة له، وأما باب الشكر فإنه من ياقوتة بيضاء لها مصراعان ما بينهما مسيرة خمسمئة عام له ضجيج وحنين يقول اللهم جئني بأهلي. قال: قلت: هل يتكلم الباب ؟ قال: نعم ينطقه الله ذو الجلال والإكرام.

أقول: حلقة الباب للإعلام والاطلاع للذين هم في الجانب الآخر للباب وقد يستعان بها لفتح الباب وسدّه فلهذه الجهة الأنسب إلاّ تكون لباب الصبر حلقة ولا يطّلع من في الجانب الآخر على من في هذه الجانب.فقد قال المحقق الطوسي: الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه وهو يمنع الباطن عن الاضطراب واللسان عن الشكاية والأعضاء عن الحركات غير المعتادة. وقال الصادق عليه السلام في جواب جابر وقد سأله عن الصبر الجميل: ذلك صبر ليس فيه شكوى إلى الناس.

وأما قوله فباب صغير له مصراع واحد بخلاف باب الشكر فإن له مصراعين مسيرة ما بينهما خمسمئة عام فلعله يرمز إلى سعة رحمة الله تعالى وقلّة الابتلاء كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (النحل ــ ١٨).. وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ﴾ (البقرة ــ ١٥٥). وهذا مقتضى سبق الرحمة الغضب كما ورد: يا من سبقت رحمته غضبه.. وقال تعالى:

﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف ـ ١٥٦).. هذا مع الغضّ عن أن الابتلاء في كثير من الموارد بل في جميعها حتى بالنسبة إلى الكفّار من مظاهر رحمته تعالى كما حقق في محلّه، ويتضح ما ذكرنا من تتمة الحديث: قال بلال وأما باب البلاء، قلت: أليس باب البلاء هو باب الصبر ؟ قال: لا قلت. فما البلاء ؟ قال: المصائب والأسقام والأمراض والجذام، وهو باب من ياقوتة صفراء بمصراع واحد ما أقل من يدخل فيه.

أقول: الاصفرار على وجوه المرضى والمبتلين بالأسقام والمصائب والجذام مشهود وما أقل أمثال أيّوب نبي الله عليه السلام في الأنام.

قال التاجر البصراوي: قلت: يرحمك الله زدني وتفضّل عليّ فإني فقير. فقال: يا غلام لقد كلّفتني شططا، أما الباب الأعظم فيدخل منه العباد الصالحون وهم أهل الزهد والورع والراغبون إلى الله عز وجل المستأنسون به. قلت: يرحمك الله فإذا دخلوا الجنة فإذا يصنعون؟

قبل أن نسمع الجواب من بلال لابد أن نتوجه إلى أنّ الجنة من الجهة التي تواجه الدنيا لها أبواب وأبنية وضجيج وحنين، وأما الجهة الأخرى التي تواجه الآخرة فإلى أين تنتهي ؟ إنها تنتهي إلى العالم اللامتناهي لا محالة أي لا تتناهى ولكن كلّياتها هي جنة المأوى وجنة عدن وجنة الفردوس.

فأولها الماء والخضرة، فالماء يرمز للحياة والخضرة إلى النشاط والسرور ووسطها مساكن ومواقف ومحلّ الإقامة (عدن بالمكان: أقام فيه) فهي المستقّر الفكري والروحي والأخلاقي لكل إنسان وآخرها جنّة الفردوس التي تمتد بامتداد النور فإلى العالم اللامتناهي إلى ما لا بدء له ولا نهاية فحدّها عدم الحدّ وسرورها بلا حدّ كحسّ التجمّل وحبّ الجمال فانه لا يشبع ولا ينتهي ولا يقف في حدّ فالتاجر المسافر لشعوره ونشاطه يسأل بلالا عن هذه الأمور قلت: يرحمك الله، فإذا دخلوا الجنة فإذا يصنعون ؟ قال: يسرون (يصيرون) على نهرين في ماء صاف (من ماء صاف) في سفن الياقوت مجاذيفها اللؤلؤ فيها ملائكة من نور عليهم ثياب خضر شديدة خضرتها.

قلت: يرحمك الله: هل يكون من النور أخضر ؟ قال: إن الثياب خضر لكن فيها نوراً من رب العالمين (جل جلاله) يسيرون على حافتي ذلك النهر.

أقول: الاستبعاد والاستفهام عن النور الأخضر ليس بغريب في ذاك اليوم وحتى اليوم مع الغفلة عن التجزئة الطيفية فظاهرة جديدة لكن جواب بلال ظاهر في أنه توهم النور الأخضر كالأنوار الملوّنة لا أنه نور حقيقة بين الأنوار.

والملائكة التي تعمل بالسفينة والماء ملائكة العمران ومبدأ لكل نشاط وسرور، فالماء هو المنشأ للحياة والاخضرار الذي تخضر منه الأغصان والأوراق يحتوي قوى طبيعية وهو بخضرته ألقى

عليها سترا والقوى دائما مستورة تحت ثياب الألوان والأشكال والأوضاع وتظهر الملائكة والقوى الفعّالة جمالها من وراء الألوان والأشكال الهندسية والأنظمة فتغمر الأرض وتجعلها مخضرّة شديدة الخضرة، هذه حقيقة الأمر في هذا العالم. وأما ما أجابه بلال قلت: فما اسم ذلك النهر ؟ قال: جنة المأوى. قلت: هل في وسطها غيرها ؟ قال: نعم جنة عدن وهي في وسط الجنان، وأما جنة عدن فسورها ياقوت أحمر وحصاتها اللؤلؤ.

أقول: قد ذكرنا ان جنة عدن هي مساكن ومحل الإقامة لأهل الجنة فبناء هذا يمكن أن يكون المراد من وسط جنة المأوى الذي وقعت فيه جنة عدن الباطن لا المعنى الوضعي والمحاذاتي، فجنة عدن هي باطن جنة كما أن جنة المأوى هي نهاية السير التكاملي للمجتمع. فعالمنا هذا مع ما له من الجمال كأنه حاشية لجنة المأوى، وفي نهاية العالم واخضراره وقد أظلتها شجرة الحياة وهو سدرة المنتهى بقرب من جنة المأوى فهنالك آخر مراتب السير التكاملي لأمّة آخر الزمان، والرسول الخاتم صلى الله عليه وآله رأى جبرائيل في النوبة الأخيرة عند سدرة المنتهى والنوبة الأخيرة هي المرحلة الأخيرة التي صار فيها كل ما في القوة صائرا في الفعل ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ (النجم ١٣ ـ١٤ـ١٥) تأوي إليها القلوب.. فنسبة جنة عدن وجنة المأوى نسبة ساحل البحر ووسطه. فالأمواج الساحلية من وسط البحر.

فجنة المأوى كموج ساحلي لجنّة عدن ولا بد للوصول من الساحل إلى وسط البحر من ركوب السفينة، فهذا العالم بما له من الجمال حاشية الجنة من جانبها الدنيوي فيوصلنا إلى جنة المأوى ويوصلنا الجمال الصافي لجنة المأوى إلى جنة عدن التي يفور منها الجمال، فكما أن الموج يبدأ من وسط البحر فيجيء إلى الساحل فيأخذ ما في الساحل ويرجع إلى المركز فيستقرّ فيه كذلك لموج الجمال أيضا مستقرّ وقرار أفلا تنظرون إلى موج الجمال كيف يطفح من أكناف السماء وأطراف الأرض فيجذب القلوب ويردّها إلى مستقرّها وهو جنّة الفردوس ؟.

قال التاجر البصراوي: فقلت: وهل فيها غيرها ؟ فقال: نعم جنة الفردوس. قلت: وكيف سورها ؟

قال: ويحك كفّ عني حرت (حيّرت) على قلبي. قلت: بل أنت الفاعل بي ذلك. قلت: ما أنا بكاف عنك حتى تتم لي الصفة وتخبرني عن سورها.

أقول: أنا لا ادري ما الذي كان يزعج بلالاً ويجور على قلبه. ولماذا لا يجيب السائل بسهولة؟ أكان لتذكرة الأحبّاء والأعزّة الذين مضوا على السبيل وتركوه، وإن تذكر الأحبة ليضغط القلب ويؤلمه أو أن بلالاً كان يتألم من ذكرياته والنبي الأكرم أو أن هذه الأسئلة تجبره على التفكر والتذكر لما كان مخبوءا في ذهنه ولبّه فيضطرّه لتعتيم الجواب أو كلا الأمرين ؟ وعلى كل حال، قال: سورها نور.

أقول: لعلّ قوله: سورها نور بمعنى أنه ليس لها سور فإن النور ليس له حدّ يقف فيه بل يسري ويجاوز حدود السموات، والجو الذي لم يعلم له نهاية فمدى سير النور جنة الفردوس ومنتزهها مع العلم بأن مسير النور هو العالم غير المتناهي، النور يسري في كل ثانية خمسين ألف فرسخ، ونور الشمس يصل إلينا في مدة ثماني دقائق وسبع عشرة ثانية، ويسري النور بهذه السرعة أربع سنوات حتى يصل إلى أوَّل كوكب قريب منا (نجمة آلفا) ويسري ملايين السنين قبل أن يصل إلينا الآن منذ تحرك من مبدئه وحيث أن نور العلم يضيء إلى هذا العالم الذي لا حدّ له و إلى غير النهاية فمنتزه الجنة وجنة الفردوس مع سير النور يتصلان بالعالم غير المتناهي.

قلت: ما الغرف التي فيها ؟ قال: هي من نور رب العالمين عزّ وجلّ.

أقول: قد عبّر عن العلم بالنور في كثير من الأحاديث وشعب العلم كلها غرف وهي غير متناهية.

قلت: زدني يرحمك الله: قال: ويحك إلى هذا انتهى بي رسول الله صلى الله عليه وآله طوبى لك إن أنت وصلت إلى ما له هذه الصفة وطوبى لمن يؤمن بهذا.

قلت: يرحمك الله، أنا والله من المؤمنين بهذا.

قال: ويحك، انه من يؤمن أو يصدق بهذا الحق والمنهاج لم يرغب في الدنيا ولا في زينتها وحاسب نفسه.

قلت: أنا مؤمن بهذا. قال: صدقت، ولكن قارب وسدّد ولا تيأس واعمل ولا تفرّط، وأرح وخف واحذر، ثم بكى وشهق ثلاث شهقات فظننّا أنه قد مات، ثم قال: فداكم أبي وأمي لو رآكم محمد صلى الله عليه وآله لقرّت عينه حين تسألون عن هذه الصفة. ثم قال: النجا، النجا، الوحا، الوحا، الرحيل، الرحيل، العمل، العمل، وإيّاكم والتفريط وإيّاكم والتفريط. ثم قال: ويحكم اجعلوني في حلّ مما قد فرّطت، فقلت له: أنت في حلّ ممّا قد فرّطت جزاك الله الجنة كما أدّيت وفعلت الذي يجب عليك. ثم ودّعني وقال: أتّق الله وأدّ إلى أمة محمد صلى الله عليه وآله ما أدّيت إليك. فقلت: أفعل إن شاء الله. قال: استودعك الله دينك وأمانتك وزوّدك التقوى وأعانك على طاعته بمشيئته.

أقول: أن عليا أمير المؤمنين عليه السلام: أيضا ينادي كل ليلة عند السحر: " تجهّزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل ".)

اعلم أن السالك إلى الله لابد له في الأذان أن يعلن للقلب الذي هو سلطان القوى الملكوتية والملكية ولسائر الجنود المنتشرة في الجهات المشتتة للملك والملكوت، إعلان الحضور في المحضر وحيث أنه قد قرب وقت الحضور والملاقاة فيهيئ تلك القوى حتى أنه إن كان من المشتاقين والعاشقين. فلا يفقد الصبر والتحمّل بالتجلّي مفاجأة.

وان كان من المحجوبين فلا يدخل المحضر المقدس بدون تهيئة الأسباب والآداب فالسرّ الإجمالي للأذان هو الإعلان للقوى الملكوتية والملكية والجيوش الإلهية للحضور، والأدب الإجمالي له هو التنبّه إلى عظمة المقام وخطره وعظمة المحضر والحاضر وتذلّل الممكن وفقره وفاقته ونقصه وعجزه عن القيام بالأمر وعن القابلية للحضور في المحضر إن لم يؤيده اللطف والرحمة للحق جل وعلا ويجبر نقصه.

والإقامة: هي إقامة القوى الملكوتية والملكية في المحضر وإحضارها في الحضور، وأدبها هو الخوف والخشية والحياء والخجل والرجاء الواثق إلى الرحمة غير المتناهية.

والسالك لابد له أن يفهم قلبه في جميع فصول الأذان والإقامة عظمة المحضر والحضور والحاضر ويجعل ذل نفسه وعجزها وقصورها نصب عينيه حتى يحصل الخوف والخشية ومن الجانب الآخر لابد أن يريه الرحمة الواسعة والألطاف الكريمة حتى يحصل له الرجاء والشوق، فالقلوب العشيقة يغلبها الشوق والجذبة. وبقدم الحب والعشق تضع أقدامها في محضر الأنس، وقلوبهم بواسطة تلك الجذبة الغيبيّة وبما فيها من عشق المحضر والحاضر تشتغل إلى آخر الصلاة بالمعاشقة والمعانقة مع ذكر الحق وفكره.

وفي الحديث عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال :

" أفضل الناس من عشق العبادة وعانقها وأحبّها بقلبه وباشرها بجسده وتفرّغ لها فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على يسر أم على عسر ".

والقلوب الخوفية يتجلى لها سلطان العظمة وتغلب عليها جذبة القهر وتجعلها في حالة الصعق ويذوبّها الخوف والخشية ويمنعها عن كل شيء القصور الذاتي والاستشعار بذلّة نفسه وعجزة.

وفي الحديث عن موسى بن جعفر عليهما السلام (قال كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي في حقه هو الإمام الكبير القدر العظيم الشأن الكثير التهجد الجاد في الاجتهاد المشهور بالعبادة المواظب على الطاعات المشهور بالكرامات يبيت الليل ساجدا أو قائما ويقطع النهار متصدقا وصائما ولفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين عليه دُعي كاظما. كان يجازي المسيء بإحسانه إليه ويقابل الجاني عليه بعفوه عنه ولكثرة عباداته كان يسمّى بالعبد الصالح ويعرف في العراق بباب الحوائج إلى الله ينجح المتوسلون إلى الله به. كراماته تحار منها العقول وتقضي بأن له عند الله قدم صدق لا تزلّ ولا تزول (انتهى). ولد عليه السلام بالأبواء ـ منزل بين مكة والمدينة ـ يوم الأحد لسبع خلون من صفر سنة ١٢٨ ثمان وعشرين ومئة أمّه عليه السلام حميدة المصفاة البربرية وكانت من أشراف الأعاجم قال الشيخ الأجل الأقدم أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي في كتاب الفرق ولد موسى بن جعفر عليه السلام في سنة ثمان وعشرين ومئة وقال بعضهم سنة تسع وحمله

الرشيد من المدينة لعشر ليال بقين من شوال سنة تسع وسبعين ومئة وقد قدم هرون الرشيد المدينة منصرفا من عمرة شهر رمضان ثم شخص هرون إلى الحج وحمله معه ثـم انـصرف علـى طريـق البصرة فحبسه عند عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور ثم أشخصه إلـى بغـداد فحبـسه عنـد السندي بن شاهك فتوفي في حبسه ببغداد لخمس ليال بقين من رجب سـنة ١٨٣ ثلـث وثمـانين ومئة (قفج) وهو ابن خمس أو أربع وخمسين سنة ودفن في مقابر قريش. ويقال في رواية أخـرى أنه دفن بقيوده وأنه أوصى بذلك فكانت إمامته خمسا وثلاثين سنة وشـهورا.) قـال: " قـال أميـر المؤمنين عليه السلام: " إن لله عبادا كسرت قلوبهم خشيته فأسكتهم عن النطق ".

والحق تعالى يتجلى لأوليائه الكمّل تارة التجلّي اللطفي ويكون العشق والجذبـة الحبيـة هاديـا لهم، كما في الحديث بأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان ينتظر الصلاة ويشتدّ عـشقه وشـوقه فيقول لبلال المؤذن: " أرحنا يا بلال ".. وأخرى يتجلى لهم بتجلي العظمة والسلطنة ويحصل فيهم الخوف والخشية كما نقلت الحالات الخوفية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أئمة الهـدى عليهم السلام، وثالثة يتجلى لهم بالتجلي الأحدي الجمعي على حسب طاقة قلوبهم وسعة أوعيتها، ونحن ـ المحجوبين، المشتغلين بالدنيا والمحبوسين في سجن الطبيعة والمغلولين بأغلال الشهوات والآمال، والمحرومين من السعادات العقلية الإلهية الذين لا نصحو من سـكر الطبيعـة إلـى صـبح الأزل، ولا نفيق من نومنا الثقيل أبدا ـ خارجون عن نطاق هذه التقسيمات ومـستثنون مـن نطـاق هذا البيان، فآداب الحضور لنا طور آخر والقيام بالوظائف القلبية على شكل آخـر ولكـن المقـدم على الكل أن نخرج من قلوبنا اليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله الـذي هـو مـن الجنـود العظيمة لإبليس ومن اللقاءات شياطين الإنس والجن ولا نتوهم أن لباس هذه المقامات قـد خـيّط على قامة أشخاص خاصة وأيدي آمالنا عنها قاصرة وأرجل سير البشر عنها راجلة فلا نخطو أصلا ونبقى بالبرودة والوهم مخلّدين في أرض الطبيعة، لا فليس الأمر على ما نتـوهّم. نعـم فـي نفـس الوقت أيضا أنا أقول: إن المقام الخاص لكمّل أهل الله لا يتيسّر لأحد ولكن للمقامـات المعنويـة والمعارف الإلهية مدارج غير متناهية لها مراتب كثيرة يتيسّر للنوع أكثر تلك المقامات والمعـارف والحالات والمدارج، إن تركتهم البرودة والتهاون الذي في أنفسهم، وترتفع يد العنـاد والتعـصب لأهل الجهل والعناد عن قلوب عباد الله ولا يكون لهم شيطان طريـق سـلوكهم، فـأدب الحـضور بالنسبة إلينا هو أنه حيث أنا في بدء الأمر لم نتجاوز عن مرتبة الحس والظاهر، ولـيس فـي أعيننـا سوى العظمة والجلالة الدنيوية وليس عندنا أي خبر عن العظمات الغيبية الإلهية، فلا بد لنا أن نرى محضر الحق تعالى كمحضر سلطان عظيم الشأن قد أدرك القلب عظمته وأن نفهم قلوبنـا أن كـل عظمة وجلال وكبرياء هي تجلٍ من عظمة عالم الملكوت قد تنزّلت فـي هـذا العـالم، وان عـالم

الملكوت بالنسبة إلى العوالم الغيبية وفي جنبها ليس له قدر محسوس، فنفهّم القلب إن العالم هو المحضر المقدّس لحضرة الحق وأن الحق تعالى حاضر في جميع الأمكنة والأحياز، وبالخصوص فإن الصلاة هي إذن خاص للحضور وميعاد مخصوص للملاقاة والمراودة مع الحضرة الأحدية فإذا جعلنا القلب مستشعرا العظمة والحضور وان كان ذلك في بدء الأمر مع التكلّف ولكن يستأنس به القلب على التدريج ويكون هذا المجاز حقيقة، فإذا قمنا بالآداب الصورية للتعامل مع مالك الملوك، وأتينا بالآداب الحضورية الظاهرية فيحصل أثر منها في القلب أيضا، ويستشعر القلب العظمة ويصل الإنسان تدريجيا إلى النتائج المطلوبة وكذلك بالنسبة إلى آثار الحب والعشق فإنها أيضا تحصل بالتحصيل والرياضة، ففي أول الأمر لابد أن يعرض على النفس الرحمات الصورية والألطاف الحسية ويوصل إلى القلب مقام الرحمانية والرحيمية والمنعمية كي يستأنس القلب على التدريج ويحصل الأثر في الباطن من الظاهر وتتنوّر مملكة الباطن من آثار الجمال وتحصل النتائج المطلوبة والإنسان إذا قام بالأمر وجاهد في سبيل الله فالحق تعالى يؤيده وينجيه باليد الغيبية من ظلمات عالم الطبيعة وينوّر أرض قلبه المظلمة بإشراق نور جماله ويبدله بها السموات الروحية ومن يقترف حسنة نزد فيها حسنا أن الله غفور رحيم. (الحسن بن موسى بن أخت سهل نوبخت متكلم فيلسوف من أعاظم متكلمي الإمامية وكان يجتمع إليه جماعة من نقلة كتب (جش) الحسن بن موسى أبو محمد النوبختي شيخنا المتكلم المبرز على نظرائه في زمانه قبل الثلاث مئة وبعدها له على الأوائل كتب كثيرة منها كتاب الآراء والديانات كتاب كبير حسن يحتوي على علوم كثيرة قرأت هذا الكتاب على شيخنا أبي عبد الله رحمه الله وله كتاب فرق الشيعة (انتهى).

(وكتاب الفرق مطبوع في المطبعة الحيدرية في النجف).

الفصل الثاني

في بعض آداب تكبيرات الأذان والإقامة وأسرارهما

اعلم أن الأذان حيث إنه إعلام الحضور لقوى النفس الظاهرة والباطنة في محضر الحق الربوبي لأجل الثناء على الذات المقدسة على حسب جميع الأسماء والصفات والشؤون والآيات لان الصلاة كما أشير إليها ثناء جامع ومورد هذا الثناء هو الذات المقدسة على حسب تجلّيها بالاسم الأعظم الذي هو مقام أحدية جمع الأسماء في الحضرة الواحدية ومقام التجلي بالجمع والتفريق والظهور والبطون في حضرات الأعيان والأسماء العينية، فالسالك يتوجّه في بدء الأمر إلى كبرياء الذات المقدسة على حسب هذا الشأن الجامع فيعلن عظمتها وكبرياءها أولاً على قوى مملكة نفسه الملكوتية منها والملكية. وثانياً على ملائكة الله الموكلة على ملكوت السموات والأرضين فيعلن على حسب التكبيرات الأربعة كبرياء الاسم الأعظم على جميع سكنة عوالم الغيب والشهادة في المملكة الداخلية والخارجية، وهذا نفسه إعلان بعجزه عن القيام بالثناء على الذات المقدسة وإعلام قصور نفسه عن إقامة الصلاة وهذا هو من الأمور الشاملة في السلوك والآداب المحيطة على الثناء والعبادة، لابد أن يكون في جميع أحوال الصلاة نصب عين السالك ولهذا يكرّر في الأذان والإقامة ويكرّرها دائما في الصلاة ويعاد في حال الانتقال من كل حال إلى حال آخر حتى يتمكن في قلب السالك القصور الذاتي لنفسه والعظمة والكبرياء للذات المقدسة.

ومن هنا يعلم أدبه أيضا من أنه لا بد للسالك أن يذكّر القلب وقواه بعجز نفسه وكبرياء الحق.

وبوجه آخر يمكن أن تكون التكبيرات الأولية في الأذان كل واحدة منها إشارة إلى مقام، فتكون التكبيرة الأولى إشارة إلى التكبير عن التوصيف ذاتا، والثانية إلى التكبير عن التوصيف وصفا، والثالثة إلى التكبير عن التوصيف اسما، والرابعة إلى التكبير عن التوصيف فعلا، فكان السالك يقول الله أكبر من أن توصف ذاته أو تجليات ذاته والله أكبر من أن توصف صفاته وأسماؤه وأفعاله أو تجلياتها بحسبها.

وفي حديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال: ″ والوجه الآخر الله أكبر فيه نفي كيفيته كأنه يقول ـ أي المؤذن ـ: ″ الله أجل من أن يدرك الواصفون قدر صفته التي هي موصوف بها وإنما يصفه الواصفون على قدرهم لا على قدر عظمته وجلاله تعالى الله عن أن يدرك الواصفون صفته علوّا كبيرا ″ الحديث.

ومن الآداب المهمة للتكبير أن السالك عليه أن يجاهد ويجعل قلبه محلا لكبرياء الحق جلّ جلاله بالرياضات القلبية ويحصر كبر الشأن والعظمة والسلطان والجلال بذات الحق المقدسة جلّ وعلا ويسلب الكبرياء عن سائر الموجودات، وإذا كان في القلب اثر من كبرياء أحد لا يراه ولا يعلمه شعاع كبرياء الحق فقلبه مريض ومعلول ومورد لتصرف الشيطان وربما تكون التصرفات الشيطانية سببا لان يكون سلطان الكبرياء لغير الحق في القلب أكثر من الحق ويعرفه القلب أكبر من الحق، ففي هذه الصورة يكون الإنسان محسوبا في زمرة المنافقين، وعلامة هذا المرض المهلك أن الإنسان يقدّم رضا المخلوق على رضا الحق ليسخط الخالق لرضا المخلوق. وفي الحديث قال الصادق عليه السلام: " إذا كبّرت فاستصغر ما بين العلا والثرى دون كبريائه فإن الله إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبّر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: يا كاذب أتخدعني، وعزّتي وجلالي لأحرمنّك حلاوة ذكري ولأحجبنك عن قربي والمسارة بمناجاتي ". يقول عليه السلام: إذا كبّرت فاستصغر في محضر كبرياء تلك الذات المقدسة ما في الكون من الأرض إلى العرش لان الله تبارك وتعالى إذا رأى عبدا يكبّر ولكن في قلبه علّة عن حقيقة التكبير ـ يعني أن قلبه لا يوافق ما يجريه على اللسان ـ يقول: يا كاذب أتخدعني وعزّتي وجلالي.. إلى آخر الحديث.

فيا أيها العزيز إن حرمان قلوبنا المسكينة من حلاوة ذكر الحق تعالى وان لذة مناجاة تلك الذات المقدسة لم ترد في ذائقة أرواحنا ونحن محتجبون عن الوصول إلى قرب الجناب ومحرومون من تجليات الجمال والجلال لان قلوبنا عليلة ومريضة وقد حجبنا الإخلاد إلى الأرض والاحتجاب بالحجب المظلمة للطبيعة عن معرفة كبرياء الحق وأنوار الجمال والجلال، فما دام نظرنا إلى الموجودات نظرا إبليسيا استقلاليا فلا نذوق من شراب الوصل، ولا ننال لذة المناجاة، وما دمنا نرى لأحد في عالم الوجود العزّة والكبرياء والعظمة والجلال ونحن في حجاب أصنام التعيّنات الخلقية فلا يتجلى سلطان كبرياء الحق جلّ وعلا في قلوبنا.

فمن آداب التكبير هو أن السالك لا يتوقف على صورته ولا يكتفي باللفظ فقط ولقلقة اللسان بل ينبّه القلب في أول الأمر بقوة البرهان ونور العلوم الإلهية، على كبرياء الحق وأنّ العظمة والجلال مقصورة على الذات المقدسة جلّت عظمتها وعلى فقر كافة السكنة الإمكانية وقاطبة الموجودات الجسمانية والروحانية وذلّتها ومسكنتها، وبعد ذلك فبقوة الرياضة وكثرة المراودة والأنس التام يحيي قلبه بهذه اللطيفة الإلهية ويعطيه السعادة والحياة العقلية الروحانية، فإذا صار فقر الممكن وذلّته وعظمة الحق وكبرياؤه جلّت قدرته نصب عين السالك ووصل التفكر والذكر إلى حد النصاب وحصل للقلب الأنس والسكينة فيشاهد بعين البصيرة آثار جلال الحق وكبريائه

في جميع الموجودات وتعالج العلل والأمراض القلبية فيجد لذة المناجاة وحلاوة ذكر الله ويصير القلب مقرا لسلطان كبرياء الحق جلّ جلاله وتظهر آثار الكبرياء في ظاهر المملكة وباطنها ويوافق القلب واللسان والسر والعلن فتكبّر جميع قوى الباطن والظاهر و الملك والملكوت ويرتفع أحد الحجب الغليظة ويقترب السالك مرحلة إلى حقيقة الصلاة التي هي معراج القرب. وقد أشير إلى بعض ما ذكر في الحديث المنقول عن العلل عن الصادق سلام الله عليه في حديث طويل يصف فيه المعراج قال: " أنزل الله العزيز الجبار عليه مَحمَلا من نور فيه أربعون نوعا من أنواع النور كانت محدقة حول العرش، عرشه تبارك وتعالى تغشي أبصار الناظرين، أما واحد منها فأصفر، فمن أجل ذلك اصفرّت الصفرة، وواحد منها أحمر، فمن أجل ذلك احمرّت الحمرة. إلى أن قال: فجلس فيه ثم عرج به إلى السماء الدنيا فنفرت الملائكة إلى أطراف السماء ثم خرّت سجّدا فقال سبّوح قدّوس ربنا ورب الملائكة والروح ما أشبه هذا النور بنور ربنا، فقال جبرائيل: الله أكبر الله اكبر فسكتت الملائكة وفتحت السماء واجتمعت الملائكة ثم جاءت وسلّمت على النبيّ صلى الله عليه وآله أفواجا " الحديث.

وفي هذا الحديث أسرار عظيمة تقصر أيدي آمالنا عنها، وما يمكن أن يذكر منها خارج فعلا عن مقصدنا كسرّ تنزّل محمل من نور وسرّ كثرة الأنوار، وسر كثرتها النوعية وسر عدد الأربعين وسر تنزيل الله إياها وسر إحاطتها حول العرش، وحقيقة العرش في هذا المقام وسر اصفرار الصفرة واحمرار الحمرة بواسطتها وسرّ نفور الملائكة وسجودهم وتسبيحهم وتقديسهم وتشبيههم ذلك النور بنور الرّبّ إلى غير ذلك مما يطول البيان في أطراف كل منها، وما يناسب المقام ويشهد على المطلب هو أن الملائكة بواسطة تكبير جبرائيل سكتت واطمأنّت واجتمعت حول جمع شمع الوليّ المطلق. وفتحت السماء الأولى بواسطة التكبير وخرق أحد الحجب الذي كان في طريق العروج إلى الله وليعلم أن هذه الحجب التي تخرق وترفع في الأذان غير الحجب التي في التكبيرات الافتتاحية، ولعله تأتي الإشارة إلى ذلك فيما بعد إن شاء الله.

لعل السر في أن الوارد في الإقامة هو تكبيرتان، إن السالك قد أقام قواه في المحضر وانتقل من الكثرة إلى الوحدة شيئا ما فيكبّر الذات والأسماء أو الأسماء والصفات، ولعل تكبير الصفات والأفعال يكون منطويا في تكبير الذات والأسماء.

الفصل الثالث

في بعض آداب الشهادة بالإلوهية

وبيان ربطها بالأذان والصلاة

فاعلم أن للإلوهية مقامات يعبّر عنها على حسب الجمع بمقامين :

الأول: مقام الالوهية الذاتية.

والثاني: مقام الالوهية الفعلية.

وإذا كان المقصود من الشهادة على قصر الالوهية في الحق هو الالوهية الذاتية تكون حقيقتها متقاربة مع التكبير، وإذا كانت مشتقة من اله في الشيء أي تحيّر فيه، أو مشتقة من لاه بمعنى ارتفع، أو مشتقة من لاه يلوه بمعنى احتجب فيعلم ربطه بالأذان والصلاة بعد المراجعة إلى باب التكبير، ويعلم أدبها أيضا وأعادته وان لم تكن خالية من بعض الفوائد ولكنها منافية للاختصار.

وان كان الإله مأخوذا من اله بمعنى عبد ويكون المراد هو المألوه بمعنى المعبود فعلى السالك أن يجعل الشهادة الصورية على قصر المعبودية للحق تعالى جلّت عظمته منطبقة على الشهادة القلبية الباطنية، ويعلم أنه ان كان في القلب معبود سواه فهو منافق في هذه الشهادة فلا بد له أن يوصل الشهادة بالالوهية إلى القلب بكل رياضة ويكسر الأصنام الصغيرة والكبيرة المنحوتة بيد تصرف الشيطان والنفس الأمارة في كعبة القلب ويحطّمها حتى يصير لائقا لحضور حضرة القدس وما دامت أصنام حب الدنيا والشؤون الدنيوية موجودة في كعبة القلب لا يجد السالك طريقا إلى المقصد، فالشهادة بالالوهية للإعلان للقوى الملكية والملكوتية أن تجعل المعبودات الباطلة والمقاصد المعوجّة تحت قدمها كي تتمكن من العروج إلى معراج القرب.

وإذا كان المقصود من قصر الالوهية، الالوهية الفعلية التي هي عبارة أخرى عن التصرف والتدبّر والتأثير فيكون معنى الشهادة أني أشهد أن لا متصرف في دار التحقق ولا مؤثّر في الغيب والشهادة إلاَّ ذات الحق المقدسة جلّ وعلا وإذا كان في القلب السالك اعتماد على موجود من الموجودات واطمئنان لأحد من العباد فقلبه معتل وشهادته زور ومختلفة، فلا بد للسالك أن يُحكم أولا بالبرهان الحكمي حقيقة لا مؤثّر في الوجود إلاَّ الله ولا يفرّ من المعارف الإلهية التي هي غاية بعثة الأنبياء ولا يعرض عن تذكر الحق والشؤون الذاتية والصفاتية، فإن منبع جميع السعادات هو تذكر الحق. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه ـ ١٢٤).. وبعدما وصل بقدم التفكر والبرهان إلى هذه اللطيفة الإلهية التي هي منبع المعارف الإلهية وباب أبواب الحقائق الغيبيّة

فيؤنس القلب معها بقدم التذكر والرياضة حتى يؤمن القلب بها، وهذه أول مرتبة لصدق مقالته وعلامة الانقطاع إلى الحق وغضّ بصر الطمع والرجاء عن جميع الموجودات ونتيجته التوحيد الفعلي الذي هو من أجلّ مقامات أهل المعرفة، فإذا قصرّ السالك جميع التأثيرات على الحق وغمض عين الطمع عن جميع الموجودات سوى الذات المقدسة يكون لائقا للمحضر المقدس بل يكون قلبه متوجها إلى ذلك المحضر فطرة وذاتاً ولعلّ تكرار الشهادة لأجل التمكين ويكون المقصود من الشهادة إحدى الشهادتين، ولعله لا يكون تكرارا وتكون إحداهما إشارة إلى الالوهية الذاتية والأخرى إشارة إلى الالوهية الفعلية، ففي هذه الصورة تكون إعادتها في آخر الإقامة للتمكين فلذا لم يذكر هناك بلفظ الشهادة.

تنبيه عرفاني :

اعلم أن للشهادة مراتب نكتفي ببعضها على حسب ما يناسب هذه الأوراق.

المرتبة الأولى: الشهادة القولية وهي معلومة، وهذه الشهادة القولية إذا لم تكن مشفوعة بالشهادة القلبية ولو ببعض مراتبها النازلة لا تكون شهادة بل تكون خدعة ونفاقا كما ذكر في الحديث عن الصادق عليه السلام في باب التكبير.

المرتبة الثانية: الشهادة الفعلية: وهي أن يشهد الإنسان على حسب الأعمال الجوارحية فمثلاّ يُدخل في طور أعماله وجريان أفعاله حقيقة لا مؤثر في الوجود إلاّ الله فكما أن لازم شهادته القولية إلاّ يعلم أحدا مؤثرا إلاّ الله تكون خريطة أعماله أيضا كذلك فلا يمدّ يد حاجته إلاّ إلى المحضر المقدس للحق جلّ وعلا ولا يفتح عين رجائه إلى موجود من الموجودات ويظهر الغنى والاستغناء عند العباد الضعفاء ويجتنب عندهم عن الضعف والذلة والعجز، وهذا المعنى وارد في كثير من الأحاديث الشريفة. كما في حديث الكافي الشريف: " إن عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس " وان من إحدى المستحبات الشرعية إظهار النعمة والغنى، ومن المكروهات طلب الحوائج من الناس.

وبالجملة، على الإنسان أن يجري اللطيفة الإلهية: لا مؤثر في الوجود إلاّ الله في مملكة الظاهرة.

المرتبة الثالثة: الشهادة القلبية، وهي منبع الشهادات الأفعالية والأقوالية، وما لم تكن تلك لا تكون هذه ولا تتحقق ، وهي أن يتجلى التوحيد الفعلي للحق في القلب ويدرك القلب بسرّه الباطني حقيقة هذه اللطيفة وينقطع عن سائر الموجودات وينفصل عنها، وعمدة الأحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة في ترك الطمع في الناس واليأس من العباد والثقة والاعتماد على الله تبارك وتعالى راجعة إلى هذا المقام.

عن الكافي بإسناده عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: " رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي الناس ومن لم يرج الناس في شيء وردّ أمره إلى الله تعالى في جميع أموره استجاب الله تعالى له في كل شيء ". والأحاديث من هذا القبيل كثيرة.

المرتبة الرابعة: الشهادة الذاتية، والمقصود منها الشهادة الوجودية وهي تتحقق في الكمّل من الأولياء، وفي نظر الأولياء هذه الشهادة بمعنى موجودة في جميع الموجودات، ولعل الآية الشريفة ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ﴾ (آل عمران ـ ١٨) إشارة إلى الشهادة الذاتية لأن الحق تعالى في مقام أحدية الجمع يشهد شهادة ذاتية بوحدانية نفسه لأن صرف الوجود له أحدية ذاتية، وعند طلوع يوم القيامة يظهر بالوحدانية التامة وتظهر هذه الأحدية أولا في مرآة الجمع وبعده في مرآة التفصيل، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ﴾ وهنا مقامات من المعارف خارجة عن عهدة هذه الأوراق.

وصل: عن محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن عبد الصمد ابن بشير قال: ذكر عند أبي عبد الله بدء الأذان إلى أن قال: " إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان نائما في ظلّ الكعبة فأتاه جبرائيل ومعه طاس فيه ماء من الجنة فأيقظه وأمره أن يغتسل به ثم وضع في محمل له ألف ألف لون من نور ثم صعد به حتى انتهى إلى أبواب السماء فلما رأته الملائكة نفرت عن أبواب السماء وقالت: إلهين إله في الأرض وإله في السماء فأمر الله جبرائيل فقال الله أكبر الله أكبر فتراجعت الملائكة نحو أبواب السماء ففتحت الباب فدخل حتى انتهى إلى السماء الثانية فنفرت الملائكة عن أبواب السماء فقال: أشهد أن لا اله إلاَّ الله فتراجعت الملائكة وعلمت أنه مخلوق ثم فتح الباب فدخل " الحديث.

وقد ورد في الحديث العلل ما يقرب من هذا المضمون.

ويعلم من هذه الأحاديث أن الشهادة بالالوهية موجبة لفتح أبواب السماء وخرق الحجاب وباعث لاجتماع ملائكة الله، وهذا الحجاب الذي يخرق بواسطة الشهادة بالالوهية وقصرها في الذات المقدسة من الحجب الغليظة الظلمانية التي ما دام السالك فيها لا يوجد له طريق إلى الحضور في المحضر، وما لم يفتح هذا الباب له فليس له طريق إلى السلوك وهو حجاب الكثرة الأفعالية والوقوع في الاحتجاب التكثيري الذي نتيجة رؤية فاعلية الموجودات ومؤثريتها وثمرة هذه الرؤية رؤية استقلالها في الفاعلية والتفويض المحال والشرك الأعظم كما أن نتيجة الشهادة بالالوهية وحصرها في الحق تعالى هو التوحيد الأفعالي وإفناء الكثرات في فعل الحق ونفي التأثير والفاعلية عن الغير وطرد الاستقلال عن غير الحق تعالى، ومن هذه الجهة خرج الملكوتيون عن حجاب كثرة إله في السماء واله في الأرض بواسطة هذه الشهادة ورجعت إلى الأنس والاجتماع

من النفور والتفرقة وفتحت أبواب السماء. فالسالك أيضا لابدّ له أن يخرق بهذه الـشهادة حجـاب نفسه الظلماني ويفتح أبواب السماء لنفسه ويرفع قدما من الحجاب العظيم وهو الاستقلال ليقتـرب له طريق العروج إلى معراج القرب.

ولا تحصل هذه الحقيقة بلقلقة اللسان والذكر القولي، ولهذا لا تتجاوز عباداتنا عن حد الصورة والدنيا، ولا يفتح لنا الباب ولا يرفع لنا الحجاب.

الفصل الرابع

في بعض آداب الشهادة بالرسالة، وفيها إشارة إلى الشهادة بالولاية

اعلم أنه لا يمكن طيّ هذا السفر الروحاني والمعراج الإيماني بهذه الرجل المكسورة والعنان المرخي والعين العمياء والقلب الذي هو بلا نور.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور ـ ٤٠).. فمن المحتوم واللازم لسلوك هذا الطريق الروحاني وعروج هذا المعراج العرفاني التمسك بمقام روحانية هداة طرق المعرفة وأنوار سبل الهداية الذين هم الواصلون إلى الله والعاكفون على الله ولو أراد أحد أن يطوي هذا الطريق بقدم أنانية نفسه من دون التمسك بولايتهم فسلوكه إلى الشيطان والهاوية.

وببيان علمي كما أن ربط الحادث بالقديم، والمتغيّر بالثابت، محتاج إلى الواسطة، والرابط تكون له وجهتا الثبات والتغيّر والقدم والحدوث، وإذا لم تكن الواسطة موجودة فلا يعبر في السنّة الإلهية الفيض القديم الثابت منه إلى المغيّر الحادث. ولا تحصل الرابطة الكونية الوجودية، والأنظار العلمية لأرباب العلوم البرهانية بالنسبة إلى الرابط بين هذين مختلفة، كما أن للذوق العرفاني اقتضاء آخر يخرج تفصيله عن عهدة هذه الأوراق، وفي الذوق العرفاني الرابط هو الفيض المقدس والوجود المنبسط الذي له مقام البرزخية الكبرى والواسطية العظمى وهو بعينه مقام روحانية الرسول الخاتم وولايته المتحدة مع مقام الولاية المطلقة العلوية.

وقد ورد تفصيل ذلك في رسالتي مصباح الهداية كذلك في الرابطة الروحانية العروجية التي هي عكس الرابطة الكونية النزولية، وبعبارة أخرى في قبض الوجود والرجوع إلى ما بدئ، يحتاج إلى الواسطة وبدونها لا تتحقق الرابطة ولا يتحقق ارتباط القلوب الناقصة المقيدة والأرواح النازلة المحدودة بالتام الذي هو فوق التمتم ومطلق من جميع الجهات من دون الوسائط الروحانية والروابط الغيبية، وإذا ظنّ أحد أن الحق تعالى قيّوم لكل موجود ومحيط بكل الألوان من دون وساطة الوسائط كما أشير إلى ذلك في الآية الشريفة ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (هود ـ ٥٦) فقد اختلطت عنده المقامات واشتبهت عليه الاعتبارات وخلط مقام كثرة مراتب الوجود بفناء التعينات وليس لهذا البحث ربط كامل بهذه الرسالة، وهذا المقدار أيضا صار من طغيان القلم.

وبالجملة، التمسّك بأولياء النعم الذين اهتدوا إلى طريق العروج إلى المعارج وأتمّوا السير إلى الله من لوازم السير إلى الله كما أشير إلى ذلك في الأحاديث الكثيرة، وقد عقد في الوسائل باباً في أن العبادة بدون ولاية الأئمة والاعتقاد بإمامتهم باطلة.

وقد روي عن الكافي الشريف بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سمعت باقر العلوم عليه السلام يقول: " واعلم يا محمد أن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلّوا وأضلّوا فأعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون ممّا كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ".

وفي رواية أخرى عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: " أما لو أن رجلا قام ليلة وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهره ولم يعرف ولاية وليّ الله فيواليه فتكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله حق في ثوابه وما كان من أهل الإيمان ".

وروى الصدّوق (قدس سره) بسنده عن أبي حمزة الثمالي قال: قال لنا علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: " أيّ البقاع أفضل ؟ فقلت ؟ ألله ورسوله أعلم، فقال: إن أفضل البقاع ما بين الركن والمقام ولو أنّ رجلا عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاما يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك الموضع ثم لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئا ".

والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تسعها هذه الرسالة.

وأما آداب الشهادة بالرسالة فهي أن يوصل الشهادة بالرسالة من الحق إلى القلب وخصوصا الرسالة الختمية التي جميع دائرة الوجود من عوالم الغيب والشهود تتنعّم تكوينا وتشريعا ووجودا وهداية من سقطات موائد نعمة وان ذاك السيد الكريم هو الواسطة لفيض الحق والرابط بين الحق والخلق، ولولا مقام روحانيته وولايته المطلقة لم يكن لأحد من الموجودات لياقة الاستفادة عن مقام الغيب الأحدي ولما عبر فيض الحق إلى موجود من الموجودات، ولما أشرق نور الهداية في عالم من عوالم الظاهر والباطن، وذاك السيد لهو النور الذي ورد في آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور ـ ٣٥) فإذا دخلت عظمة شرع الدين ورسول رب العالمين في قلب الإنسان يدخل فيه أهمية أحكامه وسننه وعظمتها، فإذا أدرك القلب عظمتها تخضع له سائر القوى الملكية والملكوتية وتنفذ الشريعة المقدسة في جميع المملكة الإنسانية، وعلامة صدق الشهادة أنه تظهر آثارها في جميع القوى الغيبيّة والظاهرة ولا تتخلف عنها كما أشير إليه في السابق.

وقد علم ممّا ذكر إلى الآن ارتباط الشهادة بالرسالة بالأذان وإقامة الصلاة لأن السالك في هذا الطريق الروحاني محتاج إلى التمسك بذاك الوجود المقدّس حتى يعرج بمصاحبته وتأييده هذا العروج الروحاني.

والوجه الآخر، هو أن في هذه الشهادة إعلانا للقوى الملكية والملكوتية بأن الصلاة التي هي حقيقة معراج المؤمنين ومنبع معارف أصحاب العرفان وأرباب الإيقان هي نتيجة الكشف التام المحمدي صلى الله عليه وآله، وهو صلوات الله عليه وعلى آله بسلوكه الروحاني والجذبات الإلهية

والجذوات الرحمانية قد وصل إلى مقام قاب قوسين أو أدنى وتبعا للتجليات الذاتية والأسمائية والصفاتية والإلهامات الأنسيّة كشف حقيقة هذه الصلاة من الحضرة الغيبية الأحدية، وفي الحقيقة هي هدية (وسوقات) لأمّته خير الأمم جاء بها من هذا السفر المعنوي الروحاني ومنّ عليهم بها وأغرقهم في بحر النعمة فإذا استقرّت هذه العقيدة في القلب وتمكن بالتكرار فيدرك السالك عظمة المقام وجلالة المحلّ البتة ويطوي هذه المرحلة بقدمي الخوف والرجاء، والمرجو منه صلى الله عليه وآله أن يؤيده إن شاء الله ويقرّبه إلى مقام القرب الأحدي الذي هو المقصد الأصلي والمقصود الفطري، إذا قام السالك الأمر بمقدار مقدوره وقد ثبت في العلوم الإلهية أن معاد جميع الموجودات إنما يتحقق يتوسط الإنسان الكامل ″ كما بدأكم تعودون ″ (هو العارف الكامل والفيلسوف الحكيم المتألّه الشيخ محمد علي شاه آبادي أحد العلماء الكبار في عاصمة إيران وكان الإمام الخميني قد تتلمذ عنده في الفلسفة وكان معجبا به وبآرائه ويخاطبه في أكثر كلماته بالشيخ العارف الكامل روحي فداه) بكم فتح الله وبكم يختم وإياب الخلق إليكم.

نكتة عرفانية

قد ورد في الحديث الشريف في العلل الذي يذكر تفصيل صلاة المعراج ويصفها ″ أن رسول الله صلى الله عليه وآله عرج إلى السماء بعدما أنزل الله عليه محملا من نور ومعه جبرائيل: ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فنفرت الملائكة إلى أطراف السماء وخرّت سجّدا وقالت سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح ما هذا النور الذي يشبه نور ربنا ؟ فقال جبرائيل عليه السلام: أشهد أن محمدا رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، فاجتمعت الملائكة وفتحت أبواب السماء وقالت مرحبا بالأول ومرحبا بالآخر ومرحبا بالحاشر ومرحبا بالناشر محمد خاتم النبيّين وعلّي خير الوصيّين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله سلّموا علي وسألوني عن أخي علي.. إلى أن قال: ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فلم تقل الملائكة شيئاً وسمعت دويّا كأنه في الصدور واجتمعت الملائكة ففتحت أبواب السماء.. فقال جبرائيل: حيّ على الصلاة حي على الصلاة إلى آخر الإقامة ″ الحديث.

وفي تفسير العياشي أيضا ما يقرب من هذا المضمون، فيعلم من هذا الحديث أن ملائكة جميع السموات لا تطيق مشاهدة الجمال الأحمدي وتسجد لرؤية نوره المقدس وتنفرق وتتوهم أنه نور الحق المطلق وترجع بفصول الأذان والإقامة إلى الأنس وتنفتح أبواب السماء وترتفع الحجب، فللسالك أن يخرج بهذه الشهادة عن الاحتجاب، وفي الشهادة بالرسالة يخرج بالكلية عن احتجاب التعين الخلفي لأنه إذا اثبت مقام الرسالة لأشرف الخليقة فهو الفناء المطلق ولا استقلالية التامة لان الرسالة المطلقة الختميّة هي الخلافة الكبرى الإلهية البرزخية وهذه الخلافة هي خلافة في الظهور

والتجلّي والتكوين والتشريع ولا يكون للخليفة من عند نفسه أيّ استقلال وتعيّن وإلا لانقلبت الخلافة إلى الأصالة وهذا لا يمكن لأحد من الموجودات. فللسالك إلى الله أن يوصل إلى باطن قلبه وروحه مقام الخلافة الكبرى الأحمدية وبها يكشف الحجاب ويخرق الستور ويخرج بالكلّية عن حجب التعيّن الخلقي فتنفتح له جميع أبواب السموات ويصل إلى مقصده بلا حجاب.

فرع فقهي وأصل عرفاني

قد ورد في بعض الروايات غير المعتبرة أن يقال بعد الشهادة بالرسالة في الأذان أشهد أن عليا وليّ الله مرّتين وفي بعض الروايات أشهد أن عليا أمير المؤمنين حقا مرّتين وفي بعض آخر محمد وآل محمد خير البرية، وقد جعل الشيخ الصدوق (رحمه الله) هذه الروايات من موضوعات المفوّضة وكذبها والمشهور بين العلماء رضوان الله عليهم عدم الاعتماد بهذه الروايات، وجعل بعض المحدثين هذه الشهادة جزءا مستحبا من جهة التسامح في أدلّة السنن، وهذا القول ليس ببعيد عن الصواب وان كان أداؤها بقصد القربة المطلقة أولى وأحوط لأنه يستحب بعد الشهادة بالرسالة الشهادة بالولاية وإمارة المؤمنين كما ورد في حديث الاحتجاج عن قاسم بن معاوية قال: قلت لأبي عبد الله: " هؤلاء يروون حديثا في معراجهم أنه لما أسري برسول الله رأي على العرش مكتوبا لا إله إلاّ الله محمد رسول الله أبو بكر الصدّيق، فقال: سبحان الله غيرّوا كل شيء حتى هذا ؟ قلت نعم، قال: إن الله عزّ وجل لما خلق العرش كتب عليه: لا اله إلاّ الله محمد رسول الله عليّ أمير المؤمنين ولما خلق الله عزّ وجل الماء كتب في مجراه: لا اله إلاّ الله محمد رسول الله عليّ أمير المؤمنين، ثم تذكر الرواية كتابة هذه الكلمات على قوائم الكرسي واللوح وعلى جبهة اسرافيل وعلى جناحي جبرائيل وأكناف السموات وأطباق الأرضين ورؤوس الجبال وعلى الشمس والقمر، ثم قال: فإذا قال أحدكم لا اله إلاّ الله محمد رسول الله فليقل عليّ أمير المؤمنين ".

وبالجملة هذا الذكر الشريف يستحب بعد الشهادة بالرسالة مطلقا وفي فصول الأذان لا يبعد استحبابه بالخصوص وان كان الاحتياط يقتضي أن يؤتى به بقصد القربة المطلقة لا بقصد الخصوصية في الأذان لتكذيب العلماء الأعلام تلك الروايات.

وأما النكتة العرفانية في كتابة هذه الكلمات على جميع الموجودات من العرش الأعلى إلى منتهى الأرضين فهي أن حقيقة الخلافة والولاية هي ظهور الإلوهية وهي أصل الوجود وكماله وكل موجود له حظ من الوجود له حظ من حقيقة الإلوهية وظهورها الذي هو حقيقة الخلافة والولاية اللطيفة الإلهية ثابتة على ناصية جميع الكائنات من عوالم الغيب إلى منتهى عالم الشهادة، وتلك اللطيفة الإلهية هي حقيقة الوجود المنبسط والنفس الرحماني والحق المخلوق به الذي هو بعينه

باطن الخلافة الختمية والولاية المطلقة العلوية، ومن هذه الجهة كان الشيخ العـارف شـاه آبـادي يقول: إن الشهادة بالولاية منطوية في الشهادة بالرسالة لان الولاية هي باطن الرسالة.

ويقول الكاتب: إن الشهادتين منطويتان جميعا في الشهادة بالإلوهية وفي الشهادة بالرسالة أيضا الشهادتان الأخريان منطويتان، كما أن في الشهادة بالولاية الشهادتان الأخريان منطويتان والحمد لله أولا وآخرا.

الفصل الخامس

في بعض آداب الحيّعلات

إذا أعلن السالك إلى الله بالتكبيرات عظمة الحق تعالى عن التوصيف وبالشهادة بالإلوهية قصر التوصيف والتحميد بل كان كل تأثير على الحق وأسقط نفسه عن اللياقة للقيام بالأمر واختار الرفيق والمصاحب بالشهادة بالرسالة والولاية وتمسك بمقام الخلافة والولاية وتمسك بمقام الخلافة والولاية المقدسة كما قيل الرفيق ثم الطريق وبعد ذلك كله لابدّ له أن يهيّئ القوى الملكية والملكوتية بصراحة اللهجة للصلاة ويعلن لها إعلان الحضور بقوله حيّ على الصلاة وتكراره للتنبّه التام والإيقاظ الكامل أو أن أحدهما لقوى المملكة الداخلية والآخر لقوى المملكة الخارجية لأنهما أيضا سلاّك هذا السفر مع الإنسان، كما أشير إلى ذلك فيما مرّ ونشير إليه فيما يأتي وأدب السالك في هذا المقام هو أن يفهم قلبه وقواه ويفهم باطن قلبه قرب الحضور حتى يتهيّأ له ويراقب آدابه الصورية والمعنوية كمال المراقبة ثم يعلن سرّ الصلاة ونتيجتها بقوله حيّ على الفلاح وحيّ على خير العمل كي يوقظ الفطرة لأن الفلاح والنجاح هي السعادة المطلقة وفطرة جميع البشر عاشقة للسعادة المطلقة لان الفطرة طالبة للكمال وتطلب الراحة وحقيقة السعادة هي الكمال المطلق والراحة المطلقة وهي في الصلاة التي هي خير الأعمال تحصل قلبا وقالبا وظهورا وبطونا لأن الصلاة بحسب الظاهر هي الذكر الكبير والجامع والثناء بالاسم الأعظم المستجمع لجميع الشؤون الإلهية ولهذا كان الأذان والإقامة مفتتحين بالله ومختتمين به ويكرّر الله أكبر في جميع الحالات الصلاة وانتقالاتها والتوحيدات الثلاثة التي هي قرّة عين الأولياء تحصل في الصلاة وامتزج فيها صورة الفناء المطلق والرجوع التام وبحسب الباطن والحقيقة هي معراج قرب الحق وحقيقة الوصول إلى جمال الجميل المطلق والفناء في ذاته المقدسة التي تعشقها الفطرة وتحصل بها الطمأنينة التامة والراحة المطلقة والسعادة العقلية التامة إلاّ إلى الله تطمئن القلوب، فإذا الكمال المطلق وهو الوصول إلى فناء الله والاتصال بالبحر الوجودي غير المتناهي وشهود جمال الأزل والاستغراق في بحر النور المطلق تحصل في الصلاة وفيها أيضا تحصل الراحة المطلقة والاستراحة التامة والطمأنينة التامة ويحصل ركن السعادة، فالصلاة هي الفلاح المطلق وهي خير الأعمال وعلى السالك أن يفهّم القلب هذه اللطيفة الإلهية بالتكرار والتذكر التام ويوقظ الفطرة فإذا وردت هذه اللطيفة في القلب فالفطرة من حيث إنها طالبة للكمال والسعادة تهتمّ بها وتحافظ عليها وتراقبها، وفي تكرارهما أيضا النكتة التي ذكرناها.

فإذا وصل السالك إلى ذلك المقام يعلن إعلان الحضور فقد قامت الصلاة فلابد أن يرى نفسه في حضرة مالك الملوك في العوالم الوجودية وسلطان السلاطين والعظيم المطلق ويفهّم قلبه الأخطار التي في الحضرة ويرجع الكل إلى القصور والتقصير الإمكاني ويرد المحضر بكمال الانفعال والخجلة من عدم القيام بالأمر وقدمي الخوف والرجاء ويفد على الكريم ولا يرى لنفسه زادا وراحلة ويرى قلبه فارغا عن السلامة (أقول ما ذكره دام ظله إشارة إلى ما كتبه علي عليه السلام على كفن سلمان :

وفدت على الكريم بغير زاد   من الحسنات والقلب السليم

وحمل الزاد أقبح كل شيء   إذا كان الوفود على الكريم)

ولا يحسب عمله من الحسنات ولا يعدّه أقل شيء فإذا استحكمت هذه الحال في القلب فالمرجو أن يقع موردا للعناية، أمّن يجيب المضطّر إذا دعاه ويكشف السوء.

وصل وتتميم :

محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: " إذا أذنت وأقمت صلّى خلفك صفان من الملائكة وإذا أقمت صلّى خلفك صف من الملائكة " والأحاديث بهذا المضمون كثيرة. وفي بعض الأخبار: " إن حدّ الصف ما بين المشرق والمغرب ".

وفي ثواب الأعمال قال أبو عبد الله عليه السلام: " من صلّى بأذان وإقامة، صلّى خلفه صفان من الملائكة ومن صلّى بإقامة من غير أذان صلّى خلفه صف واحد من الملائكة، قلت له: وكم مقدار كل صف ؟ فقال أقلّه ما بين المشرق والمغرب وأكثره ما بين السماء والأرض ". وفي بعض الروايات: " وإن أقام بغير أذان صلّى عن يمينه واحد وعن شماله واحد " إلى غير ذلك من الأخبار. ولعل اختلاف الأخبار بواسطة اختلاف المصلين من المعارف والخلوص كما يستفاد ذلك من بعض روايات الباب مثل الرواية التي وردت في الصلاة مع الأذان والإقامة في أرض قفراء (أقول: وفي وصية رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر قال: " يا أبا ذر إن ربك ليباهي ملائكته بثلاثة نفر: رجل يصبح في أرض قفراء فيؤذن ثم يقيم ثم يصلّي، فيقول ربك للملائكة انظروا إلى عبدي يصلي ولا يراه احد غيري فينزل سبعون ألف ملك يصلّون وراءه ويستغفرون له إلى الغد من غير ذلك اليوم.. إلى أن قال: يا أبا ذرّ إذا كان العبد في أرض في أرض يعني قفراء فتوضأ أو تيمم

ثم أذّن وأقام وصلى أمر الله الملائكة فصفوا خلفه صفّا لا يرى طرفاه يركعون لركوعه ويسجدون لسجوده ويؤمنون على دعائه، يا أبا ذر من أقام ولم يؤذن لم يصلّ معه إلاَّ ملكاه اللذان معه".

وما ذكره الأستاذ دام ظلّه من أن السر في اختلاف الروايات هو الاختلاف من جهة الخلوص والمعرفة للمصلين ظاهر لأن للمصلي في الأرض القفراء ـ ومع أنه لا يراه أحد ـ من المعرفة والخلوص هو السبب لكثرة الملائكة المصلين وراءه).

وبالجملة، إذا رأى السالك نفسه إماما لملائكة الله وقلبه إماما لقواه الملكية والملكوتية وجمع بالأذان والإقامة قواه الملكية والملكوتية واجتمعت عليه ملائكة الله، فعليه أن يجعل القلب وهو أفضل قوى الظاهر والباطن وشفيع سائر القوى إماما، وحيث إن القلب ضامن لقراءة المأمومين ووزرها على عهدته فلا بدّ له أن يحافظ عليه محافظة تامة ويراقبه مراقبة جميلة لكي يحفظ القلب على الحضرة والحضور ويقوم بأدب المقام المقدّس ويغتنم هذا الاجتماع المقدس ويعظّم توجّه ملائكة الله وتأييدهم إيّاه ويعرفه من النعم لوليّ النعمة الحقيقي ويقدّم عجزه وقصوره عن شكر هذه النعم العظيمة إلى مقامه المقدس انه وليّ النعم.

الباب الثاني

في القيام وفيه فصلان

الفصل الأول

في السر الإجمالي للقيام

(قال بعض علماء الآخرة: وأما الاعتدال قائما فهو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقا مطأطأ منكسا، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيها على إلزام القلب التواضع والتذلّل والتبرّي عن الترؤس والتكبّر، وليكن على ذكرك ها هنا خطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلع عند العرض للسؤال واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطّلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدّر في دوام قيامك في صلواتك انك ملحوظ ومرقوب بعين كالئةٍ من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلّة الخشوع، وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها انك تدّعين معرفة الله وحبّه أفلا تستحيين من استجرائك عليه مع توقيرك عبدا من عباده ؟ أوَ تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى ؟ (انتهى).

وقال الشهيد الثاني رحمه الله ما يقرب من هذا، وأضاف بعد قوله أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى قال: إلاَّ تستحيين من خالقك ومولاك إذا قدّرت اطّلاع عبد ذليل من عباده عليك وليس بيده خيرك ولا نفعك ولا ضرّك خشعت لأجله جوارحك وحسنت صلواتك ثم انك تعلمين أنه مطّلع عليك فلا تخشعين لعظمته أهو أهون عندك من عبد من عباده ؟فما أشد طغيانك وجهلك وما أعظم عداوتك لنفسك ولذلك لما قيل للنبي صلى الله عليه وآله كيف الحياء من الله تعالى ؟ فقال صلى الله عليه وآله: " تستحيي منه كما تستحيي من رجل صالح من قومك ".

وأما دوام القيام فهو تنبيه على إدامة القلب على الله تعالى على نعت واحد من الحضور. قال صلى الله عليه وآله أن الله مقبل على العبد ما لم يلتفت.. وكما يجب حراسة السرّ عن الالتفات إلى غير الصلاة فإن التفتّ إلى غيرها فذكره باطّلاع الله تعالى عليك وقبح التهاون بالمناجي مع غفلة

المناجي ليعود إلى التيقّظ والزم الخشوع الباطني فإنه ملزوم الخشوع ظاهرا، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر.

قال صلى الله عليه وآله وقد رأى مصليا يعبث بلحيته: " ما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه فإن الرعية بحكم الراعي " ولهذا ورد في الدعاء " اللهم أصلح الراعي والرعية " وهو القلب والجوارح وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظّم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك وجبّار الجبابرة ومن يطمئن بين يدي غير الله تعالى خاشعا ثم تضطرب أطرافه بين يدي الله تعالى فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطّلاعه على سرّه وضميره وتدبّر قوله تعالى الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين.. (انتهى)).

اعلم أن أهل المعرفة يرون القيام إشارة إلى التوحيد الأفعالي، كما أن الركوع عندهم إشارة إلى التوحيد الصفاتي والسجود إلى التوحيد الذاتي، ويأتي بيانهما في محلّهما، وأما بيان أن القيام إشارة إلى التوحيد الفعلي هو أن نفس القيام إشارة إلى هذا وضعا وفي القراءة إشارة إليه لفظا.

أما أن القيام فيه إشارة إليه وضعا، هو أن القيام إشارة إلى قيام العبد بالحق ومقام قيّوميّة الحق وهو التجلّي بالفيض المقدّس والتجلي الفعلي، وتظهر في هذا المقام فاعلية الحق وتستهلك جميع الموجودات في التجلي الفعلي وتضمحل تحت كبريائه الظهوري، والأدب العرفاني للسالك في هذا المقام أن يتذكر بهذه اللطيفة الإلهية ويترك التعينات النفسية ما استطاع ويذكر للقلب حقيقة الفيض المقدس ويوصل إلى باطن القلب نسبة قيّومية الحق وتقوّم الخلق بالحق فإذا تمكنت هذه الحقيقة في قلب السالك تقع قراءته بلسان الحق ويكون الذاكر والمذكور هو الحق وينكشف له معنى " أنت كما أثنيت على نفسك وأعوذ بك منك " ببعض مراتبه ويجد قلب العارف بعض أسرار الصلاة، كما أن في النظر إلى محل السجود وهو التراب والنشأة الأصلية وخضوع الرقبة ونكس الرأس الذي هو لازم للخضوع إشارة إلى الذلّ والفقر الإمكاني والفناء تحت عزّ الكبرياء وسلطانه: يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله وهو الغنيّ الحميد.

وأمّا أنّ في القراءة لفظا إشارة إلى مقام التوحيد الفعلي فسيأتي تفصيله في سورة الحمد المباركة إن شاء الله.

الفصل الثاني

في آداب القيام

وهي أن يرى السالك نفسه حاضرا في محضر الحق ويعلم أن العالم محضر الربوبية ويحتسب نفسه من حضّار المجلس بين يدي الله ويوصل إلى قلبه عظمة الحاضر والمحضر ويفهم القلب أهمية المناجاة مع الحق تعالى وخطره ويحضّر قلبه قبل الورود في الصلاة بالتفكر والتدبّر ويفهمه عظمة المطلب ويلزمه بالخضوع والخشوع والطمأنينة والخشية والخوف والرجاء والذل والمسكنة إلى آخر الصلاة ويشارط القلب أن يراقب هذه الأمور ويحافظ عليها ويتفكر ويتدبر في أحوال أعاظم الدين وهداة السبل أنهم كيف كانت حالاتهم في الصلاة وكيف كانوا يتعاملون مع مالك الملوك ويتخذ من أحوال أئمة الهدى أسوة لنفسه ويتأسى بهؤلاء الأعاظم ولا يكتفي من تاريخ حياة أعاظم الدين وأئمته بسنة وفاتهم ويومها وسنة تولدهم ويومه ومقدار أعمارهم الشريفة وأمثال تلك من الأمور التي لا تترتب عليها فائدة جليلة بل يكون عمدة سيره في سيرهم الإيماني والعرفاني وسلوكهم، كذلك انه كيف كانت معاملتهم في العبودية وكيف كان مشيهم في السير إلى الله وأي مقدار كانت مقاماتهم العرفانية التي تستفاد من كلماتهم الإعجازية فيا أسفا، انّنا نحن أهل الغفلة وسكر الطبيعة والمغرورون بالآمال خلفاء الشيطان الخبيث في جميع الأمور ولا نستيقظ أبدا من النوم الثقيل ولا نخرج عن النسيان الكثير وان استفادتنا من مقامات أئمة الهدى ومعارفهم قليلة، بل ولا شيء يذكر أصلا واكتفينا من تاريخ حياتهم بالقشر والصورة وصرفنا النظر بالكلية عما هو غاية لبعثة الأنبياء عليهم السلام. وفي الحقيقة ينطبق علينا المثل المعروف (استسمن ذو ورم). ونحن نذكر في هذا المقام بعض الروايات الواردة في هذا الباب فلعله يحصل التذكر لبعض الإخوان المؤمنين والحمد لله وله الشكر.

عن محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: " كان علي بن الحسين عليهما السلام إذا قام إلى الصلاة تغيّر لونه فإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقا ".

وبإسناده عنه عليه السلام قال: كان أبي يقول كان علي بن الحسين إذا قام إلى الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه شيء إلاَّ ما حركت الريح منه ".

وعن محمد بن علي بن الحسين في العلل بإسناده عن إبان بن تغلب قال: " قلت لأبي عبد السلام عليه السلام أني رأيت علياً بن الحسين إذا قام إلى الصلاة غشي لونه لون آخر، فقال لي والله إن علياً بن الحسين كان يعرف الذي يقوم بين يديه ".

وعن السيد علي بن طاووس في فلاح السائل في حديث فقال أبو عبد الله عليه السلام: " لا تتم الصلاة إلاَّ لذي طهر سابغ وتمام بالغ غير نازغ ولا زائغ عرف فوقف وأخبت فثبت فهو واقف بين اليأس والطمع والصبر والجزع كأنّ الوعد له صنع والوعيد به وقع يذل عرضه ويمثل عرضه وبذل في الله المهجة وتنكب إليه المهجة غير مرتغم بارتغام يقطع علائق الاهتمام بعين من له قصد واليه رفد ومنه استرفد فإذا أتى بذلك كانت هي الصلاة التي بها أمر وعنها أخبر وإنها هي الصلاة التي تنهي عن الفحشاء والمنكر ". الحديث.

وعن محمد بن يعقوب بإسناده إلى مولانا زين العابدين عليه السلام انه قال: " وأمّا حقوق الصلاة فإن تعلم أنه وفادة إلى الله وانك فيها قائم بين يدي الله فإذا علمت ذلك كنت خليقا أن تقوم فيها مقام العبد الذليل الراغب الراهب الخائف الراجي المسكين المتضرع المعظم مقام من يقوم بين يديه بالسكينة والوقار وخشوع الأطراف ولين الجناح وحسن المناجاة له في نفسه والطلب إليه في فكاك رقبته التي أحاطت بها خطيئته واستهلكتها ذنوبه، ولا قوة إلاَّ بالله ".

وعن النبي صلى الله عليه وآله: " اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ".

وعن فقه الرضا عليه السلام: " فإذا أردت أن تقوم إلى الصلاة فلا تقم إليها متكاسلا ولا متناعسا ولا مستعجلا ولا متلاهيا ولكن تأتيها على السكون والوقار والتؤدة (التؤدة: بضم التاء كهمزة من الوئيد وهي السكون والرزانة والتأني " مجمع البحرين ".) وعليك الخشوع والخضوع، متواضعا لله عزّ وجلّ متخاشعا عليك الخشية وسيماء الخوف راجيا خائفا بالطمأنينة على الوجل والحذر فقف بين يديه كالعبد الآبق المذنب بين يدي مولاه فصف قدميك وانصب نفسك ولا تلتفت يمينا وشمالا وتحسب كأنك تراه فإن لم تكن تراه فانه يراك" الحديث.

وفي عدة الداعي روى " أن إبراهيم عليه السلام كان يسمع تأوّهه على حدّ ميل حتى مدحه الله بقوله: إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب وكان في صلاته يسمع له أزيز (أزيز: صوت غليان القدر.) كأزيز المرجل (المرجل: قدر من النحاس.) وكذلك يسمع من صدر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله مثل ذلك وكانت فاطمة عليها السلام تنهج في الصلاة من خيفة الله " إلى غير ذلك من الأخبار.

والأخبار الشريفة في هذه الموضوعات أكثر من أن تسعها هذه الرسالة، وفي التفكر فيما ذكر منها كفاية لأهل التذكر والتفكر بالنسبة إلى الآداب الصورية وبالنسبة إلى الآداب القلبية والمعنوية وكيفية القيام بين يدي الله.

وتفكر في حالات علي بن الحسين ومناجاته مع الحق تعالى وأدعيته اللطيفة التي تعلّم آداب العبودية لعباد الله تعالى، لا أقول أن مناجاتهم عليهم السلام كانت لتعليم العباد فإن هذا الكلام بلا

مغزى وباطل صادر من الجهل لمقام الربوبية، ومعارف أهل البيت فإن خوفهم وخشيتهم كانت أكثر من جميع الناس وقد تجلت عظمة الحق وجلاله في قلوبهم أكثر من الكل ولكني أقول: لابد أن يتعلم عباد الله منهم كيفية العبودية والسلوك إلى الله تعالى، فإذا قرأوا أدعيتهم ومناجاتهم فلا تكون القراءة لقلقة اللسان بل يتفكرون في كيفية تعاملهم مع الحق وإظهارهم التذلل والعجز والحاجة للذات المقدسة ولعمر الحبيب أن علي بن الحسين من أعظم النعم منّ بها ذات الحق المقدسة على عباده وأنزله من عالم القرب والقدس لأجل تفهيم عباده طرق العبودية ولتسألنّ يومئذ عن النعيم.. وإذا سألنا لماذا ما قدّرنا هذه النعمة وما استفدنا من هذا الرجل العظيم ؟ فلا تحير جوابا غير أن ننكس برؤوسنا ونحترق بنار الندامة والأسف ولا ينفع حينذاك الندم.

فيا أيها العزيز، فالآن لك الفرصة والعمر العزيز الذي هو رأس مالك موجود وطريق السلوك إلى الله مفتوح وأبواب رحمة الحق مفتوحة والسلامة وقوة الأعضاء والقوى مستقرّة ودار زرع عالم الملك قائمة، فاصرف همّتك واعرف قدر هذه النعم الإلهية واستفد منها وتحصّل الكمالات الروحانية والسعادات الأزلية والأبدية وخذ نصيبا من هذه المعارف الكثيرة التي بسطها القرآن الشريف السماوي وأهل بيت العصمة عليهم السلام على بسيط أرض الطبيعة المظلمة ونوّروا العالم بالأنوار الساطعة الإلهية فنوّر أرض طبيعتك المظلمة بالنور الإلهي ونوّر بنور الحق تعالى بصرك وسمعك ولسانك وسائر القوى الظاهرة والباطنة وبدّل هذه الأرض الظلمانية إلى أرض نورانية بل إلى سماء عقلانية ففي يوم تبدّل الأرض غير الأرض وإن لم تتبدل أرضك غير الأرض ولم تتنور بنور الرب فلك ظلمات ومشقات وأنواع الوحشة والظلمة والذلة والعذاب، فلأن القوى الظاهرة والباطنية لنا مظلمة بالظلمات الشيطانية وأنا أخشى من أنه ان بقيا على هذه الحال فبالتدريج تتبدل الأرض الهيولانية التي فيها نور الفطرة أرضا سجّينيّة مظلمة خالية من نور الفطرة ومحجوبة عن جميع أحكام فطرة الله وتلك شقاوة ليس بعدها سعادة وظلمة لا يعقبها نور ووحشة لا ترى وجه الاطمئنان وعذاب ليس وراءه راحة فمن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.. أعوذ بالله من غرورات الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء فإن عمدة المقصد والمقصود للأنبياء العظام وتشريع الشرائع وتأسيس الأحكام ونزول الكتب السماوية وخصوصا القرآن الشريف الجامع الذي صاحبه ومكاشفه نور الرسول الخاتم المطهّر صلى الله عليه وآله هي نشر التوحيد والمعارف الإلهية وقطع جذور الكفر والشرك والحول وعبادة إلهين اثنين وسر التوحيد والتجريد سار وجار في جميع العبادات القلبية والقالبية بل كان يقول الشيخ العارف الكامل شاه آبادي روحي فداه: أن العبادات إجراء التوحيد من باطن القلب إلى ملك البدن.

وبالجملة: النتيجة المطلوبة من العبادات هي تحصيل المعارف وتمكين التوحيد وسائر المعارف في القلب، وهذا المقصد لا يحصل إلاَّ بأن يستوفي السالك الحظوظ القلبية للعبادات ويعبر من الصورة والقالب إلى الحقيقة واللبّ ولا يتوقف في الدنيا والقشر فإن الوقوف في هذه الأمور أشواك في طريق سلوك الإنسانية، والذين يدعون إلى الصورة فقط وينهون الناس عن الآداب الباطنية ويقولون أنّه لا معنى للشريعة ولا حقيقة لها سوى هذه الصورة والقشرة فهم شياطين الطريق إلى الله وأشواك سبيل الإنسانية ولا بد أن يستعاذ من شرّهم إلى الله فإنهم يطفئون للإنسان نور فطرة الله الذي هو نور المعرفة والتوحيد و الولاية وسائر المعارف ويسدلون عليه حجب التقليد والجهالة والعادات والأوهام ويمنعون عباد الله عن العكوف بجنابة والوصول إلى جمالة الجميل ويصدّون عن طريق المعارف ويوجهون إلى الدنيا وزخارفها والجهات المادية والجسمانية وعوارضها القلوب الصافية الطاهرة لعباد الله التي زرع في خميرتها الحق تعالى بذر المعرفة بيدي جماله وجلاله وأرسل الأنبياء العظام وأنزل الكتب السماوية لتربية ذاك البذر وتنميته، ويصرفون تلك القلوب عن الروحانية والسعادات العقلية ويحصرون العوالم الغيبية والجنات الموعودة في المأكولات والمشروبات والمنكوحات وسائر المشتهيات الحيوانية، هؤلاء يظنون أن الحق تعالى إذ بسط بساط الرحمة المعظّمة وبعث الأنبياء العظام لإدارة البطن والفرج. وغاية معارفهم أنك إذا حفظت بطنك وفرجك في الدنيا تصل إلى شهواتها في الآخرة، فهؤلاء لا يهتمون بالتوحيد والنبوّات بمقدار ما يهمّهم الجماع الذي يكون مدّته خمسمئة سنة! ويحسبون جميع المعارف مقدمة لتأمين البطن والفرج، وإذا أراد حكيم الهي أو عارف ربّاني أن يفتح إلى عباد الله بابا من الرحمة ويقرأ لهم درسا من الحكمة الإلهية لا يمتنعون عن أيّة تهمة وغيبة وأيّ سبّ وتكفير، بالنسبة إلى هؤلاء وقد انغمروا في الدنيا الى حد ويهتمون بشهوات بطونهم وفروجهم إلى غاية لا يحبّون من حيث لا يشعرون أن تكون في دار التحقق سعادة سوى الشهوات الحيوانية مع أنه لو كانت في العالم سعادات عقلية فلا تضر بطنهم وفرجهم فأمثالنا ممّن لم يتجاوزوا حد الحيوانية ولا يتيسّر لنا غير الجنّة الجسمانية وإدارة البطن والفرج، وهي أيضا نأملها بتفضّل الله سبحانه ولكن لا نظنّ أن السعادة منحصرة فيها. وجنة الحق تعالى محصورة بهذه الجنة الحيوانية، بل للحق تعالى عوالم لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، وان أهل المحبة الإلهية ومعرفة الله سبحانه لا يعتنون بشيء من تلك الجنّات ولا يتوجّهون إلى عالم الغيب والشهادة وأنّ لهم جنة اللقاء، وان أردنا أن نذكر الآيات القرآنية والأحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة في هذا الباب لكان مخالفا لوضع هذه الرسالة، وهذا المقدار أيضا كان من طغيان القلم والمقصود العمدة هو توجيه قلوب عباد الله لما خلقوا له وهو معرفة الله سبحانه التي هي فوق جميع السعادات وليس

شيء مقدماً عليها وليس مقصودنا من الذين هم أشواك سلوك الطريق علماء الإسلام العظام وفقهاء المذهب الجعفري الكرام عليهم رضوان الله بل بعض الجهلة والمنتحلين للعلم فإنهم من جهة القصور والجهل لا التقصير والعناد صاروا قطاع طريق عباد الله، وأعوذ بالله من شر طغيان القلم والنيّة الفاسدة والمقصود الباطل. والحمد لله أولاً وآخرا وظاهرا وباطنا.

الباب الثالث

في سر النية وآدابها وفيها خمسة فصول

الفصل الأول

في حقيقة النية في العبادات

اعلم أن النية عبارة عن التصميم والعزم على إتيان شيء وإجماع النفس على إتيانه بعد تصوّره والتصديق بفائدته والحكم بلزوم إتيانه وهو حالة نفسانية ووجدانية تكون بعد هذه الأمور ونعبّر عنها بالهمة والعزم والإرادة والقصد، وهي موجودة في جميع الأمور الاختيارية ولا يمكن تخلّف فعل إرادي عنها، وهذا الأمر موجود في تمام العمل من أوله إلى آخره حقيقة من دون شائبة مجاز فيه ولا يلزم أن تكون حاصلة في الذهن في أثناء العمل أو في أوله تفصيلا ويتصوّر الفاعل هذا القصد والتصميم فعلا بل ربما يكون أن الإنسان يأتي بالعمل بذلك التصميم والعزم ذاهل وغافل بالكلية عن الصورة التفصيلية للعمل وعن التصميم، ولكن تلك الحقيقة موجودة، ويوجد العمل في الخارج بتحريكها كما هو واضح وجدانا في الأفعال الاختيارية.

وبالجملة، هذا التصميم والعزم الذي هو عبارة عن النيّة في لسان الفقهاء رضوان الله عليهم موجود في كل عمل بلا تخلّف بحيث لو أراد أحد أن يوجد العمل الاختياري بدونه فهو غير ممكن له ومع ذلك فإن وسوسة الشيطان الخبيث ودعابة الواهمة العقل محكوما لهما وتعميان هذا الأمر الضروري على الإنسان المسكين، وعوضا من أنه يصرف عمره في معارف التوحيد ومعرفة الحق والسعي وراءه يوسوس له إبليس الخبيث ويصرف نصف عمره في أمر ضروري وشيء واجب الحصول.

إن للشيطان حبائل ومكائد كثيرة فيلزم أحدا لترك أصل العمل وفي آخر إذا يئس من أنه يترك أصل العمل فيلزمه بالرياء والعجب وسائر المفسدات، وإذا لم يوفّق لهذا الأمر فيبطل عمله من طريق التظاهر بالقداسة فيوهن عبادات جميع الناس في نظر الإنسان وينسب الناس إلى عدم المبالاة ثم يلزمه أن يصرف جميع عمره في النيّة مثلا التي هي أمر ملازم للعمل أو في التكبيرة أو في القراءة التي هي كلها من الأمور العادية ولا تحتاج إلى مؤونة، وبالآخرة لا يرضى عن الإنسان إلاَّ بأن يبطل عمله بإحدى الطرق المذكورة.

إن للوسواس شؤونا كثيرة وطرقا عديدة لا نستطيع أن نبحث الآن في جميعها ونستقصي جميع شؤونها، ولكن الوسوسة في النية لعلها أكثر أضحوكة وأعجبها بين أنواع الوسوسات لأنــه إذا أراد أحد أن يقوم بكلّ قواه وفي جميع عمره أن يأتي بأمر واحد اختياري بدون نيّـة لا يمكــن لــه أن يكون هذا في عهدته ومع ذلك ترى واحدا مسكينا مريض النفس وضعيف العقل يعطّل نفسه فــي كلّ صلاة مدّة مديدة لكي توجد صلاته مع النية والعزم، فمثل هذا الشخص كمن يتفكر مدة مديدة لان يهيئ نية وعزما لذهابه إلى السوق أو لتغذّيه. فالصلاة التي ينبغــي أن تكــون لهــذا المــسكين معراج قربه ومفتاح سعادته وبالتأدّب بآدابها القلبية والاطّلاع على أسرار هذه اللطيفة الإلهية يكمل ذاته ويؤمّن النشأة الحياتية، فهو يغفل عن ذلك كله بل لا يراها ضرورية لنفسه بــل يعــد جميعهــا باطلة ويصرف رأس ماله العزيز في خدمة الشيطان وإطاعــة الوســواس الخنّــاس ويجعــل عقلــه الموهوب من الله سبحانه الذي هو نور الهداية محكوما لحكم إبليس.

فعن عبد الله بن سنان قال: ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام رجــلا مبتلــى بالوضــوء والــصلاة وقلت: هو رجل عاقل فقال أبو عبد الله (عليه السلام) وأيّ عقل له وهو يطيع الــشيطان فقلــت لــه وكيف يطيع الشيطان ؟ فقال سله هذا الذي يأتيه من أيّ شيء هــو فإنــه يقــول لــك: مــن عمــل الشيطان.

وبالجملة لا بد للإنسان أن يجذر هذا الجذر بكل ما تيسّر له من الرياضة والكلفــة، فإنــه يمنــع الإنسان عن جميع السعادات والخيرات، فمن الممكن أن تكون عبادات الإنسان في طول أربعــين سنة غير صحيحة حتى بحسب الصورة وتكون فاقدة لأجزائها الصورية الفقهية فــضلا عــن الآداب الباطنية والشرعية ومما يضحك الثكلى أن بعض هؤلاء الأشخاص المبتلين بالوسواس يرون أعمال جميع الناس باطلة ويحسبون أنهم لا يبالون بدينهم مع أن هــذا الوســواس نفــسه إن كــان مقلّــدا فمرجع تقليده أيضا واحد من الناس المعروفين، وان كان هو من أهل الفضل فليرجع إلى الأخبــار ويرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمة الهدى عليهم السلام أيضا كــانوا فــي هــذه الأمــور كمتعارف الناس، فهذه الطائفة الوسواسية فقط من بين النــاس يعملــون علــى خــلاف رســول الله والأئمة المعصومين عليهم السلام وفقهاء المذهب وعلماء الملّة ويعدّون أعمال الناس جميعا كــلا شيء وعملهم موافقا للاحتياط ويرون أنفسهم مبالين بالدين. فمــثلا فــي بــاب الوضــوء، الأخبــار البيانية لوضوء رسول الله صلى الله عليه وآله متواترة على الظاهر بأنه صلى الله عليــه وآلــه يــصبّ غرفة من الماء على وجهة وغرفة إلى يمينه وغرفة إلى شماله، وقد قام إجماع فقهاء الإمامية على التحقيق بأن هذا الوضوء صحيح وظاهر كتاب الله أيضا هو ذلك، وفي الغسل الثــاني بــل الغرفــة الثانية استشكل بعض ولكن الغرفة الثانية بل الغسل الثاني أيضا لا بأس به وان كان فــي اســتحبابه

كلام ولكن الغسل الثالث بدعة ومبطل للوضوء بلا إشكال رواية وفتوى، فالآن انظر إلى عمل الوسواسي المسكين فهو لا يكتفي بعشرين غرفة تسبغ كل غرفة منها تمام اليد وتحسب غسلة تامة فوضوؤه حينئذ باطل بلا إشكال، فهذا الشقيّ الضعيف العقل يرى هذا العمل الذي أتى به طاعة للشيطان ووسوسته صحيحا وموافقا للاحتياط ويرى أعمال سائر الناس باطلة، فمن هنا يعلم وجه صدق الحديث الشريف الذي عدّه من السفهاء، فيعلم أن من يرى العمل الذي يخالف عمل رسول الله صحيحا والعمل الذي يكون موافقا لعمله صلى الله عليه وآله باطلا فهو إمّا خارج عن الدين أو سفيه لا عقل له، وحيث إن هذا المسكين ليس بخارج عن الدين فهو سفيه لا عقل له لا محالة ومطيع للشيطان ومخالف للرحمن وليس لهذه المعصية والداء العضال علاج سوى التفكر في الأمور التي ذكرناها والمقايسة لعمله بعمل المتدينين والعلماء والفقهاء رضوان الله عليهم، فإن رأى نفسه مخالفا لهم فيرغم أنف الشيطان ولا يعتني بذاك اللعين فإذا وسوس له الشيطان في وساوسه بأن عملك باطل يجيبه إذا كان عمل جميع فقهاء الأمة باطلا فليكن عملي أيضا باطلا، فمن المرجو أنه إذا خالف الشيطان مدّة ويستعيذ في ضمن هذا إلى الحق تعالى بالعجز والحاجة من شرّه، أن يزول هذا المرض وتنقطع عين طمع الشيطان عنه كما أنه في الروايات قد ذكرت هذه الطريقة لدفع كثرة الشك الذي هو أيضا من إلقاءات الشيطان. ففي الكافي الشريف بإسناده إلى أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: " إذا كثر عليك السهو فامض على صلاتك فانه يرشك أن يدعك إنما هو من الشيطان ".

وفي رواية أخرى عن الباقر أو الصادق عليهما السلام قال: " لا تعوّدوا الخبيث من أنفسكم نقض الصلاة فتطمعوه فإن الشيطان خبيث معتاد لما عوّد فليمض أحدكم في الوهم ولا يكثرنّ نقض الصلاة فإنه إذا فعل ذلك مرّات لم يعد إليه الشكّ ". قال زرارة: ثم قال: " إنما يريد الخبيث أن يطاع فإذا عصي لم يعد إلى أحدكم ".. وهذه المعالجات المهمّة في جميع الأمور التي تكون من إلقاءات الشيطان ومن دعابات الواهمة الشيطانية، وقد قررت في الأحاديث الشريفة لذلك أدعية أيضا فمن أرادها أيضا فليراجع الوسائل ومستدركها في أواخر كتاب الخلل.

الفصل الثاني

في الإخلاص

من مهمات آداب النية وهو في نفس الوقت من مهمات جميع العبادات ومن المقررات الكلية الشاملة الإخلاص وحقيقته تصفية العمل عن شائبة سوى الله وتصفية السرّ عن رؤية غير الحق تعالى في جميع الأعمال الصورية واللبّية والظاهرية والباطنية وكمال الإخلاص ترك الغير مطلقا وجعل الإنّيّة والأنانية والغير والغيرية تحت قدميك، قال تعالى: " إلاَّ لله الدين الخالص " (الزمر ٣) أي أن الله تعالى قد اختار لنفسه الدين الخالص فإذا كان لشيء من الحظوظ النفسانية والشيطانية دخل في الدين فلا يكون خالصا وما ليس بخالص فإن الله لم يختره وما كانت فيه شائبة الغيرية والنفسانية فهو خارج عن حدود دين الحق. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة ٥).. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (الشورى ٢٠). وقال رسول الله صلى الله عليه وآله على ما نقل: " لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ". وقال تعالى: ﴿جِرًا إِلَى اللّه وَرَسُوله ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّه﴾ (النساء ١٠٠). ويمكن أن تكون هذه الآية المباركة متكلفة لجميع مراتب الإخلاص أحدهما الهجرة الصورية التي تقع بالبدن وهذه الهجرة إذا لم تكن خالصة لله بل كانت للحظوظ النفسانية فليست هجرة إلى الله ورسوله وهذه هي مرتبة الإخلاص الصوري الفقهي.

والثانية الهجرة المعنوية والسفر الباطن الذي مبدؤه البيت المظلم للنفس وغايته الله تعالى ورسوله الذي مرجعه الحق أيضا لأن الرسول بما هو رسول ليس له استقلال بل هو آية ومرآة وممثل، فالهجرة إليه هجرة إلى الحق (حبّ خاصان خد أحبّ خدا است) (مصراع للعارف المثنوي الرومي يقول: حب المخصوصين لله هو حب الله) فمحصلّ معنى الآية الشريفة على حسب هذا الاحتمال هو أنه من هاجر بالهجرة المعنوية وسافر بالسفر القلبي العرفاني وخرج من بيت النفس ومنزل الأنانية وهاجر إلى الله من دون رؤية نفسه ونفسانيته وحيثّيته فجزاؤه على الحق تعالى، وإذا كان السالك في سلوكه إلى الله طالبا لحظ من الحظوظ النفسانية ولو كان هو الوصول إلى المقامات بل ولو كان هو الوصول إلى قرب الحق بمعنى وصول نفسه إلى الحق فليس هذا السلوك سلوكا إلى الحق بل السالك لم يخرج بعد من البيت بل هو مسافر في جوف البيت من ركن إلى ركن ومن زاوية إلى زاوية، فالسفر إذا كان في مراتب النفس وللوصول إلى الكمالات

النفسانية فليس بسفر إلى الله بل هو سفر من النفس إلى النفس، ولكن لا بد للسالك من هذا السفر في سفره إلى الله ولا يقدر أحد أن يسافر السفر الرباني من دون السفر النفساني غير الكمّل من أولياء الله وهذا الشأن للكمّل فقط ولعل الآية الشريفة: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر ٥) تشير إلى هذه السلامة من التصرفات الشيطانية والنفسانية في جميع مراتب السير، في الليالي المظلمة الطبيعية التي هي ليلة القدر للكمّل حتى طلوع فجر القيامة الذي هو للكمّل رؤية جمال الأحدية، وأما غيرهم فليسوا سالمين في جميع مراتب السير بل في أوائل الأمر فلا يكون سالك خارجا من التصرفات الشيطانية فاعلم أن هذه المرتبة من الإخلاص أي السلامة من أول مرتبة السير إلى الله إلى آخر مراتبها وهي حصول الموت الحقيقي بل ما بعد الحياة الثانوية الحقانية وهي الصحو بعد المحو لا تتيسر لأهل السلوك والمتعارفين منن أصحاب المعرفة والرياضة وآية هذا النحو من الخلوص هي أنه لا سبيل لغواية الشيطان عليهم وطمع الشيطان مقطوع عنهم بالمرّة كما قال تعالى في الآية الشريفة ناقلا عن ذاك الخبيث :﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(سورة ص ٨١ ـ ٨٢ ـ ٨٣). وقد نسب الإخلاص هاهنا إلى عين العبد لا إلى فعله وهذا مقام فوق الإخلاص في العمل ولعل المراد من الحديث النبوي المعروف من أخلص لله أربعين صباحا جرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه، هو الإخلاص بجميع مراتبه يعني الإخلاص العملي والصفاتي والذاتي ولعله يكون ظاهرا في الإخلاص الذاتي وتكون بقية مراتب الإخلاص من لوازمه، وشرح هذا الحديث الشريف وبيان المقصود من ينابيع الحكمة وكيفية جريانها من القلب إلى اللسان ومدخلية الخلوص في هذا الجريان وخصوصية الأربعين صباحا خارج عن نطاق البيان في هذه الرسالة ويحتاج إلى رسالة مستقلة، والرسالة المعروفة بتحفة الملوك في السير والسلوك المنسوبة إلى العارف بالله بحر العلوم هو السيد محمد بن مهدي بن العالم السيد مرتضى بن العالم الجليل السيد محمد البروجردي الطباطبائي كان (رحمه الله) سيد العلماء الأعلام ومولى فضلاء الإسلام علامة دهره وزمانه ووحيد عصره وأوانه قال العلامة النوري في المستدرك: قد أذعن له جميع علماء عصره ومن تأخّر عنه بعلوّ المقام والرئاسة النقلية والعقلية وسائر الكمالات النفسانيّة حتى أن الشيخ الفقيه الأكرم الشيخ جعفر النجفي مع ما هو عليه من الفقاهة والرياسة كان يمسح تراب خفّه بحنك عمامته وهو من الذين تواترت عنه المكرمات ولقاؤه الحجة صلوات الله عليه ولم يسبقه في هذه الفضيلة أحد فيما أعلم إلاَّ السيد رضا الدين علي بن طاووس وقد ذكرنا جملة منها بالأسانيد الصحيحة في كتابنا دار السلام والجنّة المأوى والنجم الثاقب لو جمعت لكانت رسالة حسنة (انتهى).

تولّد في الحائر الشريف سنة ١١٥٥ (عقنه) وتوفي في النجف الأشرف سنة ١٢١٢ (غريب) ودفن بجنب باب المسجد الطوسي وبجنبه دفن ولده العالم الفاضل السيد محمد رضا رضي الله عنه) المرحوم فعمدة نظره شرح هذا الحديث الشريف وهي رسالة لطيفة وان كانت لا تخلو من المناقشات، ولذا لا يراها البعض من تأليف هذا السيد الجليل وليس ببعيد.

الفصل الثالث

في بيان بعض مراتب الإخلاص

بطريق الإجمال على نحو يناسب وضع هذه الأوراق

فإحدى مراتبه تصفية العمل أعم من العمل القلبي والقالبي عن شائبة رضا المخلوق وجلب قلوب المخلوقين سواء كان للمحمدة أو المنفعة أو لغيرها، وفي مقابل هذه المرتبة إتيان العمل رياءً وهذا هو الرياء الفقهي وهو أحطّ وأدنى مراتب الرياء وصاحبه أرذل المرائين وأخسّهم.

المرتبة الثانية: تصفية العمل عن حصول المقاصد الدنيوية والمآرب الزائلة الفانية. وان كان الداعي هو أن الله تعالى يعطيها بواسطة هذا العمل كإتيان صلاة الليل لتوسعة الرزق وإتيان صلاة أول الشهر للسلامة من الآفات في ذلك الشهر وإعطاء الصدقات للعافية وسائر المقاصد الدنيوية وقد عدّ بعض الفقهاء عليهم الرحمة هذه المرتبة من الإخلاص شرطا لصحة العبادة إذا كان إتيان العمل للوصول إلى ذلك المقصود وهو خلاف التحقيق حسب القواعد الفقهية وان كانت هذه الصلاة عند أهل المعرفة لا قيمة لها أصلا فهي كسائر المكاسب المشروعة بل لعلها تكون أقل منها أيضا.

المرتبة الثالثة: تصفيته عن الوصول إلى جنّات الجسمانية والحور والقصور وأمثالها من اللذات الجسمانية، وفي مقابلة عبادة الإجراء كما في الروايات الشريفة، وهذا أيضا في نظر أهل الله كسائر المكاسب إلاَّ أن أجرة عمل هذا الكاسب أكثر وأعلى إذا قام بالأمر ويخلصه عن المفسدات الصورية.

المرتبة الرابعة: أن يصفّي العمل عن خوف العقاب والعذاب الجسماني الموعود، وفي مقابلها عبادة العبيد كما في الروايات، وهذه العبادة أيضا في نظر أصحاب القلوب لا قيمة لها وخارجه عن نطاق عبودية الله ولا يفرق في نظر أهل المعرفة أن يعمل الإنسان عملا من خوف الحدود والتعزيرات في الدين أو خوف العقاب والعذاب الأخروي أو للوصول إلى النساء الدنيوية أو الحور ونساء الجنة والعمل في جميع ذلك ليس لله بل هو الداعي لداعي الأمر الذي يخرج العمل عن البطلان الصوري طبقا للقواعد الفقهية ولكن ليس لهذا المتاع قيمة في سوق أهل المعرفة.

المرتبة الخامسة: تصفية العمل عن الوصول إلى السعادات العقلية واللذّات الروحانية الدائمة الأزلية الأبدية والانسلاك في سلك الكروبيين والانخراط في زمرة العقول القادسة والملائكة المقربين، وفي مقابلها العمل لهذا المقصد، وهذه الدرجة وان كانت درجة عظيمة والمقصد عاليا

ومهمّا والحكماء والمحققون يهتمون بهذه المرتبة من السعادة اهتماما كثيرا ويرون لها قيمة ولكــن في مسلك أهل الله. هذه المرتبة أيضا هي من نقصان السلوك وسالكها أيضا يعدّ كاسبا من الإجراء وإن كان له فروق مع سائر الناس في المتجر والمكسب.

المرتبة السادسة: هي في إزاء هذه المرتبة، وهي تصفية العمل من خوف عــدم الوصــول إلــى اللذات والحرمان عن هذه السعادات، وفي مقابلتها العمل لهذه المرتبة من الخوف، وهذه أيضا وان كانت مرتبة عالية وخارجه عن حدّ اشتهاء أمثال الكاتب ولكنها أيضا في نظر أهل الله عبادة العبيد، وهي عبادة معللة.

المرتبة السابعة: تصفية العمل عن الوصول إلى لذات جمال الله والوصول إلــى بهجــات أنــوار السبحات غير المتناهية وهي جنة اللقاء. وهذه المرتبة أي جنة اللقاء هي من مهمات مقاصد أهــل المعرفة وأصحاب القلوب وأيدي آمال النوع عنها قاصرة، والأوحدي من أهــل المعرفــة يتــشرّف بشرف هذه السعادة وهم أهل الحب والجذبة من كمّل أهل الله وأصــفياء الله ولكــن ليــست هــذه المرتبة هي كمال مرتبة الكمّل من أهل الله بل هي من مقاماتهم المعمولة والعادية لهــم ومــا فــي الأدعية كالمناجاة الشعبانية من أن أمير المؤمنين وأولاده الطاهرين استدعوا هذه المرتبة مــن الله أو أشاروا بكونهم متحققين بها فليس من جهة أن مقاماتهم منحصرة بهذه المرتبة.

كما أن المرتبة الثامنة في إزاء هذه المرتبة وهي عبارة عن تصفية العمل عن خوف الفراق أيضا ليس كمال مقامات الكمّل وما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: كيف أصبر على فراقك..فمن مقاماته المعمولة العادية ومقامات أمثاله كذلك.

وبالجملة، ان تصفية العمل عن هاتين المرتبتين أيضا لازمة عند أهل الله، والعمل معهــا معلــل وليست خارجة عن الحظوظ النفسانية، وهذا كمال الخلوص، وبعدها مراتب أخرى خارجــة عــن حدود الخلوص وداخله تحت ميزان التوحيد والتجريد والولاية لا يناسب المقام بيانها.

الفصل الرابع

في تحذير منكري المقامات وطوائفهم

إذا علمت مراتب الإخلاص ومقامات العبادات إلى حدّ فتهيّأ لتحصيله فإن العلم بلا عمل لا قيمة له والحجّة على العالم أتمّ والمناقشة عليه أكثر، فيا للأسف إننا محرومون بالكلية من المعارف الإلهية والمقامات المعنوية لأهل الله والمدارج الغالية لأصحاب القلوب، فطائفة منا ولعلها هي الأكثر تنكر المقامات كلّها وترى أهلها على الخطأ والباطل وعاطلا ومن ذكرهم بشيء أو دعا إلى مقاماتهم يحسبونه شاعرا ودعوته شطحا ولا يرجى لهذه الطائفة من الناس أن يقدر أحد على توجيههم إلى نقصهم وعيبهم وإيقاظهم من نومهم الثقيل انك لا تهدي من أحببت ولا تسمع من في القبور.. نعم إن الذين هم كالكاتب المسكين ليس عندهم خبر عن شيء وليست قلوبهم حية بحياة المعرفة والمحبة الإلهية فهم أموات، قبورهم البالية غلاف أبدانهم وقد حجبهم غبار هذا الجسم ومضيقة البدن المظلم عن جميع عوالم النور ونور على نور ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.. هذه الطائفة كل ما يقرأ عليهم من الحديث والقرآن في المحبة والعشق الإلهي وحبّ اللقاء والانقطاع إلى الحق فيقومون بتأويله وتوجيهه ويفسّرونه على طبق آرائهم فيوجّهون آيات اللقاء وحب الله على كثرتها إلى لقاء أشجار الجنة ونسائها الجميلة، ولا أدري أن هؤلاء ماذا يصنعون بفقرات المناجاة الشعبانية حيث يقول: " الهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك، الهي واجعلني ممّن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك ".

فما هذه الحجب النورانية وهل المراد من النظر إلى الحق النظر إلى أجّاص الجنة ؟ وهل معدن العظمة هو قصور الجنة ؟ وهل تعلّق الأرواح بعزّ القدس هو التعلق بذيل حور العين لقضاء الشهوة ؟.. هل هذا الصعق والمحو من الجلال يعني به جمال نساء الجنة ؟. وتلك الجذبات والأغشية التي حصلت لرسول الله صلى الله عليه وآله في صلاة المعراج كان يشاهد أنوار العظمة تلك وما فوقها في محفل ما كان الأمين جبرائيل محرما لسرّه ولا يتجرّأ للتقدّم قيد أنملة ؟ هل كانت جذبة إحدى النساء الحسان في الجنة ؟. أو انه صلى الله عليه وآله كان يرى أنوارا كنور الشمس والقمر أو أشدّ منهما والقلب السليم الذي قال فيه المعصوم عليه السلام: والسليم قلب لقي الله وليس فيه سواه، هل المقصود عن غير الحق هو غير كرامة الحق التي يكون مرجعها إلاَّ يكون غير أجّاص الجنة ومشمشها (فيا ويلي) (فيا ويلي) ترجمة كنائية من الجملة التي ذكرها المؤلف دام ظله في المتن

وهي (خاك بر فرق من).فإن عنان القلم قد خرج من كفّي واشتغل بالشطحات ولكن لعمر الحبيب أنه ليس لي مقصود في هذا الكلام إلاَّ أن يحصل تنبّه للإخوة الإيمانيين وخصوصا رجال العلم ولا ينكرون على الأقل مقامات أهل الله فإن هذا الإنكار منشأ جميع الشقاوات، وليس مقصودنا أن نبين من هم أهل الله بل مقصودنا إلاَّ ننكر المقامات وأما من هو صاحب هذه المقامات ؟ فالله أعلم، وهذا أمر لا يطّلع عليه أحد (آن راكه خبرشد خبري باز نيامد) (مصراع للشاعر المعروف السعدي الشيرازي يقول: من كان عنده خبر فليس عنه خبر.) وطائفة أخرى هم الذين لا ينكرون مقامات أهل المعرفة ولا عناد لهم مع أهل الله ولكن الاشتغال بالدنيا وتحصيلها والإخلاد إلى لذاتها الفانية منعتهم من الكسب العملي والعلمي والذوقي والحالي، فمثلهم كمرضى يصدّقون مرضهم ولكن شهوة البطن لا تدعهم يقدمون على الحمية وشرب الدواء المرّ، كما أن الطائفة الأولى كمرضى لا يصدّقون المرض الكذائي والمريض الكذائي في دار التحقق ومع أنهم مبتلون بالمرض ينكرون أصل المرض.

وطائفة أخرى هم الذين اشتغلوا بالكسب العلمي واشتغلوا بتحصيل المعارف علما ولكنهم اكتفوا من حقائق المعارف ومعارف أهل الله بالاصطلاحات والألفاظ والعبارات المزركشة وقيّدوا أنفسهم وجمعا من المساكين في سلسلة الألفاظ والاصطلاحات واقتنعوا عن جميع المقامات بالمقالات، ويوجد ضمن هؤلاء زمرة يعرفون أنفسهم ولكنهم للترؤس على عدة مساكين جعلوا هذه الاصطلاحات اللفظية وبلا لبّ وسيلة لكسب المعيشة ويصيدون القلوب الصافية لعباد الله بالألفاظ الغارّة والأقوال الجالبة، هؤلاء شياطين من الإنس وليس إضرارهم على عباد الله بأقل من إبليس، هؤلاء المساكين لا يدرون أن قلوب عباد الله منازل الحق تعالى ولا يحق لأحد التصرف فيها، فهم غاصبون منزل الحق ومخرّبون الكعبة الحقيقية فهم ينحتون أصناما ويضعونها في قلوب عباد الله التي هي الكعبة بل هي البيت المعمور، هؤلاء الممرّضون وقد أظهروا أنفسهم في زيّ الطبيب ويبلون عباد الله بالأمراض المختلفة المهلكة وعلامة تلك الطائفة أنه يعتنون بإرشاد الأغنياء والأكابر أكثر من إرشاد الفقراء والمساكين، فأكثر مريديهم من أرباب الجاه و المال وهم بأنفسهم أيضا في زيّ الأغنياء وأرباب الجاه والمال، ولهؤلاء القوم كلمات غارّة يطهرون أنفسهم عند المريدين عن التعلق بالدنيا مع أنهم في نفس الوقت متلوّثون بآلاف من القذارات الدنيوية ويعدّون أنفسهم في أعينهم من أهل الله وأولئك المساكين البلهاء (أي المريدين) أيضا يغضّون أبصارهم عن جميع عيوبهم المحسوسة ويسرّون بالاصطلاحات والألفاظ بلا لب والحال إذا انجر الكلام إلى هنا ينبغي أن نذكر حديثا أو حديثين يدوران في هذا الموضوع وان خارجا عن نسج الكلام ولكن التبرّك بكلام أهل البيت حسن جميل.

عن كتاب الخصال للشيخ الصدوق (رحمه الله) بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: " إن من العلماء من يحبُّ أن يجمع علمه ولا يحب أن يؤخذ عنه فذاك في الدرك الأول من النار، وفي العلماء من إذا وُعِظ أنف وإذا وعض عنف فذاك في الدرك الثاني من النار، ومن العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف ولا يرى له في المساكين وضعا فذاك في الدرك الثاني من النار، ومن العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف ولا يرى له في المساكين وضعا فذاك في الدرك الثالث من النار، ومن العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة والسلاطين فإن ردّ عليه وقصر في شيء من أمره غضب فذاك في الدرك الرابع من النار، ومن العلماء من يطلب أحاديث اليهود والنصارى ليغزر به علمه ويكثر به حديثه فذاك في الدرك الخامس من النار ومن العلماء من يضع نفسه للفتيا ويقول: سلوني ولعله لا يصيب حرفا واحدا والله لا يحب المتكلّفين فذاك في الدرك السادس من النار، ومن العلماء من يتخذ العلم مروّة وعقلا فذاك في الدرك السابع من النار ".

وعن الكليني (رحمه الله) في جامعه الكافي بإسناده إلى الباقر عليه السلام " من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوّأ مقعده من النار، الرئاسة لا تصلح إلاَّ لأهلها ".

وعن الصادق عليه السلام: " إذا رأيتم العالم محبّا للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محبّ بشيء يحوط ما أحبّ ". وقال: " أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لا تجعل بيني وبينك عالما مفتونا بالدنيا فيصدّك عن طريق محبّتي فإن أولئك قطاع طريق عبادي المريدين ان أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم".

والذين هم في هذه الطائفة ليسوا بحيّالين ولا خدّاعين بل كانوا سالكين طريق الآخرة وهم في صدد تحصيل المعارف والمقامات، قد يتفق لهم أن الشيطان القاطع للطريق غرّهم فاغترّوا وحسبوا أن المعارف والمقامات في الحقيقة عبارة عن الاصطلاحات العلمية التي صنعوها أو استفادوا من صناعة غيرهم، فهم أيضا قد صرفوا نقد شبابهم وأيام حياتهم إلى آخر عمرهم في تكثير الاصطلاح وضبط الكتب والصحف كطائفة من علماء تفسير القرآن الذين يرون أن الاستفادة من القرآن منحصرة في ضبط اختلافات القراءات ومعاني اللغات وتصاريف الكلمات والمحسنات اللفظية والمعنوية ووجوه إعجاز القرآن والمعاني العرفية واختلاف أفهام الناس فيها وجمعها، ويغفلون بالكلية عن دعوات القرآن وجهاته الروحية ومعارفها الإلهية، فهؤلاء أيضا كمريض رجع إلى الطبيب وأخذ نسخة دوائه ورأى علاج نفسه في ضبط النسخة وحفظها وكيفية تركيباتها، فهؤلاء يقتلهم المرض ولا ينتج لهم العلم بالنسخة والرجوع إلى الطبيب نتيجة أصلا.

أيها العزيز إن جميع العلوم عملية حتى علم التوحيد فله أيضا أعمال قلبية وقالبية، إن التوحيد هو من باب التفعيل وهو عبارة عن إعادة الكثرة إلى الوحدة وهذه الأعمال الروحية والقلبية، فما دمت واقعا في الكثرات الأفعالية ولم تعرف السبب الحقيقي ولم تكن عينك مشاهدة للحق، والحق في الطبيعة والجهات والكثرات الطبيعية فانية في الحق ولم ترفرف على قلبك راية سلطان وحدة فاعلية الحق فأنت بعيد عن الخلوص والإخلاص والصفاء والتصفية بالكلية ومهجور عن التوحيد، فالرياءات الأفعالية بأجمعها والرياءات القلبية أكثرها من نقصان التوحيد الأفعالي فمن يرى المخلوق الضعيف المسكين المستكين مؤثرا في دار التحقق ويعده متصرفا في مملكة الحق كيف يستطيع أن يرى نفسه غنيّا عن جلب قلوب المخلوقين ويخلص عمله ويصفّيه عن شرك الشيطان فلا بدّ من أن تصفّى العين والمنبع حتى ينبع منها ماء صافٍ، وإلا لم تكن متوقعا أن ينبع الماء الصافي من العين الموحلة، فأنت إذا علمت أن قلوب عباد الله تحت تصرف الحق وأذقت لذائقة القلب معنى يا مقلّب القلوب.. وأسمعت سامعته ذلك فلا تصير مع ما فيك من الضعف والمسكنة في صدد صيد القلوب وإذا أفهمت القلب حقيقة بيده ملكوت كل شيء وله الملك وبيده الملك لاستغنيت عن جلب القلوب ولما رأيت نفسك محتاجة إلى القلوب الضعيفة لهذا المخلوق الضعيف ويحصل لك الغنى القلبي، إنّك لمّا أحسست في نفسك الحاجة ورأيت الناس محلا لعقدتك فاحتجت إلى جلب القلوب ولمّا ظننت نفسك متصرفة في القلوب بإظهار القدس فاحتجت إلى الرياء وان كنت ترى أن الحلاّل هو الحق وما رأيت نفسك أيضا متصرفة في الكون لما احتجت إلى هذه الأنواع من الشرك، أيها المشرك المدّعي للتوحيد، وأيها الإبليس ابن آدم لقد ورثت هذا من الشيطان اللعين الذي يرى نفسه متصرفا ويهتف هتاف ولأغوينّهم فذلك المنحوس الشقّي في حجب الشرك ورؤية النفس والذين يرون العالم وأنفسهم مستقلة لا مستظلّة ومتصرفة لا مملوكة فإنهم ورثوا الشيطنة من إبليس فاستيقظ من النوم الثقيل وأوصل إلى قلبك الآيات للكتاب الإلهي والصحيفة النورانية الربوبية. فإن هذه الآيات العظيمة قد أنزلت لاستيقاظي واستيقاظك، ونحن حصرنا جميع حظوظنا في تجويدها وصورتها وغفلنا عن معارفها حتى حكم الشيطان فينا ووقعنا تحت سلطته. فأنا أختم الكلام على العجالة في هذا المقام وأتركه إلى المقام الآخر، وفي آداب القراءة أشير إلى نبذة من هذا المطلب إن شاء الله وأفتح طريق الاستفادة من القرآن لنفسي ولعباد الله بإذن الله وحسن توفيقه والسلام..

الفصل الخامس

في ذكر بعض درجات الإخلاص

فحيث وصل الكلام إلى هنا فلا بدّ لي من ذكر بعض الدرجات الأخرى للإخلاص تناسب المقام.

فمن درجات الإخلاص تصفية العمل عن رؤية استحقاق الثواب والأجر وفي مقابله شوبه بطلب الأجر ورؤية استحقاق الأجرة والثواب وهذا لا يخلو عن مرتبة من الإعجاب بالعمل ولابدّ للسالك من تخليص نفسه منه وهذه الرؤية رؤية الاستحقاق فهي من نقصان المعرفة بحاله وبحق الخالق تعالى شأنه، وهذا أيضا من الشجرة الخبيثة الشيطانية التي مرجعها رؤية النفس وعملها والانّيّة والأنانية. فالإنسان المسكين ما دام هو في حجاب رؤية أعمال نفسه ويراها من عند نفسه ويرى نفسه متصرفا في الأمر فلا ينجو من هذا المرض ولا ينال هذه التصفية والتخليص. فالسالك لابد له أن يجهد ويفهم القلب بالرياضات القلبية والسلوك العقلي والعرفاني، إن جميع الأعمال من الهبات الإلهية والنعم التي أجراها الحق تعالى على يد العبد، فإذا تمكن التوحيد الفعلي في قلب السالك فلا يرى العمل من عند نفسه ولا يطلب الثواب بل يرى الثواب تفضّلا والنعم ابتدائية، وقد ذكرت هذه اللطيفة الإلهية كثيرا في كلمات الأئمة والأطهار عليهم السلام وخصوصا الصحيفة السجادية، تلك الصحيفة النورانية التي نزلت من سماء عرفان العارف بالله والعقل النوراني سيد الساجدين لخلاص عباد الله من سجن الطبيعة وتفهيمهم أدب العبودية والقيام في خدمة الربوبية، كما في الدعاء الثاني والثلاثين يقول عليه السلام: ″ لك الحمد على ابتدائك بالنعم الجسام والهامك الشكر على الإحسان ″. وفي موضع آخر يقول: ″ نعمك ابتداء وإحسانك التفضّل ″. وفي مصباح الشريعة يقول: ″ وأدنى حدّ الإخلاص بذل العبد طاقته ثم لا يجعل لعمله عند الله قدرا فيوجب به على ربه مكافأة لعمله ″.

والدرجة الأخرى للإخلاص تصفية العمل من الاستكثار والفرح به والاعتماد وتعلق الخاطر عليه. وهذا أيضا من مهمات سلوك السالك، والاستكثار يمنع السالك من قافلة السالكين إلى الله ويحبسه في سجن الطبيعة، وهذا أيضا ينبت من الشجرة الخبيثة الشيطانية ومنشؤه حب النفس الذي هو ارث من الشيطان الذي قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف ١٢) وهذا من جهل الإنسان بمقامه ومقام معبوده جلّت عظمته.

إذا كان المسكين الممكن يعرف مقام نقصه وعجزه وضعفه ومسكنته ويعرف مقام عظمة الحق ومجده وكماله فلا يرى عمله عظيما أبدا ولا يحسب نفسه قائما بالأمر، فالمسكين يتوقع لعمل لا يساوي سنة منه عند أهل الدنيا في سوقهم أزيد من تومانين (تومانين جمع تومان، وهو العملة النقدية في إيران.) إذا كانوا واثقين من صحته وإجزائه توقعات غير متناهية لركعتين من ذلك العمل وهذا هو الفرح والاستكثار للعمل الذي هو مبدأ لكثير من المفاسد الأخلاقية والإعمالية يطول ذكرها، وقد أشاروا عليهم السلام في الأحاديث إلى هذا المطلب، كما في الكافي الشريف بإسناده إلى موسى بن جعفر سلام الله عليهما أنه قال لبعض ولده:

" يا بني عليك بالجدّ ولا تخرجنّ نفسك من حد التقصير في عبادة الله عزّ وجلّ ". وقال عليه السلام في حديث آخر: " كل عمل تريد به الله عزّ وجلّ فكن مقصّرا عند نفسك فإن الناس كلهم في أعمالهم فيما بينهم وبين الله مقصّرون إلاَّ من عصمه الله عزّ وجلّ ".

وعنه عليه السلام: " لا تستكثروا كثير الخير ". وفي الصحيفة الكاملة في وصف ملائكة الله يقول عليه السلام: " الذين يقولون إذا نظروا إلى جهنم تزفر إلى أهل معصيتك سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك ".

فيا أيها الضعيف المقام الذي يعترف فيه رسول الله بالعجز والتقصير ويقول: " ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك " وهو أعرف خلق الله وعمله أنور من أعمال جميع الناس وأعظم من جميعها وكذا الأئمة المعصومون يظهرون ذاك النحو من القصور والتقصير في المحضر المقدس (فإذا يتأتى من بعوضة نحيفة) (ترجمة مصراع كالمثل في لسان الفرس وهو (ازيشه لاغري جه خيزد ؟)). نعم إن مقام معرفتهم بعجز الممكن وعزّة الواجب وعظمته تعالى شأنه كانت تقتضي تلك الإظهارات والاعترافات، وأما نحن المساكين فمن الجهل والحجب المتنوعة قمنا بالتكبر ونعجب بأنفسنا وأعمالنا، فيا سبحان الله ما أصدق كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: " عجب المرء بنفسه أحد حسّاد عقله ". فهذا من فقدان العقل، إن الشيطان يعمّي لنا أمرا ضروريا ولا نقوم بوزنه في ميزان العقل. إنّا نعلم بالضرورة أن أعمالنا وأعمال جميع البشر بل أعمال جميع ملائكة الله والروحانيين في ميزان المقايسة بأعمال رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الهداة سلام الله عليهم ليس لها قدر محسوس، ولا تعد شيئا، وفي نفس الوقت الاعتراف بالتقصير وإظهار العجز عن القيام بالأمر من تلك الأعاظم متواتر بل فوق حد التواتر، وهاتان القضيتان الضروريتان تنتجان لنا إلاَّ نفرح بشيء من أعمالنا بل علينا إذا قمنا بالعبادة والطاعة طول العمر الدنيا أن نكون خجلين وننكس رؤوسنا في محضره. ومع هذا الوصف فقد تمكن الشيطان في قلوبنا وحكم على عقولنا وحواسنا بحيث لا نأخذ نتيجة من هذه المقدمات الضرورية بل كانت

أحوال قلوبنا بعكس تلك النتيجة. إن المولى أمير المؤمنين عليه السلام كانت ضربة واحدة منه يوم الخندق أفضل من جميع عبادات الجن والإنس بتصديق من رسول الله يظهر في عبادته ورياضاته التي كان علي بن الحسين وهو أعبد خلق الله يظهر العجز أن يكون مثله العجز والتذلّل والاعتراف بالقصور والتقصير أكثر منا ورسول الله الذي كان على المرتضى وجميع ما سوى الله عبيدا لجنابه ومتنعمين من سقطات موائد نعمته في معارفه ومتعلمين بتعليمه بعدما خلع بخلعة النبوّة الختمية التي كانت تمام دائرة الكمال واللبنة الأخيرة للمعرفة والتوحيد يقوم بالأمر عشر سنوات في جبل حراء على قدميه ويقوم بالطاعة حتى تتورّم قدماه الشريفتان وأنزل الله تعالى عليه ﴿طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه ١ ـ ٢) أيها الطاهر الهادي ما أنزلنا عليك القرآن لتلقى المشقة فانك طاهر وهاد وان كان الناس لا يطيعونك فهو من نقصهم وشقاوتهم لا من نقصان سلوكك أو هدايتك، ومع ذلك يعلن صلوات الله عليه عجزه وقصوره.

إن السيد ابن طاووس (قدس سره) ينقل حديثا عن علي بن الحسين عليه السلام ونحن نُبرِّك هذه الرسالة به وان كان الحديث طويلا في الجملة ولكن حيث إنه شرح بعض حالات المولى فتتعطّر شامة الأرواح به وتلتذ ذائقة القلوب منه.

عنه (قدس سره) في فتح الأبواب بإسناده عن الزهري (بضم الزاي وسكون الهاء أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن الحرث بن شهاب بن زهرة بن كلاب الفقيه المدني التابعي المعروف وقد ذكره علماء الجمهور وأثنوا عليه ثناء بليغا قيل أنه قد حفظ علم الفقهاء السبعة ولقي عشرة من الصحابة وروى عنه جماعة من أئمة علم الحديث وأمّا علماؤنا فقد اختلفت كلماتهم في مدحه وقدحه وقد ذكر المحدّث القمي قدس سره في سفينة البحار ما يتعلق به فمن أراد فليراجع) قال: " دخلت مع علّي بن الحسين عليهما السلام على عبد الملك بن مروان قال: فاستعظم عبد الملك ما رأى من أثر السجود بين عيني علي بن الحسين عليهما السلام فقال: يا أبا محمد لقد بيّن عليك الاجتهاد ولقد سبق لك من الله الحسنى فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله قريب النسب وكيد السبب وانك لذو فضل عظيم على أهل بيتك وذوي عصرك ولقد أوتيت من الفضل والعلم والدين والورع ما لم يؤت أحد مثلك ولا قبلك إلاّ من مضى من سلفك. وأقبل يثني عليه ويطريه، فقال علي بن الحسين عليهما السلام: كل ما ذكرته ووصفته من فضل الله سبحانه وتأييده وتوفيقه فأين شكره على ما أنعم يا أمير المؤمنين، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقف في الصلاة حتى ترم قدماه ويظمأ في الصيام حتى يعصَب فوه فقيل له يا رسول الله ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فيقول صلى الله عليه وآله: أفلا أكون عبدا شكورا الحمد لله على ما أولى وأبلى وله الحمد في الآخرة والأولى والله لا يشغلني شيء عن شكره وذكره في

ليل ولا نهار ولا سرّ ولا علانية ولولا أن لأهلي عليّ حقّا ولسائر الناس من خاصّهم وعامّهم علـيّ حقوقا لا يسعني إلاَّ القيام بها حسب الوسع والطاقة حتى أؤديها إليهم لرميت بطرفي إلـى الـسماء وبقلبي إلى الله ثم لم أرددهما حتى يقضي الله على نفسي وهو خير الحاكمين.. وبكى عليه السلام وبكى عبد الملك " الخبر..

ونحن أغمضنا عن ترجمة الحديث الشريف كما صرفنا النظر عن بعض مراتب الإخلاص الذي لا يناسب المقام ووضع الرسالة لئلا يوجب طول الكلام وملالة الخاطر.

الباب الرابع

في ذكر نبذة من آداب القراءة وقطعة من أسرارها

وفيه مصباحان

المصباح الأول

في آداب قراءة القرآن الشريف المطلقة

وفيه ستة فصول

الفصل الأول

في آداب القراءة

من أحد الآداب المهمة لقراءة الكتاب الإلهي الذي يشترك فيه العارف والعامّي وتحصل منه النتائج الحسنة ويوجب نورانية القلب والحياة الباطنية التعظيم وهو موقوف على فهم عظمته ونبالته وجلالته وكبريائه، وهذا المعنى وان كان بحسب الحقيقة خارجا عن نطاق البيان وزائدا على طاقة البشر لأن فهم عظمة كل شيء بفهم حقيقة وحقيقة القرآن الشريف قبل تنزله إلى المنازل الخلقية وتطوّره بالأطوار الفعلية من الشؤون الذاتية والحقائق العلمية للحضرة الواحدية وهو حقيقة الكلام النفسي الذي هو مقارعة ذاتية في الحضرة الأسمائية، وهذه الحقيقة لا تحصل لأحد لا بالعلوم الرسمية ولا بالمعارف القلبية ولا بالمكاشفة الغيبية إلاّ بالمكاشفة التامة الإلهية لذات النبي الخاتم المباركة صلى الله عليه وآله في محفل انس وقاب قوسين بل في خلوة سرّ مقام أو أدنى، وأيدي آمال العائلة البشرية قاصرة عنها إلاّ الخلّص من أولياء الله الذين اشتركوا في روحانية تلك الذات المقدسة بحسب الأنوار المعنوية والحقائق الإلهية وفنوا بواسطة التبعية التامة فيه فإنهم يتلقون علوم

المكاشفة بالوراثة منه صلى الله عليه وآله، وتنعكس حقيقة القرآن في قلوبهم بنفس النورانية والكمال التي تجلّت لقلبه المبارك من دون التنزّل إلى المنازل والتطور بالأطوار وهو القرآن من دون تحريف وتغيير، ومن كتّاب الوحي الإلهي من يقدر على تحمّل هذا القرآن هو النفس الشريفة لولي الله المطلق علي بن أبي طالب عليه السلام وأما سائر الخلق فلا يقدرون أخذ هذه الحقيقة إلاّ مع التنزّل عن مقام الغيب إلى موطن الشهادة والتطور بالأطوار الملكية والتكسي بكسوة الألفاظ والحروف الدنيوية، وهذا أحد معاني التحريف الذي وقع في جميع الكتاب الإلهي والقرآن الشريف وجميع الآيات الشريفة قد جعلت في تناول يد البشرية بالتحريف بل بالتحريفات الكثيرة على حسب المنازل والمراحل التي طواها من حضرة الأسماء إلى أخيرة عوالم الشهادة، وعدد مراتب التحريف مطابق لعدد مراتب بطون القرآن طباق النعل بالنعل إلاّ أن التحريف عبارة عن التنزّل عن الغيب المطلق إلى الشهادة المطلقة على حسب مراتب العوالم، والبطون عبارة عن الرجوع من الشهادة المطلقة إلى الغيب المطلق، فمبدأ التحريف ومبدأ البطون متعاكسان والسالك إلى الله إذا وصل إلى أي مرتبة من مراتب البطون قد تخلص من مرتبة من مراتب التحريف إلى أن يصل البطون المطلقة وهي البطن السابع على حسب المراتب الكلية يتخلص من التحريف المطلق فعلى هذا يمكن أن يكون القرآن الشريف محرّفا لشخص بجميع أنواع التحريف ولشخص آخر ببعض مراتبه ولا يكون لشخص محرّفا أصلا ويمكن أن يكون محرّفا لشخص في حال وله غير محرف في حال آخر ويكون محرّفا ببعض أنواع التحريف في حال ثالث. ففهم عظمة القرآن خارج عن طوق الإدراك كما علمت ولكن الإشارة الإجمالية إلى عظمة هذا الكتاب المتنزل والمتناول لجميع البشر موجبة لفوائد كثيرة.

اعلم أيها العزيز أن عظمة كل كلام وكل كتاب إمّا بعظمة متكلمه وكاتبه وإمّا بعظمة المرسل إليه وحامله، وإمّا بعظمة حافظه وحارسه، وإمّا بعظمة شارحه ومبيّنه، وإمّا بعظمة وقت إرساله وكيفية إرساله. وبعض هذه الأمور دخيل في العظمة ذاتا وجوهرا وبعضها عرضا وبالواسطة وبعضها كاشف عن العظمة وجميع هذه الأمور التي ذكرناها موجودة في هذه الصحيفة النورانية بالوجه الأعلى والأوفى بل هي من مختصاته بحيث أن الكتاب الآخر إما إلاّ يشترك معه في شيء منها أصلا، أو لا يشترك معه في جميع المراتب.

أما عظمة متكلمه ومنشئه وصاحبه فهو العظيم المطلق الذي جميع أنواع العظمة المتصورة في الملك والملكوت وجميع أنواع القدرة النازلة في الغيب والشهادة رشحة من تجليات عظمة فعل تلك الذات المقدسة ولا يمكن أن يتجلى الحق تعالى بالعظمة لأحد وإنما يتجلى بها من وراء

آلاف الحجب والسرادقات، كما في الحديث: " إن لله تبارك وتعالى سبعين ألف حجاب من نـور وظلمة لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه دونه ".

وعند أهل المعرفة قد صدر هذا الكتاب الشريف من الحق تعالى بمبدئّية جميـع الـشؤون الذاتيـة والصفاتية والفعلية، وبجميع التجليات الجمالية والجلالية، وليست لـسائر الكتـب الـسماوية هـذه المرتبة والمنزلة. وأما عظمته بواسطة محتوياته ومقاصده ومطالبه فيستدعي ذلك عقد فـصل علـى حدة، بل فصول وأبواب ورسالة مستقلة وكتاب مستقل حتى يسلك نبذة منهـا فـي سـلك البيـان والتحرير، ونحن نشير بطريق الإجمال بفصل مستقل إلى كلياته، وفي ذلك الفصل نشير إلى عظمته من حيث النتائج والثمرات إن شاء الله.

وأما عظمة رسول الوحي وواسطة الإيصال فهو جبرائيل الأمين والروح الأعظم الذي يتصل بـذاك الروح الأعظم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم بعد خروجه عن الجلباب البشري وتوجيـه شطر قلبه إلى حضرة الجبروت وهو أحد أركان دار التحقق الأربعة بل هو أعظم أركانها وأشـرف أنواعها لان تلك الذات النورانية ملك موكل للعلم والحكمة وصاحب الأرزاق المعنويـة والطاعـة الروحانية، ويستفاد من كتاب الله والأحاديث الشريفة تعظيم جبرائيل وتقديمه على سائر الملائكة.

وأما عظمة المرسل إليه ومتحمّـله، فهو القلب التقي النقي الأحمدي الأحدي الجمعـي المحمـدي الذي تجلى له الحق تعالى بجميع الشؤون الذاتية والصفاتية والأسمائية والأفعاليـة وهـو صـاحب النبوة الختمية والولاية المطلقة وهو أكرم البرية وأعظم الخليقة وخلاصة الكون وجوهرة الوجود وعصارة دار التحقق واللبنة الأخيرة وصاحب البرزخية الكبرى و الخلافة العظمى.

وأما حافظه وحارسه فهو ذات الحق جلّ جلاله، كما قال في الآية الكريمة المباركـة: ﴿إِنَّـا نَحْـنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ـ ٩). وأما شارحه ومبينه فالذوات المطهرة المعصومون من رسول الله إلى حجّة العصر عجّل الله فرجه الذين هم مفاتيح الوجود ومخـازن الكبريـاء ومعـادن الحكمة والوحي وأصول المعارف والعوارف وأصحاب مقام الجمع والتفصيل.

وأمّا وقت الوحي فليلة القدر أعظم الليالي وخير من ألف شهر وأنور الأزمنة، وهـي فـي الحقيقـة وقت وصول الوليّ المطلق والرسول الخاتم صلى الله عليه وآله.

وأما كيفية الوحي وتشرقاته فهي خارجة عن نطاق البيان في هذا المختـصر وتحتـاج إلـى فـصل مستقل قد صرفت النظر عنه لطوله.

الفصل الثاني

في بيان مقاصد الكتاب الشريف الإلهي

ومطالبه ومشتملاته بطريق الإجمال والإشارة.

اعلم أن هذا الكتاب الشريف كما صرّح هو به كتاب الهداية وهادي سلوك الإنسانية ومربيّ النفوس وشافي الأمراض القلبية ومنير طريق السير إلى الله.

وبالجملة، فإن الله تبارك وتعالى لسعة رحمته إلى عبادة أنزل هذا الكتاب الشريف من مقام قربه وقدسه وتنزل به على حسب تناسب العوالم حتى وصل إلى هذا العالم الظلماني وسجن الطبيعة وصار على كسوة الألفاظ وصورة الحروف لاستخلاص المسجونين في سجن الدنيا المظلم وخلاص المغلولين بأغلال الآمال والأماني، وإيصالهم من حضيض النفس والضعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوة الإنسانية، ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملكوتيين بل الوصول إلى مقام القرب وحصول مرتبة لقاء الله التي هي أعظم مقاصد أهل الله ومطالبهم، فمن هذه الجهة إن هذا الكتاب هو كتاب الدعوة إلى الحق والسعادة. وبيان كيفية الوصول إلى هذا المقام ومندرجاته إجمالا ما له دخل في هذا السير والسلوك الإلهي أو عين السالك والمسافر إلى الله، وعلى نحو كلّي أحد مقاصده المهمّة الدعوة إلى معرفة الله وبيان المعارف الإلهية من الشؤون الذاتية والأسمائية والصفاتية والأفعالية وأكثرها في هذا المقصود هو توحيد الذات والأسماء والأفعال، قد ذكر مستقصي بعضه بالصراحة وبعضه بالإشارة.

وليعلم أن المعارف من معرفة الذات إلى معرفة الأفعال قد ذكرت في هذا الكتاب الجامع الإلهي على نحو تدركه كل طبقة على قدر استعدادها، كما أن علماء الظاهر والمحدثين والفقهاء رضوان الله عليهم يبيّنون ويفسّرون آيات التوحيد الشريفة وخصوصا توحيد على نحو يخالف ويباين ما يفسّرها أهل المعرفة وعلماء الباطن.

والكاتب يرى كلا التفسيرين صحيحا في محله لان القرآن هو شفاء الأمراض الباطنية ويعالج كل مريض على نحو خاص، كما أن كريمة ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الحديد ـ ٣). وكريمة ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. (النور ـ ٣٥) وكريمة ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَـهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ (الزخرف ـ ٨٤). وكريمة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ (الحديد ـ ٤). وكريمة ﴿أَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾ (البقرة ـ ١١٥). إلى غير ذلك في توحيد الذات والآيات الكريمة في آخر سورة الحشر وغيرها في توحيد الصفات. وكريمة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾ (الأنفال ـ١٧) .

وكريمة ﴿الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة ـ ١). وكريمة ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. في توحيد الأفعال التي تدل بعضها بوجه دقيق وبعضها بوجه أدقّ عرفاني، شفاء للأمراض عند كل طبقة من طبقات علماء الظاهر والباطن على نحو. وبعض الآيات الشريفة مثل آيات أول الحديد والسورة المباركة التوحيد التي نزلت للمتعمقين، في آخر الزمان حسب الحديث الشريف في الكافي، ففي نفس الحال لأهل الظاهر منها نصيب كاف، وهذا من معجزات هذا الكتاب الشريف ومن جامعيته.

ومن مقاصده الأُخر ومطالبه: الدعوة إلى تهذيب النفوس وتطهير البواطن من أرجاس الطبيعة، وتحصيل السعادة.

وبالجملة، كيفية السير والسلوك إلى الله. وهذا المطلب منقسم إلى شعبتين مهمتين.

إحداهما: التقوى بجميع مراتبها المندرجة فيها التقوى عن غير الحق والإعراض المطلق عما سوى الله.

وثانيهما: الإيمان بتمام المراتب والشؤون المندرج فيه الإقبال إلى الحق، والرجوع والإنابة إلى ذاته المقدسة، وهذا من المقاصد المهمة لهذا الكتاب الشريف، وأكثر مطالبه ترجع إلى هذا المقصد إما بلا واسطة أو مع الواسطة.

ومن مقاصد هذا الصحيفة الإلهية: قصص الأنبياء والأولياء والحكماء وكيفية تربية الحق إيّاهم، وتربيتهم الخلق. فإن في تلك القصص فوائد لا تحصى وتعليمات كثيرة. ومن المعارف الإلهية والتعليمات وأنواع التربية الربوبية المذكورة والمرموزة فيها ما يحيّر العقل.

فيا سبحان الله، وله الحمد والمنةّ، ففي قصة خلق آدم عليه السلام والأمر بسجود الملائكة وتعليمه الأسماء وقضايا إبليس وآدم التي كرّر ذكرها في كتاب الله في التعليم والتربية والمعارف والمعالم لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ما يحيّر الإنسان. ولأجل هذه النكتة كرّرت القصص القرآنية كقصة آدم وموسى وإبراهيم وسائر الأنبياء فليس هذا الكتاب كتاب قصة وتاريخ بل هو كتاب السير والسلوك إلى الله، وكتاب التوحيد والمعارف والمواعظ والحكم. والمطلوب في هذه الأمور هو التكرار كي يؤثّر في القلوب القاسية وتأخذ منها موعظته. وبعبارة أخرى إن من يريد أن يربّي ويعلّم وينذر ويبشر فلا بدّ له أن يرزق مقصده بالعبارات المختلفة والبيانات المتشتتة، فتارة في ضمن قصة وحكاية وأخرى في ضمن تاريخ ونقل، وحينا بصراحة اللهجة، وحينا بالكناية والأمثال والرموز حتى يتمكن كل من النفوس المختلفة والقلوب المتشتتة من الاستفادة منها، وحيث أن هذا الكتاب الشريف لأجل سعادة جميع الطبقات وسلسلة البشر قاطبة، ويختلف هذا النوع الإنساني في حالات القلوب والعادات والأخلاق والأزمنة والأمكنة، ولا يمكن أن تكون

دعوته على نحو واحد، فربّ نفوس لا تكون حاضرة لأخذ التعاليم بصراحة اللهجة وإلقاء أصل المطلوب بنحو ساذج ولا تتأثر بهذا النحو فلا بد أن تكون دعوة هؤلاء وفق كيفية تفكيرهم فيفهم إيّاهم المقصد، ورب نفوس لا شغل لها بالقصص والحكايات والتواريخ وإنما علاقتها بلبّ المطالب ولباب المقاصد فلا يوزن هؤلاء مع الطائفة الأولى بميزان واحد، وربّ قلوب تتناسب مع التخويف والإنذار وقلوب لها الإلفة مع الوعد والتبشير، فلهذه الجهة دعا الناس هذا الكتاب الشريف بالأقسام المختلفة والفنون المتعددة والطرق المتشتتة، والتكرار لمثل هذا الكتاب لازم وحتمي، والدعوة والموعظة من دون تكرار وتفنّن خارجة عن حد البلاغة، وما يتوقّع منها وهو التأثير في النفوس لا يحصل من دون تكرار ومع الوصف.

ففي هذا الكتاب الشريف حلاوة اتفاق القضايا على نحو لا يوجب تكرارها الكسالة في الإنسان بل هو في كل دفعة يكرّر أصل المطلب، يذكر فيه خصوصيات ولواحق ليست في غيره، بل في كل مرّة يركز النظر إلى نكتة مهمة عرفانية أو أخلاقية ويطيف المطلب حولها وبيان هذا المطلب يستلزم استقصاءات كاملة في القصص القرآنية، ولا يسع هذا المختصر، وفي أمل هذا الضعيف بلا مؤونة أن أؤلف بالتوفيق الإلهي وبالمقدار الميسور كتابا في خصوص القصص القرآنية وحلّ رموزها وكيفية التعليم والتربية فيها، وإن كان القيام بهذا الأمر من مثل الكاتب أمل لا ينال، وخيال باطل في الغاية.

وبالجملة، ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام وكيفية سيرهم وسلوكهم وكيفية تربيتهم عباد الله ومواعظهم ومجادلاتهم الحسنة من أعظم أبواب المعارف والحكم، وأعلى أبواب السعادة والتعاليم قد فتحها الحق تعالى وجلّ مجده على عباده، فكما أن لأرباب المعرفة وأصحاب السلوك منها حظا وافرا ونصيبا كافيا كذلك لسواهم أيضا نصيب واف وسهم غير محدود. فمثلا أهل المعرفة يدركون من الكريمة الشريفة ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ (الأنعام ـ ٧٦) إلى آخر الآيات كيفية سلوك إبراهيم عليه السلام، وسيره المعنوي، ويعلمون طريق السلوك إلى الله والسير إلى جنابة وحقيقة سير الأنفس والسلوك المعنوي من منتهى ظلمة الطبيعة التي عبّر عنها في ذلك المسلك ب (جنَّ عليه الليل) إلى إلقاء مطلق الإنّيّة والأنانية وترك النفسانية وعبادة النفس والوصول إلى مقام القدس والدخول في محفل الأنس. ووجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض. إلى آخر إشارة إلى ذلك في هذا المسلك، والسائرون يدركون منها السير الآفاقي وكيفية تربية خليل الرحمن أمّته وتعليمه إيّاهم. وعلى هذا المنوال سائر القصص والحكايات، مثل قصة آدم وإبراهيم وموسى ويوسف وعيسى وعلامات موسى مع الخضر، فإن استفادات أهل المعارف والرياضات والمجاهدات مع غيرهم متفاوتة.

ويدخل في هذا القسم، أو هو مقصد مستقل الحكم والمواعظ لذات الحق المقدسة حيث أنه بنفسه دعا العباد بلسان قدرته فيما يناسب الدعوة، إما إلى المعارف الإلهية والتوحيد والتنزيه كالسورة المباركة التوحيد أو أواخر سورة الحشر وأوائل الحديد وسائر موارد الكتاب الشريف الإلهي، ولأصحاب القلوب والسوابق الحسنى من هذه القسمة حظوظ لا تحصى. فمثلا أصحاب المعارف يستفيدون من الكريمة المقدسة ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ﴾ (النساء ـ ١٠٠). قرب النافلة والفريضة، وفي نفس الحال يستفيد السائرون الخروج بالبدن والهجرة مثلا إلى مكة أو إلى المدينة أو أن الحق تعالى دعا إلى تهذيب النفوس والرياضات الباطنية كالكريمة الشريفة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس ٩ـ ١٠) إلى غير ذلك.. أو الدعوة إلى العمل الصالح كما هو معلوم، أو التحذير عن مقابلات كل من ذلك ويدخل في هذا القسم أيضا الحكم اللقمانية وحكم سائر الأجلّة والمؤمنين المذكورة في الموارد المختلفة في هذه الصحيفة الإلهية كقضايا أصحاب الكهف.

ومن مطالب هذه الصحيفة النورانية أحوال الكفار والجاحدين والمخالفين للحق والحقيقة والمعاندين للأنبياء والأولياء عليهم السلام وبيان كيفية عواقب أمورهم وكيفية بوارهم وهلاكهم كقضايا فرعون وقارون ونمرود وشدّاد وأصحاب الفيل وغيرهم من الكفرة والفجرة، ففي كل واحدة منها مواعظ وحكم بل معارف لأهله، وداخل في هذه القسمة أو أنها قسمة مستقلة قضايا غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله فإن فيها أيضا مطالب شريفة مذكورة، منها كيفية مجاهدات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لإيقاظ المسلمين من نوم الغفلة وبعثهم للمجاهدة في سبيل الله وتنفيذ كلمة الحق وإماتة الباطل.

ومن مطالب القرآن الشريف بيان قوانين ظاهر الشريعة والآداب والسنن الإلهية، وقد ذكرت كلّيّاتها ومهماتها في هذا الكتاب النوراني والعمدة في هذا القسم الدعوة إلى أصول المطالب وضوابطها مثل باب الصلاة والزكاة والخمس والحج والصوم والجهاد والنكاح والإرث والقصاص والحدود والتجارة وأمثالها ، وحيث أن هذا القسم علم ظاهر الشريعة وعامّ المنفعة ومجعول لجميع الطبقات من حيث تعمير الدنيا والآخرة، وتستفيد كل طبقات الناس منه بمقداره. فالدعوة إليها كثيرة لهذه الجهة، وفي الأحاديث الشريفة والأخبار أيضا خصوصياتها وتفاصيلها إلى حدّ وافر وتصانيف علماء الشريعة في هذه القسمة أكثر وأعلى من سائر القسمات.

ومن مطالب القرآن الشريف: أحوال المعاد والبراهين لإثباته وكيفية العذاب والعقاب والجزاء والثواب وتفاصيل الجنة والنار والتعذيب والتنعيم. وقد ذكرت في هذه القسمة حالات أهل السعادة ودرجاتهم من أهل المعرفة والمقرّبين ومن أهل الرياضة والسالكين ومن أهل العبادة

والناسكين. وكذلك حالات أهل الشقاوة ودرجاتهم من الكفار والمحجوبين والمنافقين والجاحدين وأهل المعصية والفاسقين. ولكن ما كان أكثر فائدة لحال العامة كان أكثر ذكرا وبـصراحة اللهجـة وما كان مفيدا لطبقة خاصة فقد ذكر بطريق الرمز والإشارة مثل رضوان الله الأكبر، وآيات لقـاء الله لتلك الطائفة، ومثل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين ـ ١٥) للطائفـة الأخـرى. وقد ذكر هذا القسم أي في قسم تفصيل المعاد والرجوع إلى الله معارف لا تحصى وأسرار صـعبة مستصعبة لا يمكن الاطّلاع على كيفيّتها إلاَّ بالسلوك البرهاني أو النور العرفاني.

ومن مطالب هذه الصحيفة الإلهية كيفية الاحتجاجات والبراهين التي أقامتها الذات المقدسة الحـق تعالى بنفسه لإثبات المطالب الحقة والمعارف الإلهية مثل الاحتجاج على إثبات الحـق والتوحيـد والتنزيه والعلم والقدرة وسائر الأوصاف الكمالية، وقد توجد في هذه القسمة براهين دقيقة يستفيد أهل المعرفة منها استفادة كاملة مثل: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ (آل عمران ـ ١٨). وقد توجـد براهين يستفيد الحكماء والعلماء منها على نحو ويستفيد أهل الظاهر وعامة الناس على نحو آخـر، ككريمة ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء ـ٢٢) ومثل كريمة ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ (المؤمنون ـ ٩١). ومثل آيات أول سورة الحديد والـسورة المباركـة التوحيـد وغيرهـا، والاحتجاج على إثبات ملائكة الله والأنبياء العظام الموجودة في موارد مختلفة مـن هـذا الكتـاب الشريف.

هذه حال احتجاجات نفس الذات المقدسة وإما أن الحق تعالى نقل براهين الأنبياء والعلماء علـى إثبات المعارف مثل احتجاجات خليل الرحمن سلام الله عليه وغيره.

هذه مهمّات مطالب هذا الكتـاب.. وإلا فالمطالـب المتفرقـة الأخـرى أيـضا موجـودة ويـستلزم إحصاؤها وقتا كافيا.

الفصل الثالث

في بيان طريق الاستفادة من القرآن الكريم

فإذا علمت الآن مقاصد هذه الصحيفة الإلهية ومطالبها فلا بد لك أن تلفت النظر إلى مطلب مهم يكشف لك بالتوجّه إليه طريق الاستفادة من الكتاب الشريف، وتنفتح على قلبك أبواب المعارف والحكم وهو أن يكون نظرك إلى الكتاب الشريف الإلهي نظر التعليم، وتراه كتاب التعليم والإفادة وترى نفسك موظفة على التعلّم والإفادة والاستفادة، وليس مقصودنا من التعليم والتعلم والإفادة والاستفادة أن تتعلم منه الجهات الأدبية والنحو والصرف أو تأخذ منه الفصاحة والبلاغة والنكات البيانية والبديعية، أو تنظر في قصصه وحكاياته بالنظر التاريخي والاطّلاع على الأمم السالفة، فانه ليس شيء من هذه داخلا في مقاصد القرآن، وهو بعيد عن المنظور الأصلي للكتاب الإلهي بمراحل والذي أوجب أن تكون استفادتنا من هذا الكتاب العظيم بأقل من القليل هو هذا المعنى. فأما إلاَّ ننظر إليه نظر التعليم والتعلّم كما هو الغالب علينا، ونقرأ القرآن للثواب والأجر فقط ولهذا لا نعتني بغير جهة تجويده، ونريد أن نقرأه صحيحا حتى يعطي لنا الثواب ونحن واقفون في هذا الحد وقانعون بهذا الأمر، ولذا نقرأ القرآن أربعين سنة ولا تحصل الاستفادة منه بوجه إلاَّ الأجر وثواب القراءة. وأما أن نشتغل إن كان نظرنا التعليم والتعلّم بالنكات البديعيّة والبيانية ووجوه إعجازه، وأعلى من هذا بقليل فإلى الجهات التاريخية وسبب نزول الآيات وأوقات النزول، وكون الآيات والسور مكية أو مدنية، واختلاف القراءات واختلاف المفسرين من العامة والخاصة وسائر الأمور العرضية الخارجة عن المقصد بحيث تكون هذه الأمور نفسها موجبة للاحتجاب عن القرآن والغفلة عن الذكر الإلهي بل إن مفسّرينا العظام أيضا صرفوا عمدة همّهم في إحدى هذه الجهات أو أكثر ولم يفتحوا باب التعليمات على الناس. وبعقيدتي أنا الكاتب لم يُكتب إلى الآن التفسير لكتاب الله لان معنى التفسير على نحو كلّي هو أن يكون شارحا لمقاصد الكتاب المفسّر ويكون مهمّ النظر إلى بيان منظور صاحب الكتاب. فهذا الكتاب الشريف الذي هو بشهادة من الله تعالى كتاب الهداية والتعليم ونور طريق سلوك الإنسانية، يلزم للمفسّر أن يعلّم للمتعلم في كل قصّة من قصصه بل في كل آية من آياته جهة الاهتداء إلى عالم الغيب وحيثية الهداية إلى طريق السعادة، وسلوك طريق المعرفة والإنسانية.

فالمفسر إذا فهّم لنا المقصد من النزول فهو مفسّر سبب النزول كما هو في التفاسير، ففي قصة آدم وحواء أو قضاياهما مع إبليس من ابتداء خلقهما إلى ورودهما في الأرض، وقد ذكرها الحق تعالى

مكررة في كتابه. كم من المعارف والمواعظ مذكورة فيها ومرموز إليها. وكـم فيهـا مـن معايـب النفس وكمالاتها ومعارفها وأخلاق إبليس موجودة فيها نتعرف عليها ونحن عنه غافلون.

وبالجملة، كتاب الله هو كتاب المعرفة والأخلاق والدعوة إلى السعادة والكمال، فكتـاب التفسير أيضا لا بد وأن يكون كتابا عرفانيا وأخلاقيا ومبيّنا للجهات العرفانيـة والأخلاقيـة وسـائر جهـات الدعوة إلى السعادة التي في القرآن. فالمفسّر الذي يغفل عن هذه الجهة أو يصرف عنها النظر أو لا يهتم بها فقد غفل عن مقصود القرآن والمنظور الأصلي لإنزال الكتب وإرسال الرسـل. وهـذا هـو الخطأ الذي حرم الملّة الإسلامية منذ قرون من الاستفادة من القرآن الشريف وسدّ طريـق الهدايـة على الناس، فلا بد لنا أن نأخذ المقصود من تنزيل هذا الكتاب من نفس هذا الكتاب مع قطع النظر عن الجهات العقلية البرهانية التي تفهمنا المقصد، فمصنف الكتاب أعرَف بمقصده. فالآن إذا نظرنا إلى ما قال هذا المصنف فيما يرجع إلى شؤون القرآن، نرى أنه يقول ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْـبَ فِيـهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ـ ٢).

فعرّف هذا الكتاب كتاب الهداية، نرى أنه في سورة قصيرة كرّر مرّات عديدة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ للذِّكْر فَهَلْ من مُّدَّكر﴾ (القمر ـ ١٧). نرى أنه يقول ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَّاس مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل ـ ٤٤). ونرى أنه يقول ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاته وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص ـ ٢٩)، إلى غير ذلك من الآيات الشريفة التي يطول ذكرها.

وبالجملة، ليس مقصودنا من هذا البيان الانتقاد للتفاسير فإن كـل واحـد مـن المفسـرين تحمّـل المشاق الكثيرة والأتعاب التي لا نهاية لها حتى صنف كتابا شريفا، فلله درّهم وعلـى الله أجـرهم، بل مقصودنا هو أنه لا بد وأن يفتح للناس طريق الاستفادة من هذا الكتـاب الـشريف الـذي هـو الكتاب الوحيد في السلوك إلى الله والكتاب الأحدي في تهذيب النفوس والآداب والسنن الإلهية، وأعظم وسيلة للربط بين الخالق والمخلوق والعروة الوثقى والحبل المتين للتمـسّك بعـزّ الربوبيـة فعلى العلماء والمفسرين أن يكتبوا التفاسير فارسية وعربية وليكن مقصودهم وليكن مقصودهم بيان التعاليم والمقررات العرفانية والأخلاقية وبيان كيفية ربط المخلوق بالخالق، وبيان الهجـرة مـن دار الغرور إلى دار السرور والخلود على نحو ما أودعت في هذا الكتـاب الـشريف، فـصاحب هـذا الكتاب ليس هو السكاكي (هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بـن محمـد الخـوارزمي المعتزلـي الحنفي الملقب سراج الدين السكاكي صاحب كتاب مفتاح العلوم الذي لخّص القسم الثالث منـه خطيب دمشق وشرحه التفتازاني بالمطوّل والمختصر توفي سنة ٧٢٦ (خكو) والشيخ (والشيخ هـو أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي عماد الشيعة ورافع أعلام الشريعة شيخ الطائفة علـى الإطلاق ورئيسها الذي تلوى إليه الأعناق صنّف في جميع علوم الإسلام وكان القـدوة فـي ذلـك

والإمام تتلمذ على الشيخ المفيد والسيد المرتضى وكان فضلاء تلامذتـه الـذين كـانوا مجتهـدين وأهل الاقتداء يزيدون على ثلاثمئـة من الخاصـة والعامة ولـد (رحمه الله) في شهر رمضان سـنة ٣٨٥ بعد وفاة السيد الرضى بسنتين وكان ببغداد ثم هاجر إلى مشهد أمير المـؤمنين عليـه الـسلام خوفا من الفتنة التي تجدّدت ببغداد وأحرقت كتبه وكرسي كان يجلس عليه للكلام فـيكلم عليـه الخاص والعام وكان ذلك الكرسي ممّا أعطته الخلفاء وكان ذلك لوحيد العصر فكـان مقامـه فـي بغداد مع الشيخ المفيد (رحمه الله) نحوا من خمس سنين ومع السيد المرتـضى نحـوا مـن ثمـان وعشرين سنة وبقي بعد السيد أربعا وعشرين سنة، اثنتا عشرة سنة منها في بغداد ثـم انتقـل إلـى النجف الأشرف وبقي هناك إلى أن توفي ليلة الاثنين الثاني والعشرين من شهر المحرم سـنة ٤٦٠ (تس) وكان مدة عمره الشريف خمسا وسبعين سنة ودفن في داره وقبره الآن معروف في المسجد الموسوم بالمسجد الطوسي.

وأمّا مصنفاته الشريفة في علوم الإسلام فهي لشهرتها تغنينا عن إيرادها والتفسير الذي أشـار إليـه الإمام الخميني هو البيان الجامع لعلوم القرآن وهو كتاب جليل عديم النظير في التفاسـير وشـيخنا الطبرسي في تفسيره من بحره يغترف وفي صدر كتابه بـذلك يعتـرف فعليـه رضـوان الله الخبيـر اللطيف) فيكون مقصده جهات البلاغة والفصاحة وليس هو سيبويه (وسيبويه هو أبو الحسن أو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي البيضاوي العراقي البصري النحوي المشتهر كلامه وكتابه في الآفاق الذي قال في حقه العلامة الطباطبائي بحر العلوم رحمه الله تعالى ان المتقدمين والمتأخرين وجميع الناس في النحو عيال عليه أخذ عن الخليل بن أحمد النحوي المعروف الذي ذكره الإمـام في المتن ويونس والأخفش وعيسى بن عمر ولكن جميع حكاياته عن الخليل وقد كثرت كلمات علماء النحو في مدح كتابه المسمى الكتاب ولهم عليه شروح وتعليقات وردود نشأت من اعتنائهم واشتغالهم به وقصة وروده بغداد ومناظرته مع الكسائي معروفة قالوا توفى حدود سنة ١٨٠ (قف) وقبره في شيراز، وقال ابن شحنة الحنفي في روضة المناظر قال أبو الفـرج ابـن الجـوزي تـوفي سيبويه سنة ١٩٤ (قصد) وعمره اثنان وثلاثون عاما بمدينة ساوه وذكر خطيب بغداد عن ابن دريد أن سيبويه توفي بشيراز بمدينة ساوه وقبره بها. (انتهي).

وكان شابا نظيفا جميلا ابيض مشربا بحمرة كأن خدوده لون التفاح ولذلك يقال سيبويه لأن التفاح بالفارسية سيب أو لأنه كان يعتاد شم التفاح أو كان يشم منه رائحته أقول وعلى الوجهين الأخيرين فالأنسب أن يكون اسمه سيبويه بضم الباء وسكون الواو وفتح الياء) والخليل حتى يكون منظـوره جهات النحو والصرف، وليس المسعودي (شيخ المؤرخين وعمادهم أبو الحسن علي بن الحـسين

بن علي المسعودي الهذلي العالم الجليل الألمعي ذكره العلامة وقال له كتاب في الإمامة وغيرها منها كتاب إثبات الوصية لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) وهو صاحب مروج الذهب (انتهى).
حكى أنه نشأ في بغداد وساح في البلاد فطاف فارس وكرمان سنة ٣٠٩ وقصد الهند إلى ملتان وعطف إلى كنباية فسرنديب ثم ركب البحر إلى بلاد الصين وطاف البحر الهندي وعاد إلى عمّان ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤ إلى ما وراء أذربيجان وجرجان ثم إلى الشام وفلسطين وكان يسكن مصر تارة والشام أخرى ومن سنة ٣٣٦ إلى ٣٤٤ أقام بالفسطاط له كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان في ثلاثين مجلّدا لا يوجد منه إلاّ جزء واحد وله أيضا ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور وكتاب في أخبار الأمم من العرب والعجم وكتاب المقالات في أصول الديانات وكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر وقيل انه بقي إلى سنة ٣٤٥ (شمه)) وابن خلكان (ابن خلّكان هو أبو العباس احمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان الأربلي البرمكي الشافعي صاحب كتاب التاريخ المشهور الموسوم بوفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان الذي تعرض فيه لذكر المشاهير من التابعين ومن بعدهم إلى زمان نفسه يشتمل على ٨٦٤ ترجمة ولم يذكر فيه الصحابة وقد ذيّله صلاح الدين الصفدي بمجلّدات تدارك فيها ما قد فاته من الوفيات سمّاها الوافي بالوفيات قيل في وجه تسمية جدّ بن خلكان بخلكان انه كان يوما يفاخر أقرانه ويفتخر بآبائه من آل برمك فقيل له خلّ كان أبي كذا ودع جدّي كذا ونسبي كذا وحدّثنا عمّا يكون في نفسك الآن كما قال الشاعر:

ليس الفتى من يقول كان أبي إن الفتى من يقول ها أنا ذا

فعلى هذا يكون خلّكان بفتح الخاء وتشديد الّلام المكسورة) حتى يبحث حول تاريخ العالم. هذا الكتاب ليس كعصا موسى ويده البيضاء أو نفس عيسى الذي يحيي الموتى فيكون للإعجاز فقط وللدّلالة على صدق النبي الأكرم بل هذه الصحيفة الإلهية كتاب إحياء القلوب بالحياة الأبدية العلمية والمعارف الإلهية، هذا كتاب الله ويدعو إلى الشؤون الإلهية جلّ وعلا. فالمفسّر لابد وأن يعلم الشؤون الإلهية ويرجع الناس إلى تفسيره لتعلّم الشؤون الإلهية حتى تتحصل الاستفادة منه ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ (الإسراء ـ ٨٢).
فأي خسران أعظم من أن نقرأ الكتاب الإلهي منذ ثلاثين أو أربعين سنة ونراجع التفاسير ونحرم مقاصده، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف ـ ٢٣).

الفصل الرابع

في بيان رفع الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن

فإذا علمت الآن عظمة كتاب الله من جميع الجهات المقتضية للعظمة وانفتح طريق استفادة المطالب منه فاللازم على المتعلم والمستفيد من كتاب الله ان يجزي أدبا آخر من الآداب المهمة حتى تحصل الاستفادة وهو رفع موانع الاستفادة، ونحن نعبّر عنها بالحجب بين المستفيد والقرآن، وهذه الحجب كثيرة نشير إلى بعضها:

من الحجب العظيمة حجاب رؤية النفس، فيرى المتعلم نفسه بواسطة هذا الحجاب مستغنية أو غير محتاجة للاستفادة وهذا من المكائد الأصلية المهمة للشيطان حيث أنه يزيّن للإنسان دائما الكمالات الموهومة ويرضي الإنسان ويقنعه بما فيه ويسقط من عينه كل شيء سوى ما عنده، مثلا يقنّع أهل التجويد بذاك العلم الجزئي ويزيّنه في أعينهم إلى حدّ يسقط سائر العلوم عن أعينهم ويطبّق في نظرهم حملة القرآن عليهم ويحرمهم من فهم الكتاب النوراني الإلهي والاستفادة منه، ويرضي أصحاب الأدب بتلك الصورة بلا لبّ ويمثّل جميع شؤون القرآن فيما هو عندهم، ويشغل أهل التفاسير المتعارفة بوجوه القراءات والآراء المختلفة لأرباب اللغة ووقت النزول وشأن النزول وكون الآيات مكية أو مدنية وتعدادها وتعداد الحروف وأمثال تلك الأمور. ويقنع أهل العلوم أيضا بعلم فنون الدلالات فقط ووجوه الاحتجاجات وأمثالها حتى أنه يحبس الفيلسوف والحكيم والعارف الاصطلاحي في الغليظ من حجاب الاصطلاحات والمفاهيم وأمثال ذلك. فعلى المستفيد أن يخرق جميع الحجب هذه وينظر إلى القرآن من ورائها، ولا يتوقف في شيء من هذه الحجب ولا يتأخر عن قافلة السالكين ولا يحرم من الدعوات الحلوة الإلهية، ويستفاد عدم الوقوف وعدم القناعة إلى حدّ معين من نفس القرآن.

والإشارة إلى هذا المعنى كثيرة في القصص القرآنية، فموسى الكليم مع ما له من المقام العظيم في النبوّة ما اقتنع بذلك المقام وما توقف في مقام علمه الشامخ، وبمجرد أن لاقى شخصا كاملا كالخضر قال له بكل تواضع وخضوع: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف ـ ٦٦) وصار ملازما لخدمته حتى أخذ منه العلوم التي لابد من أخذها.

وإبراهيم عليه السلام لم يقتنع بمقام شامخ الإيمان والعلم الخاص للأنبياء فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ (البقرة ـ ٢٦٠). فأراد أن يرتقي من الإيمان القلبي إلى مقام الاطمئنان الشهودي وأعظم من ذلك أن الله تبارك وتعالى يأمر نبيّه الخاتم وهو أعرف خلق الله بالكريمة الشريفة ﴿وَقُل

رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه ـ ١١٤). فهذه الأوامر في الكتاب الإلهـي ونقـل هـذه القـصص لان نتنبّـه ونستيقظ من نوم الغفلة.

ومن الحجب: حجاب الآراء الفاسدة والمسالك والمذاهب الباطلة، وهـذا قـد يكـون مـن سـوء استعداد الشخص والأغلب انه يوجد من التبعية والتقليد. وهذا من الحجب التي حجبتنا بـالأخص عن معارف القرآن مثلا إذا رسخ في قلوبنا اعتقاد بمجرّد الاستماع من الأب أو الأم أو مـن بعـض جهلة أهل المنبر تكون هذه العقيدة حاجبة بيننا وبين الآيات الشريفة الإلهية. فإن وردت آلاف من الآيات والروايات تخالف تلك العقيدة، فإمّا أن نصرفها عن ظاهرها أو أن إلاَّ ننظر فيها نظر الفهـم والأمثال لذلك فيما يرجع إلى العقائد والمعارف كثيرة ولكنّي أكفّ نفسي عن عدّها لأني أعلم بأن هذا الحجاب لا يخترق بكلام مثلي، ولكن أشير إلى واحد منها حيث أنه سهل المأخذ في الجملة. قد وردت الآيات الكثيرة الراجعة إلـى لقـاء الله ومعرفـة الله، ووردت روايـات كثيـرة فـي هـذا الموضوع مع كثير من الإشارات والكنايات والصراحات فـي الأدعيـة والمناجـاة للائمـة علـيهم السلام. فبمجرّد ما نشأت عقيدة في هذا الميدان من العوام وانتشرت بأن طريق معرفة الله مـسدود بالكلّية فيقيسون باب معرفة الله ومشاهدة جماله على باب التفكر في الذات على الوجه الممنوع بل الممتنع، فأمّـا أن يؤوّلـوا ويوجّهـوا تلـك الآيـات والروايـات، وكـذلك الإشـارات والكنايـات والصراحات في أدعية الأئمة ومناجاتهم، وأمّا إلاَّ يدخلوا في هذا الميدان أصلا ولا يعرّفوا أنفسهم بالمعارف التي هي قرّة العين للأنبياء والأولياء، فممّا يوجب الأسف الشديد لأهل الله أن بابـا مـن المعرفة الذي يمكن أن يقال أنه غاية بعثة الأنبياء ومنتهى مطلوب الأولياء قد سدّوه علـى النـاس بحيث يعدّ التفوّه به محض الكفر وصرف الزندقة إنّ هؤلاء يرون معارف الأنبياء والأولياء فـي مـا يختص بذات الحق تعالى وأسمائه وصفاته مساوية لمعارف العوام والنساء فيه، بل يظهر من هؤلاء أحيانا ما هو أعظم من ذلك فيقول أحدهم: أن لفلان عقائد عامية حسنة فيا ليت لنا مثلمـا لـه مـن العقيدة العامية.. وهذا الكلام منه صحيح لان هذا المسكين الذي يتفوّه بهذا الكلام قد أخـرج مـن يده العقائد العامية ويرى معارف الخواص وأهل الله باطلة، فهذا التمنّي منه عينا كتمني الكفار. وقد نقل عنهم في الكريمة الإلهية ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ (النبأ ـ ٤٠). ونحن إن أردنا أن نذكر الآيات والأخبار في لقاء الله بتفاصيلها حتى تتضح فضاحة هذه العقيدة الفاسدة الناشـئة عـن الجهل والغرور الشيطاني، فيستلزم ذلك كتابا على حدة فضلا من أن نذكر المعارف التـي وقعـت وراء ستر النسيان بواسطة هذا الحجاب الغليظ حتى يعلم أن أحد مراتب المهجورية مـن القـرآن، ومهجورية القرآن ولعلّ الأسف عليها أشدّ هو هذه كما يقول تعالى في الكريمة الـشريفة:﴿وَقَـالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾(الفرقان ـ ٣٠).

إن مهجورية القرآن لها مراتب كثيرة ومنازل لا تحصى، ولعلنا متصفون بالعمدة منها. أترى أننا إذا جلّدنا هذه الصحيفة الإلهية جلدا نظيفا وقيّما وعند قراءتها أو الاستخارة بها قبّلناها ووضعناها على أعيننا ما اتخذناه مهجورا ؟ أترى إذا صرفنا غالب عمرنا في تجويده وجاته اللغوية والبيانية والبديعية قد أخرجنا هذا الكتاب الشريف عن المهجورية ؟ هل إننا إذا تعلّمنا القراءات المختلفة وأمثالها قد تخلّصنا من عار هجران القرآن ؟ هل إننا إذا تعلمنا وجوه إعجاز القرآن وفنون محسّناته قد تخلّصنا عن شكوى رسول الله ؟ هيهات.. فإنه ليس شيء من هذه الأمور موردا لنظر القرآن ومنزّلها العظيم الشأن، إن القرآن كتاب إلهي وفيه الشؤون الإلهية. القرآن هو الحبل المتصل بين الخالق والمخلوق ولا بد أن يوجد الربط المعنوي والارتباط الغيبي بتعليماته بين عباد الله ومربّيهم، ولا بد أن يحصل من القرآن العلوم الإلهية والمعارف اللدنيّة، إن رسول صلى الله عليه وآله قال حسب ما رواه الكافي " إنما العلم ثلاثة: آية محكمة وفريضة عادلة وسنّة قائمة ". فالقرآن الشريف حامل لهذه العلوم فإن تعلمنا من القرآن هذه العلوم فما اتّخذناه مهجورا، وإذا قبلنا دعوات القرآن وأخذنا التعليمات من قصص الأنبياء عليهم السلام المشحونة بالمواعظ والمعارف والحكم، إذا اتعظنا نحن من مواعظ الله تعالى ومواعظ الأنبياء والحكماء المذكورة في القرآن فما اتّخذناه مهجورا، وإلا فالغور في الصورة الظاهرية للقرآن أيضا إخلاد إلى الأرض ومن وساوس الشيطان ولا بد من الاستعاذة بالله منها.

ومن الحجب المانعة من الاستفادة من هذه الصحيفة النورانية: الاعتقاد بأنه ليس لأحد حق الاستفادة من القرآن الشريف إلاّ بما كتبه المفسّرون أو فهموه. وقد اشتبه على الناس التفكر والتدبّر في الآيات الشريفة بالتفسير بالرأي الممنوع، وبواسطة هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عاريا من جميع فنون الاستفادة واتخذوه مهجورا بالكلية في حال أن الإستفادات الأخلاقية والإيمانية والعرفانية لا ربط لها بالتفسير، فكيف بالتفسير بالرأي، فمثلا إذا استفاد احد من كيفية مذاكرات موسى مع الخضر وكيفية معاشرتهما وشدّ موسى رحاله إليه مع ما له من عظمة مقام النبوّة لأخذ العلم الذي ليس موجودا عنده وكيفية عرض حاجته إلى الخضر كما ذكرت في الكريمة الشريفة: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف ـ ٦٦). وكيفية جواب الخضر والاعتذارات التي وقعت من موسى عظمة مقام العلم وآداب سلوك المتعلم، مع المعلّم ولعلها تبلغ من الآيات المذكورة إلى عشرين أدبا فأي ربط لهذه الإستفادات بالتفسير فضلا من أن تكون تفسيرا بالرأي والاستفادة من هذا القبيل في القرآن كثيرة، ففي المعارف مثلا إذا استفاد أحد من قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة ـ ١) الذي حصر جميع المحامد لله، وخصّ جميع الاثنية للحق تعالى التوحيد الأفعالي وقال بأنه يستفاد من الآية الشريفة أن كل كمال وجمال

وكلّ عزّة وجلال الموجودة في العالم وتنسبها العين الحولاء والقلب المحجوب إلى الموجـودات من الحق تعالى وليس لموجود من قبل نفسه شيء، ولذا المحمدة والثناء خاص بالحق ولا يشاركه فيها أحد، فأيّ ربط لهذا إلى التفسير حتى يسمّى بالتفسير بالرأي أو لا يسمى ؟ إلى غير ذلك مـن الأمور التي تستفاد من لوازم الكلام ولا ربط لها بوجه إلى التفسير، مـضافا إلـى أن فـي التفـسير بالرأي أيضا كلاما لعلة غير مربوط بآيات المعارف والعلوم العقلية التي توافق المـوازين البرهانيـة وبالآيات الأخلاقية التي فيها للعقل دخل، لان التفاسير التي من هذا القبيل مطابقة للبرهـان المتـين العقلي أو الاعتبارات العقلية الواضحة، فإذا كان ظاهر الكلام علـى خلافهـا فـاللازم أن يـصرف الكلام من ظاهره، مثلا في كريمة ﴿وَجَاء رَبُّكَ﴾ (الفجر ـ ٢٢) و ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه ـ ٥). التي يكون الفهم العرفي فيها مخالفا للبرهان ليس تفسيرا بالرأي ولا يكون ممنوعا بوجه فمن المحتمل بل من المظنون أن التفسير بالرأي راجع إلى آيات الأحكام التي تقصر عنهـا أيـدي الآراء والعقول، ولابد وأن تؤخذ بصرف التعبّد والانقياد من خزّان الوحي ومهابط ملائكة الله، كمـا أن أكثر الروايات في هذا الباب وردت في مقابل علماء العامة الذين كانوا يريدون أن يفهموا دين الله بعقولهم ومقايساتهم، وما في بعض الروايات الشريفة من أنه ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن..وكذلك الرواية الشريفة " إن دين الله لا يصاب بالعقول " تشهد بأن المقصود من دين الله الأحكام التعبّديّة للدين وإلا فباب إثبات الصانع والتوحيد والتقديس واثبات المعاد والنبوّة بل مطلق المعارف حقٌ طلق للعقول، ومن مختصاتها وإن ورد في كلام بعض المحدثين من ذوي المقام العالي أن الاعتماد في إثبات التوحيد على الدليل النقلـي، فمـن غرائـب الأمـور بـل مـن المصيبات التي لابد أن يستعاذ بالله منها. ولا يحتاج هذا الكلام إلى التهجين والتـوهين و إلـى الله المشتكى.

ومن الحجب المانعة من فهم القرآن الشريف، ومن الاستفادة من معارف هـذا الكتـاب الـسماوي وموعظة حجاب المعاصي والكدورات الحاصلة من الطغيان والعـصيان بالنـسبة إلـى سـاحة رب العالمين المقدسة فتحجب القلب عن إدراك الحقائق.

وليعلم كما أن لكل عمل من الأعمال الصالحة أو السيئة كما أن له صـورة فـي عـالم الملكـوت تتناسب معه فله صورة أيضا في ملكوت النفس، فتحصل بواسطتها في ملكوت النفس: إمّا النورانية ويكون القلب مطهّرا ومنوّرا وفي هذه الحالة تكـون الـنفس كـالمرآة المـصقولة صـافية، ويليـق للتجليات الغيبية وظهور الحقائق والمعارف فيه، وإمّا أن يصير ملكوت النفس به ظلمانيـاً وخبيثـاً، وفي هذه الصورة يكون القلب كالمرآة المريّنة والمدنّسة لا تـنعكس فيهـا المعـارف الإلهيـة ولا الحقائق الغيبية، وحيث أن القلب في هذه الحالة يقـع بالتـدريج تحـت سـلطة الـشيطان ويكـون المتصرف في مملكة الروح إبليس فيقع السمع والبصر وسائر القوى أيضا في تصرف ذاك الخبيث،

وينسد السمع بالكلية عن المعارف والمواعظ الإلهية، ولا ترى العين الآيات الباهرة الإلهية وتعمى عن الحق وآثاره وآياته ولا يتفقّه القلب في الدين ويحرم من التفكر في الآيات والبيّنات وتذكر الحق والأسماء والصفات، كما قال الحق تعالى ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف ـ ١٧٩). فيكون نظرهم إلى العالم كنظر الأنعام والحيوانات الخالية عن الاعتبار والتدبّر، وقلوبهم كقلوب الحيوانات لا نصيب لها من التفكر والتذكّر، بل تكون حالة الغفلة والاستكبار تزداد فيهم يوما فيوم من النظر في الآيات واستماع المواعظ، فهم أرذل وأضّل من الحيوان.

ومن الحجب الغليظة التي هي ستر صفيق بيننا وبين معارف القرآن ومواعظه: حجاب حبّ الدنيا، فيصرف القلب بواسطة تمام همّته في الدنيا وتكون وجهة القلب تماما إلى الدنيا ويغفل القلب بواسطة هذه المحبة عن ذكر الله، ويعرض عن الذكر والمذكور، وكلما ازدادت العلاقة بالدنيا وأوضاعها ازداد حجاب القلب وساتر ضخامة، وربما تغلب هذه العلاقة على القلب ويتسلّط سلطان حب الجاه والشرف على القلب بحيث يطفئ نور فطرة الله بالكليّة وتغلق أبواب السعادة على الإنسان، ولعل المراد من إقفال القلوب المذكورة في الآية الشريفة ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد ـ ٢٤). هذه الأقفال وأغلال العلائق الدنيوية، ومن أراد أن يستفيد من القرآن ويأخذ نصيبه من المواعظ الإلهية لابدّ وأن يطهّر القلب من هذه الأرجاس، ويزيل لوث المعاصي القلبية وهي الاشتغال بالغير عن القلب لان غير المطهّر ليس محرما لهذا الأسرار قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ الواقعة ٧٧ـ ٧٨). فكما أن غير المطهّر الظاهري ممنوع عن ظاهر هذا الكتاب ومسّه في العالم الظاهر تشريعا وتكليفا، كذلك ممنوع من معارفه ومواعظه وباطنه وسرّه من كان قلبه متلوثا بأرجاس التعلّقات الدنيوية، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ـ ٢) إلى آخر الآية. فغير المتقي بحسب تقوى العامة وغير المؤمن بحسب إيمان العامة محروم من الأنوار الصورية لمواعظه وعقائده الحقة، وغير المتقي وغير المؤمن بحسب سائر مراتب التقوى الخاص وتقوى خاص الخاص وتقوى أخصّ الخواص محروم من سائر مراتبها. والتفصيل حول تلك المراتب وذكر سائر الآيات الدالة على المقصود موجب للتطويل، ولكن نختتم هذا الفصل بذكر آية شريفة إلهية تكفي لأهل اليقظة بشرط التدبّر، قال تبارك وتعالى: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ١٥ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة ١٥ـ ١٦).

فخصوصيات هذه الآية الشريفة كثيرة، والبيان حول نكاتها يستلزم رسالة على حدة ليس الان مجالها.

الفصل الخامس

في التفكّر

من آداب قراءة القرآن حضور القلب، وقد ذكرناه في الآداب المطلقة للعبادات في هذه الرسالة ولا يلزم اعادته، ومن الآداب المهمة لها: التفكر، والمقصود من التفكر أن يتجسس من الآيات الشريفة المقصد والمقصود، وحيث أن مقصد القرآن كما تقوله نفس الصحيفة النورانية هو الهداية إلى سبل السلام والخروج من جميع مراتب الظلمات إلى عالم النور، والهداية إلى طريق مستقيم فلا بد أن يحصّل الإنسان بالتفكر في الآيات الشريفة مراتب السلامة من المرتبة الدانية والراجعة إلى القوى الملكية إلى منتهى النهاية فيها وهي حقيقة القلب السليم على ما ورد تفسيره عن أهل البيت وهو أن يلاقي الحق وليس فيه غيره وتكون سلامة القوى الملكية والملكوتية ضالة قارئ القرآن فإنها موجودة في هذا الكتاب السماوي ولا بد أن يستخرجها بالتفكر، وإذا صارت القوى الانسانية سالمة عن التصرّف الشيطاني وتحصّل طرق السلامة وعمل بها ففي كل مرتبة من السلامة تحصل له ينجو من ظلمة ويتجلى فيه النور الساطع الالهي قهرا حتى اذا خلص عن جميع أنواع الظلمات التي أولها ظلمات عالم الطبيعة بجميع شؤونها وآخرها ظلمة التوجّه إلى الكثرة بتمام شؤونها يتجلى النور المطلق في قلبه ويهديه إلى طريق الانسانية المستقيم وهو في هذا المقام طريق الربّ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(هود ـ٥٦).

وقد كثرت الدعوة إلى التفكر وتمجيده وتحسينه في القرآن الشريف قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل ـ ٤٤). وفي هذه الآية مدح عظيم للتفكر، لان غاية انزال الكتاب العظيم السماوي والصحيفة العظيمة النورانية قد جعلت احتمال التفكر وهذا من شدّة الاعتناء به حيث أن مجرد احتماله صار موجبا لهذه الكرامة العظيمة، وقال تعالى في الآية الاخرى: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف ـ ١٧٦).

والآيات من هذا القبيل أو ما يقرب منه كثيرة والروايات ايضا في التفكر كثيرة. فقد نقل عن الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم انه لما نزلت الآية الشريفة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ﴾ (آل عمران ـ ١٩٠) إلى آخرها.. قال صلى الله عليه وآله: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ".

والعمدة في هذا الباب ان يفهم الإنسان ما هو التفكر الممدوح، وإلا لا شك في أن التفكر ممدوح في القرآن والحديث، فأحسن التعبير فيه ما عبّر به الخواجة عبد الله الأنصاري قال: اعلم ان التفكّر تلمّس البصيرة لاستدراك البغية، يعني أن التفكر هو تجسّس البصيرة وهي بصر القلب للوصول إلى

المقصود والمقصود هو السعادة المطلقة التي تحصل بالكمال العلمي أو العملي فلا بد للإنسان أن يتحصل على المقصود والنتيجة الانسانية وهي السعادة في الآيات الشريفة للكتاب الالهي وفي قصصه وحكاياته وحيث أن السعادة هي الوصول إلى السلامة المطلقة وعالم النور والطريق المستقيم فلا بد للإنسان أن يطلب من القرآن المجيد الشريف سبل السلامة ومعدن النور المطلق والطريق المستقيمة كما أشير اليها في الآية الشريفة السابقة، فإذا وجد القارئ المقصد وتبصّر في تحصيله وانفتح له طريق الاستفادة من القرآن الشريف وفتحت له أبواب رحمة الحق فإنه لا يصرف عمره القصير العزيز ورأس مال تحصيل سعادته على أمور ليست مقصودة لرسالة الرسول صلى الله عليه وآله ويكف عن فضول البحث وفضول الكلام، في مثل هذا الامر المهم فإذا أشخص بصيرته مدّة إلى هذا المقصود وصرف نظره عن سائر الامور تتبصّر عين قلبه ويكون بصره حديدا ويكون التفكر في القرآن للنفس أمرا عاديا وتنفتح طرق الاستفادة وتفتح له أبواب ليست مفتوحة له إلى الان، ويستفيد مطالب ومعارف من القرآن ما كان يستفيدها إلى الان بوجه، فحين ذاك يفهم كون القرآن شفاء للأمراض القلبية، ويدرك مفاد الآية الشريفة ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ (الإسراء ـ ٨٢) ومعنى قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه " وتعلموا القرآن فانه ربيع القلوب واستشفعوا بنوره فإنه شفاء الصدور " ولا يطلب من القرآن شفاء الامراض الجسمانية فقط بل يجعل عمدة المقصد شفاء الامراض الروحانية الذي هو مقصد القرآن بل القرآن ما نزل لشفاء الامراض الجسمانية وان كان يحصل به كما أن الأنبياء عليهم السلام لم يبعثوا للشفاء الجسماني وان كانوا يشفون فهم أطباء النفوس والشافين للقلوب والأرواح.

الفصل السادس

في التطبيق

من الآداب المهمة لقراءة القرآن التي ينال الإنسان نتائج كثيرة والاستفادات غير المعدودة هو التطبيق.

وكيفيّتة انه حينما يتفكر في كل آية من الآيات الشريفة يطبق مفادها في حاله ويرفع نقصانه بواسطة هذا التطبيق ويشفي أمراضه به، مثلا في قصة آدم الشريفة يتفكر أن مطرودية الشيطان عن جناب القدس مع تلك السجدات والعبادات الطويلة لماذا ؟ فيطهّر نفسه منه لان مقام القرب الالهي مقام المطهّرين، فمع الاوصاف والأخلاق الشيطانية لا يمكن القدوم إلى ذلك الجناب الرفيع. ويستفاد من الآيات الشريفة أن مبدأ عدم سجود ابليس هو رؤية النفس العجب فطبّل أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين.. فهذا العجب صار سببا لحب النفس والاستكبار، وصار سببا للاستقلال والاستكبار، وعصيان الامر فصار مطرودا عن الجناب ونحن خطبنا الشيطان من أول عمرنا ملعونا ومطرودا واتصفنا بأوصافه الخبيثة ولم نتفكر في أن ما هو سبب المطرودية عن جناب القدس اذا كان موجودا في أي شخص، فهو مطرود وليس للشيطان خصوصية، فما كان سببا لطرده عن جناب القدس يكون مانعا من أن نتطّرق إليه، وأنا أخاف من أن نكون شركاء ابليس في اللعن الذي نلعنه.

ونتفكر أيضا في هذه القضية الشريفة ونرى ما هو السبّب لمزيّة آدم وأفضليته على الملائكة، فنتصف نحن أيضا بمقدار الطاقة بذاك السبب فنرى أن سبب التفضيل هو تعليم الاسماء كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ (البقرة ـ ٣١) والمرتبة العالية من تعليم الاسماء هو التحقق بمقام اسماء الله. كما أن المرتبة العالية من الاحصاء الذي هو في الرواية الشريفة أن لله تسعا وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة، هو التحقق بحقيقتها التي تنيل الإنسان إلى جنة الاسماء.

الإنسان يستطيع أن يكون مظهرا لأسماء الله، والآية الكبرى الإلهية بالإرتياضات القلبية ويكون وجوده وجودا ربّانيا ويكون المتصرّف في مملكته يدا الجمال والجلال الالهي. وفي الحديث ما يقرب من هذا المعنى من أن ″ روح المؤمن أشدّ اتصالا بالله تعالى من اتصال شعاع الشمس بها أو بنورها ″.

وفي الحديث الصحيح ″ لا يزال يتقرّب اليّ عبدي بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يأخذ بها ″. وفي الحديث ″

عليٌ عين الله ويد الله " إلى غير ذلك.. وفي الحديث " نحن أسماؤه الحسنى " والشواهد العقلية والنقلية في هذا بخصوصه كثيرة.

وبالجملة، من أراد أن يأخذ من القرآن الشريف الحظ الوافر والنصيب الكافي فلا له أن يطبّق كل آية شريفة من الآيات على حالات نفسه حتى يستفيد استفادة كاملة، مثلا يقول الله تعالى في سورة الانفال في الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الانفال ـ ٢). فلا بد للسالك من أن يلاحظ هل هذه الاوصاف الثلاثة منطبقة عليه، وهل قلبه يجلُ اذا ذكر الله ويخاف ؟ وإذا تليت عليه الآيات الشريفة الإلهية يزداد نور الإيمان في قلبه ؟ وهل اعتماده وتوكله على الحق تعالى ؟ أو أنه في كل من هذه المراحل راجل ومن كل هذه الخواص محروم ؟ فإن أراد أن يفهم أنه من الحق تعالى خائف وقلبه من خوفه وجل فلينظر إلى أعماله.

الإنسان الخائف لا يتجاسر في محضر الكبرياء إلى مقامه المقدس ولا يهتك الحرمات الإلهية في حضور الحق، وإذا قوي الإيمان بتلاوة الآيات الإلهية يسري نور الإيمان إلى المملكة الظاهرية ايضا، فغير ممكن أن يكون القلب نورانيا ولا يكون اللسان والكلام والعين والنظر والسمع والاستماع نورانيا. فالبشر النوراني هو الذي تكون جميع قواه الملكية والملكوتية منيرة، فمضافا إلى هداية نفسه إلى السعادة و الطريق المستقيم يكون مضيئا لسائر الخلق أيضا ويهديهم إلى طريق الانسانية كما أنه اذا توكل أحد على الله تعالى و اعتمد عليه فيقطع الطمع عمّا في أيدي سائر الخلق ويحط رحل حاجته وفقره إلى باب الغنى المطلق ولا يرى سائر الذين هم مثله فقراء ومساكين حلاّلين لمشاكله. فوظيفة السالك إلى الله هي أن يعرض نفسه على القرآن الشريف، فكما أن الميزان في صحة الحديث وعدم صحته واعتباره وعدم اعتباره ان يعرض على كتاب الله فما خالف كتاب الله فهو باطل وزخرف. كذلك الميزان في الاستقامة والاعوجاج والشقاوة والسعادة هو أن يكون مستقيما وصحيحا في ميزان كتاب الله، وكما أن خلق رسول الله هو القرآن فاللازم له أن يجعل خلقه موافقا للقرآن حتى يكون مطابقا لخلق الوليّ الكامل أيضا، والخلق يكون مخالفا لكتاب الله فهو زخرف وباطل.

وكذلك جميع المعارف وأحوال قلبه وأعمال الباطن والظاهر له لابد أن يطبّقها على كتاب الله ويعرضها عليه حتى يتحقق بحقيقة القرآن ويكون القرآن له صورة باطنية.

وأنت الكتاب المبين الذي ... بأحرفه يظهر المضمر

وفي هذا المقام آداب أخر قد ذكرنا بعضها في أول هذه الرسالة في آداب مطلق العبادات وبعضها مندرج في هذا الآداب، وذكر بعضها ينجّر إلى التطويل، فلهذه الجملة صرفنا النظر عنه والله العالم.

خاتمة الفصل

في ذكر ترجمة (ما ذكرناه نص الروايات لا ترجمتها، وإنما ذكرنا كلمة ترجمة لأداء الأمانة في الترجمة، حيث أتى المصنف، أدام الله ظلّه بترجمة الروايات في الاصل). نبذة من الروايات الشريفة لتتميم الفائدة والتبرّك بكلام العترة الطاهرة.

ففي الكافي الشريف بإسناده إلى سعد الخفّاف عن أبي جعفر عليه السلام قال: ″ يا سعد تعلّموا القرآن فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر اليها الخلق والناس صفوف عشرون ومائة ألف صف ثمانون ألف صفّ أمّة محمد وأربعون أل صف من سائر الامم، فيأتي على صف المسلمين في صورة رجل فيسلّم فينظرون إليه ثم يقولون لا إله إلاَّ الله الحليم الكريم ان هذا الرجل من المسلمين نعرفه بنعته وصفته غير أنه كان أشدّ اجتهادا منا في القرآن فمن هناك أعطي من البهاء والجمال والنور ما لم يُعطَه، ثم يجاوز حتى يأتي على صف الشهداء فينظرون إليه ثم يقولون: لا اله إلاَّ الله الرب الرحيم ان هذا الرجل من الشهداء نعرفه بسمته وصفته غير أنه من شهداء البحر فمن هناك أعطي من البهاء والفضل ما لم نُعطه. قال: فيتجاوز حتى يأتي صف شهداء البحر في صورة شهيد.. ثم ذكر الحديث اتيانه صفوف النبيين والمرسلين إلى أن يعرّفه رسول الله صلى الله عليه وآله ″ الحديث بطوله.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: ″ اذا جمع الله عزّ وجلّ الاولين والآخرين اذا هم بشخص قد أقبل لم ير قطّ أحسن صورة منه فإذا نظر إليه المؤمنون وهو القرآن قالوا هذا منّا هذا أحسن شيء رأينا، فإذا انتهى اليهم جازهم ″ إلى آخر الحديث.

والأحاديث بهذا المضمون كثيرة وهي دليل واضح على ما يقوله أهل المعرفة بأن الموجودات في هذا العالم لها صور أخروية، ومن أحاديث هذا الباب يستفاد أن للأعمال أيضا صورا أخروية.

وفي الكافي الشريف بإسناده إلى باقر العلوم عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله ″ أنا أول وافد على العزيز الجبّار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي ثم أمّتي ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وبأهل بيتي ″. وفي حديث آخر: ″ فيقول الجبار: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لأكرمنّ اليوم من أكرمك ولأهيننّ من أهانك ″ وليعلم أنه لو لم نكن نحيي أحكام القرآن ومعارفه بالعمل بها والتحقق بحقيقتها لا نستطيع أن نجيب رسول الله في ذلك اليوم فأي إهانة أعظم من أن تنبذ مقاصد القرآن ودعواته وراء الظهر، فليس إكرام القرآن وأهله وهم أهل بيت العصمة بتقبيل جلد القرآن أو الأضرحة المقدسة لهم فقط بل التقبيل هذا مرتبة ضعيفة من الاحترام و التكريم، وإذا عملنا بأوامره وأوامرهم عليهم السلام فهذا الاحترام مقبول وإلا فهو يشبّه بالاستهزاء واللعب وقد حذر تحذيرا شديدا في الاحاديث الشريفة من قارئ القرآن الذي لا يعمل به كما نقل عن عقاب الاعمال للشيخ

الصدوق رضوان الله عليه بإسناده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال في حديث " من تعلّم القرآن فلم يعمل به وآثر عليه حبّ الدنيا وزينتها استوجب سخط الله وكان في الدرجة مع اليهود والنصارى الذي ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم " (أقول: الرواية بهذه الصورة ليست في النسخة المطبوعة في بيروت والموجودة عندي بل ما ذكر ما بين القوسين تحت رقم (٥) لم يكن موجودا في نسختنا وإنما ترجمة المؤلف دام ظله وما ذكر منها تحت رقم (٦) قد ذكر في نسختنا في باب عقاب من تعلم القرآن فلم يعمل به تحت رقم (٣) وما ذكرناه تحت رقم (٧) قد ذكر في نسختنا في باب ثواب قراءة تحت (٦) وأقول: السمعة من أقسام الريا ومعناها انه يسمع العابد للناس بعبادته ليجلب قلوبهم إلى نفسه). " ومن قرأ القرآن وأراد به السمعة و الوصول إلى الدنيا لقي الله ووجهه عظم لا لحم فيه والقرآن يضرب على قفاه حتى يدخل النار ويسقط في النار مع الذين سقطوا ". " ومن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى فيقول ربّ لم حشرتني أعمي وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتي فنسيتها وكذلك اليوم تنسى فيؤمر به إلى النار ". " ومن قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وتفقها في الدين كان له من الثواب مثل جميع ما يعطى الملائكة والأنبياء والمرسلون، ومن تعلّم القرآن يريده رياء وسمعة ليماري به السفهاء ويباهي به العلماء ويطلب به الدنيا بدّد الله عزّ وجل عظامه يوم القيامة ولم يكن في النار أشدّ عذابا منه وليس نوع من أنواع العذاب إلاَّ ويعذب من شدّة غضب الله عليه وسخطه، ومن تعلّم القرآن وتواضع في العلم وعلّم عباد الله يريد ما عند الله لم يكن في الجنة أعظم ثوابا منه ولا أعظم منزلة منه ولم يكن في الجنة منزلة ولا درجة رفيعة ولا نفيسة إلاَّ كان له فيها أوفر النصيب وأشرف المنازل ".

وقد وردت روايات كثيرة في خصوص التفكر في معاني القرآن والاتعاظ به والتأثر منه. كما في الكافي الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام قال: " ان هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدّجى فليجل جال بصره ويفتح للضياء نظره فإن التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور ".. ومقصوده عليه السلام أنه كما أن الإنسان لا بد له من النور الظاهري اذا هو يمشي في الظلمات حتى يصان من خطر السقوط في المزلات، كذلك لابدّ له أن يمشي في ظلمات طريق السير إلى الاخرة و إلى الله بالقرآن الذي هو نور الهداية والمصباح المنير في طريق العرفان والإيمان كي لا يقع في المزلاّت المهلكة.

وفي معاني الاخبار، في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: " الفقيه من لا يترك القرآن رغبة عنه ويتوجّه إلى غيره، إلاَّ لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقّه ".

وروي في الخصال ومعاني الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: " حملة القرآن عرفاء أهل الجنة ". ومن المعلوم أن المراد من هذا الحمل هو حمل معارف القرآن وعلومه وتكون نتيجته في الاخرة ان الحامل يكون في عداد اهل المعرفة وأصحاب القلوب، كما أنه لو حمل سورة القرآن من دون الاتعاظ بمواعظه وتحمّل معارفه وحكمه والعمل بأحكامه وسننه، فهو كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة ـ ٥). والأحاديث الشريفة في شؤون القرآن الشريف وآدابه أكثر من أن تسع في هذا المختصر. والسلام على محمد وآله.

المصباح الثاني

في ذكر نبذة من آداب القراءة في خصوص الصلاة

وفيه سبعة فصول

الفصل الأول

في آداب القراءة في الصلاة خاصة

اعلم أن للقراءة في هذا السفر الروحاني والمعراج الإلهي مراتب ومدارج نكتفي ببعضها حسب ما يناسب هذه الرسالة:

المرتبة الاولى: إلاَّ يشتغل القارئ إلاَّ بتجويد القراءة وتحسين العبارة، ويكون همّه التلفّظ بهذه الكلمات فقط وتصحيح مخارج الحروف حتى يأتي بتكليف ويسقط عنه أمر، ومعلوم أن التكاليف لهذه الاشخاص موجبة للكلفة والمشقة وقلوبهم منها منضجرة وبواطنهم عنها منحرفة وليس لهم حظ من العبادة إلاَّ أنهم ليسوا معاقبين بعقاب تاركها إلاَّ ان يتفضّل عليهم من خزائن الغيب ويقعوا موردا للاحسان والإنعام بمجرد لقلة اللسان، ويتّفق لهذه الطائفة أحيانا أن ألسنتهم مشغولة بذكر الحق وقلوبهم عنه عارية وبريئة ومتعلقة بالكثرات الدنيوية والمشاغل الملكية، وهذه الطائفة داخلة في الصلاة بحسب الصورة ولكنهم بحسب الباطن والحقيقة مشغولون بالدنيا ومآربها والشهوات الدنيوية، ويتفق أحيانا أن قلوبهم أيضا مشغولة بالتفكر في تصحيح صورة الصلاة. ففي هذه الصورة قد دخلوا في صورة الصلاة بحسب القلب واللسان، وهذه الصورة منهم مقبولة ومرضية.

المرتبة الثانية: هم الذين لا يقتنعون بهذا الحد بل يرون الصلاة وسيلة لتذكر الحق ويعدّون القراءة تحميدا وثناء على الحق، ولهذه الطائفة مراتب كثيرة يطول ذكرها ولعله أشير إلى هذه الطائفة في الحديث الشريف القدسي " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي فإذا قال بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله ذكرني عبدي وإذا قال الحمد لله يقول الله حمدني عبدي وأثنى علي وهو معنى سمع الله لمن حمده. و اذا قال الرحمن الرحيم يقول الله عظّمني عبدي، وإذا قال مالك يوم الدين يقول الله مجّدني عبدي، وفي رواية فوّض إليّ عبدي وإذا قال ايّاك نعبد وإياك

نستعين يقول الله هذا بيني وبين عبدي، وإذا قال اهدنا الصراط المستقيم يقول الله هذا لعبدي ولعبدي ما سأل ". وحيث أن الصلاة قد قسمت بحسب هذا الحديث الشريف بين الحق والعبد فلا بدّ للعبد أن يقوم بحق المولى إلى حيث حقّه ويقوم بأدب العبودية الذي ذكره في هذا الحديث حتى يعمل الحق تعالى شأنه معه باللطائف الربوبية كما يقول تعالى ﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (البقرة ـ ٤٠) .

والحق تعالى قد أقام آداب العبودية في القراءة على أربعة اركان:

الركن الأول: التذكر، ولا بد أن يحصل في بسم الله الرحمن الرحيم وينظر العبد السالك إلى جميع دار التحقق بالنظر الاسمى الذي هو الفناء في المسمّى ويعوّد القلب أن يكون طالباً للحقّ ومحبّا للحق في جميع ذرّات الممكنات وفطرة تعلّم الاسماء التي فطر بها في مخمّر ذاته المشار اليها في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ (البقرة ـ ٣١) لا بدّ وأن تصل من حضرة اسم الله الأعظم إلى مرتبة الفعلية والظهور بمقتضى جامعية نشأة الظهور، ويحصل هذا المقام من الخلوة مع الحق وشدّة التذكر والتفكر في الشؤون الإلهية حتى ينتهي إلى حدّ يكون قلب العبد حقانيا ولا يكون في جميع زوايا قلبه اسم سوى الحق. وهذه مرتبة من الفناء في الالوهية، والقلوب المنكوسة القاسية للجاحدين لا تستطيع انكارها بهذا البيان الذي بيّنّاه إلاّ أن يكون جحوده جحودا إبليسيا، فإن تلك القلوب والعياذ بالله متنفّرة بالطبع عن اسم الحق وذكره وتنقبض اذا جرى حرف من المعارف الإلهية أو ذكر من أسماء الله ولا يفتحون بصيرتهم إلاّ إلى الشهوات البطنية والفرجية، وفي هذه الطائفة أفراد لا يعتقدون للأنبياء والأولياء عليهم السلام أيضا سوى المقامات الجسمانية والجنة الجسمانية التي يُقضى فيها الوطر الحيواني، ويحسبون عظمة المقامات الاخروية كالعظمة الدنيوية بسعة الجنات والأنهار الجارية وكثرة الحور والغلمان والقصور، وإذا سمعوا كلاما عن العشق والمحبة والجذبة الإلهية فيحملون على صاحبه بالألفاظ الركيكة والكلمات القبيحة، فكأن هذا الكلام سبّ لهم فيجبرونه، هؤلاء مأمورون من قبل الشيطان قد قعدوا على الصراط المستقيم الالهي بمقتضى: ﴿أَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف ـ ١٦).

ولا يتركون أحدا يحصل له الانس مع الهه ويخلص من ظلمات التعلّق بالشهوات الحيوانية التي منها التعلّق بالحور والقصور.

ومن الممكن أن يستشهد هؤلاء بشواهد من أدعية الأنبياء وأهل بيت العصمة عليهم السلام بأنهم ايضا كانوا يطلبون الحور والقصور وهذا من قصور هذه الطائفة حيث أنهم لم يفرقوا بين حبّ كرامة الله حيث يكون النظر فيه إلى كرامة المحبوب وإعطائه الذي هو علامة المحبة والعناية وبين حب الحور والقصور وأمثالها استقلالا، الذي هو في خميرة الشهوة الحيوانية، فحب كرامة الله هو

حب الله ويسري إلى الكرامة والعناية بالتبع (عاشقهم برهمه عالم كه همه عالم از اواست) (مصراع بيت للشاعر المعروف السعدي الشيرازي يقول: أنا للعالم عاشق حيث منه الكون أجمع).

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وإلا فما لعليّ والحور والقصور ؟ وأي تناسب بينه وبين الاهواء النفسانية والشهوات الحيوانية؟ من كانت عبادته عبادة الاحرار فلا يكون جزاؤه جزاء التجار.. قد اُرخي عنان القلم وبعدت عن المطلب، وبالجملة من عوّد نفسه على قراءة الآيات والأسماء الإلهية من كتاب التكوين والتدوين الالهي يصوّر قلبه بالتدريج على الصورة الذكرية والآيتية ويتحقق باطن الذات بذكر الله واسم الله وآيات الله كما فسر وطبّق الذكر بالرسول الاكرم وعلي بن أبي طالب صلوات الله عليهما وآلهما والأسماء الحسنى بأئمة الهدى وكذلك فسّرت وطبّقت آيات الله عليهم، صلوات الله عليهم، فهم الآيات الإلهية وأسماء الله الحسنى وذكر الله الأكبر ومقام الذكر من المقامات العالية الجليلة لا يسع في مجال البيان وحيطة التقرير والتحرير، وتكفي لأهل المعرفة والجذبة الإلهية وأصحاب المحبة والعشق الآية الشريفة الإلهية ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة ـ ١٥٢). وقال الله تعالى لموسى ″ يا موسى أنا جليس من ذكرني ″.. وفي رواية الكافي قال رسول الله صلى الله عليه وآله ″ من اكثر ذكر الله أحبه الله ″ وفي الوسائل بإسناده إلى الصادق عليه السلام قال: قال الله عزّ وجلّ ″ يا بن آدم اذكرني في نفسك اذكرك في نفسي، يا بن آدم اذكرني في خلاء أذكرك في خلاء يا بن آدم اذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملئك ″. وقال: ″ ما من عبد ذكر الله في ملأ من الناس إلاّ ذكره الله في ملأ من الملائكة ″.

الركن الثاني: التحميد وهو في قول المصلّي الحمد لله رب العالمين.

اعلم ان المصلّي اذا تحقق بمقام الذكر ورأى جميع ذرّات الكائنات وعوالي الموجودات ودوانيها أسماء إلهية وأخرج عن قلبه جهة الاستقلال ونظر إلى الموجودات عوالم الغيب والشهود بعين الاستظلال تحصل له مرتبة التحميد ويعترف قلبه ان جميع المحامد من مختصات الذات الأحدية وليست لسائر الموجودات فيها شركة لأنه ليس لها كمال من عند أنفسها حتى يقع الحمد والثناء لها، ويأتي البيان التفصيلي لهذه اللطيفة الإلهية في تفسير هذه السورة المباركة ان شاء الله.

الركن الثالث: هو التعظيم، وهو يحصل في الرحمن الرحيم:

إن العبد السالك إلى الله اذا حصر المحمدة في ركن التحميد على الحق تعالى وسلب الكمال والتحميد عن الكثرات الوجودية يقرب من أفق الوحدة وتعمى بالتدريج عينه الرائية للكثرة وتتجلى لقلبه الصورة الرحمانية التي هي بسط الوجود والصورة الرحيمية التي هي بسط كمال الوجود. ويصف الحق بالاسمين المحيطين الجامعين المضمحلة فيهما الكثرات فيحصل للقلب

بواسطة التجلي الكمالي الهيبة الحاصلة من الجمال بتنزل عظمة الحق في قلبه، وإذا تمكنت هذه الحالة في قلبه ينتقل إلى الركن الرابع.

الركن الرابع: الذي هو مقام التقديس الذي هو حقيقة التمجيد. وبعبارة أخرى تفويض الامر إلى الله، وهو عبارة عن رؤية مقام مالكية الحق وقاهريته وزوال غبار الكثرة وانكسار أصنام كعبة القلب، وظهور مالكيّة بيت القلب والتصرف فيه بلا مزاحمة الشيطان، ويصل في هذه الحالة إلى مقام الخلوة. ولا يمكن بين العبد والحق حجاب وتقع اياك نعبد وإياك نستعين في تلك الخلوة الخاصة ومجمع الانس، ولهذا قال: هذا بيني وبين عبدي وإذا اشتملته العناية الازلية وأفاق يسأله الاستقامة في هذا المقام والتمكين في حضرته بقوله اهدنا الصراط المستقيم، ولهذا فسّر إهدنا بألزمنا وأدّبنا وثبّتنا وهذا لأولئك الذين خرجوا من الحجاب ووصلوا إلى المطلوب الازلي. وأما أمثالنا نحن أهل الحجاب لا بد وأن نسأل الهداية من الحق تعالى بمعناها المعروف، ولعلّه تأتي بقية من هذا في تفسير السورة المباركة الحمد، ان شاء الله تعالى.

تكميل: يظهر من الحديث الشريف أن الصلاة كلها قسمت بين الحق والعبد وقد ذكر الحمد من باب النموذج والمثل فبناء على هذا نقول: ان التكبيرات الصلاتية أعمّ من الافتتاحية وغيرها التي تقال في خلال انقلاب الاحوال الصلاتية كلها حظ الربوبية قسمة الذات المقدسة، فإن قام العبد السالك إلى الله بهذه الوظيفة العبودية وأدّى حق الربوبية بمقدار ما في وسعه فيؤدي الحق تعالى أيضا بألطافه الخاصة الازلية حق العبد وهو فتح باب المراودة والمكاشفة، كما اشار إليه في الحديث الشريف في مصباح الشريعة حيث يقول: " فإذا كبّرت فاستصغر ما بين العلى والثرى دون كبريائه ". إلى أن قال: " فاعتبر انت قلبك حين صلاتك فإن كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها وقلبك مسرورا بمناجاته ملتذا بمخاطباته فاعلم أنه قد صدّقك في تكبيرك، وإلا فقد عرفت من سلب لذة المناجاة وحرمان حلاوة العبادة انه دليل على تكذيب الله لك وطردك عن بابه.

وعلى هذا المقياس ففي كل حال من الاحوال الصلاتية وكل فعل من افعالها حق تعالى لابد للعبد من القيام به وهو آداب العبودية في ذلك المنزل وللعبد حظ ونصيب يعطيه الحق باللطف الخفي والرحمة الجلية بعد قيام العبد بآداب العبودية، وإذا رأى نفسه في هذه المقامات الإلهية محروما فيعلم أنه لم يقم بآداب العبودية وعلامة ذلك للمتوسطين ان لا تذوّق ذائقة القلب لذة المناجاة وحلاوة العبادات ويحرم عن البهجة والسرور والانقطاع إلى الحق.

والعبادة التي خلت عن اللذة والحلاوة عبادة بلا روح ولا يستفيد القلب منها.

فيا أيها العزيز آنس قلبك بآداب العبودية وأذق ذائقة الروح حلاوة الذكر، وهـذه اللطيفـة الإلهيـة تحصل في بدء الامر بشدة التذكر والأنس بذكر الحق، ولكن في حال الذكر لا يكون القلـب ميّتـا ولا تستولي عليه الغفلة، فإذا آنست قلبك بالتذكر فتشملك العنايات الازلية بالتدريج ويفـتح علـى قلبك أبواب الملكوت وعلامة ذلك التجافي عن دار الغرور والإنابة إلـى دار الخلـود والاسـتعداد للموت قبل حلول الفوت.

اللهم أعطنا نصيباً من لذة مناجاتك وحلاوة مخاطباتك واجعلنا في زمرة الذاكرين والمنقطعين إلى عزّ قدسك، وهب لقلوبنا الميّتة حياة دائمة واقطعها عمّن سواك ووجهها اليك انـك ولـي الفـضل والإنعام.

الفصل الثاني

في بعض آداب الاستعاذة

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّه مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّـذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ٩٩ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل ٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠٠).

من الآداب المهمة للقراءة وخصوصا القراءة في الصلاة التي هي السفر الروحاني إلى الله والمعراج الحقيقي ومرقاة وصول اهل الله، الاستعاذة من الشيطان الرجيم الذي هو شوكة طريق المعرفة ومانع السير والسلوك إلى الله، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن قوله في السورة المباركة الاعراف حيث قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف ـ ١٦)، فإنه حلف ان يسد الطريق على أولاد آدم ويمنعهم عنه ففي الصلاة التي هي الصراط المستقيم الإنساني ومعراج الوصول إلى الله لا يتحقق الوصول من دون الاستعاذة من هذا القاطع للطريق، ولا يحصل الامان من شره من دون الاستعاذة إلى حصن الالوهية الحصين، ولا تتحقق هذه الاستعاذة بلقلقة اللسان والصورة بلا روح والدنيا بلا آخرة كما هو مشهود في أشخاص قالوا بهذا القول منذ أربعين أو خمسين سنة وما نجوا من شرّ هذا القاطع للطريق ويتبعون الشيطان في الأخلاق والأعمال بل في العقائد القلبية، ولو كنا مستعيذين من شرّ هذا الخبيث بالذات المقدسة للحق تعالى وهو الفيّاض المطلق وصاحب الرحمة الواسعة والقدرة الكاملة والعلم المحيط والكرم البسيط لأعاذنا الله ولصلح ايماننا وأخلاقنا وأعمالنا. فلا بدّ أن نفهم بأن التأخّر عن هذا السير الملكوتي والسلوك الالهي مهما كان فهو بواسطة إغواء الشيطان والوقوع تحت السلطنة الشيطانية من قصور أنفسنا أو من تقصيرنا حيث لم نقم بآدابه المعنوية وشرائطه القلبية، كما أن عدم نيلنا في جميع الاذكار والأوراد والعبادات نتائجها الروحية والآثار الظاهرية والباطنية فهو من أجل هذه الدقيقة، ويستفاد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة للمعصومين عليهم السلام آداب كثيرة وتعدادها يحتاج إلى الفحص الكامل وإطالة الكلام ونحن نكتفي بذكر بعضها، فمن مهمّات آداب الاستعاذة الخلوص كما نقله سبحانه عن الشيطان انه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص ـ ٨٢ ـ ٨٣) وهذا الاخلاص كما يظهر من الكريمة الشريفة أعلى من الاخلاص العملي وأعم من العمل الجوانحي أو العمل الجوارحي لأن المخلص بصيغة المفعول، ولو كان المنظور هو الاخلاص العملي لكان التعبير بصيغة الفاعل، فالمقصود من هذا الاخلاص هو خلوص الهوية الانسانية

بجميع شؤونها الغيبية والظاهرية والإخلاص العملي من رشحاته، وهذه الحقيقة واللطيفة الإلهية وان كانت لا تحصل للعامة في ابتداء السلوك إلاّ بالرياضات العملية الشديدة وخصوصا الرياضيات القلبية التي هي أصلها كما أشير إليه في الحديث المشهور: " من أخلص لله أربعين صباحا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه " فمن أخلص أربعين صباحا (بمقدار تخمير طينة آدم، وكان أربعين صباحا، والربط بينهما معلوم عند أهل المعرفة وأصحاب القلوب) نفسه لله وأخلص أعماله القلبية والقالبية للحق تعالى ويكون قلبه الهيا ولا ينفجر من القلب الالهي سوى عيون الحكمة، فيكون لسانه الذي هو أكبر ترجمان للقلب ناطقا بالحكمة.

ففي أول الامر يكون اخلاص العمل موجبا لخلوص القلب فإذا صار القلب خالصا تظهر على مرآة القلب أنوار الجلال والجمال التي أودعت بالتخمير الالهي من طبنة آدم وتتجلى وتسري من باطن القلب إلى ظاهر ملك البدن.

وبالجملة، الخلوص الذي يوجب الخروج من تحت السلطنة الشيطانية هو خلوص هوية الروح وباطن القلب لله تعالى، و إلى هذا الخلوص يشير أمير المؤمنين سلام الله عليه في المناجاة الشعبانية: إلهي هب لي كمال الانقطاع اليك.. فإذا وصل القلب إلى هذه المرتبة من الاخلاص ينقطع بالكلية عما سوى الله ولا يتطرق في مملكة وجوده غير طريق الحق ويقبله الحق تعالى في معاذه ويقع في الحصن الحصين للإلوهية، كما قال تعالى في الحديث القدسي: كلمة لا اله إلاّ الله حصني فمن دخل في حصني أمن من عذابي.. وللدخول في حصن لا اله إلاّ الله مراتب كما أن للأمن من العذاب ايضا مراتب، فمن وقع بباطنه وظاهره وقلبه وقالبه في حصن الحق وصار في معاذه فقد أمن من جميع مراتب العذاب، وأعلى مراتبها عذاب الاحتجاب عن جمال الحق والفراق عن وصال المحبوب جلّ جلاله فمن حصل له هذا المقام فهو عبد الله على الحقيقة ويقع تحت قباب الربوبية ويكون الحق تعالى متصرفا في مملكته ويخرج عن تحت ولاية الطاغوت. وهذا المقام من أعز مقامات الاولياء وأخص مدارج الاصفياء وليس لسائر الناس منه حظ، بل لعل القلوب القاسية للجاحدين والنفوس الصلبة للمجادلين البعيدة عن هذه المرحلة بمراحل تنكر هذه المقامات، ويحسبون الكلام في أطرافها باطل بل ينسبون والعياذ بالله هذه الامور التي هي قرّة عين الاولياء والكتاب والسنة مشحونة بها إلى المنسوجات للصوفية والأراجيف للحشوية.

ونحن ايضا ان تذكرنا هذه المقامات التي هي في الحقيقة مقام الكمّل فليس من جهة أن لنا فيها حظا أو أن نمدّ اليها عين الطمع، بل من جهة أننا لا نجوّز انكار المقامات ونرى ذكر الاولياء ومقاماتهم دخيلا في تصفية القلوب وتخليصها وتعميرها لأن ذكر الخير بالنسبة إلى أصحاب الولاية والمعرفة يوجب المحبة والتواصل والتناسب، وهذا التناسب يوجب التجاذب وهذا يسبّب

التشافع الذي ظاهره الاخراج من ظلمات الجهل إلى أنوار الهداية والعلم وباطنه الظهور بالشفاعة في العالم الاخرة لأن شفاعة الشافعين لا تكون من دون تناسب وتجاذب باطني ولا تكون عن جزاف وباطل.

وبالجملة، التخليص بهذه المرتبة الكاملة وان كان لا يتيسّر لغير الكمّل من الأولياء والأصفياء عليهم الصلاة والسلام بل المقام الكامل لهذه المرتبة من مختصات النبي الخاتم والقلب الخالص النوراني الأحدي الأحمدي الجمعي المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم بالأصالة وللكمّل والخلّص من أهل بيته بالتبعية، ولكن لا يجوز للمؤمنين والمخلصين أيضا أن يغضّوا النظر عن جميع مراتبه ويقنعوا بالإخلاص الصوري العملي والخلوص الظاهري الفقهي لأن الوقوف في المنازل من الاعمال والأفكار العبقرية لإبليس، فهو قاعد على سبيل الإنسان والإنسانية ويمنعه بأيه وسيلة كانت عن العروج إلى الكمالات والوصول إلى المدارج فلا بدّ من علوّ الهمة وتقوية الارادة، فلعل هذا النور الالهي واللطيفة الربانية تسري من الصورة إلى الباطن ومن الملك إلى الملكوت والإنسان إذا نال أي مرتبة من الإخلاص يكون بمقدارها في لواذ الحق وتتحقق الاستعاذة وتقصر يد تصرّف العفريت الخبيث والشيطان عن الإنسان، فأنت اذا أخلصت الصورة الملكية الانسانية لله وجهلت الجيوش الظاهرة الدنيوية للنفس التي هي عبارة عن القوى المتشتتة في ملك البدن في ملاذ الحق وطهّرت الاقاليم السبعة الارضية أي البصر والسمع واللسان والبطن والفرج واليد والرجل من قذارات المعاصي وجعلتها تحت تصرّف ملائكة الله الجيوش الإلهية فتصير بالتدريج هذه الاقاليم حقانية وتتصرّف بتصرف الحق إلى أن يكون هو نفسه ايضا من ملائكة الله أو مثل ملائكة الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فتحصل المرتبة الاولى من الاستعاذة ويرحل الشيطان وجيوشه عن المملكة ويتوجّهون إلى الباطن ويهجمون على القوى الملكوتية النفسانية، فمن هذه الجهة يصير أمر السالك أصعب وسلوكه أدق ولا بد له أن يكون قدم سيره أقوى ومراقبته أكمل ويستعيذ بالله المتعال من المهالك النفسانية من العجب والرياء والكبر والخيلاء وغيرها، ويشتغل بالتدريج بتصفية الباطن عن الكدورات المعنوية والقذارات الباطنية، ومن مهمات هذا المقام بل جميع المقامات، ومن مهمّات السلوك وأركان العروج التوجّه التام إلى التوحيد الحق الفعلي وتذكير القلب بهذه اللطيفة الإلهية والمائدة السماوية، وإذاقة القلب حقيقة مالكية الحق تعالى للسموات والأرض والباطن والظاهر والملك والملكوت حتى يرتاض القلب بالتوحيد في الإلهية ونفي الشريك في التصرف ويخمّر بالتخمير الالهي ويربّي بتربية التوحيدي، فلا يرى القلب ولا يعلم في هذه الحالة مفزعا ولا ملجأ ولا ملاذا ولا معينا سوى الحق، ويستعيذ بالحق ومقام الالوهية بالطوع والحقيقة، وما لم يقطع القلب عن تصرّف سائر الخلق ولم

يغمض عين الطمع عن الموجودات لا يلوذ بالله على الحقيقة وتكون دعواه كاذبة وينسلك في مسلك أهل المعرفة في زمرة المنافقين وينسب إلى الخدعة والتغرير وفي هذا الوادي المهيب والبحر العميق الخطير استفادة التوحيدات الثلاثة استفادة علمية من نفخة حكيم رباني أو عارف نوراني يعين باطن القلب اعانة لائقة، ولكن شرط هذه الاستفادة أن يشتغل بها بنظر الآية والعلامة والسير والسلوك إلى الله ولا تكون نفس هذه الاستفادة شوكا للطريق وحجابا لرؤية جمال المحبوب كما لقّب رسول الله صلى الله عليه وآله هذا العلم في الحديث الشريف للكافي: " أية محكمة ".

وبالجملة، اذا استحكم في القلب أصل التوحيد الفعلي للحق وسقي بماء العلم التوأم بالعمل اللطيف الذي يقرع باب القلب تكون نتيجته تذكر مقام الالوهية ويصفى القلب بالتدريج للتجلي الفعلي للحق. فإذا خلت الدار من الغدّار والعش من الغش يتصرف في البيت صاحبه وتأخذ يد ولاية الحق القوى الملكوتية والملكية من ملكوت الباطن والقلب إلى الملك وظاهر البدن تحت تصرفه وحكومته وترتحل الشياطين أجمع من هذه المرحلة أيضا وترجع المملكة الباطنية إلى استقلاله الذي هو عين الاستظلال للحق، وهذه المرتبة الثانية (من اللطيفة الربانية للاستعاذة). وبعد هذا المقام هو استعاذة الروح واستعاذة السر وسائر مراتب الاستعاذة لا تناسب هذه الأوراق، وهذا المقدار ايضا ظهر في صورة الترقيم من طغيان القلم أو من جراء قلم المولى جلّ وعلا وإليه المفزع.

ومن الآداب والشرائط الاستعاذة التي أشير اليها في الآية الشريفة التي ذكرناها في أول الفصل الإيمان وهو غير العلم، حتى العلم الذي حصل بالبرهان الحكمي، فإن الشيطان مع أن له العلم بالمبدأ والمعاد بنصّ القرآن محسوب في زمرة الكفّار، فلو كان الإيمان عبارة عن هذا العلم البرهاني يلزم أن يكون الواجدون لهذا العلم بعيدين عن تصرّف الشيطان ويتلألأ فيهم نور هداية القرآن، مع أننا نرى أن هذه الاثار لا تحصل بالإيمان البرهاني فإن اردنا أن نخرج من تصرّف الشيطان ونقع تحت عوذة الحق لابد وأن نوصل الحقائق الايمانية إلى القلب بالإرتياض القلبي الشديد ودوام التوجّه أو كثرته وشدّة المراودة والخلوة فإذا صار القلب إلهياً يخلو من تصرّف الشيطان كما قال الله تعالى: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ (البقرة ـ ٢٥٧). فالمؤمنون الذين يتصرف ويتولىّ الحق تعالى في ظاهرهم وباطنهم وسرّهم وعلانيتهم خالصون من تصرّفات الشيطان وداخلون في سلطان الرحمن، ويخرجهم من جميع مراتب الظلمات إلى النور المطلق فينتقلون من ظلمة المعصية والطغيان ومن ظلمة كدورات الأخلاق

الرذيلة وظلمة الجهل والكفر والشرك ورؤية النفس وحب النفس والعجب إلى نور الطاعة والعبادة وأنوار الأخلاق الفاضلة ونور العلم وكمال الإيمان والتوحيد ورؤية الله وطلب الله وحب الله.

كما أن من آداب الاستعاذة التوكل، وهو ايضا من شعب الإيمان ومن الانوار الحقيقية للّطيفة الايمانية وهو تفويض الامور إلى الحق الذي يحصل من ايمان القلب بالتوحيد الفعلي وتفصيله خارج عن نطاق هذه الأوراق.

فإذا لم ير العبد السالك مفزعا وملاذا غير الحق تعالى وعلم أن التصرّف في الامور منحصر في الذات المقدسة تحصل في القلب حالة الانقطاع والتوكل وتصير استعاذته حقيقية، فإذا لجأ بالحقيقة إلى حصن الربوبية والإلوهية الحصين فيأخذه لا محالة في كنف ظلّه ورحمته الكريمة انه ذو فضل عظيم.

تتميم ونتيجة: قد علم من مطالب الفصل السابق ان حقيقة الاستعاذة عبارة عن حالة وكيفية نفسانية تحصل من العلم الكامل البرهاني بمقام التوحيد الحق الفعلي والإيمان به بمعنى أنه بعدما فهم من طريق العقل المنور بالبرهان المتين الحكمي والشواهد النقلية المستفادة من النصوص القرآنية وإشارات الكتاب الالهي والأحاديث الشريفة وبدائعها أن السلطنة الايجادية والاستقلال في التأثير بل أصل التأثير منحصرة بالذات الإلهية المقدسة وليس لسائر الموجودات فيها شركة، كما قرّر في محله لابد له من تنبيه القلب بها وأن يكتب بقلم العقل على لوحة القلب حقيقة لا اله إلاَّ الله ولا مؤثّر في الوجود إلاَّ الله فإذا آمن القلب بهذه اللطيفة الايمانية والحقيقة البرهانية تحصل حالة انقطاع والتجاء. وإذا وجد الشيطان قاطع طريق الانسانية والعدو القوى لنفسه تحصل له حالة الاضطرار وهذه الحالة القلبية هي حقيقة الاستعاذة، وحيث أن اللسان ترجمان القلب يظهر بلسانه تلك الحالة القلبية مع كمال الاضطرار والاحتياج ويقول على الحقيقة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا لم يكن في القلب اثر من هذه الحقائق ويكون المتصرف في القلب وسائر المملكة الوجودية هو الشيطان وتكون استعاذته ايضا بتصرف الشيطان وتدبيره، وفي التلفّظ يقول بالاستعاذة بالله من الشيطان ولكن في الحقيقة حيث أن التصرف شيطاني تقع الاستعاذة بالشيطان من الله تعالى وتحقق نفس الاستعاذة عكس المطلوب ويستهزئ الشيطان بقائلها وتتبين نتيجة هذه السخرية بعد كشف الغطاء وانطواء حجاب الطبيعة ومثل هذا الشخص الذي استعاذته لفظية فقط كمثل من يريد أن يستعيذ من شرّ العدوّ الجرّار إلى حصن منيع ولكن يمشي هو نفسه نحو العدوّ ويولّي الوجه عن الحصن ويقول لفظاً إنّي أعوذ من شرّ هذا العدو بهذا الحصن. هذا الشخص مضافا إلى أنه يبتلي بشر العدو يكون سخرية له ايضا.

الفصل الثالث

في أركان الاستعاذة وهي أربعة:

الأول: المستعيذ. الثاني: المستعاذ. الثالث: المستعاذ به. الرابع: المستعاذ لأجله.

اعلم أن لهذه الأركان تفصيلات كثيرة خارجة عن مجال هذه الأوراق ونحن نكتفي بذكر مختصر منها.

الركن الأول في المستعيذ:

وهو الحقيقة الإنسانية من أول منزل السلوك إلى الله إلى منتهى النهاية للفناء الذاتي، وإذا تم الفناء المطلق هلك الشيطان وتمت الاستعاذة. وتفصيل هذا الإجمال أن الإنسان ما دام مقيما في بيت النفس والطبيعة ولم يشتغل بالسفر الروحاني والسلوك إلى الله وهو تحت السلطنة الشيطانية بجميع شؤونها ومراتبها لم يلتبس بحقيقة الاستعاذة وقلقلة اللسان بلا فائدة بل هي تثبيت وتحكيم للسلطنة الشيطانية إلاَّ بالتفضل والعناية الإلهية، فإذا تلبس بالسير والسلوك إلى الله وشرع في السفر الروحاني فما دام هو في السير والسلوك فكل ما كان مانعا له من هذا السفر وشوكا في طريقه فهو شيطان سواء أكان من القوى الروحانية الشيطانية أم من الجن والأنس لأن الجن والأنس أيضا إذا كانت شوكة الطريق ومانعة السلوك إلى الله فبتأييد الشيطان وتصرفه كما أشار إليه سبحانه وتعالى في سورة الناس المباركة حيث يقول: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ﴾ (الناس ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦) فالشيطان إن كان جِنّا فيستفاد من الآية الشريفة إن الوسواس الخنّاس الذي هو الشيطان جنّ وأنس أحدهما بالأصالة والآخر بالتبعية، وان كان الشيطان حقيقة أخرى شبيهة للجنة فيعلم من الآية الشريفة أن هذين النوعين يعني الجن والأنس أيضا تمثّلات شيطانية ومظاهره، وقد أشار إلى هذا المعنى في آية أخرى أيضا حيث يقول: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ (الأنعام ـ ١١٢) وقد أشار سبحانه في هذه السورة المباركة إلى الأركان الأربعة المذكورة كما هو ظاهر.

وبالجملة الإنسان قبل شروعه في السلوك إلى الله ليس مستعيذا وبعد تمام سيره، وبعد أن لم يبق من آثار العبودية شيء ونال الفناء الذاتي المطلق فلا يبقى أثر من الاستعادة والمستعاذ منه والمستعيذ ولا يكون في قلب العارف شيء سوى الحق والسلطنة الإلهية، وليس له خبر من قلبه ولا من نفسه أيضا، وأعوذ بك منك أيضا ليس في هذا المقام فإذا أتاه الصحو والأنس والرجوع تكون الاستعاذة حقيقة أيضا ولكن لا كاستعاذة السالك. ولهذا أمر الرسول الخاتم (صلى الله

عليه وآله وسلم) أيضا بالاستعاذة كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (الفلق ـ ١) و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (الناس ـ ١). و ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِين٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (المؤمنون ـ ٩٧ ـ ٩٨). فالإنسان ليس مستعيذا في مقامين أحدهما قبل السلوك وهو حالة الاحتجاب المحض تحت تصرف الشيطان وسلطنته، والآخر بعد ختم السلوك وحصول الفناء المطلق، لأنه لا يكون ثمة خبر من المستعيذ والمستعاذ له والاستعاذة.

والإنسان مستعيذ في مقامين أحدهما حال السلوك إلى الله، وهو يستعيذ من أشواك الوصول التي قعدت على الصراط المستقيم للإنسانية كما حكى سبحانه من قول الشيطان: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف ـ ١٦) والآخر في حال الصحو والرجوع من الفناء المطلق، فهو إذاً يستعيذ من الإحتجابات التلوينية وغيرها.

الركن الثاني في المستعاذ منه:

وهو إبليس والشيطان الرجيم الذي يمنع الإنسان بحبائله المتنوعة من الوصول إلى المقصد، وحصول المقصد وما ذكره بعض أعاظم أهل المعرفة من أن حقيقة الشيطان عبارة عن جميع العالم بجنبته السوائية فليس بتمام لدى الكاتب لأن الجنبة السوائية التي هي عبارة عن الصورة الموهومة العارية عن الحقيقة الخالية عن التحقق والواقعية من حبائل إبليس التي يشغل الإنسان بها، ولعله إلى ذلك أشير في قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (التكاثر ـ ١ ـ ٢) وإلاَّ فنفس إبليس هي حقيقة ذات تجرّد مثالي وذات حقيقة إبليسية كليّة، هي رئيس الأبالسة وإبليس الكل أيضا، كما أن الحقيقة العقلية المجرّدة الكلية وهي آدم الأول هي عقل الكل. وإن القوى الواهمة الجزئية الملكية من مظاهر إبليس وشؤونه، كما أن العقول الجزئية شؤون العقل الكلّي ومظاهره. وتفصيل هذا المقام وتحقيقه خارج عن مجال هذه الرسالة.

وبالجملة، ما كان في هذا السلوك الإلهي والسير إلى الله مانعا من السير وشوكا في الطريق فهو الشيطان أو مظاهره التي أعمالها أيضا عمل الشيطان، وما كان من عوالم الغيب والشهود والعوارض الحاصلة للنفس وحالاتها المختلفة حجابا لجمال المحبوب سواء أكان من العوالم الملكية الدنيوية كالفقر والغنى والصحة والمرض والقدرة والعجز والجهل والآفات والعاهات وغيرها، أو كان من العوالم الغيبية التجردية والمثالية كالجنة وجهنم، والعلم المتعلق بها حتى العلوم العقلية البرهانية الراجعة إلى توحيد الحق وتقديسه كل ذلك من حبائل إبليس التي تمنع الإنسان عن الحق والأنس به والخلوة معه وتشغله بذلك حتى الاشتغال بالمقامات المعنوية والوقوف في المدارج الروحانية الذي ظاهره الوقوف في الصراط الإنساني وباطنه الوقوف في صراط الحق الذي هو جسر روحاني لجهنم الفراق والبعد وينتهي إلى جنة اللقاء. وهذا الجسر مخصوص لطائفة قليلة من أهل المعرفة

وأصحاب القلوب، وهذا الاشتغال من الحبائل العظيمة لإبليس الأبالسة و لابد من الاستعاذة منه إلى ذات الحق المقدسة جلّ شأنه.

وبالجملة، ما منعك عن الحق وحجبك عن جمال المحبوب الجميل فهو شيطانك سواء أكان في صورة الإنسان أو الجن، وكل ما يمنعك به الشياطين عن هذا المقصد والمقصود فهو حبائل الشيطان سواء كان من سنخ المقامات والمدارج أو العلوم والكمالات أو الحرف والصنائع أو العيش والراحة أو المشقة و الذلّة أو غيرها، وهذه عبارة الدنيا المذمومة وحبائل الشيطان و لابد من الاستعاذة منها. وما نقل عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه كان يقول: ″ أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التي لا يجاوزهنّ بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها وشر ما ينزل من الأرض وما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر طوارق الليل والنهار إلاَّ طارقا يطرق بخير ″ فلعل المقصود منه هذا المعنى والاستعاذة بوجه الله وبكلمات الله هي الاستغراق في بحر الجمال والجلال، وما منع الإنسان منه فهو من الشرور ومرتبط بعالم الشيطان ومكائده ولا بدّ من الاستعاذة منه بوجه الله سواء أكان من الحقائق الكاملة السماوية أو الناقصة الأرضية إلاَّ أن يكون طارقا بخير وهو الطارق الإلهي الذي يدعو إلى الحق تعالى.

الركن الثالث: في المستعاذ به:

اعلم أن حقيقة الاستعاذة حيث أنها متحققة في السالك إلى الله ومتحصلة في السير والسلوك إلى الحق، بمعنى إن الاستعاذة تختص بالسالك في مراتب السلوك فتختلف الاستعاذة والمستعيذ والمستعاذ منه والمستعاذ به على حسب مقامات السائرين و لمدارجهم ومنازل سالكي الحقيقة، ويمكن أن تكون إشارة إلى ذلك السالك السورة الشريفة الناس حيث يقول تعالى: ﴿قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس﴾ (الناس ـ ١ ـ ٢ ـ٣) فيستعيذ السالك بمقام الربوبية من مبادئ السلوك إلى حدود مقام القلب، ويمكن أن تكون هذه الربوبيّة، الربوبية الفعلية فتطابق أعوذ بكلمات الله التامات، فإذا انتهى سير السالك إلى مقام القلب فيظهر في القلب مقام السلطنة الإلهية فيستعيذ في هذا المقام بمقام ملك الناس من شر تصرفات إبليس القلبية وسلطنته الباطنية الجائرة، كما يستعيذ في المقام الأول من شر تصرفاته الصدرية، ولعل ما قاله تعالى ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (الناس ـ ٥). مع أن الوسوسة في القلوب والأرواح أيضا من الخناس لأن الأنسب في مقام التعريف أن يكون التعريف بالشأن العمومي والصفة الظاهرة عند الكل.

فإذا تجاوز السالك عن مقام القلب أيضا إلى مقام الروح الذي هو من النفخة الإلهية واتصاله بالحق اشّد من اتصال شعاع الشمس بالشمس فيشرع في هذا المقام مبادئ الحيرة و الهيمان والجذبة والعشق والشوق، فيستعيذ في هذا المقام بإله الناس، فإذا ترقى من هذا المقام وتكون

الذات بلا مرآة الشؤون نصب عينيه، وبعبارة أخرى يصل إلى مقام السر، فالمناسب له أعـوذ بـك منك وفي هذه المقامات تفصيل لا يناسب هذه المقالة.

وأعلم أن الاستعاذة بسم الله لجامعيته تناسب جميع المقامات وهي في الحقيقة الاستعاذة المطلقـة، وسائر الاستعاذات استعاذات مقيّدة.

الركن الرابع: في المستعاذ له، يعني غاية الاستعاذة:

اعلم أن ما هو المطلوب بالذات للإنسان المستعيذ فهو من نوع الكمال والسعادة والخير، ويتفاوت ذلك على حسب مراتب السالكين ومقاماتهم تفاوتا كثيرا. فالسالك ما دام في بيت النفس وحجاب الطبيعة تكون غاية سيره حصول الكمالات النفسانية و السعادات الخسيسة الطبيعية وهذا في مبادئ السلوك، فإذا خرج من بيت النفس وذاق شيئا من المقامات الروحانية و الكمالات التجردية فيصير مقصده أعلى و مقصوده أكمل فيلقي المقامات النفسانية وراء ظهره وتكون قبلة مقصودة حـصول الكمالات القلبية و السعادات الباطنية فإذا ألفت عنان السير عن هذا المقام أيضا. ووصل إلى منزل السر الروحي فتبرز في باطنه مبادئ التجليات الإلهية ويكون لسان روحه في بادئ الأمـر وجّهـت وجهي لوجه الله ثم بعد ذلك وجهت وجهي لأسماء الله أو لله ثم بعد ذلك وجهت وجهي له، ولعل الجهة في وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض راجعة إلى المقام الأول بمناسبة الفاطرية.

وبالجملة، فالسالك غايته الحقيقية في كل مقام حصول الكمال والسعادة بالذات، وحيـث أن مـع السعادات والكمالات في كل مقام شيطانها هو لها قرين وحباله من حبائله مانعة للحصول فلا بـد للسالك أن يستعيذ بالحق تعالى من ذلك الشيطان وشروره وحبائله للوصول إلى المقصود الأصلي والمنظور الذاتي، ففي الحقيقة غاية الاستعاذة للسالك حصول ذلـك الكمـال المترقـب والـسعادة المطلوبة والحق تعالى جلت عظمته غاية الغايات ومنتهى الطلبات، والاستعاذة من الـشيطان تقـع بالتبع. والحمد لله أولا و آخراً.

الفصل الرابع

في بعض آداب التسمية

روي في التوحيد عن الرضا (هو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن ابي طالب عليهم السلام، الامام الثامن من الأئمة الإثنى عشر) عليه السلام حين سئل عن تفسير البسملة: " معنى قول القائل بسم الله أي اسم على نفسي سمة من سمات الله ن وهي العبادة. قال الراوي: فقلت: ما السمة ؟ قال: العلامة ".

اعلم جعلنا الله وإياك من المتَّسمين بسمات الله أن الدخول في منزل التسمية لا يتيسر للسالك إلاَّ بعد الدخول في منزل الاستعاذة واستيفاء حظوظ ذاك المنزل، فما دان الإنسان في تصرّف الشيطان ومقهوراً تحت سلطنته فهو متّسم بالسمات الشيطانية، وإذا غلب على باطنه وظاهره غلبة تامة يصير هو بجميع مراتبه آية وعلامة له، وإذا أتى بالتسمية في هذا المقام فيقولها بالإرادة الشيطانية والقوة الشيطانية واللسان الشيطاني ولا يحصل من استعاذته وتسميته سوى تأكيد السلطنة الشيطانية فإن أفاق بتوفيق الله من نوم الغفلة ووجدت له حالة اليقظة وأحسّ لزوم السير والسلوك إلى الله بنور الفطرة الإلهية وأنوار التعليمات القرآنية وسنن الهداة إلى طريق التوحيد في منزل اليقظة وأدرك القلب موانع السير فتحصل له حالة الاستعاذة بالتدريج وبعد ذلك يدخل منزل الاستعاذة بالتوفيق الرباني فإذا تطهّر من القذارات الشيطانية فيتجلى في مرآة السالك من تلك الأنوار الإلهية على حسب ما يناسبه بمقدار تطهيره الباطن والظاهر وفي أول الأمر تكون الأنوار مشوبة بالظلمات بل تكون الظلمة غالبة، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. وبالتدريج فكلما قوي السلوك، فبمقدار قوة السلوك يغلب النور على الظلمة وتظهر سمات الربوبية في السالك فتصير تسميته حقيقية إلى حد ما، والعلامات الشيطانية وهي في الظاهر المخالفة لنظام المدينة الفاضلة، وفي الباطن العجب والاستكبار وأمثالها، وفي باطن الباطن رؤية النفس وحبها وأمثالها ترتحل بالتدريج عن مملكة باطن السالك وظاهره وتسكن في مكانها سمات الله وهي في الظاهر حفظ نظام المدينة الفاضلة وفي الباطن العبودية و ذلة النفس وفي باطن الباطن حب الله ورؤية الله، فإذا صارت المملكة إلهية وخلت من شياطين الجن والإنس وظهرت فيها السمات الإلهية يتحقق السالك بنفسه بمقام الإسمية، فأول تسمية السالك عبارة عن الاتصاف بالسمات الإلهية وعلاماتها ثم يترقى عن هذه المرتبة ويصل بنفسه مقام الاسمية، وهذا أوائل قرب النافلة، فإذا تحقق بقرب النافلة نال تمام الاسمية فلا يبقى بعد شيء من العبد والعبودية، وإذا وصل أحد إلى هذا المقام تقع جميع صلاته

بلسان الله وهذا يتحقق في القليل من الأولياء، وأما للمتوسطين أمثالنا الناقصين فالأدب أن نسمَ القلب بسمة العبودية وكيّها عند التسمية ونعلن القلب من سمات الله والعلامات الإلهية وألا نكتفي بلقلقة اللسان، فلعل من العنايات الأزلية نبذة تشمل حالنا وتجبر ما سبق منا وينفتح لقلوبنا طريق إلى تعلّم الأسماء ويحصل سبيل إلى المقصود.

ويمكن أن يكون المقصود من السمة من سمات الله في هذا الحديث الشريف سمة الرحمة الرحمانية والرحمة الرحيمية وعلامتها لأن هذين الاسمين الشريفين من الأسماء المحيطة التي وصلت جميع دار التحقق في ظلّ هذين الاسمين الشريفين إلى أصل الوجود وكماله، ويستمر هذا الوصول، والرحمة الرحمانية والرحيمية شاملة لجميع دار الوجود، حتى أن الرحمة الرحيمية التي جميع هدايات الهادين إلى طريق التوحيد من تجلياتها تشمل الجميع إلاَّ أن الخارجين عن فطرة الاستقامة بسوء اختيارهم، حرموا أنفسهم منها لأن الرحمة غير شاملة لحالهم حتى أنه في عالم الآخرة وهي يوم حصاد ما زرع من الحسنة والسيئة فالذين زرعوا السيئة فهم بأنفسهم قاصرون عن الاستفادة من الرحمة الرحيمية.

وبالجملة، إذا أراد السالك أن تكون تسمية حقيقيّة فلا بد له أن يوصل مراحم الحق تعالى إلى قلبه ويتحقق بالرحمة الرحمانية والرحيمية، وعلامة حصول نموذج منها في القلب أنه ينظر إلى عباد الله بنظر العناية والتلطف ويطلب الخير والصلاح للجميع وهذا هو نظر الأنبياء العظام والأولياء الكمل عليهم السلام، غاية الأمر أن لهم نظرين أحدهما النظر إلى سعادة المجتمع ونظام العائلة والمدينة الفاضلة، والآخر النظر الشخصي، ولهم علاقة كاملة بهاتين السعادتين والقوانين الإلهية التي تؤسس وتنفّذ وتكشف وتجري بأيديهم، يراعون فيها هاتين السعادتين حتى إجراء القصاص والحدود والتعزيرات وأمثالها والتي تبدو في النظر أنها أسّست وتقنّنت مع لحاظهم نظام المدينة الفاضلة، قد لوحظ فيها كلتا السعادتين لأن لهذه الأمور دخالة كاملة في التربية الروحية في الأكثر وإيصالهم إلى السعادة حتى الذين ليس لهم نور الإيمان والسعادة فيقتلونهم بالجهاد وأمثاله كيهود بني قريظة، فهذا القتل لهم أيضا صلاح وإصلاح ويمكن أن يقال أن قتلهم كان من الرحمة الكاملة للنبي الخاتم لأنهم مع وجودهم في هذا العالم يهيّئون لأنفسهم في كل يوم أنواع العذاب الذي لا يقابل يوما من عذاب الآخرة وعسرها جميع مدة الحياة في هذا العالم، وهذا المطلب واضح جدا عند أولئك الذين يعلمون ميزان عذاب الآخرة وعقابها والأسباب والمسببات فيها، فالسيف الذي يضرب أعناق بني قريظة يهود وأمثالهم كان أقرب إلى أفق الرحمة، والآن هو أيضا أقرب منه إلى أفق الغضب والسخط.

وباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من وجهة الرحمة الرحيمية فلا بد للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يذيق قلبه من الرحمة الرحيمية ولا يكون نظره في الأمر والنهي إراءة نفسه والتكبّر وفرض أمره ونهيه لأنه إن مشى بهذا النظر لا يحصل المنظور من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو حصول سعادة العباد وإجراء أحكام الله في البلاد، بل يصل ربما تحصل النتيجة المعكوسة من الأمر بالمعروف ومن إنسان جاهل، وتزداد عدة منكرات لأجل أمر أو نهي من جاهل يقع من جهة الهوى النفسي والتصرف الشيطاني، وأما إذا كانت دواعي الإنسان لإرشاد الجاهلين وإيقاظ الغافلين حس الرحمة والشفقة وحق النوعية والأخوة تكون كيفية البيان والإرشاد المترشحة من القلب الرحيم على نحو يؤثر في الموارد اللائقة تأثيرا حسنا وتنزل القلوب الصلبة القاسية عن استكبارها واستنكارها.

يا للأسف، إننا لا نتعلم من القرآن، وليس نظرنا إلى هذا الكتاب الكريم الإلهي نظر التدبر والتعلم، واستفادتنا من هذا الذكر الحكيم قليلة وضئيلة، ففكر الآن في الآية الشريفة:

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى٤٣ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه ـ٤٣ ـ ٤٤) ينفتح لك طرق من المعرفة ويفتح على قلب الإنسان أبواب من الرجاء.

إن فرعون الذي قد بلغ من الطغيان إلى حد أنه قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات ـ٢٤) وبلغ علوه وفساده إلى درجة نزلت فيه ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ﴾(القصص ـ ٤) وبمجرد أنه رأى مناما وأخبرته الكهنة والسحرة أن موسى بن عمران سيطلع فرّق بين الرجال والنساء، وذبح الأطفال الأبرياء وأفسد ذلك الفساد، فإن الله الرحمن نظر برحمته الرحيمية على جميع وجه الأرض فأنتخب من نوع البشر أشدّهم تواضعا وأكملهم، ونبيّا عظيم الشأن ورسولا عالي المقام المكرم كموسى بن عمران على نبيّنا وآله وعليه السلام وعلّمه وربّاه بيده التربوية كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (القصص ـ ١٤) وشدّد ظهره بأخ كريم مثل هارون عليه السلام ، وأنتخب تبارك وتعالى هاتين الزبدتين في العالم الإنساني كما قال تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾(طه ـ ١٣). وقال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه ـ ٣٩). وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي٤١ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (طه ـ ٤١ ـ ٤٢). وسائر الآيات الشريفة الواردة في هذا الموضوع الخارجة عن مجال البيان، وللقلب منها نصيب لا يمكن أن يقال وخصوصا من هاتين الكلمتين الشريفتين ولتصنع على عيني.. واصطنعتك لنفسي.. وأنت أيضا لو فتحت عين قلبك لتسمع نغمة روحانية لطيفة تمتلئ جميع مسامع قلبك وشراشر وجودك من سرّ التوحيد.

وبالجملة، إن الله تبارك وتعالى بعد هذه التشريفات هيّأ التهيئّات وروّض موسى الكليم بالرياضات الروحانية كما قال تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ (طه ـ ٤٠). وأرسله سنين في خدمة شعيب شيخ طريق الهداية والمرتاض في عالم الإنسانية، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (طه ـ ٤٠) ثم بعثه للاختبار والافتتان الأعلى إلى واد، في طريق الشام وأضله الطريق وأمطر عليه المطر وغلب عليه الظلمة وعرّض زوجته للمخاض، فإذا أغلقت عليه جميع أبواب الطبيعة وانضجر قلبه عن الكثرات وانقطع إلى الحق بحبلة الفطرة الصافية وانتهى السفر الروحاني الإلهي في ذلك الوادي الظلماني غير المتناهي، آنس من جانب الطور نارا إلى أن قال: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص ـ ٣٠)، وبعد هذه الامتحانات الكثيرة والتربية الروحانية المتكثرة هيّأه سبحانه لماذا ؟ لأن يدعو ويهدي ويرشد وينجي عبدا طاغيا، باغيا، يضرب طبل أنا ربكم الأعلى.. وأفسد في الأرض ذلك الفساد الكبير. وكان في إمكانه تعالى أن يحرقه بصاعقة غضبه ولكن الرحمة الرحيمية ترسل إليه رسولين عظيمين ويوصيهما في نفس الوقت أن يقولا له قولا لينا لعله يتذكر الله أو يخشى من عمله وعاقبة أمره. هذا هو دستور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه كيفية إرشاد مثل فرعون الطاغوت.

فإذا أردت أيضا أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وترشد خلق الله فتذكر من هذه الآيات الشريفة التي أنزلت للتذكر والتعليم وتعلّم منها، فالق عباد الله بقلب مملوء من المحبة وفؤاد عطوف لعباد الله وكن طالبا لخيرهم من صميم القلب، فإذا وجدت قلبك رحمانيا ورحيميا فقم بالأمر والنهي والإرشاد كي يلين برق عطف قلبك القلوب القاسية وتلين حديد القلوب بالموعظة الخليطة بنار المحبة، وهذا الوادي غير وادي البغض في الله والحب في الله ولا بد للإنسان أن يعادي أعداء الدين، كما ورد في الروايات الشريفة والقرآن الكريم فهو في محله صحيح وهذا أيضا في محله صحيح وليس الآن مجال بيانه.

الفصل الخامس

في البيان الإجمالي من تفسير سورة الحمد المباركة

وفيه نبذة من آداب التحميد والقراءة

اعلم أن العلماء اختلفوا في متعلق باء بسم الله الرحمن الرحيم وذكر كل حسب مشربه من العلم والعرفان متعلقا لها كما أن علماء الادب اشتقوا من مادة الابتداء أو الاستعانة كلمة وجعلوها في التقدير وما ورد في بعض الروايات ايضا من أن بسم الله هي أستعين اما على وفق مذاق العامة كما أنه شائع في كثير من الروايات واختلاف الاحاديث الكثيرة محمول بهذا المعنى، ولهذا قال الرضا عليه السلام في هذا ايضا: بسم الله أي اسم نفسي بسمة من سمات الله او ان المقصود من الاستعانة ألطف مما يدركه العامة.

وبعض أهل المعرفة جعله متعلقا بظهر وقال: اي ظهر الوجود باسم الله وهذا على حسب مسلك أهل المعرفة وأصحاب السلوك والعرفان حيث أنهم يرون جميع الموجودات وذرات الكائنات وعوالم الغيب والشهادة تجليا للاسم الجامع الالهي يعني الاسم الاعظم الظاهر، فبناء على هذا فإن الاسم بمعنى الآية والعلامة أو بمعنى العلّو والارتفاع عبارة عن التجلي الفعلي الانبساطي للحق الذي يسمى الفيض المنبسط والإضافة الإشراقية لأنه على حسب هذا المسلك جميع دار التحقق من العقول المجردة الى آخر مراتب الوجود تعينات لهذا الفيض وتنزلات لهذه اللطيفة ومؤيد هذا المسلك كثير من الآيات الشريفة الإلهية والأحاديث الكريمة لأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، كما يقول في الحديث الشريف الكافي: " ان الله خلق المشيئة بنفسها ثم خلق الاشياء بالمشيئة " وقد يوجّه هذا الحديث الشريف كل على حسب مسلكه توجيها، وأظهر التوجيهات ما يطابق هذا المسلك، وهو أن يكون المراد من المشيئة المشيئة الفعليّة وهي عبارة عن الفيض المبسط، والمراد من الاشياء مراتب الوجود التي هي عينات هذه اللطيفة وتنزلاتها فيكون معنى الحديث هكذا.

ان الله تعالى خلق المشيئة الفعلية التي هي ظلّ المشيئة الذاتية القديمة بنفسها وبلا واسطة وخلق سائر موجودات عالم الغيب والشهادة بتبعها، وللسيد المحقق الداماد (هو السيد الأجل محمد باقر بن محمد الحسيني الاسترابادي المعروف بالميرداماد المحقق المدقق العالم الحكيم المتبحّر النقّاد ذو الطبع الوقّاد الذي حلى بعقود نظمه وجواهر نثره عواطل الأجياد سمّي الداماد لان والده كان صهرا للمحقق الثاني رضوان الله عليه فيدعى داماد وله من المؤلفات القبسات والرواشح السماوية

الصراط المستقيم والحبل المتين وشارع النجاة وضوابط الرضاع وغير ذلك من الكتب الكثيرة ولـه حواش على الكافي والفقيه والصحيفة السجادية وغير ذلك وله ديـوان شـعر بالعربيـة والفارسـية وحكي أنه لم يأو بالليالي الى فراشه للاستراحة مدة أربعين سنة ولم يفت منه (رحمـه الله) نوافلـه مدة تكليفه ذهب في آخر عمره الشريف من أصبهان بمرافقة السلطان شاه صفي الى زيارة العتبات العالية فمات (رحمه الله) هناك وذلك في ١٠٤١ (غما) ودفن في النجف الأشرف) (قدس سره) مع ما له من مقام التحقيق والتدقيق توجيه عجيب للحديث المزبور، كما أن توجيه الفـيض المرحـوم أيضا بعيد عن الصواب.

وبالجملة، الاسم عبارة عن نفس التجلي الفعلي الذي به تحققت جميع دار التحقق وإطلاق الاسـم على الأمور العينية في الأحاديث القدسية وعلى لسان الرسول الأكرم وأهل بيـت العـصمة علـيهم السلام كثير، مثل ما ورد عنهم عليهم السلام: " نحن الأسماء الحسنى ".. وفي الأدعيـة الـشريفة: " وباسمك الذي تجليت به على فلان " كثيرة.

ويحتمل أن يكون بسم الله في كل سورة متعلقا بتلك السورة، فمثلا بسم الله سورة الحمد المباركة متعلق بالحمد وهذا مطابق للذوق العرفاني ومسلك أهل المعرفة لأنه إشارة الى أن حمد الحامدين وثناء المثنين ايضا بقيمومة اسم الله، فبناء على هذا فالتسمية في مقدمة جميع الاقوال والأفعال التي هي من جملة المستحبات للتذكر بأن كل قول وفعل (لابد وأن يتحقق بقيمومة اسم الله، فبناء على هذا الاحتمال معنى بسم الله الرحمن الرحيم في أوائل السور) (ما ذكر بين القوسين لم يكن فيمـا عندي من النسخة ويحتمل أن يكون سقطا من العبارة فمع الاعتـذار عـن الاسـتاذ أضـيفت تلـك الجملات لانسجام المطلب ـــ المترجم) يختلف. وقال الفقهاء لابد وأن يتعين بسم الله الـرحمن الرحيم لكل سورة فإذا قرأ بسم الله بنية سورة في الصلاة فلا يجـوز ابتـداء سـورة اخـرى بتلـك التسميه، وهذا القول على المسلك الفقهي لا يخلو من وجه، وعلى هذا التحقيق وجيه، وبالنظر الى اضمحلال الكثرات في حضرة اسم الله الأعظم فلبسم الله في جميع الـسور معنـى واحـد كمـا أن هاتين النظرتين موجودتان في مراتب الوجود ومنازل الغيب والشهود. فبنظر الكثرة ورؤية التعينات والموجودات متكثرة ومراتب الوجود وتعينات عالم الأسماء مختلفة، فرحمانية ورحيميـة وقهريـة ولطفية، وفي نظر اضمحلال الكثرات وانمحاء انوار الوجودية في النور الأزلي للفـيض المقـدس، فليس من سوى الفيض المقدس والاسم الجامع الإلهي خبر ولا اثر، وهذان النظران موجودان فـي الأسماء والصفات الإلهية ايضا، فبالنظر الاول فحضرة الواحدية مقام كثرة الأسماء والـصفات وان جميع الكثرات من تلك الحضرة، وبالنظر الثاني ليس من سوى حضرة اسـم الله الأعظـم اسـم ولا رسم وهذان النظران حكميان وبقدم الفكر، وأما إذا كان النظر نظر العـارف بفـتح أبـواب القلـب

وبقدم السلوك والرياضات القلبية فيتجلى الحق تعالى بالتجليات الفعلية والاسمية والذاتية لقلوب اصحاب التجلي تارة بنعت الكثرة وطورا بنعت الوحدة. وقد أشير الى هذه التجليات في القرآن الشريف تارة بالصراحة مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا﴾ (الأعراف ـ ١٤٣) وأخرى بالإشارة مثل مشاهدات ابراهيم ورسول الله صلى الله عليه وآله المذكورة في سورتي الأنعام والنجم والإشارة إلى ذلك في الأخبار وأدعية المعصومين عليهم السلام كثيرة خصوصا في دعاء السمات العظيم الشأن الذي لا يتجرأ المنكرون على إنكار سنده ومتنه وهو مقبول للعامة والخاصة، والعارف والعامي، وفي ذلك الدعاء الشريف من المضامين العالية والمعارف الكثيرة ما يغشي شميمة قلب العارف ونسيمه ينفخ النفخة الإلهية في روع السالك مثل قوله: " وبنور وجهك الذي تجليت به للجبل فجعلته دكا وخر موسى صعقا وبمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلمت به عبدك ورسولك موسى بن عمران عليه السلام وبطلعتك في ساعير وبظهورك في جبل فاران " .

وبالجملة، لابد للسالك إلى الله في وقت التسمية أن يفهم قلبه أن جميع الموجودات الظاهرة والباطنة وجميع عوالم الغيب والشهادة تحت تربية أسماء الله، بل ظاهرة بظهور أسماء الله وجميع حركاته وسكناته وجميع العالم بقيمومية اسم الله الأعظم، فمحامده للحق وعبادته وإطاعته وتوحيده وإخلاصه كل ذلك بقيمومة اسم الله، فإذا أحكم واستقر هذا المقام وهذه اللطيفة الإلهية في قلبه بواسطة التذكر الشديد الذي هو غاية العبادات، كما قال تعالى في خلوة الأنس ومحفل القدس لكليمه موسى بن عمران: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه ـ ١٤) . فجعل غاية إقامة الصلاة ذكره، فبعد التذكر الشديد يفتح لقلب العارف طريق آخر من المعارف ويجذب الى عالم الوحدة حتى يكون لسان حاله وقلبه بالله الحمد لله وأنت كما أثنيت على نفسك وأعوذ بك منك.

هذا إجمال من سر تعلق باء بسم الله، ونبذة من المعارف التي يستفاد منها.

وأما أسرار الباء ونقطة تحت الباء التي باطنها مقام الولاية العلوية ومقام جمع الجمع القرآني فيستلزم مجالا أوسع.

وأما حقيقة الاسم فإن لها مقاما غيبيا وغيب الغيبي، وسريا وسر السرّي، ومقام ظهور وظهور الظهور، وحيث أن الاسم علامة للحق وفان في الذات المقدسة فكل اسم يكون أقرب الى أفق الوحدة وأبعد من عالم الكثرة فهو في الأسمية أكمل، وأتم الأسماء اسم يكون مبرأ عن الكثرات حتى عن الكثرة العلمية وهو التجلي الغيبي الأحدي الأحمدي في حضرة الذات بمقام الفيض الأقدس، ولعله تشير إليه كريمة أو أدنى وبعده التجلي بحضرة اسم الله الأعظم في الحضرة

الواحدية، وبعده التجلي بالفيض المقدس، وبعده التجليات بنعت الكثرة في حضرات الأعيان الى أخيرة دار التحقق، وقد كتبت تفصيل هذا الإجمال في رسالتي مصباح الهداية وشرح دعاء السحر (طبعت هاتان الرسالتان بترجمة منّي في إيران وبتعليقات مني أيضا في بيروت وهما من أنفس الكتب في العرفان).

والله مقام الظهور بالفيض المقدس إن كان المراد بالاسم التعينات الوجودية وإطلاق الله له من جهة اتحاد الظاهر والمظهر وفناء الاسم في المسمى بلا إشكال. ولعل كريمة ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور ـ ٣٥) وكريمة ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ (الزخرف ـ ٨٤) تكون إشارة الى هذا المقام وشاهدا لهذا الإطلاق، وان كان المراد من الاسم مقام التجلي بالفيض المقدس فالله مقام الواحدية وجمع الأسماء، وبعبارة أخرى مقام الاسم الأعظم، ولعل هذا أظهر من سائر الاحتمالات وان كان المقصود من الاسم: الاسم الأعظم، فمقام الذات أو مقام الفيض الأقدس ويختلف مقام الرحمن الرحيم على حسب هذه الاحتمالات كما هو ظاهر.

والرحمن الرحيم يمكن أن يكونا صفتي الاسم ويمكن أن يكونا صفتي الله والأنسب أن يكونا صفتي الاسم لأنهما في التحميد صفتي الله فعلى هذا تكون مصونة من احتمال التكرار وان كان له توجيه حتى إذا كانا صفة لله، وفي التكرار أيضا نكتة البلاغة وان أخذناهما صفة للاسم فيؤيد أن المراد من الاسم الأسماء العينية لأن المتصف بالصفات الرحمانية والرحيمية ليس إلاَّ الأسماء العينية، فإذا كان المراد من الاسم الإسم الذاتي والتجلي بالمقام الجمعي فالرحمانية والرحيمية من الصفات الذاتية التي ثبتت لحضرة اسم الله في التجليات بمقام الواحدية، والرحمة الرحمانية والرحيمية الفعلية من تنزلاتها ومظاهرها. وان كان المراد من الاسم التجلي الجمعي الفعلي وهو مقام المشيئة، فالرحمانية والرحيمية من صفات الفعل، فالرحمة الرحمانية هي بسط أصل الوجود وهي عامة لجميع الموجودات ولكنها من الصفات الخاصة للحق لأنه ليس له شريك في بسط أصل الوجود. وسائر الموجودات قاصرة الأيدي من الرحمة الايجادية ولا مؤثر في الوجود إلاَّ الله ولا اله في دار التحقق إلاَّ الله. وأما الرحمة الرحيمية وهداية هداة الطريق أيضا من رشحاتها فهي مخصوصة للسعداء والفطر التي من العليّين ولكنها من الصفات العامة التي لسائر الموجودات أيضا منها حظ ونصيب، وان كنا أشرنا سابقا أن الرحمة الرحيمية أيضا من الرحمة العامة وعدم شمولها الأشقياء من جهة نقصانهم لا من ناحية تحديد الرحمة، ولهذا كانت الهداية والدعوة عامة لجميع العائلة البشرية كما يدل عليه القرآن الشريف، وبنظر آخر الرحمة الرحيمية أيضا مختصة للحق تعالى وليس لغيره فيها شركة. وفي الروايات بينت الرحمة الرحيمية بما يختلف على حسب اختلاف النظر والاعتبار فتارة قالوا " إن الرحمن اسم خاص لصفة عامة، والرحيم اسم عام لصفة

خاصة ″ وقالوا ″ الرحمن بجميع خلقه والرحيم بالمؤمنين خاصة ″، وقالوا ″ يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ″ وأخرى ″ يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ″.

تحقيق عرفاني: إن علماء الأدب قالوا: أن الرحمن والرحيم مشتق من الرحمة وللمبالغة ولكن المبالغة في الرحمن أكثر منها في الرحيم والقياس يقتضي أن يكون الرحيم مقدما على الرحمن ولكن الرحمن حيث إنه بمنزلة العلم الشخصي ولا يطلق على سائر الموجودات فلذا قدم وقال البعض أن كليهما بمعنى واحد وتكرارهما لمحض التأكيد.

وأما الذوق العرفاني الذي نزل القرآن بأعلى مراتبه فيقتضي أن يكون الرحمن مقدما على الرحيم لأن القرآن الشريف عند أصحاب القلوب نازلة التجليات الإلهية والصورة الكتبية للأسماء الحسنى الربوبية، وحيث أن اسم الرحمن أكثر الأسماء الإلهية إحاطة بعد الاسم الأعظم وقد حقق عند أصحاب المعرفة أن التجلي بالأسماء المحيطة مقدم على التجلي بالأسماء المحاطة، وكل اسم يكون أكثر إحاطة فالتجلي به أيضا مقدم، فلذا كان التجلي الأول في الحضرة الواحدية التجلي باسم الله الأعظم وبعده التجلي بمقام الرحمانية، وان التجلي بالرحيمية بعد التجلي بالرحمانية وهكذا في التجلي الظهوري الفعلي أيضا التجلي بمقام المشيئة الذي هو الاسم الأعظم في هذا المشهد وظهور الاسم الأعظم الذاتي مقدم على جميع التجليات، والتجلي بمقام الرحمانية الذي له الإحاطة على جميع موجودات عالم الغيب والشهادة، والية الإشارة ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف ـ ١٥٦) مقدم على سائر التجليات واليه يشير سبقت رحمته غضبه ببعض الوجوه.

وبالجملة، حيث أن بسم الله على حسب الباطن والروح صورة التجليات الفعلية، وعلى حسب السر وسرِّ السرِّ صورة التجليات الأسمائية بل الذاتيه والتجليات المذكورة هي التجليات بمقام الله أولا وبعده بمقام الرحمن وبعد بمقام الرحيم، فلا بد أن تكون صورتها اللفظية والكتبية أيضا كذلك حتى تطابق النظام الإلهي والرباني، وأما تأخر الرحمن الرحيم في السورة المباركة الحمد عن رب العالمين فلعله من جهة أنه في بسم الله النظر الى ظهور الوجود من مكامن غيب الوجود، وفي السورة الشريفة النظر الى الرجوع والبطون وفي هذا الاحتمال إشكال، ولعل التأخر إشارة الى إحاطة الرحمة الرحمانية والرحيمية، ولعله لنكتة أخرى، وعلى كل حال ما ذكر من النكتة في بسم الله جدير بالتصديق ولعلها من بركات الرحمة الرحيمية في قلبي، قلب الأقل الأقل وله الحمد على ما أنعم.

بحث وتفصيل:

قال علماء الظاهر أن الرحمن والرحيم مشتقة من الرحمة ومأخوذ فيها العطوفة والرقة. وروي عن ابن عباس (رضي الله عنه) أنهما " اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر فالرحمن الرقيق والرحيم العطوف على عباده بالرزق والنعم ". وحيث أن العطوفة والرقة يلزمها الانفعال، فمن هذه الجهة قالوا بالتأويل والتوجيه في إطلاقهما على الذات المقدسة وذهبوا الى أنه مجاز، وبعض على أن مطلق الأوصاف من هذا النحو من قبيل: خذ الغايات واترك المبادئ. فإطلاقها للحق بلحاظ الآثار والأفعال لا بلحاظ المبادئ والأوصاف فمعنى الرحمن والرحيم للحق تعالى من هذا القبيل أو ما يقرب منه وبناء عليه فإطلاقها أيضا على الحق مجاز، وعلى كل حال فكونها مجازا بعيد وخصوصا في الرحمن فإنه بناء على المجازية لا بد أن يلتزم بأمر عجيب وهو أن هذه الكلمة قد وضعت لمعنى لا يجوز الاستعمال فيه ولا يمكن، وفي الحقيقة هذا مجاز بلا حقيقة فتأمل.

وقال أهل التحقيق في جواب الإشكالات من هذا النوع أن الألفاظ موضوعة للمعاني العامة والحقائق المطلقة، فبناء على هذا فالتقييد بالعطوفة والرقة ليس داخلا في الموضوع له، وفيما وضع له لفظ الرحمة، وهذا التقييد هو مخترع الأذهان العامية وإلا فلا دخل له في أصل الوضع، وهذا المطلب بعيد عن التحقيق ظاهرا لأنه من المعلوم أن الواضع أيضا أحد هذه الأشخاص المتعارفة ولم يلاحظ في حين الوضع المعاني المجردة والحقائق المطلقة، نعم لو كان الواضع هو الحق تعالى أو الأنبياء بالوحي أو الإلهام الإلهيين لكان لهذا المطلب وجه ولكن هو أيضا غير ثابت.

وبالجملة، فظاهر هذا الكلام مخدوش ولكن ليس من المعلوم أن يكون هذا الظاهر أيضا مقصودا لأهل التحقيق بل يمكن أن يقال في بيان هذا المطلب أن واضع اللغات وان لم يلاحظ في حين الوضع المعاني المطلقة المجردة ولكن ما وضعت له الألفاظ في إزائه هو المعاني المجردة المطلقة، فمثلا لفظ النور إذا أراد الواضع أن يضعه فما كان في لحاظه من الأنوار وان كانت هذه الأنوار الحسية العرضية لأنه ما كان يدرك ما وراء هذه الأنوار ولكن ما وقع لفظ النور في إزائه هو الجهة النورية لا جهة اختلاط النور بالظلمة بحيث لو قيل له بأن هذه الأنوار العرضية المحدودة ليست نورا صرفا بل هي نور مختلط بالظلمة والفتور. فهل وضعت لفظ النور بإزاء تلك الجهة النورية أو بإزاء النورية والظلمانية، فبالضرورة كان الجواب انه في إزاء جهة النورية، وأما جهة الظلمة فليس لها دخل في الموضوع له بوجه من الوجوه كما أنا كلنا نعلم أن الواضع حينما وضع لفظ النار ما كان في نظره غير النيران الدنيوية وما كان سببا لانتقاله الى هذه الحقيقة هو النيران الدنيوية وكان غافلا عن نار الآخرة ونار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة خصوصا إذا لم يكن معتقدا بعالم الآخرة، ومع ذلك لا تكون هذه الوسيلة للانتقال موجبة للتقييد في الحقيقة بل النار

وقعت بإزاء الجهة النارية فلا نقول أن الواضع جرد المعاني حتى يكون أمرا مستغربا بعيدا بل نقول أن الألفاظ وقعت في إزاء تلك الجهات للمعاني من دون التقييد بقيد، فبناء على هذا ليس ثمة جهة للاستبعاد في الأمر وكلما كان المعنى خاليا من الغرائب والأجانب فهو الى الحقيقة أقرب ومن شائبة المجاز أبعد، مثلا كلمة نور وهي موضوعة لما فيه جهة الظاهرية بالذات والمظهرية للغير وان كان إطلاقها على هذه الأنوار العرضية الدنيوية لا يخلو من الحقيقة لأن في إطلاقها عليها لم نلاحظ الجهة المحدودية والاختلاط بالظلمة، بل الملاحظ هو الظهور الذاتي والمظهرية ولكن إطلاقها على الأنوار الملكوتية التي ظهورها أكمل وبأفق الذاتية ومظهريتها كما وكيفا أكثر، واختلاطها بالظلمة والنقص أقل، الى الحقيقة أقرب، وإطلاقها على الذات المقدسة جل وعلا وهو نور الأنوار وخالص من جميع جهات الظلمة وصرف النور والنور الصرف حقيقة محضة وخالصة بل يمكن أن يقال أن النور لو كان موضوعا للظاهر بذاته والمظهر لغيره فإطلاقه على غير الحق تعالى حقيقة عند العقول الجزئية وأما عند العقول المؤيدة وأصحاب المعرفة فمجاز، وإطلاقه على الحق تعالى حقيقة فقط وهكذا جميع الألفاظ التي وضعت للمعاني الكمالية يعني الأمور التي من سنخ الوجود والكمال، فبناء على ذلك نقول أن في بسم الله الرحمن الرحيم والعطوف و الرؤوف وأمثالها جهة كمال وتمامية وجهة انفعال ونقص وهذه الألفاظ موضوعة بإزاء تلك الجهة الكمالية التي هي أصل تلك الحقيقة، وأما الجهات الانفعالية التي هي من لوازم النشأة وأجانب الحقيقة وغرائبها والتي تتلازم وتتشابك معها بعد تنزل هذه الحقائق في البقاع الإمكانية والعوالم النازلة الدنيوية كالظلمة التي اختلطت بالنور في النشأة النازلة، فلا دخل لها في المعنى الموضوع له، فإطلاقه على موجود واجد لجهة الكمال مبرءً من جهات الانفعال والنقص صرف الحقيقة وحقيقة صرفة.

وهذا المطلب بهذا البيان مضافا الى أنه قريب من ذوق أهل المعرفة مناسب لوجدان أهل الظاهر أيضا فعلى هذا فقد علم أن إطلاق هذا النحو من أوصاف الكمال التي اختلطت مع أمر آخر وتلازمت معه في بعض النشآت بعد التنزل، والذات المقدسة الحق جلّت عظمته منه مبرأ فإطلاقه على الحق تعالى ليس بمجاز، والله الهادي.

قوله: الحمد لله يعني جميع أنواع الحمد مختصة بذات الألولهية المقدسة.

اعلم أيها العزيز أن تحت هذه الكلمة الشريفة سر التوحيد الخاص بل أخص الخواص. واختصاص جميع المحامد من جميع الحامدين للحق تعالى على حسب البرهان واضح مبين عند أصحاب الحكمة وأئمة الفلسفة العالية لأنه قد لزم بالبرهان أن جميع دار التحقق ظل منبسط وفيض مبسوط لحضرة الحق وجميع النعم الظاهر وباطنة من أي منعم، وان كانت على حسب الظاهر،

وفي أنظار العامة من ذاك المنعم فهي من الحق تعالى جل وعلا وليس لأحد من الموجودات فيها شركة، حتى أن الشركة الإعدادية أيضا عند أهل الفلسفة العامية لا الفلسفة العالية، فحيث أن الحمد في مقابل النعمة والأنعام والإحسان، وليس في دار التحقيق منعم سوى الحق فجميع المحامد مختصة له، وأيضا ليس جمال وجميل سوى جماله وسواه، فالمدائح أيضا ترجع إليه.

وببيان آخر كل حمد ومدح من كل حامد ومادح بإزاء جهة النعمة والكمال ومحال النعمة والكمال ومورده‌ما التي تنقصهما وتحددهما ليس دخيلا في الحمد والمدح بوجه من الوجوه بل مناف ومضاد لهما، فالمحامد والمدائح كلها ترجع الى حظ الربوبية وهو الكمال والجمال لا الى حظ المخلوق وهو النقص التحديد.

وببيان آخر من الفطر الإلهية التي فطر جميع الخلق عليها ثناء الكامل وشكر المنعم وحمده.

وأيضا من الفطر الإلهية التنفّر من النقص والناقص ومنقص النعمة. وحيث أن النعمة المطلقة الخالصة من أي شوب أو نقص والجمال والكمال التام التمام المبرأ من كل نقص، مختصة بالحق وسائر الموجودات تنقص النعم المطلقة والجمال المطلق وتحددهما دون أن تزيدهما وتأيدهما ففطرة جميع الناس حامدة ومادحة للذات المقدسة ومتنفرة من سائر الموجودات إلاَّ الموجودات التي فنيت في ذات ذي الجلال على حسب السير في ممالك الكمال وبلاد العشق فإن العشق والمحبة لتلك الموجودات وحمدها ومدحها عين العشق بالحق وحمده (حب خاصان خدا حب خدا أست) (مصراع بيت للمولى العارف الرومي (حب المخصوصين بالله هو حب الله).

وما ذكر الى هنا أيضا على حسب مقامات المتوسطين الذين فيهم بقية من حجاب الكثرة ولم يبرؤوا من جميع مراتب الشرك الخفيّ والأخفى ولم يصلوا الى كمال مراتب الخلوص الإخلاص، وأما على حسب عرفان أصحاب القلوب الفانية في بعض الحالات الخاصه، فجميع النعم والكمال والجمال والجلال صورة التجلي الذاتي وجميع المحامد والمدائح مرتبطة بذات الحق تعالى المقدسة، بل المدح والحمد من نفسه لنفسه، كما يشير الى هذا المعنى تعلق بسم الله بالحمد لله.

واعلم أن السالك الى الله والمجاهد في سبيل الله لا بد له أن لا يقتنع بالحد العلمي لهذه المعارف ولا يصرف جميع عمره في الاستدلال الذي هو حجاب بل الحجاب الأعظم لأن هذه المرحلة لا يمكن طيها بالرجل الخشبية بل ولا بطائر سليمان (الرجل الخشبية التي يأخذها المعوق تحت إبطيه ويمشي بها، هنا إشارة الى بيت معروف من المولى العارف الرومي يقول: (باي استدلاليان بود باي جوبين سخت بي تمكين بود)

الإستدلاليون يمشون في طريق العلم بالرجل الخشبية فكما أنه لا يمكن الاعتماد عليها فإنها تنكسر فكذلك لا يمكن الاعتماد على الاستدلال. وهذا في مقابل الشهود والعيان وأما طائر سليمان فتعبير

دائر في لسان الشعراء يكنّون به عن سرعة السير كما يقول الحافظ الشيرازي ـ قطع اين مرحلة بـا مر غ سليمان كردم ـ تنهيت هذه المرحلة بمساعدة طائر سليمان.

إن هذا الوادي وادي المقدسين وهذه المرحلة مرحلة الأحرار، فما لم يخلـع نعلـي حـب الجـاه والشرف والأهل والولد وما لم يلق عصا الاعتماد والتوجه الى الغير عن اليمـين لا يمكـن وضـع القدم على الوادي المقدس الذي هو مكان المخلصين ومنزل المقدسين، وإذا خطى الـسالك فـي هذا الوادي بحقائق الإخلاص وألقى الكثرات والدنيا (وهي خيال في خيال) ووراء ظهره فإن بقـي فيه بقايا من الأنانية فيؤيد من عالم الغيب ويندك جبل انّيته بالتجليات الإلهية وتحـصل لـه حالـة الصعق والفناء، وقبول هذه المقامات للقلوب القاسية التي ليس عندها خبر سوى الدنيا وحظوظهـا ولا تتعارف إلاَّ بالغرور الشيطاني يكون صعبا جدا وينسب الى نسج الأوهام مـع أن الفنـاء الـذي نحن الآن فيه بالنسبة الى الطبيعة والدنيا بحيث أننا غافلون بالكلية عن عوالم الغيب التي هي أظهر من جميع الجهات من هذا العالم، بل إننا غافلون عن الذات وصفات الذات المقدسة التي يختص بها الظهور (وقد أشار الى ذلك مولانا أبي عبد الله عليه السلام في دعاء عرفة " ألغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك) ونتشبث لإثبات تلك العوالم والذات المقدسة للحق جـلا وعلا بذيل البرهان والاستدلال أغرب وأعجب بمراتب من الفناء الذي يدعيـه أصـحاب العرفـان والسلوك.

حيرت اندر حيرت آمد زين قصص بيهشيّ خاصكان اندر اخص (اخس) (الـشعر للعارف الرومي ذكره في ضمن نقل رواية يرويها أن رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه اسـتدعى جبرائيل أن يريه صورته الأصلية فظهر جبرائيل في صورته الأصلية وقـد مـلأت المـشرقين فخـرّ رسول الله صلى الله عليه وآله مغشيا عليه ثم يقول ان الحيرة في الحيرة تأتي من جهـة أنـه كيـف يمكن أن يكون الخاص مدهوشا في الأخص فذكر الأستاذ مدّ ظله التفصيل المذكور فـي المـتن للأخص. فتدبر).

وإن كان الأخص بالصاد فليس لشدة الحيرة حينئذ مجال لان فناء الناقص في الكامل أمـر طبيعـي وموافق للسنة الإلهية فالحيرة في الحيره في محل يكون الأخس بالسين كما أن هذا الصعق والفناء متحقق الآن لنا أجمع وقد انغمرت أسماعنا وأبصارنا في الطبيعة الى حد لـيس لنـا أي خبـر مـن ضوضاء عالم الغيب.

نقل وتحقيق:

اعلم أن علماء الأدب والظاهر قالوا ان الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري وحيث أنهم غافلون عن جميع الألسنة غير هذا اللسان اللحمي فلهذا حملوا تسبيح الحق تعالى وتحميده بل مطلق كلام ذاته المقدسة على نوع من المجاز وكذلك يحملون كلام الموجودات وتسبيحها على المجاز فيرون أن التكلم للحق تعالى عبارة عن إيجاد الكلام ويقولون أن التسبيح والتحميد في سائر الموجودات هو التسبيح والتحميد الذاتي التكويني، فهؤلاء في الحقيقة يحصرون النطق في نوع البشر ويظنون أن الذات المقدسة الحق جل وعلا وسائر الموجودات غير ناطقة، بل نعوذ بالله، يظنونها خرساء ويتوهمون أن ذلك تنزيه للذات المقدسة مع أن هذا تحديد بل تعطيل (بين في الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين أن التوحيد عبارة عن إخراج الذات المقدسة عن حدّ التعطيل والتشبيه ولتفصيل الكلام محل آخر) والحق سبحانه منزه عن هذا التنزيه، كما أن الغالب لتنزيهات العامة التحديد والتشبيه، ونحن ذكرنا من قبل كيفية وضع الألفاظ للمعاني العامة والمطلقة، والآن نقول أنا لا نتقيد بالصدق اللغوي أو لزوم تحقق الحقيقة اللغوية في هذه الحقائق الإلهية بل الميزان في هذه المباحث هو صحة الإطلاق ووجود الحقيقة العقلية وان كانت الحقيقة اللغوية أيضا ثابتة بالبيان السابق فنقول: أن للسان و التكلم والكلام والكتابة والكتاب والحمد والمدح مراتب على حسب النشآت الوجودية تتناسب كل مرتبة مع نشأة من النشآت ومرتبة من مراتب الوجود وحيث أن الحمد في كل مورد على جميل والمدح على جمال وكمال فالحق جلّ وعلا على حسب علمه الذاتي شاهد جماله الجميل في حضرة غيب الهوية بأتمّ مراتب العلم والشهود فكان مبتهجا بذاته الجميلة أشد مراتب الابتهاج (قولنا مبتهج بذاته لا يذهب عليك أن إطلاق لفظ الابتهاج في حقه تعالى وكذلك ألفاظ العشق والحبّ وأمثالهما التي تلازم نوعا من التجدد والحدوث والانفعال والإمكان هو على حسب معانيها العامة المتعارفة بل إنها أيضا من الألفاظ التي وضعت للمعاني المجردة وإطلاقها على الحق تعالى كإطلاق العطوف والرحمن وأمثالهما وهذه الأمور ليست من الأمور التي يستقيم بالإفهام العرفية لعوام الناس بل تحتاج الى بحث دقيق فلسفي وذوق فوار عرفاني رزقنا الله وإياكم. ″ المؤلف دام ظله ″)

فتجلي بالتجلي الأزلي بأعلى مراتب التجليات في حضرة الذات لحضرة الذات وهذا التجلي وإظهار ما في المكنون الغيبي والمقارعة الذاتية هو الكلام الذاتي الذي وقع بلسان الذات في حضرة الغيب ومشاهدة هذا التجلي الكلامي هو سمع الذات، وثناء الذات هذا لذات الحق هو ثناء الحق وتعجز سائر الموجودات عن إدراكه كما أن الذات المقدسة للنبي الخاتم الذي هو أقرب الموجودات وأشرفها يعترف بالعجز ويقول ″ لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ″

ومعلوم أن إحصاء الثناء فرع المعرفة بالكمال والجمال، وحيث أن المعرفة التامة للجمال المطلق لا تحصل، فالثناء الحقيقي لا يقع وغاية معرفة أصحاب المعرفة عرفان العجز عن المعرفة.
ويقول أهل المعرفة: إن الحق تعالى يحمد ويمدح نفسه بالألسنة الخمسة وهي لسان الذات من حيث هي، ولسان أحدية الغيب، ولسان الواحدية الجمعية، ولسان الأسماء التفصلية، ولسان الأعيان، وهذه الألسن غير لسان الظهور الذي أوله لسان المشيئة الى آخر مراتب التعيينات أي لسان الكثرات الوجودية.
واعلم أن لجميع الموجودات حظا بل حظوظا من عالم الغيب الذي هو الحياة محضا والحياة سارية في جميع دار الوجود، وهذا المطلب ثابت عند أرباب الفلسفة العالية بالبرهان وعند أصحاب القلوب والمعرفة بالمشاهدة والعيان، وتدل عليه الآيات الشريفة وأخبار أولياء الوحي عليهم الصلاة والسلام دلالة تامة، والمحجوبون من أهل الفلسفة العامية وأهل الظاهر حيث لم يدركوا نطق الموجودات قاموا بتأويله وتوجيهه.
ومن العجيب أن أهل الظاهر الذين كانوا يطعنون أهل الفلسفة بأنهم يؤوّلون كتاب الله على حسب عقولهم أولوا في هذه الموارد الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة على كثرتها بمجرد أنهم لم يدركوا نطق الموجودات مع أنه ليس بيدهم برهان فيؤولون القرآن من دون برهان، وعلى مجرد الاستبعاد.
بالجملة، إن دار الوجود أصل الحياة وحقيقة العلم والشعور وتسبيح الموجودات تسبيح نطقي شعوري إرادي لا التكويني الذاتي الذي يقوله المحجوبون، ولجميع الموجودات على حسب حظها من الوجود معرفة بمقام الباري جلت عظمته، وحيث أنه ليس لموجود الاشتغال بالطبيعة والانغمار في الكثرة الى الحد الذي هو للإنسان فلهذا كانت محجوبية الإنسان أكثر من جميع الموجودات إلاَّ أن يخرج من جلباب البشرية ويخرق حجب الكثرة والغيرية فيشاهد جمال الجميل بلا حجاب فيكون حمده ومدحه أجمع المحامد والمدائح، وهو إذاً يثني على الحق ويعبده بجميع الشؤون الإلهية وكل الأسماء والصفات.

تتميم:

اعلم أن الكلمة الشريفة " الحمد لله " على حسب ما بيناه من الكلمات الجامعة التي إذا حمد بها الحق تعالى بلطائفها وحقائقها فقد أدى حق الحمد بقدر ما في الطاقة البشرية، ولهذا وردت في الروايات الشريفة الإشارة الى هذا المعنى كما عن باقر العلوم سلام الله عليه ما مضمونه أنه خرج من دار وليس مركوبه على بابها فقال: لو وجد المركوب لحمدت الله حق حمده، فلمّا وجد

المركوب ركب عليه وسوى ثيابه فقال الحمد لله (مصراع وبيت من أبيات العارف الرومي). وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: " لا اله إلاّ الله نصف الميزان والحمد لله يملؤه ".

وهذا لما بيناه من أن الحمد جامع للتوحيد أيضا.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله " قول العبد الحمد لله أثقل في ميزانه من السموات السبع والأرضين السبع ". ونقل عنه صلى الله عليه وآله ما معناه: " لو أن الله سبحانه أعطى جميع الدنيا عبداً من عباده ثم يقول العبد الحمد لله لكان قوله أفضل مما أعطى ".. وعنه صلى الله عليه وآله أيضا " ما من شيء أحب الى الله من قول القائل الحمد لله.. ولهذا أثنى الله به على نفسه " والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

قوله تعالى رب العالمين: الرب إذا كان بمعنى المتعالي والثابت والسيد فهو من الأسماء الذاتية، وإذا كان بمعنى المالك والصاحب والغالب والقاهر فهو من الأسماء الصفاتية، وان كان بمعنى المربّي والمنعم والمتمم فهو من الأسماء الأفعالية.

والعالم ان كان عبارة عن سوى الله الشامل لجميع مراتب الوجود ومنازل الغيب والشهود فلا بد أن يعد الرب من أسماء الصفات وان كان المراد من العالم عالم الملك الذي هو تدريجي الحصول والكمال، فالمراد من الرب اسم الفعل ، وعلى أي حال ليس المراد منه هنا اسم الذات ولعله بقرينة أن المراد من العالمين هذه العوالم الملكية التي تحت التربية والتمشية الإلهية حتى تصل الى كمالها اللائق، فإن المراد من الربّ هو المربّي الذي هو من أسماء الأفعال.

واعلم أننا نكف في هذه الرسالة عن ذكر الجهات التركيبية واللغوية والأدبية للآيات الشريفة فقد تعرّض لها العلماء غالبا، وإنما نذكر هنا بعض الأمور التي يتعرّض لها أصلا أو ذكرت ذكرا ناقصا. وليعلم أن أسماء الذات والصفات والأفعال التي أشير إليها فهي على طبق اصطلاح أرباب المعرفة وبعض المشايخ من أهل المعرفة قسمت الأسماء في كتاب إنشاء الدائرة الى أسماء الذات وأسماء الصفات وأسماء الأفعال، وقال إن أسماء الذات هي الله الرب الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر العلي العظيم الظاهر الباطن الأول الآخر الكبير الجليل المجيد الحق المبين الواجد الماجد الصمد المتعالي الغنيّ النور الوارث ذو الجلال الرقيب.

وأسماء الصفات هي: الحي الشكور القهار القاهر المقتدر القوي القادر الرحمن الرحيم الكريم الغفّار الغفور الودود الرؤوف الحليم الصبور البرّ العليم الخبير المحصي الحكيم الشهيد السميع البصير.

وأسماء الأفعال هي: المبدىء الوكيل الباعث المجيب الواسع الحسيب المقيت الحفيظ الخالق البارئ المصوّر الوهّاب الرّزّاق الفتاح القابض الباسط الخافض الرافع المعزّ المذلّ الحكيم العدل

اللطيف المعيد المحيي المميت الوالي التوّاب المنتقم المقسط الجامع المغني المانع الضارّ النافع الهادي البديع الرشيد. (انتهى).

وذكروا في ميزان هذا التقسيم أن الأسماء وإن كانت كلها أسماء الذات ولكنها باعتبار ظهور الذات يقال لها أسماء الذات وباعتبار ظهور الصفات والأفعال يقال لها الأسماء الصفاتية والأفعالية بمعنى أن الاسم تابع لاعتبار يكون اظهر فلهذا قد يجتمع في بعض الأسماء اعتباران أو اعتبارات ثلاثة فيكون من الأسماء الذاتية والصفاتية والأفعالية، أو الاثنين من هذه مثل الرب كما ذكر.

وهذا المطلب لا يستقيم على مذاق الكاتب ولا يطابق الذوق العرفاني بل ما يبدو للنظر في هذا التقسيم أن الميزان في هذه الأسماء هو أن السالك بقدم المعرفة إذا حصل له الفناء الفعلي، فالتجليات لقلبه من الحق تعالى هي التجليات بأسماء الأفعال، وبعد حصول الفناء الصفاتي تكون التجليات الصفاتية وبعد الفناء الذاتي تكون التجليات بأسماء الذات، وإذا كان قلبه قادرا للحفظ بعد الصحو فما يخبره من المشاهدات الأفعالية فهو أسماء الأفعال، ومن المشاهدات الصفاتية فهو أسماء الصفات. وهكذا أسماء الذات، ولهذا المقام تفصيل لا ينبغي لهذه الأوراق.

وما ذكره في إنشاء الدائرة فهو غير صحيح طبقا للميزان الذي عيّنه نفسه كما يتضح ذلك بالنظر الى الأسماء.

ويمكن أن يقال أن هذا التقسيم الثلاثي للأسماء أشير إليه في القرآن الشريف في الآيات الأخيرة من سورة الحشر قال تعالى: " هو الله الذي لا اله إلاَّ هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم " الى آخر الآيات الشريفة، ولعل الأولى من هذه الآيات الشريفة تكون إشارة الى الأسماء الذاتية، والثانية إشارة الى الأسماء الصفاتية والثالثة إشارة الى الأسماء الأفعالية وتقديم الذاتية على الصفاتية والتجليات الصفاتية على الأفعالية على حسب ترتيب الحقائق الوجودية الإلهية لا على حسب ترتيب مشاهدات أصحاب المشاهدات والتجليات القلبية لأرباب القلوب.

ليعلم أن للآيات الشريفة رموزا أخرى لا يناسب المقام ذكرها، وأما كون الآية الثانية من الأسماء الصفاتية والثالثة من الأفعالية فواضح، وأمّا كون عالم الغيب والشهادة والرحمن والرحيم من الأسماء الذاتية فمبني على أن يكون الغيب والشهادة عبارة عن الأسماء الباطنة والظاهرة والرحمانية والرحيمية من تجليات الأقدس لا الفيض المقدس. واختصاص هذه الأسماء بالذكر مع أن الحي والثابت والرب وأمثالها يبدو للنظر أنها أقرب الى الأسماء الذاتية فلعله لإحاطتها لأنها من أمهات الأسماء، والله العالم.

تنبيه:

فقد وقع اختلاف عظيم في لفظ العالمين واشتقاقه ومعناه، فبعض على أن العالمين جمع ومشتمل على جميع أصناف الخلق من المادي والمجرد، وكل صنف هو عالم بنفسه، وهذا الجمع ليس له مفرد من جنسه، وهذا القول مشهور، وقال بعض أن العالم بفتح اللام اسم مفعول وعالِم بكسر اللام اسم فاعل وعالمين بمعنى معلومين وهذا القول مضافا الى أنه في حد نفسه لا شاهد له وبعيد، فإطلاق رب المعلومين بارد جدا وبلا مورد. وقال بعض أن اشتقاقه من العلامة وعليه فيطلق على جميع الموجودات لأنها كلها علامة وآية للذات المقدسة والواو والنون باعتبار الاشتمال على ذوى العقول وتغليبها على سائر الموجودات.

وذهب بعض الى انه مشتق من العلم، وعلى كل حال فإطلاقه على جميع الموجودات صحيح كما أن إطلاقه على ذوي العقول أيضا وجيه ولكن العالم يطلق على ما سوى الله ويطلق العالم أيضا على كل فرد وصنف، فإن كان الذي يطلق اللفظ من أهل العرف واللغة فباعتبار أن كل فرد علامة لذات الباري وفى كل شيء له آية، وان كان عارفا إلهيا فباعتبار أن كل موجود ظهور بالاسم الجامع ومشتمل على كل الحقائق بطريق ظهور أحدية الجمع وسر الوجود ومن هذه الجهة يمكن أن يقال أن جميع العالم وكل جزء منه هو الاسم الأعظم بمقام أحدية الجمع والأسماء كلها في الكل وكذا الآيات، وبناء على ما ذكر فإيراد الفيلسوف العظيم الشأن صدر الملة والدين (قدس سره) على أمثال البيضاوي وارد لأنهم لم يتذوقوا هذا المشرب، وأما في مسلك أهل العرفان فليس بصحيح، وحيث أن الكلام البيضاوي في هذا المقام وكلام الفيلسوف المذكور طويل تركنا ذكره فمن أراد فليراجع تفسير السورة الفاتحة للفيلسوف المرحوم.

والرب إن كان من أسماء الصفات بمعنى المالك والصاحب وأشباههما فيمكن أن يكون المراد من العالمين جميع ما سوى الله سواء أكان من الموجودات لعالم الملك أو الموجودات المجردة الغيبية، وأما إن كان من أسماء الأفعال، ولعل هذا هو الأظهر فالمراد من العالمين هو عالم الملك فقط لأن الرب حينئذ بمعنى المربّي، وهذا المعنى يستلزم التدريج والعوالم المجردة منزّهة عن التدريج الزماني وإن كان روح التدريج بمعنى متحقق في عالم الدهر عند الكاتب وبذاك المعنى أثبتنا الحدوث الزماني بمعنى روح الزمان ودهرية التدريج في العوالم المجردة أيضا، وفي المسلك العرفاني أيضا نقول بأن الحدوث الزماني ثابت لجميع العوالم لكن لا على نحو يسعه فهم المتكلمين وأصحاب الحديث.

تنبيه آخر:

اعلم أن الحمد حيث أنه في مقابل الجميل، ويستفاد من الآية الشريفة أن الحمد والثناء ثابتة لمقام الاسم الأعظم الذي هو الاسم الجامع له مقام ربوبية العالمين والرحمة والرحمانية والرحيمية وهو مالك يوم الدين، فلا بد أن يكون لهذه الأسماء الشريفة مدخلية تامة في التحميد.

ونحن نذكر بعد ذلك في ذيل مالك يوم الدين بيانا تفصيليا عن هذا المطلب.

ونتكلم الآن من مناسبة مقام ربوبية العالمين للتحميد وهذا التناسب من جهتين.

الجهة الأولى: أن الحامد حيث أنه بنفسه من العالمين بل هو ربما يكون عالما برأسه أحيانا بل في نظر أهل المعرفة كل موجود من الموجودات عالم برأسه فيحمد الحق لأنه ربّاه بيده التربوية في مقام الربوبية فأخرجه من الضعف والنقص والوحشة والظلمة والعدم والهيولاني الى القوة والكمال والطمأنينة ونورانية العالم الإنساني وأوصله عبر المنازل الجسمية والعنصرية والمعدنية والنباتية والحيوانية تحت النظام المرتب بالحركات الذاتية والجوهرية وأنواع العشق الفطري والجبلي الى منزل الإنسانية الذي هو أشرف منازل الموجودات، وبعد ذلك أيضا يربيه الى أن يصل الى حدّ لا يتّسع في الوهم.

آنجه اندروهم نايد آن شوم

بس عدم كردم عدم جون ارغنون كويدم كانا إليه راجعون

(مصراع وبيت من أبيات العارف الرومي)

الجهة الثانية: حيث أن تربية نظام عالم الملك من الفلكيات والعنصريات والجوهريات والعرضيات مقدمة وجود الإنسان الكامل، وفي الحقيقة هذه الوليدة عصارة عالم التحقق والغاية القصوى للعالمين ولهذه الجهة صارت الوليدة الأخيرة، وحيث أن عالم الملك متحرك بالحركة الذاتية الجوهرية وهذه الحركة ذاتية استكماليا فأينما انتهت فهو غاية الخلقة ونهاية السير، فإذا نظرنا بالطريق الكلي الى الجسم الكلي والطبع الكل والنبات الكل والحيوان الكل والإنسان الكل، فإن الإنسان هو الوليدة الأخيرة التي وجدت بعد الحركات الذاتية الجوهرية للعالم وانتهت الحركات إليه، فيد التربية للحق تعالى فيد التربية للحق تعالى قد ربّت الإنسان في جميع دار التحقق والإنسان هو الأول والآخر.

تنبيه آخر:

وهذا الذي ذكرناه في الأفعال الجزئية وبالنظر الى مراتب الوجود وإلا فبحسب الفعل المطلق ليست لفعل الحق تعالى غاية سوى ذاته المقدسة كما هو مبرهن في محالّه، وإذا نظرنا الى الأفعال

الجزئية أيضا فغاية خلقة الإنسان عالم الغيب المطلق كما ورد في القدسيات ″ يا بـن آدم خلقـت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي ″.. وفي القرآن الشريف يخاطب موسى ابن عمران على نبينا وآلـه وعليه السلام ويقول ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه ـ ٤١). وأيضا يقول: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ (طه ـ ١٣). فالإنسان مخلوق لأجل الله ومصنوع لذاته المقدسة وهو المصطفى والمختار من بين الموجـودات، وغاية سيره الوصول الى باب الله والفناء في ذات الله والعكوف لفناء الله ومعاده الـى الله ومـن الله وفي الله وبالله كما يقول سبحانه في القرآن: ″ إنّ إلينـا إيـابهم ″.. وسـائر الموجـودات بواسـطة الإنسان ترجع الى الحق تعالى بل مرجعها ومعادها الى الإنسان كما يقـول فـي الزيـارة الجامعـة المظهرة لنبذة من مقامات الولاية ″وإياب الخلق إليكم وحسابكم عليكم ″. ويقول: ″ بكم فتح الله وبكم يختم ″.. وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (الغاشـية ـ٢٥ـ٢٦).. وقوله عليه السلام في الزيارة الجامعة ″ وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم ″ سـر مـن أسـرار التوحيد وإشارة الى أن الرجوع الى الإنسان الكامل هو الرجوع الى الله لأن الإنـسان الكامـل فـانٍ مطلق وباقٍ ببقاء الله وليس له من عند نفسه تعيّن وإنّيّة وأنانية بل هو نفسه من الأسـماء الحـسنى وهو الاسم الأعظم.

كما أن الإشارة الى هذا المعنى كثيرة في القرآن والأحاديث الشريفة وان القرآن الشريف قد جمـع من لطائف التوحيد وحقائقه وسرائره ودقائقه ما تتحير فيه عقول أهل المعرفة وهـذا هـو الإعجـاز العظيم لهذه الصحيفة النورانية السماوية لا أن حسن التركيب ولطف البيان وغاية الفصاحة ونهايـة البلاغة وكيفية الدعوة والأخبار عن المغيبات وأحكام الأحكام وإتقـان التنظـيم للعائلـة وأمثالهـا فحسب التي يكون كل واحد منها باستقلاله إعجازا فوق الطاقة وخارقا للعادة بل يمكـن أن يقـال أن معروفية القرآن بالفصاحة واشتهار هذا الإعجاز من بين سائر المعجزات في الآفـاق لأنـه كـان للأعراب في الصدر الأول هذا التخصص وأدركوا هذه الجهة من الأعجاز فحسب، وأما الجهـات الأخرى المهمة التي كانت فيه وكانت جهة إعجازها أرفع، وأساس إدراكها أعلـى فلـم يـدركها أعراب ذلك الزمان، والحال أيضا أن المتحدين معهم في أفق الفهم لا يدركون مـن هـذه اللطيفـة الإلهية سوى التركيبات اللفظية والمحسنات البديعة والبيانيـة، أمـا المطلعـون لأسـرار المعـارف ودقائقها والخبراء بلطائف التوحيد والتجريد فوجهة نظرهم في هذا الكتاب الإلهي وقبلة أمالهم في هذا الوحي السماوي إنما هي معارفه وليس لهم توجّه كثير الى الجهات الأخرى. ومـن نظـر الـى عرفان القرآن وعرفاء الإسلام الذين اكتسبوا المعارف من القرآن وقايس بينهم وبين سـائر علمـاء الأديان وتصنيفاتهم ومعارفهم يعرف حد معارف الإسلام والقرآن التي هي أساس الـدين والديانـة

والغاية القصوى لبعث الرسل وإنزال الكتب ويصدق بلا مؤونة أن هذا الكتاب وحي الهي وهذه المعارف معارف إلهية.

إيقاظ إيماني:

اعلم أن الربوبية الحق جلّ شأنه للعالمين على نحوين:

الأول: الربوبية العامة التي تشارك فيها جميع موجودات العالم وهي التربية التكوينية التي توصل كل موجود من حد النقص الى حدّ الجمال اللائق له تحت تصرف الربوبي وتقع جميع الترقيات الطبيعية والجوهرية والحركات والتطورات الذاتية والعرضية تحت التصرفات الربوبية.

وبالجملة، التربية التكوينية من منزل مادة المواد والهيولى الأولى الى المنزل الحيواني وحصول القوى الجسمانية والروحانية الحيوانية، وانّ كلا منها يشهد بأن الله جلّ جلاله ربي.

والثاني من مراتب الربوبية، الربوبية التشريعية المختصة بالنوع الإنساني وليس لسائر الموجودات فيها نصيب، وهذه التربية هي هداية الطرق النجاة وإراءة سبل السعادة والإنسانية والتحذير من منافياتها قد أظهرها الله سبحانه بتوسط الأنبياء عليهم السلام، فإذا وقع إنسان بقدمه الإختيارية تحت تربية رب العالمين وتصرفه وصار مربى بتلك التربية بحيث لم تكن تصرفات أعضائه وقواه الظاهرية والباطنية تصرفات نفسانية بل كانت تصرفات إلهيه وربوبية يصل الى مرتبة الكمال الإنساني المختص بالنوع الإنساني.

إن الإنسان الى أن يصل الى منزل الحيوانية يكون متماشيا مع سائر الحيوانات ومن هذا المنزل يكون أمامه سبيلان لابد أن يسلكهما بقدم الاختيار، أحداهما طريق السعادة وهي الصراط المستقيم لرب العالمين، إن ربي على صراط مستقيم.

والثانية: طريق الشقاوة وهو الطريق المعوّج للشيطان الرجيم فإن جعل قواه وأعضاء مملكته في تصرّف رب العالمين وصار مربى بتربيته فيسلم القلب وهو سلطان هذه المملكة له وإذا صار القلب مربوبا لرب العالمين فيقتدي سائر جنوده له وتصير المملكة كلها مربوبة له، وفي هذا الوقت يتمكن لسانه الغيبي وهو ظل القلب أن يجيب ملائكة عالم القبر حين تقول له من ربك ؟ بأن: الله جلّ جلاله ربي. وحيث أن هذا الشخص قد أطاع رسول الله واقتدى بأئمة الهدى وعمل بكتاب الله فينطق لسانه بقوله: محمد صلى الله عليه وآله نبيّي، وعليّ وأولاده المعصومون أئمتي والقرآن كتابي، لكنه إذا لم يصر القلب إلهيا وربوبيا ولم ينتقش نقش لا اله إلاَّ الله ومحمد رسول الله وعلي ولي الله على لوح القلب ولم يصر صورة باطنية للنفس ولم ينتسب الى القرآن بالعمل به والتفكر

والتذكر والتدبّر فيه ولم يرتبط هو بالقرآن ارتباطا روحيا ومعنويا، ففي سكرات الموت وشدائده وفي حال الموت الذي هو الداهية العظمى تنمحي جميع المعارف عن خاطره.
أيا عزيزي، إن الإنسان ينسى جميع معلوماته عند ابتلائه بمرض أو ضعف قواه الدماغية إلاَّ أمورا قد صارت بشدة التذكر والأنس بها جزء من فطراته الثانوية، وإذا دهمته داهية عظمى ومخوفة فيغفل عن أكثر أموره ويخط خط النسيان على معلوماته، فماذا يكون حاله في أهوال الموت وشدائده وسكراته، وإذا كان سمع القلب غير منفتح ولم يكون قلبه سميعا فلا ينفعه تلقين العقائد حين الموت وبعد الموت، والتلقين ينفع لمن يكون قلبه خبيرا بالعقائد الحقه ويكون سمع قلبه منفتحا، وقد حصلت له غفلة ما في تلك السكرات والشدائد فيصير التلقين وسيلة الى أن يوصلها ملائكة الله الى سمعه، ولكن إذا كان الإنسان أصم ولم يكن له سمع عالم البرزخ أبدا فلا يؤثر التلقين في حاله، وقد أشير الى بعض ما قلناه في الأحاديث الشريفة.
قوله تعالى: الرحمن الرحيم:
اعلم أن لجميع الأسماء والصفات للحق تعالى جل وعلا مقامين ومرتبتين على النحو الكلّي:
أحدهما مقام الأسماء والصفات الذاتية الثابتة في الحضرة الواحدية كالعلم الذاتي الذي هو من الشؤون الذاتيه والقدرة والإرادة الذاتيتين وسائر الشؤون الذاتية.
والثاني: مقام الأسماء والصفات الفعلية الثابتة للحق بتجلي الفيض المقدس كالعلم الفعلي الذي يثبته الاشراقيون ويرونه مناطا للعلم التفصيلي، وقد أقام البرهان عليه أفضل الحكماء الخواجة نصير الدين الطوسي (هو حجة الفرقة الناجية الفيلسوف المحقق أستاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي الجهرودي ممدوح أكابر الآفاق ومجمع مكارم الأخلاق الذي لا يحتاج الى التعريف لغاية شهرته مع أن كل ما يقال فيه فهو دون رتبته. ولد في ١١جمادى الأولى سنة ٥٩٧ بطوس ونشأ بها ولذلك أشتهر بالطوسي وصنّف كتبا ورسائل نافعة نفيسة في فنون العلم له تجريد الكلام وهو كتاب كامل في شأنه وصفه الفاضل القوشجي بأنه مخزون بالعجائب مشحون بالغرائب صغير الحجم وجيز النظم كثير العلم جليل الشأن حسن الانتظام مقبول الأئمة العظام ولم يظفر بمثله علماء الأعصار وهو في الأشتهار كالشمس في رابعة النهار (انتهى).
شرحه جمع من أعاظم العلماء أولهم آية الله العلامة (رحمه الله) وله كتاب التذكرة النصيرية في علم الهيئة الذي شرحه النظام النيسابوري والأخلاق الناصرية وآداب المتعلمين وأوصاف الأشراف وكتاب قواعد العقايد وتحرير المجسطي وتحرير أصول الهندسة لإقليدس الى غير ذلك. حكي أنه قدس سره قد عمل الرصد العظيم بمدينة مراغة وأتخذ في ذلك خزانة عظيمة ملأها من الكتب

وكانت تزيد على أربعمئة ألف مجلّد وكان من أعوانه على الرصد من العلماء جماعة أرسل إليهم الملك هلاكوخان منهم العلامة قطب الدين الشيرازي ومؤيد الـدين العروضـي الدمـشقي وكـان متبحرا في الهندسة وآلات الرصد ومحيي الدين الأخلاطـي وكـان مهندسـا متبحـرا فـي العلـوم الرياضية وغيرهم من الفضلاء فضبطوا حركات الكواكب.

وحكي من أخلاقه الكريمة أن ورقة حضرت إليه من شخص فكان ممّا فيها: يا كلب بـن الكلـب. فكان الجواب: أما قولك يا كذا فليس بصحيح لأن الكلب مـن ذوات الأربـع وهـو نـابح طويـل الأظفار وأما أنا فمنتصب القامة بادي البشرة عريض الأظفار ناطق ضاحك فهذه الفصول والخواص غير تلك الفصول والخواص، وأطال في نقض كل ما قاله. هكذا ردّ عليه بحسن طوية وتـأنّ غيـر منزعج ولم يقل في الجواب كلمة قبيحة، وتوفي قدس سره في يوم الغدير سنة ٦٧٣ (خعج) ودفن في جوار الإمامين موسى بن جعفر والجواد عليهما السلام في المكان الذي أعدّ للناصـر العبّاسـي فلم يدفن فيه.) نضر الله وجهه، وتبع الإشراقيين في هذا المعنى وهو أن الميزان في العلم التفصيلي العلم الفعلي، وهذا المطلب وان كان على خلاف التحقيق بل العلم التفصيلي ثابت في مرتبة الذات وإنّ كشف العلم الذاتي وتفصيله أعلى وأكثر من العلم الفعلي، كما ثبت وحقق فـي محلـه علـى وجه البرهان النوري، ولكن أصل المطلب وهو أن نظام الوجود هو العلم الفعلي التفـصيلي للحـق ثابت ومحقق في سنّة البرهان ومشرب العرفان وان كان للمسلك الأعلى العرفاني وذوقه الأصـلي طريقة غير هذه الطرق. (مذهب عاشق زمذهبها جدا است).

وبالجملة، إن للرحمة الرحمانية والرحيمية مرتبتين وتجليين. أحدهما:

في مجلى الذات في حضرة الواحدية بتجلي الفيض الأقدس.

والثاني في مجلى الأعيان الكونية بتجلي الفيض المقدس، ففي السورة المباركة إن كـان الـرحمن الرحيم من صفات الذاتية كما هو ظاهر ففي الآية الشريفة بسم الله الرحمن الرحيم يمكن أن تجعل هاتين الصفتين تابعتين للاسم، فتكونا من الصفات الفعلية، وبناء على هذا فليس في المقام تكـرار أصلا حتى يقال أنه للتأكيد والمبالغة وعلى هذا الاحتمال فمعنى الآيات الشريفة والعلـم عنـد الله يكون هكذا:

بمشيئته الرحمانية والرحيمية الحمد لذاته الرحمانية والرحيمية وكما أن مقام المـشيئة هـو تجلـي الذات المقدسة فمقام الرحمانية والرحيمية الذي هو من تعينات مقـام المـشيئة تجلـي الرحمانيـة والرحيمية الذاتيتين، وهنا احتمالات أخر تركنا ذكرها لكون هذا الاحتمال أظهر.

قوله تعالى مالك يوم الدين:

قرأ كثير من القرّاء ملك بفتح الميم وكسر اللام وذكروا لكل من هاتين القراءتين ترجيحات أدبية، حتى أن بعض الأعاظم من العلماء رحمه الله كتب رسالة في ترجيح ملك على مالك، وما ذكره الطرفان ليس مما يحصل به الاطمئنان، وما في نظر الكاتب أن مالك راجح بل متعيّن لان هذه السورة المباركة والسورة المباركة التوحيد ليستا كسائر السور القرآنية بل حيث أن الناس يقرأون هاتين السورتين في فرائضهم ونوافلهم وفي كل عصر من العصور يسمعها ملايين من المسلمين من مئات ملايين المسلمين وهم كذلك من مئات الملايين سابقيهم وهكذا بالتسامح ثبتت هاتان السورتان الشريفتان على هذا النحو الذي يقرؤونه من دون تقدم حرف وتأخره ومن دون زيادة حرف ونقصه عن الأئمة الهداة والنبي صلى الله عليه وآله. ومع أن أكثر القراء قرؤوها ملك وكثير من العلماء رجّحوا ملك مع ذلك ما ضرّت هذه الأمور في هذا الأمر الثابت الضروري والمتواتر القطعي ولم يتبعهم الناس ومع أن العلماء يجوّزون تبعية كل من القرّاء لم يقرأ أحد في مقابل هذه الضرورة (ملك) في صلاته إلاّ الشّاذ الذي لا يعتني بقوله، وان قرأ أحد ملك قرأ مالك أيضا من باب الاحتياط، كما أن شيخنا العلاّمة في العلوم النقلية الحاج الشيخ عبد الكريم اليزدي قدس سره كان يقرأ ملك أيضا باستدعاء من أحد علمائنا الأعلام المعاصر ولكن هذا الاحتياط في غاية الضعف بل على عقيدة الكاتب مقطوع خلافه. ومن هذا البيان الذي ذكرناه علم ضعف ما قالوا أن ملك ومالك متشابهان في الخط الكوفي لأن هذا ربما يمكن أن يدعى في السور التي ليست كثيرة التداول على الألسنة على إشكال فيه أيضا، ولكن في مثل هذه السورة التي ثبوتها بالتسامع والقراءة كما هو واضح جدا دعوى بلا محتوى وقول بلا اعتبار، وهذا الكلام الذي ذكرناه جار في كفوا أيضا لأن القراءة بالواو المفتوحة والفاء المضمومة مع أنها قراءة عاصم فقط فمع ذلك هي أيضا ثابتة بالضرورة بالتسامع، وان القراءات الأخر لا تعارض هذه الضرورة وان كان البعض يحتاط بزعمه ويقرؤوها بضمّ الفاء والهمزة طبقا لقراءة الأكثر ولكن لا مورد لهذا الاحتياط ولو نوقش في الروايات التي أمر فيها بالقراءة كقراءة الناس، كما أنها أيضا محل المناقشة، ومن المظنون أن المراد من تلك الروايات أن اقرؤوا كما يقرأ عامة الناس لا أنكم مخيّرون بين القراءات السبع مثلا، فحينئذ تكون قراءة ملك وكفوا بغير ما هو مشهور بين المسلمين ومسطور في الصحف غلطا، وعلى كل حال الأحوط قراءتها على النحو المتداول بين الناس والمشهور على الألسنة والمسطور في القرآن لأن القراءة على هذا النحو صحيحة على جميع المسالك والله أعلم.

تحقيق حكمي:

اعلم أن مالكية الحق تعالى ليست كمالكية العباد مملوكاتهم ولا كمالكية السلاطين ممالكهم لأنها إضافات اعتبارية وليست إضافة الحق الى الخلق من هذا القبيل، وان كان هذا النحو من المالكية ثابتاً للحق تعالى طولا عند علماء الفقه وهو لا ينافي ما هو ملحوظ ومذكور في هذا النظر.

وليست من قبيل مالكية الإنسان أعضاءه وجوارحه وليست أيضا من قبيل مالكيته قواه الظاهرية والباطنية وان كانت هذه المالكية أقرب الى مالكيته تعالى من سائر أنواع المالكية المذكورة سابقا.

وليست من قبيل مالكية النفس لأفعالها الذاتية التي هي من شؤون النفس كإيجاد الصور الذهنية التي يكون قبضتها وبسطها الى حد تحت إرادة النفس أيضا وليست أيضا من قبيل مالكية العوالم العقلية ما دونها وان كانت تلك العوالم متصرفة في هذه العوالم بالإيجاد والإعدام لان جميع دار التحقق الإمكانية الثابت في ناصيتها ذل الفقر محدودة بحدود ومقدرة بقدر ولو بالحد الماهوي وكل ما كان محدودا بحد يكون بينه وبين فعله بينونة عزليه على قدر محدوديته وليس له إحاطة قيومية حقانية، فجميع الأشياء متباينة مع منفعلاتها ومتقابلة معها بحسب مرتبة ذاتها ولهذه الجهة ليست لها إحاطة ذاتية قيومية، وأما مالكية الحق تعالى التي هي بالإضافة الإشراقية والإحاطة القيومية مالكية ذاتية حقيقية حقة بحيث ليست شائبة البينونة العزلية بوجه من الوجوه في ذاته وصفاته لموجود من الموجودات، وان مالكية الذات المقدسة لجميع العوالم على السواء من دون أن يتفاوت بوجه لموجود من الموجودات أو أن تكون إحاطته بعوالم الغيب والمجردات أكثر أو أقرب من العوالم الأخر لأنه يستلزم المحدودية والبينونة العزلية ويلازم الافتقار والإمكان تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا كما أنه يمكن أن تكون الإشارة الى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْه منكُمْ﴾(الواقعة ـ ٨٥)، و﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْه منْ حَبْلِ الْوَرِيد﴾ (ق ـ ١٦)، و ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَات وَالْأَرْض﴾ (النور ـ ٣٥). و ﴿هُوَ الَّذي في السَّمَاء إِلَهٌ وَفي الْأَرْض إِلَهٌ﴾ (الزخرف ـ ٨٤) و ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَات وَالْأَرْض﴾ (الحديد ـ ٢). وقول رسول الله على ما نقل ″لو دليتم بحبل الى الأرضين السفلى لهبطتم على الله ″.

((ـ بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي ج ٥٥ ص ١٠٧: وقال الطيبي: فيما رووا (لو دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله) دليتم أي أرسلتم، وعلى الله أي على علمه وقدرته وسلطانه)).

ملاحظة: هذا الشرح من دار الولاية للثقافة والإعلام وليس من الأصل...

وقول الصادق عليه السلام في رواية الكافي ″ لا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان ولا يكون الى مكان أقرب منه الى مكان ″.. وقول الإمام علي النقي عليه السلام (هو الإمام العاشر والبدر الباهر ذو الشرف والكرم والمجد والأيادي أبو الحسن الثالث علي النقي الهادي بن محمد بن علي بن

موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم. ولد عليه السلام بصريا من المدينة للنصف من ذي الحجة سنة ٢١٢ اثنتي عشرة ومئتين، وقيل يوم الجمعة ثاني رجب وقيل خامسه من تلك السنة. أمّه المعظّمة الجليلة سمّانة المغربية وفي الدر النظيم هي تعرف بالسيّدة وتكنّى أم الفضل. وقبض عليه السلام مسموما بسرّ من رأى في يوم الاثنين ثالث رجب سنة ٢٥٤ (رند) سنة أربع وخمسين ومئتين وله إحدى وأربعون سنة وأشهر. وكانت مدة إمامته ثلاثا وثلاثين سنة وأشهرا وكان في أيام إمامته بقية ملك المعتصم ثم ملك الواثق ثم ملك المتوكل ثم ملك المنتصر ثم ملك المستعين ثم ملك المعتز ودفن في داره بسرّ من رأى وخرج أبو محمد عليه السلام في جنازته وقميصه مشقوق وصلّى عليه ودفنه وقال المسعودي: وكانت وفاة أبي الحسن عليه السلام في خلافة المعتز بالله وذلك في يوم الاثنين لأربع بقين من جمادي الآخرة سنة ٢٥٤ وهو ابن أربعين سنة وقيل أبن اثنين وأربعين وقيل أكثر من ذلك. وسمع في جنازته جارية تقول ماذا لقينا في يوم الاثنين قديما وحديثا وصلى عليه احمد بن المتوكل على الله في شارع أبي أحمد في داره بسامرّا ودفن هناك (انتهى).). ″ واعلم أنه إذا كان في السماء الدنيا فهو كما هو على العرش والأشياء كلها له سواء علما وقدرة وملكا إحاطة ″. ومع أن مالكية الذات المقدسة لجميع الأشياء ولجميع العوالم على السواء مع ذلك يقول في الآية الشريفة مالك يوم الدين.. وهذا الاختصاص يمكن أن يكون إمّا لأجل أن يوم الدين هو يوم الجمع، فلهذه الجهة مالك يوم الدين الذي هو يوم الجمع مالك سائر الأيام المتفرقات، والمتفرقات في النشأة الملكية هي مجتمعات في النشأة الملكوتية، وأما لان ظهور مالكية الحق وقاهريته تعالى مجده في يوم الجمع الذي هو يوم رجوع الممكنات الى باب الله وصعود الموجودات الى فناء الله.

وتفصيل هذا الإجمال على وجه يناسب هذه الرسالة هو أن نور الوجود وشمس الحقيقة مادامت في السير التنزلي والنزول عن مكامن الغيب الى عالم الشهادة، يكون سيرها في الاحتجاب والغيبة، وبعبارة أخرى في كل تنزّل وتعيّن وفي كل تعيّن وتقيّد حجاب والإنسان حيث أنه مجتمع التعيّنات والتقيدات فهو محتجب بجميع الحجب السبعة الظلمانية والحجب السبعة النورية التي هي الأرضون السبع والسموات السبع على حسب التأويل، ولعل الرد الى أسفل السافلين أيضا عبارة عن الاحتجاب بجميع أنواع الحجب، ويمكن أن يعبّر بالليل وليلة القدر عن هذا الاحتجاب لشمس الوجود وصرف النور في أفق التعينات، ومادام الإنسان محتجبا في تلك الحجب فهو محجوب عن مشاهدة جمال الأزل ومعاينة النور الأول، وحيث أن جميع الموجودات في السير الصعودي عن المنازل السافلة لعالم الطبيعة بالحركات الطبيعية التي هي في جبلة ذاتها وأودعت فيها من نور جاذبة فطرة الله بتقدير من الفيض الأقدس في الحضرة العلميّة إذا رجعت الى الوطن الأصلي

والميعاد الحقيقي كما أشير الى ذلك كثيرا في الآيات الشريفة، فإنها تتخلص ثانيا من الحجب النورانية والظلمانية وتتجلى مالكية الحق تعالى وقاهريته، ويتجلى الحق بالوحدة والقاهرية وعند ذلك إذا رجع الأخر الى الأول واتصل الظاهر بالباطن وسقط حكم الظهور وتجلت حكومة الباطن فيجيء الخطاب عن المالك على الإطلاق وليس له مخاطب سوى ذاته المقدسة لمن الملك اليوم.. وحيث أنه ليس ثمة مجيب فيقول نفسه: لله الواحد القهار.. وهذا اليوم المطلق الذي هو يوم خروج شمس الحقيقة عن حجاب أفق التعينات يوم الدين بمعنى، لأن كل موجود من الموجودات في ظل الاسم المناسب له يفنى في الحق فإذا نفخ في الصور فيظهر من ذلك الاسم ويقترن مع توابع ذلك الاسم فريق في الجنة وفريق في السعير والإنسان الكامل في هذا العالم على حسب السلوك الى الله والهجرة إليه يخرج عن هذه الحجب وتظهر وتثبت له أحكام القيامة والساعة ويوم الدين فيظهر الحق على قلبه بمالكيته في هذا المعراج الصلاتي ويكون لسانه ترجمانا لقلبه وظاهره لسانا لمشاهدات باطنه، وهذا أحد أسرار اختصاص المالكية بيوم الدين.

الهام عرشي:

اعلم أن في باب العرش وحملته اختلافات وفي ظواهر الأخبار الشريفة أيضا اختلافا وان كان الاختلاف منفيا على حسب الباطن فإن العرش في النظر العرفاني والطريق البرهاني يطلق على معان كثيرة، واحد تلك المعاني ولم أره في لسان القوم هو الحضرة الواحدية التي هي مستوى الفيض الأقدس وحملته أربعة من أمهات الأسماء وهي: الأول والأخر والظاهر والباطن، والمعنى الأخر وما رأيته أيضا في لسان القوم الفيض المقدّس الذي هو مستوى الاسم الأعظم وحامله الرحمن الرحيم والرب والمالك، ومن إطلاقاته جميع ما سوى الله وحامله أربعة من الملائكة اسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل، والمعنى الآخر هو جسم الكل وحامله أربعة أملاك وهي صور أرباب الأنواع وقد أشير إليه في رواية الكافي. وربما أطلق على العلم ولعل المراد من العلم، العلم الفعلي للحق الذي هو عبارة عن مقام الولاية الكبرى وحملته أربعة من الأولياء الكمّل في الأمم السابقة وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى على نبينا وآله وعليهم السلام، وأربعة من الكمّل في هذه الأمة الرسول الخاتم وأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام، فإذا علمت هذه المقدمة فاعلم:

أنه في السورة الشريفة الحمد بعد اسم الله الذي هو إشارة الى الذات اختصت بالذكر هذه الأسماء الشريفة الأربعة وهي الرب والرحمن والرحيم والمالك، ويمكن أن يكون هذا الاختصاص لأن هذه الأسماء الشريفة الأربعة حملة عرش الوحدانية على حسب الباطن ومظاهرها الملائكة الأربعة

المقرّبون للحق تعالى حملة عرش التحقق، فالاسم المبارك الرب باطن ميكائيل وهو بمظهريته للرب موكل بالأرزاق ومربي دار الوجود، والاسم الشريف الرحمن باطن اسرافيل منشأ الأرواح والنافخ في الصور وباسط الأرواح والصور كما أن بسط الوجود أيضا باسم الرحمن، والاسم الشريف الرحيم هو باطن جبرائيل الموكل على تعليم الموجودات وتكميلها. والاسم الشريف المالك هو باطن عزرائيل الموكل بقبض الأرواح والصور وإرجاع الظاهر الى الباطن، فالسورة الشريفة الى مالك يوم الدين مشتملة على عرش الوحدانية وعرش التحقق ومشيرة الى حوامله، فجميع دائرة الوجود وتجليات الغيب والشهود التي ترجمانها القرآن مذكورة الى هذا الموضع من السورة، وهذا المعنى موجود جمعا في بسم الله الذي هو الاسم الأعظم وفي الباء التي هي مقام السببية وفي النقطة التي هي سر السببية وعليّ عليه السلام هو سر الولاية والله اعلم.

تنبيه عرفاني:

لعل في تقديم الرب وذكر الرحمن والرحيم بعده وفي تأخير المالك، إشارة لطيفة الى كيفية سلوك الإنسان من النشأة الملكية الدنيوية حتى الفناء الكلي أو حتى مقام الحضور عند مالك الملوك. فالسالك مادام في مبادئ السير فهو تحت تربية رب العالمين التدريجية لأنه أيضا من العالمين وسلوكه تحت تصرف الزمان والتدرج فإذا انسلخ عن عالم الطبيعة المتصرمة بقدم السلوك تتجلى لقلبه مرتبة الأسماء المحيطة التي لا تتعلق بالعالم فقط الذي يغلب عليه جانب السوائيه، وحيث أن للاسم الرحمن الشريف مزيد اختصاص بين الأسماء المحيطة فلهذه الجهة قد ذكر، وحين أن الرحمن ظهور الرحمة ومرتبة البسط المطلق فقد قدم على الرحيم الأقرب الى أفق البطون.

ففي السلوك العرفاني تتجلى أولا الأسماء الظاهرة وبعدها الأسماء الباطنة لأن سير السالك من الكثرة الى الوحدة حتى ينتهي الى الأسماء الباطنية المحصنة التي منها اسم المالك، ففي التجلي بالمالكية تضمحل كثرات عالم الغيب والشهادة ويحصل الفناء الكلي والحضور المطلق فإذا تخلص عن حجب الكثرة بظهور الوحدة والسلطنة الإلهية ونال المشاهدة الحضورية فيخاطب مخاطبة حضورية ويقول: إياك نعبد. فدائرة سير السائرين أيضا بتمامها مذكورة في السورة المباركة من أخيرة حجب عالم الطبيعة الى رفع جميع الحجب الظلمانية والنورانية وحصول الحضور المطلق وهذا الحضور هو القيامة الكبرى للسالك وقيام ساعته، ولعل المقصود من المستثنى في الآية الشريفة " فصعق من في السموات ومن في الأرض إلاَّ من شاء الله ". هو هذا النوع من أهل السلوك فإنه قد حصل لهم الصعق والمحو قبل النفخ الكلي في الصور، ولعل هذا

المعنى أحد محتملات قول رسول الله صلى الله عليه وآله: ″ أنا والساعة كهاتين ″ وجمع بين السبابتين الشريفتين.

تنبيه أدبي:

ما رأيناه في التفاسير المتداولة أو نقل عنهم أنهم فسروا الدين بمعنى الجزاء والحساب، وقد ذكر هذا المعنى في كتب اللغة أيضا واستشهد عليه بقول الشعراء العرب، مثل قول الشاعر ″ واعلم بأنّ كما تدين تدان ″ والقول المنسوب الى سهل بن ربيعة ″ ولم يبق سوى العدوان دنّاهم كما دانوا ″ وقالوا بأن الديّان وهو من الأسماء الإلهية أيضا بهذا المعنى ولعل المراد من الدين الشريعة الحقة، وحيث أن آثار الدين تظهر في يوم القيامة وتلقي الستار عن وجه الحقائق الدينية فيحق أن يقال لذاك اليوم يوم الدين، كما أن يومنا هذا هو يوم الدنيا لأنه يوم ظهور آثار الدنيا ولم تظهر صورة حقيقة الدين بعد، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ﴾ (إبراهيم ـ ٥)، وهي الأيام التي يعامل فيها الحق تعالى قوما بالقهر والسلطنة، ويوم القيامة أيضا يوم الله وكذلك هو يوم الدين أيضا لأنه يوم ظهور السلطنة الإلهية ويوم بروز حقيقة دين الله.

قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين:

اعلم أيها العزيز أنه إذا علم السالك في طريق المعرفة أن المحامد والمدائح بتمامها مختصة بذات الحق وعلم أن قبض الوجود وبسطه منه وعلم أن أزمّة الأمور في الأول والأخر والمبدأ والمنتهى بيد مالكيته وتجلى لقلبه توحيد الذات والصفات والأفعال فانه يحصر العبادة والاستعانة بالحق، ويرى جميع دار التحقق خاضعة لذاته المقدسة طوعا أو كرها ولا يرى قادرا في دار التحقق حتى ينسب الإعانة إليه، وما ذكره بعض أهل الظاهر من أن حصر العبادة حقيقي وأما حصر الاستعانة فليس بحقيقي لأنه يستعان بغير الحق، وفي القرآن الشريف ذكر سبحانه أيضا ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة ـ ٢). وقال: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ (البقرة ـ ٤٥) أيضا من المعلوم بالضرورة أن سيرة النبي الأكرم والأئمة الهداة وأصحابهم المسلمين قائمة على الاستعانة بغير الحق في غالب الأمور المباحة مثل الاستعانة بالدابة والخادم والزوجة والرفيق والرسول والأجير وغير ذلك، فهذا كله كلام على أسلوب أهل الظاهر، وأما من له علم بالتوحيد الفعلي للحق تعالى ويرى أن نظام الوجود صورة فاعلية الحق تعالى ويرى ببصيرته وقلبه النوراني إما برهانا أو عيانا انه لا مؤثر في الوجود إلاَّ الله، فهو يرى حصر الاستعانة أيضا حصرا حقيقيا ويرى إعانة سائر الموجودات صورة لإعانة الحق، وبناء على ما يذكره أهل الظاهر فاختصاص المحامد لله أيضا لا وجه له لأنه على هذا المسلك، فلسائر الموجودات تصرفات واختيارات وجمال وكمال تليق بها

للمدح والحمد بل الإحياء والإماتة والرزق والخلق وسائر الأمور مشتركة بين الحق والخلق، وهذه الأمور في نظر أهل الله هي الشرك وقد عبّر في الروايات عن هذه الأمور بالشرك الخفيّ، كمـا أن إدارة الخاتم لتذكر شيء عدّت من الشرك الخفيّ.
وبالجملة، إياك نعبد وإياك نستعين من متفرعات الحمد لله الذي هو إشارة الى التوحيد الحقيقـي، ومن لم تتجلّ حقيقة التوحيد في قلبه ولم يطهر قلبه من مطلق الشرك فقوله إياك نعبد عـار عـن الحقيقة ولا يتمكن من حصر العبادة والاستعانة بالحق ولا يكون شاهدا لله وطالبـا لله، وإذا تجلـى التوحيد في القلب فانه ينصرف عن الموجودات ويتعلق بعزّ قدس الحـق بمقـدار تجلّيـه الـى أن يشاهد انه باسم الله يقع إياك نعبد وإياك نستعين وتتجلى لقلبه بعض حقائق " أنت كما أثنيت على نفسك ".

تنبيه إشراقي:

قد تبين من بيانات هذه الرسالة نكتة العدول عن الغيبة الى الخطاب، وهـذا وان كـان بنفـسه مـن محسنات الكلام ومزايا البلاغة وكثيرا ما يقع في كلام الفصحاء والبلغاء ويوجـب حـسن الكـلام، ونفس الالتفات من حال الى حال يرفع السآمة عن المخاطب ويعطي روحه نشاطا جديدا، ولكـن حيث إن الصلاة معراج الوصول الى حضرة القدس ومرقاة حـصول مقـام الأنـس فهـذه الـسورة الشريفة تعطي تقريرا للترقي الروحاني والسفر العرفاني، وحيث أن العبد في بدء الـسلوك الـى الله محجوب في الحجب الظلمانية لعالم الطبع والحجب النورانية لعالم الغيب ومحبوس فيها، والـسفر الى الله هو الخروج من هذه الحجب بقدم السلوك المعنوي، وفي الحقيقة المهـاجرة الـى الله هـي الرجوع من بيت النفس وبيت الخلق الـى الله وتـرك الكثـرات ورفـض غبـار الغيريـة وحـصول التوحيدات والغيبة عن الخلق والحضور لدى الرب، فإذا رأى في الآية الشريفة مالك يـوم الـدين الكثرات منطوية تحت سطوع نور المالكية والقاهرية فتحصل له حالة المحو عن الكثرة ويحصل له الحضور في الحضرة ويقدّم العبودية بالمخاطبة الحضورية ومشاهدة الجمـال والجـلال ويعـرض مشاهداته لله وطلبه على محضر القدس ومحفل الأنس، ولعـل النكتـة فـي أن العبـد يـؤدي هـذا المقصد بضمير اياك هي ان هذا الضمير راجع الى الذات مضمحلة فيها الكثرات فيمكن أن تحصل للسالك في هذا المقام حالة التوحيد الذاتي وينصرف عن كثرة الأسماء والـصفات أيـضا وتكـون وجهة القلب حضرة الذات بلا حجب الكثرات وهذا هو كمال التوحيد الذي يقوله إمام الموحدين ومقدم حلقة العارفين وقائد العاشقين ورأس سلسلة المجذوبين والمحبوبين أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أولاده المعصومين: " وكمال التوحيد نفي الصفات عنه " لان للصفة وجهة الغيريـة

والكثرة. وهذا التوجه الى الكثرة الأسمائية بعيد عن سرائر التوحيد وحقائق التجريد، ولهـذا فلعـل سر خطيئة آدم عليه السلام كان التوجه الى الكثرة الأسمائية التي هي روح الشجرة المنهية.

تحقيق عرفاني:

اعلم أن أهل الظاهر ذكروا في ذكر نعبد ونستعين بصيغة المتكلم مع الغير مـع أن العابـد واحـد، نكاتا منها أن العابد يحتال حيلة شرعية تكون عبادته بها مقبولة لجناب الحق تعالى وهي أن يقـدم عبادته لجناب القدس وحضرة الرحمة ضمن عبادة سائر المخلوقين ومنهم كمّل أوليـاء الله الـذين يقبل الله تعالى عبادتهم كي تكون بهذه الوسيلة عبادته أيضا مقبولة ضمنا لان تبعض الصفقة لـيس من عادة الكريم.

ومنها تشريع الصلاة إذ كانت في أول الأمر مع الجماعة، فمن هذه الجهة أدّيت بلفظ الجمع ونحن ذكرنا نكتة في السرّ الجملي للأذان والإقامة يكتشف منها هذا السر فـي الجملـة، وهـي أن الأذان إعلان لقوى السالك الملكية والملكوتية بالحـضور فـي المحـضر وان الإقامـة هـي إقامتهـا فـي الحضور، فإذا أحضر السلك قواة الملكية والملكوتية في المحضر وقام القلب الـذي هـو إمامهـا بسمة الإمامة فقد قامت الصلاة وان المؤمن وحده جماعة.. فقول نعبد ونستعين وإهدنا كلها لأجل هذا الجمع الحاضر في محضر القدس، وقد أشير الى هذا المعنى في الروايات والأدعية الـصادرة عن أهل بيت العصمة والطهارة منابع العرفان والشهود.

والوجه الآخر الذي يتراءى في نظر الكاتب هو أن السالك في الحمد لله إذا جعل المحامد والأثنية من كل حامد ومثن في الملك والملكوت مقصورة ومخصوصة بالذات المقدسة للحق وقـد ظهـر أيضا في مدارك برهان أئمة البرهان وقلوب أصحاب العرفان أن لجميـع دائـرة الوجـود بملكهـا وملكوتها وقضها وقضيضها حياة شعورية إدراكية حيوانية بل إنسانية وهي حامدة مـسبحة للحـق تعالى عن استشعار وإدراك. وان الخضوع لدى حضرة الكامل المقدسة والجميـل علـى الإطـلاق ثابت في فطرة جميع الموجودات وخصوصا النوع الإنساني وناصية الكل في جناب قدسـه علـى التراب كما قال تعالى في القرآن الشريف:﴿وَإِن مِّن شَـيْءٍ إِلاَّ يُـسَبِّحُ بِحَمْـدَهِ وَلَكِـن لاَّ تَفْقَهُـونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء ــ ٤٤) وسائر الآيات الشريفة وأخبار المعـصومين المـشحونة بهـذه اللطيفـة الإلهية مؤيدة بالبرهان الحكمي المتين، فإذا وجد السالك الى الله هـذه الحقيقـة بقـدم الاسـتدلال البرهاني أو الذوق الإيماني أو المشاهدة العرفانية فهو يدرك في أي مقام هو فيه أن جميـع ذرات الوجود وسكنة الغيب والشهود عابدة للمعبود على الإطلاق وتطلب موجدها فيظهر بصيغة الجمـع أن جميع الموجودات في جميع حركاتها وسكناتها تعبد الذات المقدسة للحق تعالى وتستعين به.

تنبيه ونكتة:

اعلم أن العلماء قالوا في وجه تقديم إياك نعبد وإياك نستعين مع أن القاعـدة تقتـضي أن تكـون الاستعانة في العبادة مقدمة على نفس العبادة، ان ما قدم هو العبادة على الاستعانة لا علـى الإعانـة وربما تكون الإعانة من دون الاستعانة.

وأيضا حيث أنهما مرتبطان احدهما بالأخرى فلا فرق في التقديم والتأخير كما يقال قضيت حقـي فأحسنت إليّ، وأحسنت إليّ فقضيت حقي.

وأيضا الاستعانة هي للعبادة المستأنفة لا العبادة الواقعة، وبرودة هذه الوجوه ليست مختفيـة لأهـل الذوق، ولعل النكتة فيه أن حصر الاستعانة بالحق تعالى متأخر عن حـصر العبـادة علـى حـسب السلوك الى الله كما هو واضح فإن كثيرا من الموحدين في العبادة والحاصرين العبادة فـي الحـق مشركون في الاستعانة ولا يحصرون الاستعانة بالحق كما نقلناه عن بعض أرباب التفسير أن حصر الاستعانة ليس حقيقيا، فالحصر في العبادة بمعناه المتعارف من أوائـل مقامـات الموحـدين وأمـا حصر الاستعانة فهو ترك غير الحق مطلقا ولا يخفى أن المقصود من الاستعانة ليس الاستعانة فـي العبادة فقط بل الاستعانة في مطلق الأمور وهذا إنما يكون بعد رفض الأسـباب وتـرك الكثـرات والإقبال التام على الله.

وبعبارة أخرى، حصر العبادة هو حب الحق وطلب الحق وترك طلب الغير، وأما حـصر الاسـتعانة فهو رؤية الحق وترك رؤية الغير، وفي مقامات العارفين ومنازل السالكين ترك رؤية الغير متـأخّر عن ترك طلب الغير.

فائدة عرفانية:

اعلم أيها العبد السالك ان حصر العبادة والاستعانة للحـق أيـضا لـيس مـن مقامـات الموحّـدين والمدارج الكمالية للسالكين لان فيه دعوى تنافي التوحيد والتجريـد بـل رؤيـة العبـادة والعابـد والمعبود والمستعين والمستعان به والاستعانة كلها منافية للتوحيد، وفي التوحيـد الحقيقـي الـذي يتجلى لقلب السالك تستهلك كل هذه الكثرات وتضمحلّ رؤية كل هذه الأمور، نعم الذين انتبهوا من الجذبة الغيبية وحصل لهم مقام الصحو فليست الكثرة حجابـا لهـم وذلـك لان النـاس علـى طوائف. فطائفة هم المحجوبون أمثالنا المساكين المستغرقون في الحجب الظلمانية للطبيعة، وطائفة هم السالكون المسافرون الى الله والمهاجرون الى حضرة القدس. وطائفة هم الواصلون قد خرجوا عن حجب الكثرة واشتغلوا بالحق، وهم عن الخلق محجوبون وغافلون وقد حـصل لهـم الـصعق الكلي والمحو المطلق، وطائفة هم الراجعون الى الخلق الذين لهـم منـصب المكمّليـة والهادويّـة

كالأنبياء العظام والأوصياء لهم، عليهم السلام، وهذه الطائفة مع وقوعهم في الكثرة واشتغالهم بإرشاد الخلق لا تكون الكثرة حجابا لهم، ولهم مقام البرزخية، فبناء على هذا يفرق إياك نعبد وإياك نستعين على حسب حالات هؤلاء الطوائف، فمن أمثالنا المحجوبين فهو ادّعاء صرف وصورة محضة فان تنبّهنا لحجابنا ووجدنا نقصاننا، فبمقدار ما اطّلعنا على نقصاننا تنور عبادتنا وتقع موردا لعناية الحق تعالى وأما من السالكين فيقع هذا القول بمقدار سلوكهم قريبا من الحق ومن الواصلين فهو بالنسبة الى رؤيتهم الحق حقيقة وبالنسبة الى رؤية الكثرة صورة صرفة وجري على العادة، ومن الكاملين حقيقة صرفة فليس لهم حجاب حقي ولا حجاب خلقي.

إيقاظ إيماني:

اعلم أيها العزيز أننا مادمنا في هذه الحجب الغليظة لعالم الطبيعة ونصرف الوقت في تعمير الدنيا ولذائذها غافلين عن الحق تعالى وذكره، والتفكر فيه فجميع عباداتنا وأذكارنا وقراءاتنا عارية عن الحقيقة فلا في الحمد لله نتمكن من حصر المحامد للحق ولا في إياك نعبد وإياك نستعين نسلك طريقا من الحقيقة بل نحن مع هذه الدعاوى الفارغة مخزيون وناكسو الرؤوس في محضر الحق تعالى والملائكة المقربين والأنبياء المرسلين والأولياء المعصومين فإن من كان لسان حاله ومقاله مشحونا بمدح أهل الدنيا كيف يقول الحمد لله، وان من كانت وجهة قلبه الى الطبيعة ولم يشمّ رائحة الإلوهية وكان اعتماده واتكاله على الخلق فبأي لسان يقول إياك نعبد وإياك نستعين، فإذا كنت من رجال هذا الميدان فشمّر ذيل الهمة وأوصل الى قلبك هذه الحقائق واللطائف التي ذكرت في خلال هذه الرسالة في أوائل الأمر بشدّة التذكر والتفكر في عظمة الحق وفي ذلة المخلوق وعجزه وفقره، أحيي قلبك بذكر الحق تعالى كي تصل رائحة من التوحيد الى شامة قلبك وتجد طريقا الى صلاة أهل المعرفة بالإمداد الغيبي، وان لم تكن من رجال هذا الميدان فلا أقل من أن تجعل نقصك نصب عينيك. وتوجّه الى ذلتك وعجزك وقم بالأمر بالخجلة والاستحياء، واحذر من دعوى العبودية واقرأ هذه الآيات الشريفة التي ليست متحققا بلطائفها أما بلسان الكمّل، وأما أن يكون في نيّتك قراءة صورة القرآن صرفا حتى لا تدّعي باطلا ولا يكون ادّعاؤك كاذبا على الأقل.

فرع فقهي:

ذهب بعض الفقهاء الى عدم جواز قصد الإنشاء في إيّاك نعبد وإياك نستعين وأمثاله ظنّا منهم أنه ينافي القرآنية والقراءة لأن القراءة هي نقل كلام الغير.

وهذا الكلام ليس له وجه لأن الإنسان كما يمكن أن يمدح بكلامه مثلا إنسانا يمكن أن يمدحه بكلام الآخرين، فمثلا اذا مدحنا شخصا بشعر من الحافظ يصدق أنّا مدحناه ويصدق أيضا أنا قرأنا شعر الحافظ فإذا أنشأنا حقيقة جميع المحامد للحق بالحمد لله رب العالمين وأنشأنا قصر العبادة للحق بإيّاك نعبد يصدق أنّا حمدنا الله بكلامه وقصرنا العبادة لله بكلامه بل نقول:
إذا جرد أحد كلامه عن هذا المعنى الإنشائي، فهذا التجريد مخالف للاحتياط إن لم نقل ببطلان قراءته، نعم لو لم يعلم أحد معناه فلا يلزم له أن يتعلم بل تكفي له قراءة سورة الآية بما لها من المعنى، وفي الروايات الشريفة إشارة الى أن القارئ ينشيء كما في الحديث القدسي: " فإذا قال ـ أي العبد ـ في صلاته بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله ذكرني عبدي وإذا قال الحمد لله يقول الله حمدني عبدي " الى آخره.. وما لم يكن إنشاء الحمد والتثنية من جانب العبد فلا معنى لذكرني وحمدني وفي أحاديث المعراج يقول " الآن وصلت فسمّ باسمي". ويعلم من الحالات التي كانت تحصل لأئمة الهدى في مالك يوم الدين وإياك نعبد وتكرار بعض هذه الآيات أنهم كانوا ينشؤون وليست قراءتهم قراءة صرفة ومن قبيل إسماعيل يشهد أن لا اله إلاَّ الله، ومن إحدى مهمات اختلاف مراتب صلاة أهل الله الاختلاف في قراءتهم كما أشير في السابق الى نبذه منها، وهذا لا يتحقق إلاَّ إذا كان القارئ منشئا للقراءة والأذكار، والشواهد على هذا المعنى أكثر مما ذكرنا.
وبالجملة فجواز إنشاء هذه المعاني بالكلام الإلهي بلا إشكال.

فائدة:

إن أهل اللغة قالوا بأن العبادة بمعنى غاية الخضوع فلا تليق إلاَّ لمن له أعلى مراتب الوجود والكمال وأعظم مراتب النعم والإحسان. ومن هذا تكون عبادة غير الحق شركا ولعل في العبادة التي في اللغة الفارسية بمعنى (بر ستش وبندكي) معنى مأخوذا في حقيقتها أكثر من المعنى الذي ذكروه لها، وهو عبارة عن الخضوع للخالق ولله ولهذا يلازم هذا النحو من الخضوع اتخاذ المعبود الها وخالقا أو نظيرا وشبيها ومظهرا له مثلا فلهذه الجهة تكون عبادة غير الحق تعالى شركا وكفرا، وأما مطلق الخضوع من دون هذا الاعتقاد أو التجزّم بهذا المعنى ولو تكلّفا فإنه لا يوجب الكفر والشرك وان بلغ غاية الخضوع وان كان بعض أنواعه حراما كتعفير الجبين بالتراب للخضوع فهذا وان لم يكن عبادة لكنه ممنوع شرعا على الظاهر، فالحرمات التي يراعيها أرباب المذاهب لأعاظم مذاهبهم مع الاعتقاد بأنهم عباد فقراء الى الحق تعالى في كل شيء في أصل الوجود وكماله وعباد صالحون، ومع أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ومقربو جناب الحق تعالى ومورد عناياته ووسائل عطياته بواسطة العبودية ليس فيها شائبة الشرك والكفر، وحرمة خاصة الله

حرمته و (حب خاصان خدا حب أست) (مصراع بيت لعارف الرومي يقول: حب خواص الله حب الله) وأشهد بالله وكفى بالله شهيدا أن فيما بين الطوائف الطائفة التي امتازت عن جميع طوائف العائلة البشرية في توحيد الحق تعالى وتقديسه وتنزيهه ببركة أهل البيت الوحي والعصمة وخزّان العلم والحكمة هي طائفة الشيعة الإثنا عشرية وكتبهم في أصول العقائد مثل الكتاب الشريف أصول الكافي والكتاب الشريف توحيد الشيخ الصدوق رضوان الله عليه، وخطب أئمتهم المعصومين وأدعيتهم عليهم السلام التي صدرت في توحيد الحق جلّ وعلا وتقديسه من معادن الوحي والتنزيل تشهد أن تلك العلوم لم تكن لها سابقة لدى البشر وبعد الكتاب المقدس الوحي الإلهي والقرآن الشريف الذي كتب بيد القدرة لم يقدّس ولم ينزّه أحد الحق تعالى مثلهم، وعلى الرغم من أن الشيعة في جميع الأمصار والإعصار اتّبعت هؤلاء الأئمة المعصومين المنزّهين الموحّدين وعرفت الحق ونزّهته ووحّدته بالبراهين الواضحة. فمع ذلك فإن بعض الطوائف المعلوم من عقائدهم وكتبهم الإلحاد لما فيهم من النصب الباطني قد فتحوا باب الطعن واللعن على الشيعة ونسبوا التابعين لأهل بيت العصمة الى الشرك والكفر وهذا وان كان في سوق أهل المعرفة لا يقوّم بشيء ولكن فيه مفسدة ان يبعّد الناس الناقصين والعوام الجاهلين عن معادن العلم ويسوقهم الى الجهل والشقاوة وهذه جناية عظيمة لنوع البشر لا يمكن جبرانها بوجه، فلهذه الجهة طبقا لموازين العقلية والشرعية يكون وزر هذه الجماعة القاصرة الجاهلة المسكينة وذنبها على الذين لم يراعوا الأنصاف ومنعوا نشر المعارف والأحكام الإلهية لمنافع خيالية في أيام معدودة وأوجبوا الشقاوة للنوع البشري وضيّعوا وأبطلوا جميع ما تحمّل خير البشر صلوات الله عليهم من التعب وأغلقوا باب أهل بيت الوحي والتنزيل على الناس، اللهم العنهم لعنا وبيلا وعذبهم عذابا أليما.

قوله تعالى: إهدنا الصراط المستقيم الى آخر السورة:

اعلم أيها العزيز حيث أن في السورة الشريفة الحمد إشارة الى كيفية سلوك أرباب المعرفة والأرتياض والى إياك نعبد جميع كيفية السلوك من الخلق الى الحق فإذا ارتقى السالك من التجليات الأفعالية الى التجليات الصفاتية ومنها الى التجليات الذاتية وخرج من الحجب النورانية والظلمانية ووصل الى مقام الحضور والمشاهدة فحصلت له مرتبة الفناء التام وإصابة الاستهلاك الكلي، فإذا تمّ السير الى الله بغروب أفق العبودية وطلوع سلطنة المالكية في مالك يوم الدين ففي منتهى هذا السلوك تصيبه حالة التمكن والاستقرار ويصحو السالك وتحصل له حالة الصحو ويتوجّه الى مقامه ولكن إتباع التوجّه الى الحق بعكس حال الرجوع الى الله الذي كان التوجه الى الحق فيه بتبع التوجه الى الخلق، وبعبارة أخرى في حال السلوك الى الله كان يرى الحق في

الحجاب الخلقي وبعد الرجوع من مرتبة الفناء الكلي التي حصلت في مالك يوم الدين يرى الخلق في حجاب الحق، ومن هذه الجهة يقول إياك نعبد بتقديم ضمير إيّا وكاف الخطاب على ذاته وعبادته وحيث انه لا يمكن إلاَّ يكون لهذه الحالة ثبات ويتصوّر في هذا المقام أيضا الزلّة فيطلب من الحق تعالى ثباته ولزومه بقوله إهدنا أي ألزمنا كما في السر بهذا.
وليعلم أن هذا المقام الذي ذكر، والتفسير الذي بيّن إنما هو للكمّل من أهل المعرفة الذين مقامهم الأول أنهم في مقام رجوعهم من السير الى الله يكون الحق تعالى حجابا لهم عن الخلق ومقام كمالهم هو حالة البرزخية الكبرى التي لا يكون الخلق فيها حجابا لهم من الحق كأمثالنا المحجوبين ولا الحق يكون حجابا لهم عن الخلق كالواصلين المشتاقين والفانين المجذوبين، فالصراط المستقيم لهم عبارة عن هذه الحالة البرزخية المتوسطة بين النشأتين وهي صراط الحق وبناء على هذا يكون المقصود من الذين أنعمت عليهم هؤلاء الذين قدر الحق تعالى في الحضرة العلمية بالتجلي بالفيض الأقدس استعدادهم وبعد الفناء الكلي أرجعهم الى مملكتهم ويكون المغضوب عليهم على هذا التفسير المحجوبين قبل الوصول والضالين هم الفانون في الحضرة وأما غير الكمّل فإنهم إن لم يردوا في السلوك فهذه الأمور في حقهم غير صحيحة وصراطهم صراط ظاهر الشريعة ولهذا فسّر الصراط المستقيم بالدين والإسلام وأمثالهما وإن كانوا من أهل السلوك فالمقصود من الهداية ومن الصراط المستقيم أقرب طرق الوصول الى الله وهو طريق رسول الله وأهل بيته كما فسّر برسول الله وأئمة الهدى وأمير المؤمنين عليهم السلام، وكما في الحديث أن رسول الله رسم خطا مستقيما ورسم في أطرافه خطوطا قال رسول الله صلى الله عليه وآله هذا الخط الوسط المستقيم لي ولعل المراد من الأمة الوسط في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة ـ ١٤٣). الوسطية بقول مطلق وبجميع المعاني ومن جملتها الوسطية في جميع المعارف والكمالات الروحية وهي مقام البرزخية الكبرى والوسطية العظمى ولهذا يختص هذا المقام بالكمّل من أولياء الله، ولذا ورد في الرواية أن المقصود من هذه الآية أئمة الهدى عليهم السلام كما قال الباقر عليه السلام ليزيد بن معاوية العجلي: " نحن الأمة الوسط ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه " الحديث. وفي رواية أخرى " إلينا يرجع الغالي وبنا يلحق المقصّر " وفي هذا الحديث إشارة الى ما ذكر.

تنبيه إشراقي وإشراق عرفاني:

اعلم أيها الطالب للحق والحقيقة أن الحق تبارك وتعالى لما خلق نظام الوجود ومظاهر الغيب والشهود على حسب الحب الذاتي بالمعروفية في حضرة الأسماء والصفات بمقتضى الحديث

الشريف: كنت كنزا مخفيّا فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق لكي أعرف.. فأودع وأبدع في فطرة جميع الموجودات الحب الذاتي والعشق الجبلي، فجميع الموجودات بتلك الجذبة الإلهية ونار العشق الرباني تتوجه الى الكمال المطلق وتطلب وتعشق الجميل على الإطلاق وجعل سبحانه لكل واحد منها نورا فطريا إلهيا يجد بذلك النور طريق الوصول الى المقصد والمقصود، وهذه النار وهذا النور أحدهما رفرف الوصول والآخر براق العروج، ولعل براق رسول الله ورفرفه كانت رقيقة هذه اللطيفة وصورة ممثلة ملكية لهذه الحقيقة ولهذا أنزلت من الجنة التي هي باطن هذا العالم، وحيث أن الموجودات نزلت في مراتب التعينات وحجبت عن جمال الجميل المحبوب جلت عظمته فيخرجها الحق تعالى بهذه النار والنور عن حجب التعينات الظلمانية والانّيّات النورانية بالاسم المبارك الهادي الذي هو حقيقة هذه الرقائق ويوصلها الى المقصد الحقيقي وجوار محبوبها في أقرب الطرق، فذاك النور نور هداية الحق تعالى وتلك النار نار التوفيق الإلهي، والسلوك في الطريق الأقرب هو الصراط المستقيم والحق تعالى على ذاك الصراط المستقيم ولعله تكون الإشارة الى هذه الهداية وهذا السير وهذا المقصد الآية الشريفة: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود ـ ٥٦) كما هو ظاهر لأهل المعرفة.

وليعلم أن لكل من الموجودات صراطا خاصّا به ونورا وهداية مخصوصا به والطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق، وحيث أن في كل تعيّن حجابا ظلمانيا وفي كل وجود وانيّة حجابا نورانيا، والإنسان مجمع التعيّنات وجامع الموجودات فهو احجب الموجودات عن الحق تعالى ولعله الى هذا المعنى تشير الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (التين ـ ٥) ومن هذه الجهة فصراط الإنسان أطول الصرط وأظلمها، وأيضا حيث أن رب الإنسان حضرة اسم الله الأعظم ونسبة الظاهر والباطن والأول والآخر والرحمة والقهر. وبكلمة أخيرة نسبة جميع الأسماء المتقابلة له على السواء فلا بد أن يحصل لنفس الإنسان في منتهى سيره مقام البرزخية الكبرى، ولهذه الجهة يكون صراطه أدق من جميع الصراط.

تنبيه إيماني:

كما ذكر وعلم أن للهداية على حسب أنواع سير السائرين ومراتب سلوك السالكين الى الله مقامات ومراتب ونحن نشير بطريق الإجمال الى بعض مقاماتها ليعلم في ضمنه الصراط المستقيم وصراط المفرطين. وصراط المفرِّطين الذين هم المغضوب عليهم ولا الضالون على حسب كل مرتبة من المراتب.

الأول: نور الهداية الفطري وقد أشير إليه في التنبيهة السابقة. فالصراط المستقيم في هذه المرتبة من الهداية عبارة عن السلوك الى الله بلا احتجاب بالحجب الملكية أو الملكوتية أو أنه السلوك الى الله بلا احتجاب بحجب المعاصي القالبية أو المعاصي القلبية أو أنه السلوك الى الله بلا احتجاب بالحجب النورانية أو الظلمانية، أو السلوك الى الله بلا احتجاب بحجب الوحدة أو الكثرة ولعل آية: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء﴾ (فاطر ـ ٨) تشير الى هذه المرتبة من الهداية والاحتجاب التي قدرت في حضرة القدر وهي عندنا عبارة عن مرتبة الواحدية بالتجلي بحضرات الأعيان الثابتة، وتفصيله خارج عن مجال هذه الرسالة بل عن نطاق التحرير والبيان وهو سرّ من أسرار الله وستر من أستار الله.

الثاني: الهداية بنور القرآن وفي مقابله الغلوّ والتقصير عن معرفته أو الوقوف على الظاهر والوقوف على الباطن، كما أن بعض أهل الظاهر يرون أن علوم القرآن عبارة عن المعاني العرفية العامية والمفاهيم السوقية والوضعية ولهذه العقيدة لا يتفكرون في القرآن ولا يتدبرونه، واستفادتهم من هذه الصحيفة النورانية المتكفّلة لجميع السعادات الروحية والجسمية والقلبية والقالبية منحصرة بالمقررات الصورية الظاهرية، والآيات الكثيرة الدالة على أن التدبّر والتذكّر لازم أو راجح ويفتح أبوابا من المعرفة بالاستنارة بنور القرآن يجعلونها وراء ظهورهم فكأن القرآن نزل للدعوة الى الدنيا ومستلذاتها الحيوانية وتأكيد المقام الحيواني والشهوات البهيمية.

وبعض أهل الباطن إتباعا لظنونهم ينصرفون عن ظاهر القرآن ودعواته الصورية التي هي برنامج التأدّب بآداب المحضر الإلهي وكيفية السلوك الى الله وهم عنها غافلون وينحرفون عن ظاهر القرآن بتلبيسات إبليس اللعين والنفس الأمارة بالسوء ويتشبّثون بزعمهم بالعلوم الباطنية مع أن طريق الوصول الى الباطن بالتأدب بالظاهر فهاتان الطائفتان خارجتان عن جادة الاعتدال ومحرومتان من نور الهداية الى الصراط المستقيم القرآني ومنسوبتان الى الإفراط والتفريط ولكن العالم المحقق والعارف المدقق يقوم بالظاهر والباطن ويتأدب بالآداب الصورية والمعنوية، فكما أنه ينوّر الظاهر بنور القرآن ينوّر الباطن أيضا بأنوار معارفه وتوحيده وتجريده.

فليعلم أهل الظاهر أن قصر القرآن على الآداب الصورية الظاهرية ونبذة من الوظائف العملية والأخلاقية والعقائد العامية في باب التوحيد والأسماء والصفات إنكار لحق القرآن واعتقاد النقص في الشريعة الختمية التي لا بد أن يتصوّر أكمل منها وإلا تكون خاتميته في سنّة العدل محالا، فحيث أن هذه الشريعة خاتمة الشرائع والقرآن خاتم الكتب النازلة والرابطة الأخيرة بين الخالق والمخلوق، فلا بد أن يكون في حقائق التوحيد والتجريد والمعارف الإلهية التي هي المقصد الأصلي والغاية الذاتية للأديان والشرائع والكتب النازلة الإلهية، في المرتبة النهائية ومنتهى أوج

الكمال وإلا يلزم النقص في الشريعة وهو خلاف العدل الإلهي واللطف الربوبي وهذا بنفسه محال فضيح وعار قبيح لا تغسل وَسْمَةَ عاره عن وجه الأديان الحقّة بسبعة أبحر والعياذ بالله.

وليعلم أهل الباطن أن الوصول الى المقصد الأصلي والغاية الحقيقية لا يمكن إلاَّ بتطهير الظاهر والباطن، وبدون التشبّث بالصورة والظاهر لا يمكن الوصول الى اللبّ والباطن، وبدون التلبّس بلباس ظاهر الشريعة لا يوجد الطريق الى الباطن، ففي ترك الظاهر إبطال لظاهر الشريعة وباطنها وهذا من تلبيسات شياطين الجن والإنس، وقد ذكرنا نبذة من هذا المطلب في كتاب شرح أربعين حديثا.

الثالث: الهداية بنور الشريعة.

الرابع: الهداية بنور الإسلام.

الخامس: الهداية بنور الإيمان.

السادس: الهداية بنور اليقين.

السابع: الهداية بنور العرفان.

الثامن: الهداية بنور المحبة.

التاسع: الهداية بنور الولاية.

العاشر: الهداية بنور التجريد والتوحيد، ولكل منها طرفان: إفراط وتفريط وغلوّ وتقصير، وتفصيلها موجب للتطويل ولعله الى بعضها أو الى جميعها يشير الحديث الشريف للكافي: "نحن آل محمد النمط الأوسط الذي لا يدركنا الغالي ولا يسبقنا التالي ". وفي الحديث النبوي صلى الله عليه وآله " خير هذه الأمة النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي ".

تنبيه عرفاني:

اعلم أن لكل من موجودات عوالم الغيب والشهادة والدنيا والآخرة مبدأ ومعادا وان كان مبدأ الكل ومرجعه الهوية الإلهية ولكن حيث إنه ليس للذات المقدسة جلا وعلا من حيث هو بلا حجاب الأسماء تجلّ للموجودات العالية والسافلة وبحسب هذا المقام اللامقامي لا اسم له ولا رسم وغير متصف بالأسماء الذاتية والصفاتية والأفعالية وليس لأحد من الموجودات معه تناسب ولا ارتباط ولا اختلاط، أين التراب ورب الأرباب، كما ذكرت تفصيل هذه اللطيفة مستقصى في كتاب مصباح الهداية فمبدأ ذاته المقدسة ومصدريتها في الحجب الأسمائية والاسم عين الحال انه نفس المسمّى فهو حجابه أيضا، فالتجلي في عوالم الغيب والشهادة على حسب الأسماء وفي حجابها، فمن هذه الجهة للذات المقدسة وفي جلوات الأسماء والصفات تجليات في الحضرة العلمية

يسمي أهل المعرفة تعيناتها بالأعيان الثابتة فبناء على هذا يلزم لكـل تجـلّ اسـمي فـي الحـضرة العلمية عين ثابت ولكل اسم بتعيّنه العلمي مظهر في النشأة الخارجية ومبدأ هذا المظهـر ومرجعـه الى الاسم الذي يناسبه ورجوع كل الموجودات من عالم الكثرة الى غيب الاسم الذي هو مصدره ومبدؤه عبارة عن الصراط المستقيم له، فلكلٍ سير وصراط مخصوص ومبـدأ ومرجـع مقـدر فـي الحضرة العلمية طوعا أو كرها، واختلاف المظاهر والصراط باختلاف الظاهر وحضرات الأسماء.
وليعلم أن تقويم الإنسان في أعلى علّيّين للجمع الأسمائي، فلهذه الجهة رد الـى أسـفل الـسافلين ويشرع صراطه في أسفل السافلين ويختم بأعلى عليين وهذا صراط الذين أنعم الله عليهم بالنعمـة المطلقة وهي نعمة كمال الجمع الأسمائي التي هي أعلى النعم الإلهية، والصراط الأخر سواء أكان صراط السعداء والمنعم عليهم أو صراط الأشقياء، فبمقدار نقصانة من فيض النعمة المطلقة داخـل في أحد الطرفي الإفراط والتفريط فصراط الإنسان الكامل فقط صراط المنعم عليهم بقـول مطلـق، وهذا الصراط بالأصالة مختص بالذات المقدسة للنبي الخاتم وثابت لسائر الأولياء والأنبياء بالتبعية، وفهم هذا الكلام مع أن النبي الأكرم هو الخاتم للنبيين يحتاج الى فهم حضرات الأسماء والأعيـان وكفيله رسالة مصباح الهداية، والله الهادي الى سبيل الرشاد.

نقل كلام زيادة في الإفهام:

قال الشيخ الجليل البهائي (هو شيخ الإسلام والمسلمين محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجبعـي العاملي الحارثي قال صاحب السلافة في حقه ما ملخّصه هو علامة البشر ومجدّد دين الأئمة علـى رأس القرن الحادي عشر إليه انتهت رئاسة المذهب والملة الى أن قال مولده بعلبك عنـد غـروب الشمس يوم الأربعاء لثلاث عشر بقين من ذي الحجة سنة ٩٥٣ (ظنج) وانتقل به والده وهو صـغير الى الديار العجمية فنشأ في حجرة الأقطار المحمية وأخذ عن والده وغيره من الجهابذ حتى أذعن له كل مناضل ومنابذ. فلما أشتد كاهله وصفت له من العلم مناهله ولي بها شيخ الإسلام وفوّضت إليه أمور الشريعة على صاحبها الصلاة والسلام ولم يزل آنفا من الانحياز الى السلطان راغبـا فـي العزلة عازفا عن الأوطان يؤمل العود الى السياحة ويرجو الإقلاع من تلك الساحة فلـم يقـدر لـه حتى وافاه حِمامه وترنّم على أفنان الجنان حَمامه وأخبرني بعض ثقاة الأصحاب أن الشيخ (رحمه الله) قصد قبلَ وفاته زيارة المقابر في جمع من الأجلاء الأكابر فما استقرّ بهم الجلوس حتـى قـال لمن معه إني سمعت شيئا فهل فيكم من سمعه ؟ فأنكروا سؤاله واستغربوا مقاله وسألوه عما سمعه فأوهم وعمى في جوابه ثم رجع الى داره فأغلق بابه فلم يلبث أن أصاب داعـي الـردى فأجابـه وكانت وفاته لاثنتي عشرة خلون من شوال المكرّم سنة ١٠٣١ (غلا) بأصبهان ونقل قبل دفنه الى

طوس فدفن بها في داره قريبا من الحضرة الرضوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحية (انتهى).

حكي عن المجلس الأول قال في ترجمة أستاذه الشيخ بهاء الدين انه سمع قبل وفاته بستة أشهر صوتا من قبر بابا ركن الدين وكنت قريبا منه فنظر إلينا وقال سمعتم ذلك الصوت ؟ فقلنا: لا. فاشتغل بالبكاء والتضرّع والتوجّه الى الآخرة وبعد المبالغة العظيمة قال إني أُخبرت باستعداد الموت وبعد ذلك بستة أشهر تقريبا توفي وتشرفت بالصلاة عليه مع جميع الطلبة والفضلاء وكثير من الناس يقربون من خمسين ألفا (انتهى).

له مصنفات فائقة مشهورة أكثرها مطبوعة. منها: حبل المتين وشرق الشمسين والأربعين والجامع العباسي والكشكول والمخلاة والعروة الوثقى ونان وحلوا والزبدة والصمدية وخلاصة الحساب وتشريح الأفلاك والرسالة الهلالية ومفتاح الفلاح. وهذه الكتب كلها مطبوعة في إيران.) قدس سره في رسالة العروة الوثقى (لم تكن الرسالة موجودة عندي. وما ذكرته ترجمة المؤلف دام ظله من رسالة العروة الوثقى) إن نعم الله سبحانه وان كانت أجلّ من أن تحصى كما قال الحق تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّه لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم- ٣٤) لكنها جنسان النعم الدنيوية والأخروية وكل منهما إما وهبي أو كسبي، وكل منهما إما روحاني أو جسماني فالمجموع ثمانية أقسام:

الأول: الدنيوي الوهبي الروحاني كنفخ الروح وإفاضة العقل والفهم.

الثاني: الدنيوي الوهبي الجسماني مثل خلق الأعضاء وقواها.

الثالث: الدنيوي الكسبي الروحاني كتخلية النفس من الأمور الدنية وتحليتها بالخلق الذكية والملكات العالية.

الرابع: الدنيوي الكسبي الجسماني كالتزيّن بالهيئة الحميدة والحليّ الحسنة.

الخامس: الأخروي الوهبي الروحاني كأن يغفر الله ذنوبنا ويرضى عنّا من تاب سابقا (عبارة الشيخ في هذا المثال ما ذكر والظاهر أنه وقع سهو من الناسخ ولعل الصحيح أن الله يغفر لنا من دون سبق التوبة. فراجع...).

السادس: الأخروي الوهبي الجسماني كأنهار من لبن وعسل.

السابع: الأخروي الكسبي الروحاني كالمغفرة والرضوان مع سبق التوبة وكاللذات الروحانية التي استجلبت بفعل الطاعات.

الثامن: الأخروي الكسبي الجسماني، كاللذات الجسمانية التي استجلبت لفعل الطاعات، والمراد من النعمة هنا الأقسام الأربعة الأخيرة وما يكون وسيلة للبلوغ الى هذه الأقسام الأربعة من الأقسام الأربعة الأول.. انتهت ترجمة الشيخ قدس سره.

وهذه التقسيمات للشيخ وان كانت لطيفة ولكن الأهم من النعم الإلهية وأعظم مقصد الكتاب الشريف الإلهي قد سقط من قلم الشيخ الجليل واكتفى فقط بنعم الناقصين أو المتوسطين، وفي كلامه قدس سره، وان جرى ذكر من اللذة الروحانية ولكن اللذة الروحانية الأخروية التي استجلبت بفعل الطاعات حظ المتوسطين ان لم نقل بأنها حظ الناقصين، وبالجملة غير ما ذكره الشيخ الجليل الراجع الى اللذات الحيوانية والحظوظ النفسانية نعم أخرى وعمدتها ثلاث:

الأولى: نعمة معرفة الذات والتوحيد الذاتي التي أصلها السلوك الى الله ونتيجتها جنة اللقاء، وإذا كان السالك نظر الى النتيجة ففي السلوك نقصان لأن هذا المقام ترك النفس ولذاتها والتوجه الى حصول النتيجة توجه الى النفس وهذا هو عبادة للنفس لا لله وتكثير لا توحيد وتلبيس لا تجريد.

الثانية: نعمة معرفة الأسماء وهذه النعمة تتشعب على حسب الكثرة الأسمائية، فإن حسبت مفرداتها فألف وان حسبت بالتركيب من الاسمين أو الأسماء فخارجة عن حد الإحصاء﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم ـ ٣٤) والتوحيد الأسمائي في هذا المقام نعمة معرفة الاسم الأعظم الذي هو مقام أحدية جمع الأسماء، ونتيجة معرفة الأسماء جنة الأسماء لكل على مقدار معرفة اسم أو أسماء فردا أو جمعا.

الثالثة: نعمة معرفة الأفعال، ولهذه أيضا شعب كثيرة غير متناهية ومقام التوحيد في هذه المرتبة هو أحدية جمع التجليات الفعلية التي هي مقام الفيض الأقدس ومقام الولاية المطلقة ونتيجتها جنة الأفعال التي هي تجليات أفعالية للحق تعالى لقلب السالك، ولعل التجلي لموسى بن عمران في بدء الأمر إذ قال: ﴿آنَسْتُ نَاراً﴾ (طه ـ ١٠) كان بالتجلي الأفعالي والتجلي الذي إليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا﴾ (الأعراف ـ ١٤٣). كان تجليا أسمائيا أو ذاتيا فصراط المنعم عليهم في المقام الأول صراط السلوك الى ذات الله والنعمة في ذلك المقام التجلي الذاتي. وفي المقام الثاني صراط السلوك الى أسماء الله، والنعمة في ذلك المقام التجليات الأسمائية وفي المقام الثالث السلوك الى فعل الله و نعمته التجلي الأفعالي، سواء أكانت روحانية أو جسمانية كما أثبت هذا المقام في الروايات لبعض المؤمنين أيضا.

خاتمة:

اعلم أن السورة المباركة الحمد كما أنها مشتملة على جميع مراتب الوجود، كذلك هي مشتملة على جميع مراتب السلوك، ومشتملة بطريق الإشارة على جميع مقاصد القرآن. والغور في هذه المطالب وان كان يحتاج الى بسط تام ومنطق غير هذا المنطق، ولكن الإشارة الى كل واحد منها لا تخلو من فائدة بل فوائد لأصحاب المعرفة واليقين.

فنقول في المقام الأول: أنه يمكن إن يكون بسم الله الرحمن الـرحيم إشـارة الـى دائـرة الوجـود بتمامها وقوس النزول والصعود، فاسم الله مقام أحدية القـبض والبـسط والـرحمن مقـام البـسط والظهور وهو قوس النزول. والرحيم مقام القبض والبطون وهو قوس الصعود.

والحمد لله يمكن أن يكون إشارة الى عالم الجبروت والملكوت الأعلى التـي حقائقهـا المحامـد المطلقة.

ورب العالمين بمناسبة التربية وبمناسبة العالمين التي هي مقام السوائية والغيرية يمكـن أن يكـون إشارة الى عوالم الطبيعة التي بجوهر ذاتها متحركة ومتصرمة وتحت التربيـة. ومالـك يـوم الـدين إشارة الى مقام الوحدة والقهارية ورجوع دائرة الوجود.

والى هنا يختتم دائرة الوجود بتمامها نزولا وصعودا.

ونقول في المقام الثاني: أن الاستعاذة وهي مستحبة لعلها إشارة الى ترك غير الحـق والفـرار مـن السلطنة الشيطانية. وحيث أن هذه مقدمة المقامات لا جزءها لأن التخلية مقدمـه للتحليـة وليـست بالذات من المقامات الكمالية، ولهذه ليست الاستعاذة جزءا للسورة بل مقدمه للدخول فيها.

والتسمية لعلها إشارة الى مقام التوحيد الفعلي والذاتي والجمع بينهما.

والحمد لله رب العالمين لعلّها إشارة الى التوحيد الفعلى.

ومالك يوم الدين إشارة الى الفناء التام والتوحيد الذاتي، ومن إيـاك نعبـد تـشرع حالـة الـصحو والرجوع.

وبعبارة أخرى الاستعاذة هي السفر من الخلق الى الحق والخروج من بيت النفس، والتسمية إشارة الى التحقق بالحقانية بعد الخلع عن الخلقية وعالم الكثرة.

والحمد الى رب العالمين إشارة الى السفر من الحق الى الحق في الحق.

وفي مالك يوم الدين يتم هذا السفر.

ونقول في المقام الثالث: أن هذه السورة الشريفة مشتملة على عمدة المقاصد الإلهيـة فـي القـرآن الشريف لأن أصل مقاصد القرآن هو تكميل معرفة الله وتحصيل التوحيدات الثلاثة والرابطـة فيمـا بين الحق والخلق، وكيفية السلوك الى الله، وكيفية رجوع الرقائق الى حقيقية الحقـائق، وتعريـف التجليات الإلهية جمعا وتفصيلا وفردا وتركيبا، وإرشاد الخلق سلوكا وتحققا، وتعليم العباد علمـا وعملا وعرفانا وشهودا. وجميع هذه الحقائق موجودة في هذه السورة الشريفة فاتحة الكتـاب وأم الكتاب وصوره إجمالية عن مقاصد القرآن الكريم وحيث ان جميع مقاصد الكتاب الإلهـي ترجـع الى مقصد واحد وهو حقيقة التوحيد التي هي غاية النبوات ونهاية مقاصد الأنبيـاء العظـام علـيهم السلام.

فحقائق التوحيد وسرائره منطوية في الآية المباركة بسم الله الرحمن الرحيم، فهـذه الآيـة الـشريفة أعظم الآيات الإلهية ومشتملة على جميع مقاصد الكتاب الإلهي كما ورد فـى الحـديث الـشريف وحيث أن الباء ظهور التوحيد ونقطة تحت الباء سرّه فجميع الكتاب ظهورا وسـرا موجـودة فيهـا، والإنسان الكامل يعني الوجود العلوي المبارك عليه الصلاة والسلام هو نقطة سر التوحيد وليـست في العالم آية أكبر من ذلك الوجود المبارك بعد الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله كما ورد فـي الحديث الشريف.

تتمه:

في ذكر بعض الروايات الشريفة التي وردت في فضل هذه السورة المباركة:
منها ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه (جابر بن عبد الله بن عمرو بن خزام الأنصاري. صحابي جليل القدر وانقطاعه الـى أهـل البيـت علـيهم السلام وجلالته أشهر من أن يذكر. مات سنة ٧٨ (عح) حكي عن أسد الغابة أنـه قـال فـي جـابر (رض) انه شهد مع النبي ثمان عشرة غزوة وشهد صفين مع علي بن أبي طالب وعميَ فـي آخـر عمره وكان يحفي شاربه وكان يخضب بالصفرة وهو آخر من مات بالمدينة ممن شهد القعبة الـى أن قال وكان من المكثرين للحديث الحافظين للسنن (انتهى). قال العلامة النوري في المـستدرك في ترجمة جابر الأنصاري هو من السابقين الأولين الذين رجعوا الى أمير المؤمنين وحامل سـلام رسول الله الى باقر علوم الأولين والآخرين وأول من زار أبى عبد الله الحسين فـي يـوم الأربعـين المنتهي إليه سند أخبار اللوح السّمائي الذي فيه نصوص من الله رب العالمين على خلافـة الأئمـة الراشدين الفائز بزيارته من بين جميع الصحابة عند سيدة نساء العالمين وله بعد ذلك مناقب أخرى وفضائل لا تحصى (انتهى)). " يا جابر، إلاَّ أعلّمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه ؟ فقال جـابر: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله علّمنيها. قال: فعلّمه الحمد أم الكتاب ثم قال: يا جابر، إلاَّ أخبرك عنها ؟ قال: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله أخبرني. قال: هي شفاء من كـل داء إلاَّ السأم".
وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " لكل شيء أساس وأساس القرآن الفاتحة وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم " وعنه صلى الله عليه وآله " فاتحة الكتاب شفاء مـن كل داء ". وعن الصادق عليه السلام: " من لم تبرئه الحمد لم يبرئه شيء ".
وعن أمير المؤمنين عليه السلام انه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " أن الله تعالى قال لـي يا محمد ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب وجعلهـا بإزاء القرآن وأن فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش وأن الله خصّ محمدا وشرّفه بهـا ولـم

يشرك فيها أحدا من أنبيائه ما خلا سليمان فإنه أعطاه منها بسم الله الرحمن الرحيم. ألاً تراه يحكي عن بلقيس حين قالت إنّي ألقيَ إليّ كتاب كريم إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم، ألاً فمن قرأها معتقدا لموالاة محمد وآله منقادا لأمرها مؤمنا بظاهرها وباطنها أعطاه الله بكل حرف منها حسنة كل واحدة منها أفضل له من الدنيا بما فيها من أصناف أموالها وخيراتها ومن استمع الى قارئ يقرؤها كان له قدر ثلث ما للقارئ فليستكثر أحدكم من هذا الخير المعرّض له فإنه غنيمة لا يذهبنّ أوانه فتبقى في قلوبكم حسرة".

وعن الصادق عليه السلام: " لو قرأت الحمد على ميّت سبعين مرة ثم ردّت فيه الروح ما كان عجيبا " وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: " أيّما مسلم قرأ فاتحة الكتاب أعطي من الأجر كأنّما قرأ ثلثي القرآن وأعطي من الأجر كأنما تصدّق على كل مؤمن ومؤمنة ". وروى هذا الخبر بعينه من طريق آخر إلاّ أنه قال " كأنما قرأ القرآن ". وروي عن أبيّ ابن كعب (أبيّ بن كعب صحابي شهد العقبة مع السبعين وكان يكتب الوحي شهد بدرا والعقبة الثانية وبايع رسول الله وكان من الإثني عشر الذين أنكروا على أبي بكر خلافته وأرادوا تنزيله عن منبر رسول الله وكفى في فضله وجلالته أن الصادق عليه السلام ينقل الحديث عنه كما في مصباح الشريعة أن الصادق عليه السلام قال حسن الظن أصله من حسن إيمان المرء وسلامة صدره الى أن قال قال أبيّ بن كعب إذا رأيتم أحد إخوانكم في خصلة تستنكرونها منه فتأوّلوا لها سبعين تأويلا فإن اطمأنت قلوبكم على أحدها والا فلوموا أنفسكم حيث لم تعذروه في خصلة سترها عليه سبعين تأويلا وأنتم أولى بالإنكار على أنفسكم.) قال: " قرأت على رسول الله فاتحة الكتاب فقال: والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها هي أمّ الكتاب وهي السبع المثاني وهي مقسومة بين الله وعبده ولعبده ما سأل ". وعن حذيفة بن يمان (حذيفة بن اليمان العنسي من أصحاب رسول الله أحد الأركان الأربعة سكن الكوفة ومات بالمدائن وعن أسد الغابة أنه كان صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بالمنافقين لم يعلمهم أحد إلاّ حذيفة أعلمه بهم رسول الله (انتهى). قتل أبوه في أحد قتله المسلمون خطأ يحسبونه من العدو وحذيفة يصيح بهم فلم يفقهوا قوله حتى قتل فلما رأى حذيفة أن أباه قد قتل استغفر للمسلمين فقال: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. فبلغ ذلك رسول الله فزاده عنده خيرا وحكي أن له درجة العلم بالسنّة وعن العلامة الطباطبائي أنه يستفاد من بعض الأخبار أن له درجة العلم بالكتاب أيضا وقال أيضا وعند الفريقين انه كان يعرف المنافقين بأعيانهم وأشخاصهم. عرفهم لليلة العقبة حين أرادوا أن ينفروا ناقة رسول الله في منصرفهم من تبوك وكان حذيفة تلك الليلة قد أخذ بزمام الناقة ويقودها وكان عمار من خلف الناقة يسوقها. وتوفي في المدائن بعد خلافة أمير المؤمنين(عليه السلام) بأربعين يوما سنة ست وثلاثين وأوصى أبنيه صفواناً وسعيداً بلزوم أمير المؤمنين وإتباعه فكانا معه بصفين وقتلا بين يديه وفي أمالي الشيخ الصدوق (رحمه الله) عن الثمالي قال: دعا حذيفة بن اليمان ابنه

عند موته فأوصى إليه وقال: يا بني أظهر اليأس عما في أيدي الناس فإن فيه الغنى وإياك وطلب الحاجات الى الناس فإنه فقر حاضر وكن اليوم خيرا منك أمس وإذا أنت صليت فصلّ صلاة مودّع للدنيا كأنك لا ترجع وإياك وما يُعتذر منه.) رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ″ إن الله تعالى يرسل العذاب الحتمي المقضي الى قوم فيقرأ صبّي من صبيانهم في الكتاب الحمد لله رب العالمين فلما سمع الله يرفع العذاب عنهم أربعين سنة ″ وعن ابن عباس١ (عبد الله بن العباس بن عبد المطلب أمه لبانة بنت الحرث بن الحزن أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وآله قال العلامة كان محبا لعلي (عليه السلام) وتلميذه، حاله في الجلالة والإخلاص لأمير المؤمنين أشهر من أن يخفى وقد ذكر الكشي أحاديث تتضمن قدحا فيه وهو أجلّ من ذلك وقد ذكرناه في كتابنا الكبير وأجبنا عنه (انتهى). ذكروا أنه ولد بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين ودعا له النبي صلى الله عليه وآله بالفقه والتأويل وكان حبر هذه الأمة وترجمان القرآن وكان عمر يقربه ويشاوره مع جملة الصحابة كف بصره في أواخر عمره وتوفي بالطائف سنة ٦٨ (سح) وله تفسير مطبوع وابنه أبو محمد علي بن عبد الله بن العباس جدّ السفاح والمنصور كان شريفا وكان أصغر أولاد أبيه روي أنه لما ولد أخرجه أبوه الى أمير المؤمنين عليه السلام فحنكه ودعا له ثم ردّه إليه وقال خذ إليك أبا الأملاك قد سميته عليا وكنيته أبا الحسن.) قال: ″ بينما رسول الله صلى الله عليه وآله جالس وعنده جبرائيل إذ سمع نقيضا ـ يعني صوتا ـ فرفع رأسه فإذا باب من السماء قد فتح فنزل عليه ملك وقال: ان الله يبشّرك بنورين لم يعطهما نبيّا قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لا يقرأهما أحد إلاَّ أعطيته حاجته ″ (هذه الرواية ذكرها في المجمع وقد أشار إليها المؤلف دام ظله بأنها قريبة المضمون للرواية التي ذكر ترجمتها المؤلف في الأصل.

لفت نظر: ما ذكرته سابقاً من الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام ترجمة لما ذكره المؤلف دام ظله واليك نصّ الحديث روى المحدث المجلسي في البحار عن كشف الغمة للعالم علي بن عيسى الأربلي قال جعفر (عليه السلام) فَقَدَ أبي بغلة له فقال لئن ردّها الله تعالى لأحمدنّه بمحامد يرضاها فما لبث أن أُتي بها بسرجها ولجامها فلما استوى عليها وضمّ إليه ثيابه رفع رأسه الى السماء فقال الحمد لله فلم يزد ثم قال ما تركت ولا بقيت شيئا جعلت كل أنواع المحامد لله عز وجل فما من حمد إلاَّ وهو داخل في ما قلت.

أقول: قد علق على الرواية في الطبعة الجديدة للبحار أنه أخرج ذلك ابن طلحة في مطالب السؤول ص٨٠ وأبو نعيم في الحلية ج ٣ ص١٨٦ بتفاوت. ولعل المؤلف أخذها عن غير الاربلي كما هو ظاهر).

الفصل السادس

في نبذة من تفسير السورة المباركة التوحيد:

اعلم أن هذه السورة الشريفة حيث أنها نسب الحق تعالى كما في الأحاديث الشريفة منها ما في الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام): أن اليهود سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا: " أنسب لنا ربّك فلبث ثلاثا لا يجيبهم ثم نزلت: قل هو الله أحد إلى آخرها " فلهذا تعجز عقول البشر عن فهم حقائقها ودقائقها وأسرارها ولكن مع هذا الوصف فما هو نصيب أهل المعرفة منها وما هو حظ قلوب أهل الله منها لا يسعه ميزان العقل المجرّد، ولعمر الحبيب إن هذه السورة الشريفة من الأمانات التي عجزت عن حملها سماوات الأرواح وأراضي الأشباح وجبال الإنّيّات وأشفقن منها ولا يليق بحملها إلاّ الإنسان الكامل الذي تجاوز عن حدود الإمكانية وصار مجذوبا وبلا حواس ولكن مع ذلك هنا بشارة تقرّ بها عيون أهل آخر الزمان وتعطي الاطمئنان لقلوب أهل المعرفة وهي الحديث الذي في الكافي الشريف قال: " سئل علي بن الحسين (عليه السلام) عن التوحيد فقال: إن الله عزّ وجلّ علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى قل هو الله أحد والآيات من سورة الحديد إلى قوله وهو عليم بذات الصدور فمن رام وراء ذلك فقد هلك ".

ويعلم من هذا الحديث الشريف أن فهم هذه الآيات وهذه السورة المباركة يحق للمتعمقين وأصحاب الأنظار الدقيقة. ودقائق التوحيد والمعرفة وسرائرها منطوية فيها، وأن الحق تعالى أنزل لطائف العلوم الإلهية لأهلها، والذين ليس لهم حظ من سرائر التوحيد والمعارف الإلهية فليس لهم حق النظر في هذه الآيات، وليس لهم حق أن يحملوا ويفسّروا هذه الآيات على ما يفهمونه من المعاني العامية السوقية.. وفي الآيات الأولى من السورة المباركة الحديد دقائق من التوحيد والمعارف الجليلة من الأسرار الإلهية والتجريد ما لا يوجد له نظير في شيء من المسفورات الإلهية وصحف أهل المعرفة وأرباب القلوب، ولو لم تكن لصدق النبوّة وكمال شريعة النبي الخاتم سوى هذه الآيات لكفت أهل النظر والمعرفة. وإن أعظم شاهد على أن هذه المعارف خارجة عن تحمل البشر، وفوق أن يحيط بها الفكر الإنساني، أنه من قبل أن تنزل هذه الآيات الشريفة وأمثالها من المعارف المشتمل عليها القرآن الشريف لم يكن عند البشر سابقة هذا القسم من المعارف ولم يكن لهم طريق إلى هذه السرائر، وأن الكتب والصحف لأعاظم فلاسفة العالم موجودة الآن، مع أن علومهم أيضا من منبع الوحي الإلهي ولعل أعلاها وألطفها الكتاب الشريف " أثولوجيا " التصنيف

القيّم للفيلسوف عظيم الشأن والحكيم الجليل أرسطاطاليس الذي سجد في جنابه أعجوبة الدهر ونادرة الزمان الشيخ الرئيس (هو أبو علي بن عبد الله بن سينا البخاري الشيخ الفيلسوف المعروف الملقب بالشيخ الرئيس كان أبوه من بلخ في شمال أفغانستان وسكن مملكة بخارا في زمن نوح بن منصور من الدولة السامانية فولد ولده بها وكان أعجوبة في الذكاء والحفظ أفتى على مذهب أبي حنيفة وهو ابن اثنتي عشر سنة وصنف القانون وهو ابن ستة عشر فمرض نوم بن منصور الساماني فجمعوا الأطباء لمعالجته فجمعوه معهم فرأوا معالجته خيرا من معالجات كلّهم فصلح على يديه فسأله أن يوصي خازن كتبه أن يعيره كلّ كتاب طلب ففعل فرأى في خزانته كتب الحكمة من تصانيف أبي نصر طرخان الفارابي فاشتغل بتحصيل الحكة ليلا ونهارا حتى حصّلها. قال فلما انتهى عمري الى أربع وعشرين كنت أفكّر في نفسي ما كان شيء من العلوم أنّي لا أعرفه. ويحكى أنه لم يكن في آن فارغا من المطالعة والكتابة وقليلا من الليل يهجع وإذا تردّد في مسألة يتوضأ ويعزم جامع البلد ويصلّي فيه ركعتين بالخشوع ويشتغل بالدعاء والاستعانة الى أن ترتفع شبهته ومرت به طواري مختلفة وقاسى ما يقاسيه طالب العلى وله تأليفات مشهورة منها: القانون والشفا والإشارات وقد شرح القسم الإلهيات من الإشارات الخواجة نصير الدين الطوسي والفخر الرازي وكتب القطب الرازي المحاكمات وهو شرح له حكم بينهما في شرحيهما على الإشارات، وله القصيدة الرائعة المشهورة العينية.

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنّع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت وما ألفت فلمّا واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنّها نسيت عهودا بالحمى ... ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بعاء هبوطها ... من ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخضع
تبكي وقد نسيت عهودا بالخمى ... بمدامع تهمي ولمّا تقلع
حتى اذا قرب المسير الى الحمى ... ودنا الرحيل الى الفضاء الاوسع
وغدت تغرّد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كل من لم يرفع
وتعود عالمة بكلّ خفيّة ... في العالمين فخرقها لم يرقع

القصيدة وآخرها:

فكأنها برق تألّق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع)

خضوعا له وتحقيرا لنفسه، ومن رشحات فكرة المنطق وتنظيم قواعده ولهذه الجهة سمّي المعلّم الأول. وقال الشيخ الرئيس: أنه منذ نظّم ذاك العظيم قواعد المنطق لم يستطع أحد أن يخدش في إحدى قواعده أو يؤسس قاعدة زائدة، ومع هذا الوصف كله ومع أن أسّس وقنّن ذلك الكتاب الشريف لمعرفة الربوبية فلاحظوه هل تجدون من أول ذلك الكتاب الشريف إلى آخره لتعريف مقام الربوبية مثل هذه الكريمة الشريفة أول سورة الحديد أو ما يقرب من مفادها أو ما يكون فيه رائحة من هذا السر العظيم للتوحيد وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الحديد ـ ٣) أو أن في جميع أقوال الفلاسفة هل يوجد مثل ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد ـ ٤). والأقوام المتعمقون وأصحاب النظر والمعرفة يعلمون اليوم ما في هذه الآيات من الأسرار وأن الله تعالى كيف شرّف أقواما في آخر الزمان ومنّ عليهم بهذا الكلام الشريف والسرّ العظيم. ومن راجع المعارف الرائجة في أديان العالم وعند الفلاسفة الكبار للأديان وقاس المعارف في المبدأ والمعاد مع المعارف في الدين الحنيف الإسلام وعند الحكماء العظام الإسلاميين و العرفاء الشامخين لهذه الملّة ليصدّق كاملا أن هذه المعارف من نور معارف القرآن الشريف وأحاديث النبي الخاتم وأهل بيته عليهم السلام المستفادة والمصطفاة من منبع نور القرآن، فيعرف حينئذ أن الحكمة الإسلامية والعرفان الإسلامي ليست من اليونان واليونانيين بل لا تشبه حكمتهم أصلا.

نعم قد مشى بعض حكماء الإسلام على منوال الحكمة اليونانية كالشيخ الرئيس ولكن حكمة الشيخ في سوق أهل المعرفة وفي باب معرفة الربوبية والمبدأ والمعاد غير رائجة، وفي جناب أهل المعرفة لا قيمة لها.

وبالجملة، أن نسبة فلسفة حكماء الإسلام اليوم والمعارف الجليلة لأهل المعرفة إلى حكمة اليونان ناشئة من عدم الإطلاع على كتب القوم مثل الفيلسوف العظيم الشأن الإسلامي صدر المتألّهين (قدّس سره) (محمد بن إبراهيم الشيرازي الحكيم المتأله المعروف كان عالم أهل زمانه في الحكمة متقنا لجمع الفنون له الأسفار الأربعة وشرح الكافي وتفسير بعض السور القرآنية وكسر الأصنام الجاهلية وشواهد الربوبية وغير ذلك. توفي بالبصرة وهو متوجه الى الحج سنة ١٠٥٠ قال صاحب نخبة المقال في تاريخه: ثم ابن إبراهيم صدر الأجلّ في سفر الحج مريض (١٠٥٠) ارتحل.

قدوة أهل العلم والصفا ثم انطوى فكأنه لم يلمع وتلميذه الجليل الفيض الكاشاني (قدس سره) والتلميذ العظيم الشأن للفيض والعارف الجليل الإيماني القاضي سعيد القمي (قدس سره)، وأيضا من عدم الإطلاع على معارف الصحيفة الإلهية وأحاديث المعصومين (عليهم السلام) فنسبوا كل حكمة إلى اليونان وظنّوا حكماء الإسلام تابعي حكمة اليونان، ونحن قد بيّنا نبذة من

لطائف السورة الكريمة التوحيد وبعض إشارات الآيات الشريفة في كتاب شرح الأربعين وأيضا فسّرنا هذه السورة تفسيرا بالاختصار في سرّ الصلاة، وهنا نكتب مختصرا منه وعلى الله التكلان، فنقول:

إن بسم الله هذه السورة إن كانت متعلقة بنفس هذه السورة كما احتملنا ذلك في سورة الحمد فلعلّها تكون إشارة إلى أن شرح نسب الحق تعالى وبيان أسرار التوحيد لا يمكن بأنانية النفس واللسان المنسوب إلى النفس بل السالك ما لم يخرج من حجاب النفس ولم يتحقق بمقام المشيئة المطلقة وحضرة الفيض المقدّس وفانياً في الهوية المطلقة لم يدرك سرائر التوحيد.

و " قل " أمر من الحضرة الأحدية الجمعية بمقام البرزخية الكبرى ومرآة الجمع والتفصيل يعني قل يا محمد يا مرآة ظهور أحدية الجمع في مقام التدلي الذاتي أو المقام المقدس أو أدنى الذي يمكن أن يكون إشارة إلى مقام الفيض الأقدس (باللسان الفاني من نفسك الباقي ببقاء الله) هو الله أحد.

اعلم أيها السالك سبيل المعرفة والتوحيد والعارج معارج التنزيه والتجريد أن الذات المقدسة للحق تعالى من حيث هي منزّهة عن التجليات الظاهرة والباطنة ومبرّأة عن الإشارة والاسم والصفة والرسم فأيدي آمال أهل المعرفة قاصرة عن ذيل كبريائه وأرجل أصحاب القلوب في السلوك راجلة عن الوصول إلى بلاط قدسه، إن غاية معرفة الأولياء الكمل: " ما عرفناك " ونهاية سير أصحاب الأسرار: " ما عبدناك " ورئيس سلسلة أهل المعرفة وأمير أصحاب التوحيد يقول في هذا المقام الرفيع: " كمال الإخلاص نفي الصفات عنه " وأمام أهل السلوك وسيد الساجدين والعارفين يترنم في هذا الجناب المنيع: " ضلّت فيك الصفات وتفسّخت دونك النعوت " وأصحاب السلوك العلمي والاصطلاحات يسمون الذات المقدسة الغيب المصون و السر المكنون وعنقاء المغرب والمجهول المطلق، ويقولون:

إن الذات بلا حجاب الأسماء والصفات لن تتجلى في مرآة في المرائي ولن تظهر في نشأة من نشآت الوجود وفي عالم من عوالم الغيب والشهود ولكن على حسب كل يوم هو في شأن.. أن للذات المقدسة أسماء وصفات وشؤونها جمالية وجلالية ولها أسماء ذاتية في مقام الأحدية الذي هو مقام الغيب، ولابدّ أن يقال لتلك الأسماء الأسماء الذاتية، وبتعيّن الأسماء الذاتية يتجلى بالفيض الأقدس، وبهذا التجلي في كسوة الأسماء الذاتية يتعيّن ويظهر مقام الواحدية وحضرة الأسماء والصفات ومقام الألوهية، فعلم أنه بعد الذات المقدسة من حيث هي، ثلاث مقامات ومشاهد أخر:

مقام الغيب الأحدي ومقام التجلي بالفيض الأقدس، ولعل العماء الواردة في الحديث النبوي تكون إشارة إليه، ومقام الواحدية الذي هو الاسم الأعظم بأحدية الجمع، ومقام الأسماء والصفات بالكثرة التفصيلية، وتفصيل هذه المقامات يحتاج إلى بسط خارج عن مجال هذه الأوراق.

فبعدما علمت هذه المقدمة نقول:

يمكن أن يكون (هو) إشارة إلى مقام الفيض الأقدس وهو تجلي الذات يتعيّن الأسماء الذاتية (الله) إشارة إلى مقام أحدية الجمع الأسمائية وهو حضرة الاسم الأعظم و (أحد) إشارة إلى مقام الأحدية، وبناء على هذا فالآية الشريفة في صدد إثبات أن هذه المقامات الثلاثة مع أنها في مقام التكثير الأسمائي متكثرة لكنها في نفس الحال لفي غاية الوحدة على حسب الحقيقة، وأن التجلي بالفيض الأقدس على حسب مقام الظهور فهو الله وعلى حسب مقام البطون أحد.

ولعل (هو) يكون إشارة إلى مقام الذات، وحيث هو إشارة غيبية فهو في الحقيقة إشارة إلى المجهول والله وأحد إشارة إلى مقام الواحدية والأحدية فيعرف الذات التي هي المجهول المطلق بالأسماء الذاتية والأسماء الواحدية والصفاتية، فهو في الحقيقة إشارة إلى أن الذات هي الغيب وأيدي الآمال عنها قاصرة وصرف العمر في التفكر في الذات موجب للضلالة، وما هو مورد لمعرفة أهل الله وعلم العالمين بالله هو مقام الواحدية والأحدية، فالواحدية لعامة أهل الله والأحدية للخلّص من أهل الله.

تنبيه حكمي:

اعلم أن للحق تعالى صفات ثبوتية وصفات سلبية في نظر الحكماء وقالوا أن الصفات السلبية ترجع إلى سلب السلب أي سلب النقص، وقال بعض: أن الصفات الثبوتية هي صفات الجمال والصفات السلبية هي صفات الجلال، وذو الجلال والإكرام جامع جميع الصفات السلبية والثبوتية، وهذا الكلام في كلتا المرحلتين خلاف التحقيق أما المرحلة الأولى فالصفات السلبية ليست بصفات على التحقيق بل لا سبيل إلى ذات الحق تعالى لا للسلب ولا لسلب السلب والحق تعالى ليس متصفا بالأوصاف السلبية لأن الأتصاف بالسلب في القضايا المعدولة وعقد القضية المعدولة (موضوع القضية الحملية قد يكون شيئا (محصَّلا) بالفتح أي يدل على شيء موجود أو صفة موجودة وقد يكون موضوعها أو محمولها شيئا معدولا أي داخلا عليه حرف السلب على وجه يكون جزئا من الموضوع أو المحمول مثل لا إنسان، لا عالم. وعليه فالقضية باعتبار تحصيل الموضوع والمحمول وعدولهما تنقسم الى قسمين: محصّلة ومعدولة:

١ـ المحصلة: ما كان موضوعها ومحمولها محصلا سواء أكانت موجبة أو سالبة مثل: الهواء نقي، الهواء ليس نقيا.

٢ـ المعدولة ما كان موضوعها أو محمولها أو كلاهما معدولا سواء أكانت موجبة أو سالبة وتسمى معدولة الموضوع أو معدولة المحمول أو معدولة الطرفين حسب دخول العدول على أحد طرفيها أو كليهما.

مثال معدولة الطرفين: كل لا عالم هو غير صائب الرأي مثال معدولة المحمول: الهواء غير فاسد، الهواء ليس هو غير فاسد.

مثال معدولة الموضوع: غير العالم مستهان غير العالم ليس بسعيد.

وتمتاز معدولة المحمول عن السالبة محصلة المحمول:

١ـ في المعنى: فإن المقصود بالسالبة سلب الحمل وبمعدولة المحمول حمل السلب أي يكون السلب في المعدولة جزءا من المحمول المسلوب بما هو مسلوب على الموضوع.

٢ـ في اللفظ: فإن السالبة تجعل الرابطة فيها بعد حرف السلب لتدل على سلب الحمل والمعدولة تجعل الرابطة فيها قبل حرف السلب لتدل على حمل السلب وبالدقة فيما ذكرناه يتضح ما ذكره المؤلف دام ظله من أن الحق تعالى ليس متصفا بالأوصاف السلبية..) للحق تعالى غير جائز لأنه مصحح للجهات الإمكانية ومستلزم للتركيب في الذات المقدسة بل الأوصاف السلبية بطريق السلب المطلق البسيط وهو سلب الصفة لا إثبات صفة سلب السلب، وبعبارة أخرى النقائص مسلوبة عن الحق تعالى بالسلب البسيط لا أن سلب النقائص ثابت له بطريق الإيجاب العدولي فالصفات التنزيهية ليست بصفات على الحقيقة وإنما الحق تعالى متصف بالصفات الثبوتية فقط.

وأما المرحلة الثانية: فإن صفات الجمال عند أهل المعرفة صفات يحصل منها الأنس والعلاقة، وصفات الجلال صفات يحصل منها الوحشة والحيرة والهيمان، فما كان متعلقا باللطف والرحمة فهو من صفات الجمال كالرحمن والرحيم واللطيف والعطوف والرب وأمثالها، وما كان متعلقا بالقهر والكبرياء فهو من صفات الجلال كالمالك والملك والقهّار والمنتقم وأمثالها، وإن كان في سر كل جمال جلال لأن كل جمال يبطن حيرة وهيمانا ويظهر للقلب بسّر العظمة والقدرة، وكل جلال في باطنه الرحمة. والقلب يأنس به باطنا، ولهذا كما أن القلب بفطرته مجذوب للجمال والجميل، فهو كذلك مجذوب للقدرة والعظمة والقادر والعظيم، فهذان النوعان من الصفات صفة ثبوتية لا سلبية، فإذا علم هذا المطلب فأعلم أن (الله) وإن كان هو الاسم الأعظم وأن صفات الجمال والجلال تحت حيطته لكن ربما يطلق على صفات الجمال كالإلهية والألوهية مقابلاً صفات

الجلال، فإن الإلهية والألوهية راجعتان إلى صفات الجمال نوعا وخصوصا إذا وقعت في مقابل صفة الجلال.
وفي الآية الشريفة (قل هو الله أحد) يمكن أن يكون (أحد) إشارة لإحدى أمّهات صفات الجلال وهي مقام كمال بساطة الذات المقدسة والله إشارة إلى اسم الجمال، ففي الآية قد عرّفت نسبة الحق تعالى على حسب مقام الأحدية والواحدية والتجلي بالفيض الأقدس، وهذه الثلاثة جميع الشؤون الإلهية.
وبناء على الاحتمال الأول الذي ذكر قبل هذا التنبيه عرفت نسبة الحق تعالى على حسب مقام الأسماء الجمالية والجلالية المحيطة بجميع الأسماء.

تنبيه عرفاني:

اعلم أن كلام كل متكلم جلوة ذاته على حسب مقام الظهور وبروز ملكاته الباطنية في مرآة الألفاظ بمقدار استعداد النسج الألفاظي، كما أنه إذا كان قلب نورانيا وصافيا من ألواث عالم الطبيعة وكدوراته يكون كلامه أيضا نورانيا بل نورا وتتجلى تلك النورانية للقلب في كسوة الألفاظ، وقد ورد في شأن أئمة الهدى ″ كلامكم نور ″ وورد ″ لقد تجلى في كلامه لعباده ″. وفي نهج البلاغة ″ إنما كلامه فعله ″. والفعل جلوة ذات الفاعل بلا كلام منه، وإذا كان قلبا ظلمانيا ومكدرا يكون فعله وقواه أيضا ظلمانية ومكدرة مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة.. وحيث أن الذات المقدسة للحق جل وعلا على حسب كل يوم هو في شأن.. يتجلى لقلوب الأنبياء والأولياء في كسوة الأسماء والصفات وتختلف التجليات على حسب اختلاف قلوبهم، والكتب السماوية التي نزلت على قلوبهم بنعت الإيحاء بتوسط ملك الوحي جبرائيل تختلف على حسب اختلاف هذه التجليات وعلى حسب اختلاف الأسماء التي لها المبدئية للتجليات كما أن اختلاف الأنبياء وشرائعهم أيضا باختلاف الدول الأسمائية فكل اسم تكون إحاطته أكثر وكان أجمع، تكون الشريعة التابعة له أكثر إحاطة وأدوم، وحيث أن النبّوة الختمية والقرآن الشريف وشريعة سيد البشر من مظاهر المقام الجامع الأحدي وحضرة اسم الله الأعظم ومجاليها أو من تجلياتها وظهورها فلهذا صارت أكثر النبوات والكتب والشرائع إحاطة وأجمعها، ولا يتصور أكمل وأشرف من نبوّته وكتابه وشريعته ولا يتنزل من عالم الغيب على بسيط الطبيعة علم أعلى منه أو شبيه له بمعنى أن هذا هو آخر ظهور للكمال العلمي المربوط بالشرائع وليس للأعلى منه إمكان النزول في عالم الملك، فنفس الرسول الخاتم (صلى الله عليه وآله) أشرف الموجودات ومظهر تام للاسم الأعظم، ونبوته أيضا أتمّ النبوّات الممكنة وصورة لدولة الاسم الأعظم الأزلية الأبدية

والكتاب النازل إليه أيضا نزل على مرتبة الغيب بتجلي الاسم الأعظم ولهذه الجهة لهذا الكتاب أحدية الجمع والتفصيل وهو من جوامع الكلم، كما أن كلامه (صلى الله عليه وآله) أيضا من جوامع الكلم، والمراد من كون القرآن وكلامه (صلى الله عليه وآله) من جوامع الكلم ليس أن القرآن أو أنه (صلى الله عليه وآله) بيّنا الكليات والضوابط الجامعة، وإن كانت أحاديثه (صلى الله عليه وآله) أيضا من الجوامع والضوابط كما أن ذلك معلوم في علم الفقه بل جامعيته عبارة عن أن القرآن نزل لجميع طبقات الإنسان في جميع أدوار العمر البشري وهو رافع لجميع حوائج هذا النوع. وحقيقة هذا النوع حيث إنها حقيقة جامعة وواجدة لتمام المنازل من المنزل الأسفل الملكي إلى أعلى مراتب الروحانية والملكوت والجبروت ولهذه الجهة تختلف أفراد هذا النوع في هذا العالم من أسفل الملكي اختلافا تاما، و الاختلاف والتفاوت الموجودان في أفراد هذا النوع لا يوجدان في أفراد سائر الموجودات، في هذا النوع الشقّي في كمال الشقاوة موجود، والسعيد في كمال السعادة موجود وفي هذا النوع أن بعض أفراده أسفل من جميع الحيوانات وبعض أفراده أشرف من جميع الملائكة المقربين.

وبالجملة، حيث إن أفراد هذا النوع مختلفة ومتفاوتة في المدارك والمعارف، فالقرآن نزل على نحو يستفيد كل منه على حسب كمال إدراكه ومعارفه وضعفها وعلى حسب ما له من الدرجة العلمية.

فمثلا الآية الشريفة ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء ـ ٢٢) فأهل المعرفة وأهل الأدب واللغة يفهمون منها شيئا، وفي نفس الحال يستفيد منها علماء الكلام طوراً آخر والفلاسفة والحكماء معنى آخر و العرفاء والأولياء يستفيدون منها معنى آخر. فأهل العرف يفهمون منها بيانا خطابيا على حسب ذوقهم مثلا يقولون مملكة واحدة لا تسع لسلطانين، وإذا كان رئيسان في طائفة واحدة فذلك يوجب الفساد، ومختاران في قرية فذلك يوجب الاختلاف والتخاصم والتنازع، وهكذا إذا كان في العالم أيضا إلهان لكان فيه الفساد والتنازع والاختلاف والتشاجر، وحيث إن هذا الاختلاف غير موجود ونظام السموات والأرض محفوظ فهذا دليل على أن مدير العالم واحد.

والمتكلمون يستفيدون منها برهان التمانع (أقول برهان التمانع المستفاد من الآية الكريمة ربما يطرح بصورة بسيطة، وحاصلها أنه لو كان المبدأ وواجب الوجود متعددا لوقع التزاحم والتمانع بين إرادتهم، فإذا تزاحمت الإرادات فإما أن تغلب إحدى الإرادات على الأخرى وإما إلاَّ تغلب إرادة من الإرادات على غيرها.

أما الأول فمحال، وتكون إرادة من واجب مغلوبة لإرادة أخرى لأن المغلوبية منافية للكمال ووجوب الوجود.

وأما الثاني: فيلزم منه الفساد في عالم الكون لأن المفروض أنّ شيئا من الإرادات لم تكن مؤثرا، فإذا لم تكن ثمة إرادة فينقطع الرابط بين الكون والواجب ولا شكّ أن الممكن لا بدّ من الربط بالواجب ولا تقع حادثة بل لا يوجد ولا يبقى موجود وهذا معنى الفساد، ولكن هذا التقرير غير تام لأنه لا موجب لنا أن نفرض الإرادات الواجبة متزاحمة بل لا بدّ لها أن تكون متعاطفة غير متزاحمة لأن المفروض أن كلها للوجود الواجب العليم الحكيم لا يعمل واجب على خلاف المصلحة والحكمة، وحيث المصلحة والحكمة ليست بأزيد من واحدة فإرادات الواجبة وان كانت أزيد من ورق الأشجار وقطر الأمطار تكون متحدة لا محالة وبعبارة أخرى، تزاحم الإرادات إنما ينشأ إما من جلب النفع الشخصي وحب النفس أو من الجهل وكلاهما غير متصورة في حق الواجب تعالى، فبرهان التمانع ليس مبنيا على تضادّ الإرادات وتخالفها بل هو مبني على امتناع وجود كل حادثة ممكنة من ناحية تعدد الإرادات، بمعنى أنه لو كان واجب الوجود متعددا لكان التمانع في الوجود موجودا حتى مع فرض توافق الإرادات وعدم تخالفها وتزاحمها، وهذا البرهان مبتني على ثلاثة أصول:

الأصل الأول: أن واجب الوجود بالذات واجب من جميع الجهات والحيثيات وتوضيحه إجمالا أنه لا يمكن أن يكون في ذات الواجب حيثية الإمكان والقوة بوجه من الوجوه فذات الواجب وجوب صرف فهو عالم بالوجوب لا بالإمكان وقادر بالوجوب لا بالإمكان، وهكذا جميع صفاته فذات الواجب فيّاضة وخلاّقة بالوجوب لا بالإمكان بمعنى أنه من المحال أن يكون إمكان الوجود في موجود ولا يفاض الوجود له من الواجب.

الأصل الثاني: أن حيثية وجود المعلول متحدة مع حيثية انتسابه الى العلّة وليست في المعلول حيثيان فيكون منتسبا الى الفاعل والعلة بإحدى الحيثيتين وموجودا بالأخرى، وقد بيّن هذا المعنى صدر المتألهين وعبّر هذا بأنّ وجود المعلول هو عين الربط والانتساب الى العلّة.

وقد كرر هذه الدقيقة في كلام الأستاذ (دام ظله) ولهذه الجهة الإيجاد متحد مع الوجود لا أن الوجود شيء والإيجاد شيء آخر.

الأصل الثالث: انه من المحال الترجيح بلا مرجّح، وهذا الأصل لا يحتاج إلى توضيح زائد فإنه من الواضح أنه إذا كانت نسبة شيء الى شيئين متساوية فمن المحال أن يتغير هذا التوازن والتساني من دون دخالة أمر خارجي، وكما الترجيح بلا مرجّح محال كذلك الترجّح بلا مرجح أيضا محال ولكن الأول يستعمل غالبا في مورد الفواعل والثاني في مورد الآثار.

وقد تصدى بعض المتكلمين على إمكان الترجيح بلا مرجّح من باب أن الدليل على إمكان شيء وقوعه ولهذا عنون مسألتي (رغيفي الجائع وطريقي الهارب) غفلة من أن هذه الأمثلة تكون مثالا

للموضوع إذا أحطنا على جميع العوامل والشرائط الدخيلة على الموضـوع. والحـال أن العوامـل الدخيلة في شعورنا الظاهر والباطن في أمثال هذه الموارد بمقدار لا يمكننا الإحاطة بهـا فالبرهـان العقلي لا يُردّ ولا يُمنع بهذه السوقيّة العامية فنقول نظرا الى المقدمات الثلاثة المـذكورة: أن كـان في الوجود واجبان أو أكثر فبحكم المقدمة الأولى وهي أن كلّ شيء يمكن تحقّق وجـوده بتـوفر شرايط وجوده فلا محالة يفاض الوجود عليه ومن المعلوم أن نسبة الـواجبين أو أكثـر الـى هـذا الشيء واحدة وتعلّق إرادة كل منهم إليه سواء فلا بد أن يفاض الوجود إليه من طرف الواجبين أو أكثر وبحكم المقدمة الثانية وجود كل مساو لانتسابه الى علته فالإيجاد تستلزم وجودين وحيث أن المعلول المفروض وجوده لا يمكن له أزيد من وجود واحد فلا يمكـن انتـسابه إلاّ الـى واحـد فحينئذ انتساب المعلول الى احد الواجبين أو أكثر منهما مع أن المفروض عدم وجود رجحان فـي أحدهما على الآخرين ترجّح بلا مرجح وانتسابه الى الجميع يساوي تعدد وجـود المعلـول بعـدد الواجب وهذا أيضا محال لأن المفروض أن الشيء الذي توفرت فيه شـرايط ينتهـي الـى واحـد متعددا فتكون النتيجة أن إلاّ يوجد شيء أصلا. فعلى فرض تعدّد وجود الواجب يلـزم إلاّ يوجـد شيء لان وجوده محال فيصحّ أن يقال لو كان فيهما آلهة إلاّ الله صدق الله العليّ العظيم) والفلاسفة والحكماء يقيمون منها البرهان المتين الحكمي من طريق (إلاّ الواحد والواحـد لا يـصدر إلاّ مـن الواحد). وأهل المعرفة أيضا من طريق أن العالم مرآة الظهور ومجلي للتجليات الحـق يـستفيدون الوحدانية منها بطور آخر إلى غير ذلك من المعاني التي يطول ذكر كل واحد منها.

فإذا علمت هذا المقدمة فأعلم أن السورة الشريفة قل هو الله أحد من جوامع الكلم كسائر القـرآن يستفيد كل منه على طور، كما أن علماء الأدب والظاهر يرون أن هو ضمير الشأن والله علم الذات، وأحد بمعنى الواحد أو مبالغة في الوحدة يعني أن الله واحد أو أنه لا شريك له في الإلهية أو ليس كمثله شيء أو أنه لا شريك له في الإلهية والقدم أو أن أفعاله واحدة بمعنى أن جميع أفعاله طبـق الصلاح والإحسان ولا يجر نفعا لنفسه، والله الصمد يعني أنه سيد كريم إليـه مرجـع النـاس فـي الحوائج أو أنه صمد بمعنى أنه لا جوف له فلا يتولد منه شيء ولا يتولد هو من شيء ولـيس لـه أحد شبيها ونظيرا. وهذا بيان عرفي عامّي مقابل الكفار الذين كانت لهم آلهـة متـصفة بالـصفات الإمكانية فأمر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهم ليس إلهنا كإلهكم بل أوصافه هـذه الأوصاف المذكورة. هذا تفسير هذه السورة بطريق العرف والعادة وهذا التفسير يختص بطائفة ولا ينافي أن يكون لها معنى أو معان أدقّ كما ذكرنا بعضها.

تفسير حكمي:

يمكن أن يكون للسورة المباركة التي نزلت للمتعمقين في آخر الزمان تفسير حكمي موافق للموازين الحكمية والبراهين الفلسفية وهذا ما استفدته عن الشيخ الجليل العرف شاه آبادي (مدّ ظلّه) فـ (هو) إشارة إلى صرف الوجود والهوية المطلقة وهو برهان على ستة براهين شامخة حكمية أثبتت في السورة المباركة للحق تعالى.

الأول: مقام الألوهية وهو مقام استجماع جميع الكمالات وأحدية جمع الجمال والجلال، فإنه قد ثبت في المقامات المناسبة من المسفورات الحكمية أن صرف الوجود والهوية المطلقة هو صرف الكمال وإلا يلزم إلاَّ يكون صرف الوجود أيضا، وحيث إن بيان هذا المطلب يطول ويحتاج إلى مقامات فأكتفي منه بالإشارة.

الثاني: وهو إشارة إلى البساطة التامة العقلية والخارجية والماهوية والوجودية والتنزّه عن مطلق التركيبات العقلية وسواء أكانت جنسا أو فصلا. سواء أكانت مادة وصورة عقلية أو خارجية أو مادة وصورة خارجية أو أجزاء مقدارية، و برهان هذا المطلب أيضا هو برهان صرف الوجود والهوية المطلقة لأن الصرف إذا لم يكن أحديّ الذات يلزم أن يخرج عن الصرفية وينسلخ عن ذاتيته.

الثالث: مقام الصمدية: وهو الإشارة إلى نفي الماهية وعدم الجوف له وكونه غير مجوف أيضا إشارة إلى أنه ليس له الماهية ولا النقص الإمكاني لأن جميع الممكنات مرتبة ذاتها التي هي بمنزلة باطنها وجوفها مجوفة وخالية، وحيث أن الذات المقدسة صرف الوجود والهوية المطلقة ليس له النقص الإمكاني الذي أصله الماهية، لأن الماهية منتزعة من الحدود الوجودية واعتبارها من تعيّن الوجود. وصرف الوجود منزه ومبرّأ عن الحد والتعيّن لأن كل محدود هوية مقيدة ووجود مخلوط لا الوجود المطلق ولا الصرف.

الرابع: عدم انفصال شيء منه لأن انفصال شيء عن شيء مستلزم للهيولوية بل للأجزاء المقدارية وهو ينافي الهوية المطلقة وصرافة الوجود ووجود المعلولات من العلة ليس بطريق الانفصال بل بطريق التجلي والظهور والتشأن والصدور وهو بحيث أنه لا ينقص من صدورها شيء من العلة ولا يضاف برجوعها شيء إلى العلّة.

الخامس: عدم انفصاله عن شيء وهو (أي الانفصال عن شيء) مضافا إلى المفسدة السابقة ينافي صرافة الوجود وإطلاق الهوية من طريق آخر لأنه يلزم أن يتقدم صرف الوجود شيء آخر، وقد ثبت في الفلسفة العالية أن الصرف أقدم الأشياء والمتعين متأخر عن المطلق.

السادس: عدم الكفؤ والمثل ونفي المثل والشبيه وهو أيضا ببرهان صرف الوجود ثابت لا ينكر، فلا تتصور هويتان مطلقتان وليس المقيد للمطلق صنوا ونظيرا، ولكل من هذه المطالب مقدمات وأصول تفصيلها خارج عن مجال هذا المختصر.

حكمة مشرقية:

اعلم أن هذه السورة المباركة مع كمال اختصارها مشتملة على جميع الشؤون الإلهية ومراتب التسبيح والتنزيه. وفي الحقيقة هي نسبة الحق تعالى بما يمكن أن يقع في قالب الألفاظ ونسيج العبارات كما أن هو الله أحد تمام حقائق صفات الكمال ومشتمل على جميع الصفات الثبوتية، ومن الصمد إلى آخر السورة الصفات التنزيهية وإشارة إلى سلب النقائص.

وأيضا في السورة الشريفة إثبات الخروج من الحدين حد التعطيل والتشبيه اللذين هما كلاهما خروج عن حد الاعتدال وحقيقة التوحيد، فالآية الشريفة الأولى إشارة إلى نفي التعطيل وتتمة السورة إشارة إلى نفي التشبيه.

وهي أيضا مشتملة على الذات من حيث هي ومقام الأحدية وهو التجلي بالأسماء الذاتية ومقام الواحدية وهو التجلي بالأسماء الذاتية ومقام الواحدية وهو التجلي بالأسماء والصفات كما ذكر تفصيله بما يناسب.

تتميم:

روى الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) عن أبي البختري وهب بن وهب القرشي عن أبي عبد الله الصادق جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل: " قل هو الله أحد " قال: (قل) أي أظهر ما أوحينا إليك ونبّأناك به بتأليف الحروف التي قرأنا لك ليهتدي بها من ألقى السمع وهو شهيد و " هو " اسم مكنى يشار به إلى الغائب، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت والواو إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما أن قولك " هذا " إشارة إلى الشاهد عند الحواس، وهذه الإشارة إلى الغائب لأن الكفار نبّهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك فقالوا هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار، فأشر أنت يا محمد إلى إلهك الذي تدعو عليه حتى نراه وندركه ولا نتألّه فيه، فأنزل الله سبحانه وتعالى قل هو الله أحد فالهاء تثبيت الثابت والواو تشير إلى الغائب عن درك الأبصار ولمس الحواس والله تعالى عن ذلك بل هو مدرك الأبصار والحواس ".

وقال الباقر عليه السلام: " معناه المعبود الذي أله الخلق عن درك ماهيته والإحاطة بكيفيته، ويقول العرب أله الرجل إذا تحيّر في الشيء فلم يحط به علما، ووله إذا فزع إلى شيء مما يحذره أو يخافه، فالإله هو المستور عن حواس الخلق ".
وقال الباقر عليه السلام: " الأحد الفرد المتفرد والأحد والواحد بمعنى واحد وهو المتفرد الذي لا نظير له، والتوحيد الإقرار بالوحدة وهو الانفراد والواحد المتباين الذي لا ينبعث من شيء ولا يتحد بشيء، ومن ثم قالوا: إن بناء العدد من الواحد وليس الواحد من العدد لأن العدد لا يقع على الواحد بل يقع على الإثنين، فمعنى قوله الله أحد أي المعبود الذي يأله الخلق عم إدراكه والإحاطة بكيفيته فرد بإلهيته متعال عن صفة خلقه ". وقال الباقر عليه السلام: وحدّثني أبي زين العابدين عليه السلام عن أبيه الحسين عليه السلام أنه قال: " الصمد الذي لا جوف له والصمد الذي قد انتهى سؤدده والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب والصمد الذي لا ينام والصمد الدائم الذي لم يزل ولا يزال ". قال الباقر عليه السلام " كان محمد بن الحنفية رضي الله عنه يقول الصمد القائم بنفسه الغني عن غيره ". وقال غيره: " الصمد المتعالي عن الكون والفساد والصمد الذي لا يوصف بالتغاير ". قال الباقر عليه السلام " الصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه آمر وناه ".
قال: وسئل علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام عن الصمد فقال: " الذي لا شريك له ولا يؤوده حفظ شيء ولا يعزب عنه شيء ".
قال وهب بن وهب القرشي: قال زين العابدين عليّ عليه السلام " الصمد الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون والصمد الذي أبدع الأشياء فخلقها أضدادا وأشكالا وأزواجا وتفرّد بالوحدة بلا ضدّ ولا شكل ولا مثل ولا ندّ ".
وقد نقل وهب بن وهب أيضا من كلام الإمام علي بن الحسين سلام الله عليهما في تفسير الصمد، ونقل أيضا كلاما في أسرار حروف الصمد عن الباقر عليه السلام ثم يقول:
ثم قال عليه السلام " لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عز وجل حملة لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصمد وكيف لي بذلك ولم يجد جدي أمير المؤمنين حملة لعلمه حتى كان يتنفس الصعداء ويقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني فإن بين الجوانح مني علما جمّا هاه هاه إلاّ لا أجد من يحمله " الحديث.

خاتمة:

ونختم هذا المقام بذكر بعض الأحاديث الشريفة في فضل هذه السورة المباركة وإن كانت الأحاديث في فضلها خارجة عن مجال هذا المختصر.

ففي الكافي الشريف بإسناده إلى باقر العلوم عليه السلام: ″ من قرأ قل هو الله أحد مرّة بورك عليه، ومن قرأها مرّتين بورك عليه وعلى أهله، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى أهله وعلى جيرانه، ومن قرأها اثنتي عشرة مرة بنى الله له اثني عشر قصرا في الجنة فيقول الحفظة اذهبوا بنا إلى قصور أخينا فلان فننظر إليها، ومن قرأها مائة مرة غفرت له ذنوب خمس وعشرين سنة ما خلا الدماء والأموال ومن قرأها أربعمائة مرة كان له أجر أربعمائة شهيد كلهم قد عقر جواده وأريق دمه، ومن قرأها ألف مرة في يوم وليلة لم يمت حتى يرى مقعده في الجنة أو يرى له ″. وأيضا في الكافي بإسناده إلى الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ″ من قرأ قل هو الله أحد مائة مرة حين يأخذ مضجعه غفر الله له ذنوبه خمسين سنة ″.

وروي عن الصادق عليه السلام قال: ″ كان أبي صلوات الله عليه يقول قل هو الله أحد ثلث القرآن وقل يا أيها الكافرون ربع القرآن ″ وعن أبي عبد الله (عليه السلام) أن النبي (صلى الله عليه وآله) صلى على سعد بن معاذ فقال: ″ لقد وافى من الملائكة سبعون ألفا وفيهم جبرائيل يصلّون عليه، فقلت: يا جبرائيل لم يستحق صلواتكم عليه ؟ فقال: لقراءته قل هو الله أحد قائما وقاعدا وراكبا وماشيا وذاهبا وقادما ″.

وروي في الوسائل عن المجالس ومعاني الأخبار عن الصادق عن آبائه (عليهم السلام) في حديث عن سلمان أنه قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: ″ من قرأ قل هو الله أحد مرة فقد قرأ ثلث القرآن ومن قرأها مرتين فقد قرأ ثلثي القرآن ومن قرأها ثلاثا فقد ختم القرآن ″. وفي ثواب الأعمال: ″ من مضت له جمعت ولم يقرأ فيها بقل هو الله أحد ثم مات، مات على دين أبي لهب ″.

وروي في المستدرك أحاديث طويلة وكثيرة في فضل هذه السورة الشريفة فمن أراد فليرجع إليه وإلى الوسائل والحمد لله.

الفصل السابع

في نبذة في تفسير السورة المباركة القدر

بقدر ما يناسب هذه الأوراق

قوله تعالى: إنّا أنزلناه في ليلة القدر: وفي هذه الآية الشريفة مطالب عالية لا تخلو الإشارة إلى بعضها من الفائدة:

المطلب الأول: في أن الآية الشريفة وكثيرا من الآيات الشريفة تنسب تنزيل القرآن إلى ذاته المقدسة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ (الدخان ـ ٣). ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ـ ٩) ، إلى غير ذلك من الآيات الشريفة، وفي بعضها تنسب إلى جبرائيل وهو الروح الأمين كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (الشعراء ـ١٩٣).

فعلماء الظاهر يقولون في هذه المقامات: هذا مجاز من قبيل ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ (فاطر ـ ٣٦) فنسبه التنزيل إلى الحق تعالى مثلا من باب أن الذات المقدسة سبب للتنزيل وآمر به أو أن التنزيل بالنسبة إلى الحق تعالى حقيقة وينسب إلى الروح الأمين مجازا لأنه واسطته، وهذا من جهة أنهم يحسبون أن نسبة فعل الحق إلى الخلق كنسبة فعل الخلق إلى الخلق فيرون مأمورية جبرائيل وعزرائيل عن الحق تعالى كمأمورية هامان عن فرعون والبنّائين والمعماريين عن هامان، وهذا قياس باطل كثيرا وقياس مع الفارق وأن فهم نسبة الخلق إلى الحق وفعل الخلق والخالق من مهمات المعارف الإلهية وأمهات المسائل الفلسفية تنحل به كثير من المهمات ومن جملتها مسألة الجبر والتفويض، ومطلبنا هذا من شعبها.

وليعلم أنه من المقرر والثابت في العلوم العالية أن جميع دار التحقق ومراتب الوجود صورة الفيض المقدس الذي هو التجلي الإشراقي للحق تعالى، وكما أن الإضافة الإشراقية هي محض الربط وصرف الفقر كذلك تعيناتها وصورها أيضا محض الربط وليست لها من أنفسها حيثية واستقلال. وبعبارة أخرى جميع دار التحقق فانية في الحق ذاتا وصفة وفعلا لأنه لو استقل موجود من الموجودات في شأن من الشؤون الذاتية سواء أكان في الهوية الوجودية أم في شؤونها لخرج عن حدود بقعة الإمكان فيتبدل إلى الوجوب الذاتي وهذا واضح البطلان فإذا رسخت هذه اللطيفة الإلهية في القلب وذاقها الفؤاد كما ينبغي فيكشف له سرّ من أسرار القدر وتنكشف لطيفة من حقيقة الأمر بين الأمرين فيمكن إذاً نسبة الآثار والأفعال الكمالية إلى الخلق بنفس النسبة التي لها إلى الحق من دون أن تكون مجازا في جانب، وهذا يتحقق في نظر الوحدة في الكثرة والجمع بين

الأمرين، نعم ما كان واقعا في الكثرة محضا ومحجوبا عن الوحدة ينسب الفعل إلى الخلق ويغفل عن الحق كنحن المحجوبين، ومن تجلت في قلبه الوحدة فيحجب عن الخلق وينسب جميع الأفعال إلى الحق، والعارف المحقق يجمع بين الوحدة والكثرة وفي حال أنه ينسب الفعل إلى الحق من دون شائبة مجاز ينسبه في نفس الحال إلى الخلق بلا شائبة مجاز والآية الشريفة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾ (الأنفال ـ ١٧) التي نفت الرمي في عين إثباته وأثبتته في عين نفيه تشير إلى هذا المشرب العرفاني الأحلى والمسلك الإيماني الدقيق، وإنما قلنا من نسبة الأفعال والآثار إلى الله سبحانه وقيّدناها بالكمالية لنخرج النقائص من هذه النسبة لأن النقائص ترجع إلى الإعدام وهي من تعينات الوجود وليست منسوبة إلى الحق إلاَّ بالعرض ولا يمكن شرح هذا المبحث في هذه الأوراق. فإذا علمت هذه المقدمة تعلم نسبة التنزيل إلى جبرائيل وإلى الحق والأحياء إلى إسرافيل وإلى الحق، والإماته إلى عزرائيل والملائكة الموكلة على النفوس وإلى الحق، والإشارة إلى هذا المطلب في القرآن كثيرة وهذا من إحدى معارف القرآن التي لم يكن قبل هذا الكتاب الشريف في آثار الحكماء والفلاسفة منها عين ولا أثر، والعائلة البشرية في هذه اللطيفة مرهونة لعطيّة هذه الصحيفة الإلهية كسائر المعارف الإلهية القرآنية.

المطلب الثاني: في الإشارة إلى نكتة أنه تعالى قال ″ إنّا ″ بصيغة الجمع وأنزلناه بصيغة الجمع.

اعلم أن نكتة ذلك هي تفخيم مقام الحق تعالى بمبدئيّته لتنزيل هذا الكتاب الشريف ولعل هذه الجمعية باعتبار الجمعية الأسمائية والإشارة أن الحق تعالى مبدأ لهذا الكتاب الشريف بجميع الشؤون الأسمائية والصفاتية ولهذه الجهة كان هذا الكتاب الشريف صورة أحدية جمع جميع الأسماء والصفات ومعرفا لمقام الحق المقدس بتمام الشؤون والتجليات.

وبعبارة أخرى هذه الصحيفة النورانية صورة الاسم الأعظم كما أن الإنسان الكامل أيضا صورة الاسم الأعظم بل حقيقة هذين في الحضرة الغيبية واحدة وهما في عالم التفرقة متفرقان على حسب الصورة ولكن على حسب المعنى أيضا لا يتفرقان وهذا أحد معاني لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.. وكما أن الحق تعالى خمّر طينة آدم الأول والإنسان الكامل بيدي والجلال والجمال كذلك أنزل الكتاب الكامل والقرآن الجامع بيدي الجمال والجلال، ولعله لهذه الجهة أيضا يقال له القرآن لأن مقام الأحدية جمع الوحدة والكثرة ولهذه الجهة ليس هذا الكتاب قابلا للنسخ والانقطاع لأن الاسم الأعظم ومظاهره أزلي وأبدي، وجميع الشرائع دعوة إلى هذه الشريعة والولاية المحمدية، ولعل الذكر في الآية الشريفة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ (الأحزاب ـ ٧٢) بصيغة الجمع لما ذكرنا من النكتة في ″ إنّا أنزلنا ″ لأن الأمانة على حسب الباطن هي حقيقة الولاية وعلى حسب الظاهر هي الشريعة أو دين الإسلام أو القرآن والصلاة.

المطلب الثالث: في إجمال كيفية نزول القرآن:

وهذا من لطائف المعارف الإلهية ومن أسرار الحقائق الدينية التي قلما يوجد من يطلّع على نبذة منها بالطريق العلمية ولا يتيسر لأحد الإطلاع على هذه اللطيفة الإلهية بطريق الكشف والشهود إلاَّ للكمّل من الأولياء أوّلهم نفس الرسول والخاتم وبعده سائر الأولياء وأهل المعارف وبمساعدته صلى الله عليه وآله لأن مشاهدة هذه الحقيقة لا تكون إلاَّ بالوصول إلى عالم الوحي والخروج عن حدود العوالم الإمكانية ونحن نبيّن هنا من هذه الحقيقة بيانا بالرمز والإشارة فليعلم أن القلوب التي تسير إلى الله بطريق السلوك المعنوي والسفر الباطني وتهاجر من منزل النفس المظلم وبيت الإِنِّيّة والأنانية طائفتان بالطريق الكلّي.

الأولى هم الذين يدركهم الموت بعد إتمام السفر إلى الله ويبقون في هذه الحال من الجذبة والفناء والموت فقد وقع أجرهم على الله وهو الله وهؤلاء محبوبون فانون تحت قباب الله لا يعرفهم أحد ولا يرتبطون بأحد ولا يعرفون أحدا إلاَّ الحق تعالى " أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري ".

الطائفة الثانية هم الذين فيهم قابلية أن يرجعوا إلى أنفسهم بعد تمامية السير إلى الله وفي الله وتحصل لهم حالة الصحو والتنبيه هؤلاء الذين قدّر استعدادهم على حسب تجلّي الفيض الأقدس الذي هو سر القدر وانتجبهم لتكميل العباد وتعمير البلاد وهؤلاء بعد الاتصال بالحضرة العلمية والرجوع إلى حقائق الأعيان يحصل لهم السير في الأعيان بالكشف فيتصلون بحضرة القدس ويكون سفرهم إلى الله وإلى السعادة ويخلّعون بخلعة النبوة، وهذا الكشف وحي إلهي قبل التنزّل إلى عالم الوحي الجبرائيلي وبعدما توجهوا من هذا العالم إلى العوالم النازلة يكتشفون ما في الأقلام العالية والألواح القدسية بقدر إحاطتهم العلمية ونشأتهم الكمالية المختصة بهم التابعة للحضرات الأسمائية. واختلاف الشرائع والنبوات بل جميع الاختلافات من هنا.

وفي هذا المقام تلك الحقيقة الغيبية والسريرة القدسية التي شوهدت في الحضرة العلمية والأقلام والألواح العالية تنزل إلى قلوبهم المباركة تارة عن طريق غيب النفس وسرّ روحهم الشريف بتوسط ملك الوحي وهو جبرائيل وأخرى يتمثل لهم جبرائيل تمثلا مثاليا في حضرة المثال وثالثة يتمثل تمثلا ملكيا، وبتوسّط تلك الحقيقة يظهر عن مكمن الغيب إلى مشهد عالم الشهادة ويتنزل بتلك اللطيفة الإلهية وصاحب الوحي يدركها ويشاهدها في كل نشأة على طور، ففي الحضرة العلمية على طور وفي حضرة الأعيان على طور وفي حضرات الأقلام على طور وفي حضرات الألواح على طور وفي حضرة المثال على طور وفي الحس المشترك على طور وفي الشهادة المطلقة على طور وهذه سبع مراتب من التنّزل ولعل نزول القرآن على سبعة أحرف يكون إشارة

إلى هذا المعنى وهذا لا ينافي ما قال عليه السلام القرآن واحد من واحد كما هو معلوم ولهذا المقام تفصيل لا يناسب ذكره.

المطلب الرابع: في سر (هاء) في إنّا أنزلناه:

قد علم أن للقرآن قبل التنزيل إلى هذه النشأة مقامات وكينونات فمقامه الأول: كينونته العلمية في الحضرة الغيبية بالتكلم الذاتي والمقارعة الذاتية بطريق أحدية الجمع، ولعل ضمير الغائب يكون إشارة إلى ذاك المقام وقد ذكره الله تعالى بضمير الغيبة لإفادة هذا المعنى فكأنه يقول: هذا القرآن النازل في ليلة القدر هو ذاك القرآن العلمي في السرّ المكنون، والغيبي في النشأة العلمية قد أنزلناه على تلك المراتب وكان متحدا في مقام مع الذات وكان من التجليات الأسمائية وهذه الحقيقة الظاهرة ذلك السرّ الإلهي وهذا الكتاب الذي ظهر في كسوة العبارات والألفاظ هو صورة التجليات الذاتية في مرتبة الذات وعين التجلي الفعلي في مرتبة الفعل، كما قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه ″ إنما كلامه فعله ″.

المطلب الخامس: في بيان ليلة القدر:

وفيه مباحث كثيرة ومعارف لا تعدّ قد بحث عنها العلماء الأعلام رضوان الله عليهم على حسب مشاربهم ومسالكهم، ونحن نبيّن في هذه الأوراق بعضا منها بطريق الإشارة ونشير إلى مطالب أخرى لم يذكروها وذلك في ضمن أمور:

الأول: في وجه تسمية ليلة القدر:

إن العلماء قد اختلفوا فيه فبعضهم على أن ليلة القدر حيث أنها صاحبة شرف ومنزلة وقد نزل فيها القرآن صاحب القدر بتوسط ملك صاحب القدر على رسول صاحب القدر لأمة صاحبة القدر فلهذا سميت بليلة القدر.

وقال بعض: إن تسميتها ليلة القدر لأجل تقدير الأمور والآجال وأرزاق الناس في تلك الليلة.

وقال بعض: لأن الأرض تضيق بواسطة كثرة الملائكة فسميت ليلة القدر وهذا من قبيل ″ ومن قدر عليه رزقه ″ وهذه كلمات قيلت في المقام وفي كل من تلك الوجوه تحقيقات لا تخلو الإشارة إليها إجمالا من الفائدة.

أما المطلب الأول وهو كونها بمعنى صاحبة المنزلة والقدر.

فأعلم أن في هذا المقام كلاما وهو أن مطلق الزمان والمكان الذي بعض منه شريف وبعض غير شريف وبعض سعيد وبعض نحس فهل هذا من نفس ذات الزمان ومن تشخصاته الذاتية، وهكذا في المكان أو أنه بواسطة وقوع الوقائع وحصول الأمور الشريفة والخسيسة يكون صاحب تلك

المزية بالعرض، وهذا وإن لم يكن مبحثا مهما وشريفا والبحث في أطرافه ليس له كثير فائدة ولكن نأتي بذكر منه بطريق الاختصار.

إن وجه ترجيح الاحتمال الأول هو أن ظاهر الأخبار والآيات التي أثبتت للزمان والمكان شرافة أو نحوسه إنها صفة نفس الزمان والمكان لا إنها صفة للحال المتعلق وحيث أنه لا مانع عقليا فيتعيّن حملها على ظاهرها.

ووجه ترجيح الاحتمال الثاني إن حقيقة كل من الزمان والمكان حقيقة واحدة بل شخصية كل منهما أيضا شخصية واحدة فلهذه الجهة لا يمكن أن يكون شخص واحد متجزيا ومختلفا في الحكم. فبناء على هذا فلا بد أن يحمل ما ورد في شرفهما أو نحوستهما على الوقائع والقضايا الحاصلة فيهما، وهذا الوجه ليس برهانيا لأن الزمان وإن كان شخصا واحدا ولكن حيث أنه متدرج وممتد وحقيقة مقدارية لا مانع من أن يكون بعض أجزائه مع بعض آخر مختلفا في الحكم والأثر ولم يقم برهان بأن الشخص كيفما كان لا يكون له حكمان وأثران بل خلافه ظاهر، فمثلا أفراد الإنسان مع أن كل واحد منهما شخص واحد فلهم مع ذلك في الصورة الجسمية اختلافات كثيرة مثل الجليدية والدماغ والقلب أشرف وألطف من الأعضاء الأخر وكذلك القوى الباطنية والظاهرة منه بعضها أشرف من بعض وهذا لأن الإنسان لم يظهر في هذا العالم بنعت الوحدة التامة وإن كان شخصا واحدا ولكن حيث إنه ظهر بنعت الكثرة فأحكامه أيضا تختلف.

وأما وجه ترجيح الاحتمال الأول فليس أيضا وجها صحيحا مرضيا لأن مرجع هذا الوجه إلى أصالة الظهور وأصالة الحقيقة مثلا وقد علم في الأصول أن أصالة الحقيقة وأصالة الظهور لتعيين المراد في مورد الشك في المراد لا أنها بعد معلومية المراد لتعيين الحقيقة فتأمل (وجه التأمل انه يمكن أن يقرر هذه الدعوة بوجه آخر وهو أن الظاهر في نسبة موضوع إلى محمول هو أن الموضوع واجد للحكم وتمام الموضوع له كما أن شيخنا وأستاذنا في العلوم النقلية كان يثبت بهذا البيان الإطلاق في باب الإطلاق من دون حاجة الى مقدمات الإطلاق منه ـ عفي عنه ـ: أي من المؤلف دام ظله).

فبناء على هذا فكلا الوجهين محتمل، ولكن الثاني أرجح في النظر. فبناء عليه أن ليلة القدر صارت صاحبة قدر لأنها ليلة وصال النبي الخاتم وليلة وصول العاشق الحقيقي إلى محبوبه، وقد علم في المباحث السابقة أن تنزل الملائكة ونزول الوحي يكون بعد حصول الفناء والقرب الحقيقي.

ويستفاد من الأخبار الكثيرة والآيات الشريفة أيضا أن شرف الأزمنة والأمكنة ونحوستها بسبب الوقائع فيها وهذا يعلم بمراجعتها وإن كان يستفاد من بعضها الشرف الذاتي أيضا.

أما الاحتمال الآخر وهو أنها تسمى بليلة القدر لتقدير أمور أيام السنة فيها فأعلم أن حقيقة القضاء والقدر وكيفيتها ومراتب ظهورها من أجلّ العلوم الإلهية وأشرفها، وقد نهي عامة الناس عن الغور في أطرافها ولأنه يوجب الحيرة والضلالة لكمال دقتها ولطافتها ولهذا لا بد أن تعد هذه الحقيقة من أسرار الشريعة وودائع النبوة ويصرف النظر عن البحث الدقيق في أطرافها، ونحن نشير إلى مبحث منه يناسب هذا المقام.

وهو أن تقدير الأمور مع أنها كانت في علم الحق تعالى في أزل الآزال وليس من الأمور التدريجية بالنسبة إلى مقام العلم الربوبي المنزه فما معنى التقدير في كل سنة في ليلة معينة ؟

اعلم أن للقضاء والقدر مراتب تتفاوت أحكامه على حسب تلك المراتب:

المرتبة الأولى من تلك المراتب عبارة عن الحقائق التي تتقدر وتتحدد في حضرة العلم بالتجلي بالفيض الأقدس تبعا لظهور الأسماء والصفات وبعده تقدر وتحكم في الأقلام العالية والألواح العالية على حسب الظهور بالتجلي الفعلي ولا تقع التغيرات والتبديلات في هذه المراتب، والقضاء الحتم الذي لا يبدل هو الحقائق المجردة الواقعة في حضرات والنشأة العلمية والنازلة في الأقلام والألواح المجردة ثم تظهر الحقائق بالصور البرزخية والمثالية في الألواح الأخر والعالم الأنزل وهو عالم الخيال المنفصل وخيال الكل الذي يقال له عالم المثل المعلقة على طريقة حكماء الإشراق، وفي هذا العالم يمكن وقوع التغيرات والاختلافات بل هي واقعة.

ثم يكون التقديرات والتحديدات بتوسط الملائكة الموكلين بعالم الطبيعة، وفي لوح القدر هذا تغييرات دائمية وتبديلات أبدية، بل هو نفسه الصورة السيالة والحقيقة المتصرمة والمتدرجة والحقائق في هذا اللوح قابلة للشدة والضعف والحركات قابلة للسرعة والبطء والزيادة والنقيصة ومع ذلك فالوجهة التي تلي الله والوجهة الغيبية لهذه الأشياء التي هي جهة التدلي بالحق وصورة ظهور الفيض المنبسط والظل الممدود وحقيقة العلم الفعلي للحق لا مجال فيها للتغيير والتبديل بوجه.

وبالجملة، فجميع التغيرات والتبدلات وزيادة الآجال وتقدير الأرزاق تقع عند الحكماء في لوح القدر العلمي وهو عالم المثال، وعند الكاتب تقع في لوح القدر العيني الذي هو محل نفس التقديرات على أيدي الملائكة الموكلين بها فبناء على هذا فلا مانع من أن تقع التغيرات والتبديلات في عالم الطبع في ليلة القدر بما أنه ليلة التوجه التام للولي الكامل وليلة ظهور سلطنته الملكوتية بتوسط النفس الشريفة للولي الكامل وأمام كل عصر وقطب كل زمان وهو اليوم حضرة بقية الله في الأرضين سيدنا ومولانا وإمامنا وهادينا الحجة بن الحسن (أرواحنا لمقدمه الفداء) فما أراد عليه السلام من جزئيات الطبيعة يبطئ حركته، وما أراد سرعته يسرعه وما أراد من رزق

يوسعه وما أراد يضيقه، وهذه الإرادة إرادة الحق وظل الإرادة الأزلية وشعاعها وتابعة للفرامين الإلهية كما أن ملائكة الله أيضا لا يتصرفون من عند أنفسهم. وتصرفات جميعهم بل تصرفات جميع ذرات الوجود تصرف إلهي وهي من تلك اللطيفة الغيبية الإلهية ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (هود ـ ١١٢) .

وأما ما ذكر من الاحتمال في وجه تسمية ليلة القدر من أن الأرض تضيق بواسطة الملائكة ولهذا سميت ليلة القدر، فهذا الوجه وإن كان بعيدا وإن كان القائل به أعجوبة الزمان الخليل بن أحمد رضوان الله عليه ولكن ما يمكن أن يقع موردا للبحث هو أن ملائكة الله ليست من سنخ عالم الطبيعة والمادة فما معنى ضيق الأرض بهم ؟

فاعلم أنه قد ورد نظير هذا المطلب في الروايات الشريفة مثل قضية تشييع سعد بن معاذ رضي الله عنه (في الكافي: صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ على سعد بن معاذ مع تسعين ألف ملك فيهم جبرائيل (الحديث)) ومثل بسط الملائكة أجنحتهم لطالب العلم، فهذا إما من باب تمثل الملائكة بالصور المثالية وتنزلها من عالم الغيب إلى عالم المثال وتضييق ملكوت الأرض أو من باب تمثلهم الملكي في ملك الأرض وإن كانت الأبصار الطبيعية الحيوانية لا تراها. وبالجملة التضييق باعتبار التمثلات المثالية أو الملكية.

الأمر الثاني في حقيقة ليلة القدر:

اعلم أن لكل رقيقة ولكل صورة ملكية باطناً ملكوتياً وغيبيّاً وأهل المعرفة يقولون أن مراتب نزول حقيقة الوجود باعتبار احتجاب شمس الحقيقة في أفق تعينات الليالي ومراتب الصعود باعتبار خروج شمس الحقيقة من آفاق تعينات الأيام وإن شرافة الأيام والليالي ونحوستها تتضح على حسب هذا البيان.

وباعتبار قوس النزول، فليلة القدر المحمدية وباعتبار قوس الصعود فيوم القيامة الأحمدية لأن هذين القوسين مدّ النور المنبسط الذي هو الحقيقة المحمدية وجميع التعيينات هي من التعين الأولى للاسم الأعظم.

ففي نظر الوحدة، العالم ليلة القدر ويوم القيامة وليس أكثر من ليلة واحدة ويوم واحد وهذا تمام دار التحقق أي وليلة القدر المحمدية ويوم القيامة الأحمدية، ومن تحقق بهذه الحقيقة فهو دائما في ليلة القدر ويوم القيامة وهذان يجتمعان.

وباعتبار نظر الكثرة تظهر الليالي والأيام، فبعض الليالي صاحبة القدر وبعضها ليست بصاحبة القدر وبين جميع الليالي البنية الأحمدية والتعين المحمدي صلى الله عليه وآله التي غرب في أفقها نور حقيقة الوجود بجميع شؤونه وكذلك الأسماء والصفات بكمال نوريتها وتمام حقيقتها قد غربت

فيها هي ليلة القدر المطلقة كما أن اليوم المحمدي يوم القيامة وأما سائر الليالي والأيام فهي ليال وأيام مقيّدة ونزول القرآن في هذه البنية الشريفة والقلب المطهّر نزول في ليلة القدر، فالقرآن كما أنه نزل جملة في ليلة القدر بطريق الكشف المطلق الكلي كذلك نزل نجوما في خلال ثلاث وعشرين سنة نجوما في ليلة القدر، والشيخ شاه آبادي دام ظله كان يقول: ليلة القدر هي الدورة المحمدية، وهذا أمّا باعتبار أنّ جميع الأدوار الوجودية هي الدورة المحمدية وأما إن في هذه الدورة الأقطاب الكمّل المحمدية والأئمة الهداة المعصومين ليالي القدر.

ويدل على هذا ما ذكرنا من حقيقة ليلة القدر الحديث الشريف المطوّل في تفسير البرهان نقله عن الكافي الشريف، وفي ذلك الحديث: " إن نصرانيا قال لموسى بن جعفر عليه السلام ما تفسير باطن حم والكتاب المبين إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنّا كنّا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ؟ فقال علية السلام: أما حم محمد وأما الكتاب المبين أمير المؤمنين علي وأما الليلة فاطمة عليها السلام ".

وفي رواية فسرت ليال عشر بالأئمة الطاهرين من الحسن إلى الحسن وهذه إحدى مراتب ليلة القدر قد ذكرها موسى بن جعفر عليه السلام ومما يشهد بأن ليلة القدر تمام الدورة المحمدية.. الرواية التي في تفسير البرهان عن الباقر عليه السلام وهذه الرواية حيث أنها رواية شريفة وتشير إلى معارف عديدة وتكشف أسرارا مهمّة ننقلها نصّا تيمّنا.

قال رحمه الله وعن الشيخ أبي جعفر الطوسي عن رجاله عن عبد الله بن عجلان السكوني قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: " بيت علي وفاطمة حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسقف بيتهم عرش رب العالمين وفي قعر بيوتهم فرجة مكشوطة إلى العرش معراج الوحي. والملائكة تنزل عليهم بالوحي صباحا ومساء وكل ساعة وطرفة عين والملائكة لا تنقطع أفواجهم، فوج ينزل وفوج يصعد وإن الله تبارك وتعالى كشف لإبراهيم عليه السلام عن السماوات حتى أبصر العرش وزاد الله في قوّة ناظره وإن الله زاد في قوة ناظر محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وكانوا يبصرون العرش ولا يجدون لبيوتهم سقفا غير العرش، فبيوتهم مسقفة بعرش الرحمن ومعارج الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام.. قال: قلت: من كل أمر سلام ؟ قال: بكل أمر، فقلت: هذا التنزيل ؟ قال: نعم.

والتدبر في هذا الحديث الشريف يفتح أبوابا من المعرفة لأهلها فتنكشف له نبذة من حقيقة الولاية وباطن ليلة القدر.

الأمر الثالث:

اعلم كما أن لليلة القدر حقيقة وباطنا قد أشرنا إليهما، كذلك لها صورة ومظهر، بل مظاهر في عالم الطبع وحيث أنه من الممكن أن تكون في المظاهر من جهة النقص والكمال فروق كثيرة فمن هذه

الجهة يمكن أن يجمع بين الأقوال والأخبار التي وردت في تعيين ليلة القدر بأن الليـالي الـشريفة التي وردت في الروايات كلها من مظاهر ليلة القدر إلاَّ أنـه يفـرق بعـضها فـي الـشرافة وكمـال المظهرية والليلة الشريفة التي لها تمام ظهور ليلة القدر وليلة الوصـول التـام الختمـي والوصـول الكامل الخاتمي مختفية في ليالي جميع السنة أو شهر رمضان المبارك أو في العشر الأخير أو فـي الليالي الثلاثة منه، وفي الروايات للعامة والخاصة أيضا اختلافات، وفـي روايـات الخاصـة ذكـر بالترديد في ليلة التاسع عشر والحادي والعشرين والثالث والعـشرين وفـي بعـضها الترديـد بـين الحادي والعشرين والثالث والعشرين.

قال شهاب بن عبد ربّه: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أخبرني بليلة القدر. قال (عليـه الـسلام) ″ هي ليلة إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين ″. وعن عبد الواحد بن المختار الأنصاري قال: سـألت أبا جعفر عن ليلة القدر، قال: ″ في ليلتين ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين. فقلـت افـرد لـي أحدهما. قال: وما عليك أن تعمل في ليلتين هي إحداهما ″.

وعن حسان بن أبي علي قال: سألت أبا عبد الله عن ليلة القدر فقـال: ″ اطلبهـا فـي تـسع عـشرة وإحدى وعشرين وثلاث وعشرين ″.

وقال السيد العابد الزاهد رضي الله عنه في الإقبال: اعلم أن هذه الليلة الثالثة والعشرين مـن شـهر رمضان وردت أخبار صريحة بأنها ليلة القدر على الكشف والبيان فمن ذلك ما رويناه بإسناده إلى سفيان السمط قال: قلت لأبي عبد الله: ″ افرد لي ليلة القدر، قال: ليلة ثلاث وعشرين ″. ومن ذلـك ما رويناه بإسناده إلى زرارة عن عبد الواحد بن المختار الأنصاري قـال: سـألت أبـا جعفـر عليـه السلام عن ليلة القدر فقال ″ أخبرك والله ثم لا أعمي عليك هي أول ليلة من الـسبع الآخـر ″. ثـم يروي عن زرارة أنه قال كان ذلك الشهر تسعة وعشرين ثم يروي روايات أخر أن ليلة القدر هـي ليلة ثلاث وعشرين منها قضية الجهني المعروفة (أقول: قال السيد بن طاووس قدس سـره: ومـن ذلك ما رويناه.. بإسنادنا أيضا الى حماد بن عيسى عن محمد بن يوسف عن أبيه قال: سمعت أبـا جعفر عليه السلام يقول أن الجهني أتى الى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال يا رسول الله إن لي إبلا وغنما وغلمة فأحب أن تأمرني ليلة أدخل فيها فأشهد الصلاة وذلك في شهر رمـضان فـدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسارّه في أذنه قـال: فكـان الجهنـي إذا كانـت ليلـة ثـلاث

وعشرين دخله بإبله وغنمه وأهله وولده وغلمته فكان تلك الليلة ليلة ثلاث وعشرين بالمدينة فإذا أصبح خرج بأهله وغنمه وإبله الى مكانه واسم الجهني عبد الرحمن بن أنيس الأنصاري).

تنبيه عرفاني

كما ذكرنا في السورتين المباركتين المذكورتين الأظهر أن بسم الله في كل سورة متعلق بتلك السورة فلهذا يكون المعنى في السورة المباركة القدر إنّا أنزلنا الحقيقة الشريفة القرآنية واللطيفة المقدسة الإلهية في ليلة القدر المحمدية باسم الله الذي هو الحقيقة الجمعية الأسمائية والاسم الأعظم الربوبي والمتعين بالرحمة المطلقة الرحمانية والرحيمية بمعنى أن ظهور القرآن بتبعية الظهور الجمعي الإلهي والقبض والبسط الرحيمية والرحمانية بل حقيقة القرآن هي مقام ظهور اسم الله الأعظم بظهور الرحمانية والرحيمية وجامع للجمع والتفصيل. فهذا الكتاب لهذه الجهة قرآن وفرقان. كما أن روحانية الرسول الخاتم ومقام ولايته المقدس أيضا قرآن وفرقان ومقام أحدية الجمع والتفصيل.

فعلى هذا الاحتمال كأن الذات المقدسة تقول:

إنّا بالتجلي بمقام الاسم الأعظم وهو مقام أحدية الجمع والتفصيل بظهور رحمة الرحمانية والرحيمية نزّلنا القرآن في ليلة القدر المحمدية، وحيث أن في عالم الفرق بل فرق الفرق حصلت الفرقانية بين القرآنين يعني القرآن المكتوب المنزل والقرآن المنزل عليه يعني الكتاب الإلهي والحقيقة المحمدية فواصلنا بين القرآنين وجمعنا بين الفرقانين في ليلة الوصال، وبهذا الاعتبار أيضا هذه الليلة ليلة القدر ولكن لا يعرف أحد قدرها كما ينبغي غير نفس خاتم النبيين صاحب ليلة القدر بالأصالة وأوصيائه المعصومين أصحابها بالتبعية.

تتمة: في ذكر بعض روايات التي وردت في فضل ليلة القدر:

منها: ما رواه العارف بالله السيد ابن طاووس في كتاب الإقبال الشريف، قال: وجدت في كتاب كنز اليواقيت تأليف أبي الفضل أبي محمد الهروي أخبارا في ليلة القدر إلى أن قال عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: " قال موسى: إلهي أريد قربك قال: قربي لمن استيقظ ليلة القدر. قال: إلهي أريد رحمتك، قال: رحمتي لمن رحم المساكين ليلة القدر. قال: إلهي أريد الجواز على الصراط، قال: ذلك لمن تصدّق في ليلة القدر. قال: إلهي أريد من أشجار الجنة وثمارها قال: ذلك لمن سبّح تسبيحة في ليلة القدر. قال: إلهي أريد النجاة، قال: النجاة من النار ؟ قال: نعم، قال: ذلك لمن استغفر في ليلة القدر. قال: إلهي أريد رضاك، قال: رضائي لمن صلى ركعتين في ليلة القدر ".

ومن الكتاب المذكور عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: " تفتح أبواب السماء في ليلة القدر فما من عبد يصلى فيها إلاَّ كتب الله تعالى له بكل سجدة شجرة في الجنة لو يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها وبكل ركعة بيتا في الجنة من در وياقوت وزبرجد ولؤلؤ، وبكل آية تاجا من تيجان الجنة وبكل تسبيحة طائرا من العجب وبكل جلسة درجة من درجات الجنة وبكل تشهّد غرفة من غرفات الجنة وبكل تسليمة حلّة من حلل الجنة، فإذا انفجر عمود الصبح أعطاه الله من الكواعب المؤلفات والجواري المهذبات والغلمان المخلّدين والنجائب المطيرات والرياحين المعطرات والأنهار الجاريات والنعيم الراضيات والتحف والهديات والخلع والكرامات ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ".

ومن هذا الكتاب عن الباقر عليه السلام " من أحيا ليلة القدر غفرت له ذنوبه ولو كانت ذنوبه عدد نجوم السماء ومثاقيل الجبال ومكاييل البحار ". والأخبار في فضائلها أكثر من أن تكتب في هذه الأوراق.

قوله تعالى: وما أدراك ما ليلة القدر:

هذا التركيب للتفخيم والتعظيم وعظمة المطلب وعظمة الحقيقة خصوصا بملاحظة المتكلم والمخاطب، فمع أن الحق تعالى جلّت قدرته هو المتكلم والرسول الأكرم هو المخاطب، مع هذا الوصف ربما يكون المطلب ذا عظمة بمقدار لا يمكن إظهاره في نسج الألفاظ وتركيب الحروف والكلمات فكأنه تعالى يقول: لا تدري ما ليلة القدر في حقيقتها العظيمة ولا يمكن بيان حقيقتها ونسج الحروف والكلمات ونظمها لا يليق بتلك الحقيقة.

ولهذا مع أن كلمة ما لبيان الحقيقة فقد صرف النظر عن بيانها وقال ليلة القدر خير من ألف شهر فعرّفها بخواصها وآثارها لأن بيان حقيقتها غير ممكن، ومن هنا أيضا يحتمل بحدس قوي أن تكون حقيقة ليلة القدر وباطنها غير هذه الصورة والظاهر، وإن كان هذا الظاهر أيضا ذا أهمية وعظمة ولكن ليس بمثابة يعبّر هذا النحو من التعبير بالنسبة إلى رسول الله الولي المطلق والمحيط على كل العوالم.

إن قلت: بناء على ما ذكر من أن باطن ليلة القدر حقيقة الرسول المكرم وبنيته التي احتجبت فيها شمس الحقيقة بتمام شؤونها فالإشكال يكون أعظم لأنه لا يمكن أن يقال له ـ صلى الله عليه وآله ـ نفسه ما أدرك ما ليلة القدر التي هي صورة الملكية لك.

قلت أن لهذا المطلب وهذه اللطيفة باطنا وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

فأعلم أيها العزيز.. حيث إن في باطن ليلة القدر الحقيقيّة يعني في البنية المحمدية والصورة الملكية أو في العين الثابتة المحمدية جلوة الاسم الأعظم والتجلي الأحدي الجمعي الإلهي فلهذه

الجهة ما دام العبد السالك إلى الله يعني الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله في حجاب نفسه فإنه لا يتمكن من مشاهدة ذلك الباطن وتلك الحقيقة كما ورد في القرآن الشريف في حق موسى بن عمران لن تراني يا موسى.. مع أن التجلي الذاتي أو الصفاتي قد حصل له عليه السلام بدليل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا﴾ (الأعراف ـ ١٤٣). وبدليل فقرات الدعاء الشريف العظيم الشأن السمات كما هو واضح جدا، والنكتة في هذا أيضا أنه يا موسى ما دمت في الحجاب الموسوي والاحتجاب النفسي لا يمكنك المشاهدة لأن مشاهدة جمال الجميل لمن خرج عن نفسه، فإذا خرج عن نفسه فيرى بعين الحق وعين الحق ترى الحق لا محالة فجلوة الاسم الأعظم التي هي الصورة الكمالية لليلة القدر لا ترى مع الاحتجاب بالنفس، فهذا التعبير بناء على هذا التحقيق يكون صحيحا وفي مورده.

فإن قلت: إن ليلة القدر هي نفس البنية الأحمدية باعتبار احتجاب شمس الحقيقة فيها لا نفس الشمس حتى يصحّ هذا التوجيه. قلت: في لسان أهل النظر شيئية الشيء بصورته الكمالية والأشياء ذوات الأسباب وخصوصا السبب الإلهي لا تعرف بحقيقتها إلاَّ بمعرفة أسبابها.

وفي لسان أهل المعرفة نسبة الظاهر والباطن والجلوة والمتجلي ليسا أمرين مفترقين بل الحقيقة الواحدة تتجلى بالتجلي الظهوري حينا وبالتجلي البطوني حينا آخر، كما يقول العارف المعروف:

ما عدمهائيم هستيها نما تو وجود مطلق وهستي ما

(البيت للعارف الرومي يقول: نحن عدم نتظاهر بالوجود وأنت الوجود المطلق وأنت وجودنا).

وفي هذا الكلام كما يقول العارف الرومي لا انتهاء له (قد تكررت في أشعار العارف الرومي جملة (إين سخن بايان ندارد) أي هذا الكلام لا انتهاء له فمقصود الإمام دام ظلّه من نقل القول هذه الجملة فقط لا أصل المطلب فتنبّه ״ المترجم ״) وصرف النظر عنه أولى.

قوله تعالى: ليلة القدر خير من ألف شهر:

إذا لاحظنا الصورة الظاهرة الملكية لليلة القدر فكونها خيرا من ألف شهر بمعنى أنها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، أو أنها والعبادة والطاعة فيها خير من ألف شهر حمل اليهود فيها سلاح ليقاتلوا في سبيل الله.

أو أن ليلة القدر خير من ألف شهر سلطنة بني فلان كما في الروايات الشريفة.

وإذا لوحظت حقيقة ليلة القدر فيمكن أن يكون ألف شهر كناية عن جميع الموجودات باعتبار أن ألف العدد الكامل، والمراد من الشهر أنواعها، يعني أن البنية الشريفة المحمدية وهي الإنسان الكامل خير من ألف نوع وهي جميع الموجودات كما قال بعض أهل المعرفة.

وقد لاح في نظر الكاتب احتمال آخر وهو أن تكون ليلة القدر إشارة إلى مظهر الاسم الأعظم يعني المرآة التامة المحمدية صلى الله عليه وآله وألف شهر عبارة عن مظاهر الأسماء الأخر، وحيث أن للحق تعالى واحدا وألف اسم. واحد من الأسماء مستأثر في علم الغيب فلهذه الجهة ليلة القدر أيضا مستأثرة وليلة قدر البنية المحمّدية أيضا مستأثرة ولا يطلّع عليها غير الذات المقدسة للرسول الخاتم صلى الله عليه وآله.

تنبيه عرفاني:

وليعلم كما أن الولي الكامل والنبي الخاتم صلى الله عليه وآله ليلة القدر باعتبار بطون الاسم الأعظم فيه واحتجاب الحق فيه بجميع شؤونه كذلك هو يوم القدر أيضا باعتبار ظهور شمس الحقيقة وبروز الاسم الجامع من أفق تعيّنه كما هو نفسه صلى الله عليه وآله يوم القيامة أيضا.

وبالجملة، ذاته المقدسة ليلة القدر ويومه، ويوم القيامة أيضا يوم القدر، فبناء على هذا لعل النكتة في التعبير عن سائر المظاهر بالشهر وعن هذا المظهر المقدس التام بالليلة هي أن مبدأ الشهور والسنين هو اليوم والليلة كما أن الواحد مبدأ للعدد وهو صلى الله عليه وآله بباطن الحقيقة ـ وهو الاسم الأعظم ـ مبدأ لسائر الأسماء وبتعينه وعينه الثابتة أصل الشجرة الطيبة ومبدأ التعينات، وتدبر، تعرف، واغتنم.

قوله تعالى: ″ تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ″

وفي هذه الآية الشريفة مطالب نذكر بعضها بطريق الإجمال:

الأمر الأول

في ذكر صنوف ملائكة الله والإشارة إلى حقيقتها على الإجمال:

اعلم أن بين المحدثين والمحقّقين اختلافا في تجرّد ملائكة الله وتجسّمها، وكافة الحكماء والمحققين وكثير من الفقهاء يقولون بتجردها وبتجرد النفس الناطقة، وأقاموا لذلك براهين متينة، ويستفاد التجرد من كثير من الروايات والآيات الشريفة كما قال المحدث المحقق مولانا محمد تقي المجلسي (هو والد المولى محمد باقر المجلسي كان وحيد عصره وفريد دهره أورع أهل زمانه وأزهدهم وأعبدهم استفاد العلم من شيخ الإسلام والمسلمين الشيخ بهاء الدين العاملي والعلامة الزاهد المقدس الورع المولى عبد الله الشوشتري وبعد فراغه من التحصيل أتى النجف الأشرف واشتغل بالرياضات وتهذيب الأخلاق وتصفية الباطن وله مكاشفات ومنامات حسنة ليس هاهنا مقام ذكرها ومصنفاته كثيرة منها شرحاه العربي والفارسي على كتاب من لا يحضره الفقيه كل منها يزيد على مئة ألف بيت وأرتحل إلى جوار رحمة الله تعالى في سنة ١٠٧٠ (غع)). الوالد

الماجد للمرحوم المجلسي في شرح الفقيه في ذيل بعض الروايات: أن هذا يدّل على تجرّد النفس الناطقة.

وقال بعض الأكابر من المحدثين بعدم التجرد، وغاية ما استدلّوا به أن القول بالتجرد مناف للشريعة وصرّحوا بأن المجرد ليس سوى ذات الحق تعالى وتقدس. وهذا الكلام ضعيف في الغية لأن نظرهم في هذا لعلها كانت معطوفة على أمرين:

الأول قضية حدوث العالم زمانا فتوهم أن تجرد شيء سوى الحق ينافيه.

والثاني: كون الحق تعالى فاعلا باختيار، فتوهموا أنه يخالف تجرّد عالم العقل والملائكة، وكلا المسألتين من المسائل المعنونة في العلوم العالية وقد اتضح فيها عدم تنافي المسائل من هذا القبيل مع الوجود المجردّ بل القول بعدم تجرد النفوس الناطقة وعالم العقل وملائكة الله ينافي كثيرا من المسائل الإلهية وكثيرا من العقائد الحقة وليس الآن مجال لبيانه، والحدوث الزماني للعالم على نحو توهمته هذه الطائفة مناف لأصل مسألة الحدوث الزماني فضلا عن أنه مخالف لكثير من القواعد الإلهية والحق الموافق للعقل النقل عند الكاتب أن لملائكة الله أصنافا كثيرة وكثير منها مجرد وكثير منها جسماني برزخي ولا يعلم جنود ربك إلاَّ هو.. وأصنافها على حسب التقسيم الكلي ما قالوا أن الموجودات الملكوتية على قسمين:

قسم لا تعلّق به بعالم الأجسام لا تعلقا حلوليّا ولا تعلقا تدبيريا. والقسم الآخر ما له التعلق بأحد هذين الوجهين.

والطائفة الأولى قسمان: قسم يقال له الملائكة المهيمنة وهم المستغرقون في جمال الجميل والمتحيرون في ذات الجليل وعن سائر الخلق غافلون لا يتوجهون إلى سائر الموجودات.

ففي أولياء الله أيضا طائفة بهذه الصفة، فكما أننا مستغرقون في البحر الظلماني للطبيعة وعن عالم الغيب وذات ذي الجلال غافلون مع أن الحق تعالى ظاهر بالذات وكل ظهور شعاع ظهوره كذلك هو غافلون عن العالم وما فيه ومشغولون بالحق وجمال الجميل. وفي الرواية: " أن لله خلقا لا يعلمون أن الله خلق آدم وإبليس ".

والقسم الثاني: طائفة جعلها الله تعالى وسائط رحمته وجوده وهي مبادئ سلسلة الموجودات وغاية أشواقها، ويقال لهذه الطائفة أهل الجبروت ويقدمها ويرأسها الروح الأعظم، ولعل الآية الشريفة، ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ (القدر ـ ٤). أيضا تكون إشارة إلى هذه الطائفة من الملائكة واختصاص الروح بالذكر مع أنه من الملائكة لعظمته، كما في الآية الشريفة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ (النبأ ـ ٣٨) أيضا إشارة إلى ذلك.

ويقال للروح باعتبار القلم الأعلى كما قال صلى الله عليه وآله وسلم " أول ما خلق الله القلم ".

ويقال له باعتبار آخر العقل الأول كما قال صلى الله عليه وآله وسلم ″أول ما خلق الله العقل ″.
وقال بعض: أن الروح هو جبرائيل.. وعند الفلاسفة جبرائيل آخر الملائكة الكروبيين وأنه الروح القدس ويعتقدون أن الروح أول الملائكة الكروبيين. وفي الروايات الشريفة أيضا ″ أن الروح أعظم من جبرائيل ″ كما في الكافي الشريف عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء ـ ٨٥) قال: ″خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله وهو مع الأئمة وهو من الملكوت″.
وفي بعض الروايات أن الروح ليس من الملائكة بل أعظم من الملائكة، ولعل للروح في لسان القرآن، والأحاديث إطلاقين كما أن له في لسان أهل الإصطلاح إطلاقات، فروح من صنوف الملائكة كما قال عليه السلام ″ أنه من الملكوت ″ وروح هو روح حضرات الأولياء وليس من الملائكة وأعظم منها. فبناء على هذا يمكن أن يكون الروح في السورة الشريفة القدر باعتبار التنزّل في ليلة القدر عبارة عن الروح الأمين أو الروح الأعظم، وفي الآية الشريفة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ (الإسراء ـ ٨٥) عبارة عن الروح الإنساني الذي هو مرتبة الكمال أعظم من جبرائيل وسائر الملائكة وهو من عالم الأمر بل ربما يتحد مع المشيئة التي هي الأمر المطلق.
والقسم الآخر من ملائكة الله هو الملائكة الموكلة بالموجودات الجسمانية والمدبرات فيها ولها صنوف كثيرة وطوائف لا تعدّ لأن لكل موجود علوي أو سفلي فلكي أو عنصري وجهة ملكوتية ينتقل بتلك الوجهة إلى عالم ملائكة الله ويتصل بجنود الحق، كما أن الحق تعالى يشير إلى ملكوت الأشياء بقوله ″ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ″.
وقال النبي صلى الله عليه وآله في كثرة الملائكة كما في الروايات ″ أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلاَّ وفيه ملك ساجد أو راكع ″. وقد ذكر في الروايات الشريفة الكثيرة ما يرجع إلى كثرة الملائكة وكثرة صنوفها.

الأمر الثاني

في بيان كيفية نزول الملائكة على ولي الأمر

اعلم أن الروح الأعظم وهو خلق أعظم من ملائكة الله بمعنى أنه واقع في الرتبة الأولى من ملائكة الله وأشرف وأعظم من الكل وملائكة الله المجردة قطان عالم الجبروت ولا يتجافون عن مقامهم والنزول والصعود لهم بالمعنى الذي للأجسام مستحيل لأن المجرد مبرأ ومنزه عن لوازم الأجسام فتنزلهم أعم من أن يكون في مرتبة القلب أو الصدر أو الحس المشترك للولي أو أن يكون في بقاع الأرض والكعبة وحول قبر رسول الله أو في البيت المعمور بطريق التمثّل الملكوتي أو الملكي كما قال تعالى في شأن تنزل الروح الأمين على مريم. ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم ـ

١٧) كما إن للأولياء الكمَّل أيضا يمكن أن يكون تمثل ملكوتي وتروح جبروتي فلملائكة الله استطاعة الدخول في الملك والملكوت وقدرته وقوته على نحو التمثل، وللكمّل من الأولياء قدرة الدخول في الملكوت والجبروت على طور التروّح، والرجوع من الظاهر إلى الباطن، وتصديق هذا المعنى لمن فهم حقائق المجردات سهل سواء المجرد الملكوتي أو الجبروتي أو النفوس الناطقة التي هي أيضا من المجردات الجبروتية أو الملكوتية وتصور مراحل الوجود ومظاهر ونسبة الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر.

وليعلم أنه لا يمكن تمثل الجبروتيّين والملكوتيّين في قلب البشر وصدره وحسه المشترك إلاَّ بعد خروجه من الجلباب البشري وحصول المناسبة بينه وبين تلك العوالم، وإلا فما دامت النفس مشتغلة بالتدبيرات الملكية وغافلة عن تلك العوالم لا يمكن أن تحصل لها هذه المشاهدات أو التمثلات، نعم ربما يمكن أن يحصل للنفس انصراف عن هذه العوالم بإشارة من أحد الأولياء وتدرك إدراكا معنويا أو صوريا من عوالم الغيب بمقدار لياقتها وربما يكون للنفس انصراف عن الطبيعة بواسطة بعض الأمور الهائلة فتدرك انموذجة عن عالم الغيب كما ينقل الشيخ الرئيس قضية رجل صافي الضمير أنه أخذ براءة من النار في حج بيت الله. وينقل ما يشبهها الشيخ العارف محي الدين فجميع هذه الأمور أيضا من انصراف النفوس من الملك وتوجهها إلى الملكوت وربما يمكن أن نفوس الأولياء الكمل بعد انسلاخها عن العوالم ومشاهدة الروح الأعظم أو سائر ملائكة الله تصحو وتحفظ حضرات الغيب والشهادة بواسطة قوتها، وفي هذه الصورة تشاهد حقائق الجبروتيين في جميع النشآت في آن واحد وربما يحصل تنزل الملائكة بقدرة الولي الكامل بنفسه والله العالم.

الأمر الثالث

اعلم أن ليلة القدر حيث أنها ليلة مكاشفة رسول الله وأئمة الهدى عليهم السلام فلهذا تنكشف لهم جميع الأمور الملكية عن غيب الملكوت وتظهر لهم الملائكة الموكلة بكل أمر من الأمور لحضراتهم في نشأة الغيب وعالم القلب وتنكشف وتعلم لهم جميع الأمور التي قدرت للخلائق في مدة السنة وكتبت في الألواح العالية والسالفة على نحو الكتابة الملكوتية والاستجنان الوجودي، وهذه المكاشفة مكاشفة ملكوتية محيطة بجميع ذرات عالم الطبيعة ولا يخفي لولي الأمر شيء من أمور الرعية.

ولا ينافي أن ينكشف لهم في ليلة واحدة أمر السنة وفي حالة جميع الأمور وفي لحظة جميع المقدرات الملكية والملكوتية.

وتنكشف أيضا بالتدريج في أيام السنة الأمور اليومية على طريق الإجمال والتفصيل.

فمثلا ورد في كيفية نزول القرآن في الحديث أنه نزل جملة واحدة في البيت المعمور ونـزل فـي طول ثلاث وعشرين سنة على رسول الله، والورود في البيت المعمور أيضا نزول على رسول الله.

وبالجملة ربما يتصل ولي الأمر بالملأ الأعلى والأقـلام العاليـة والألـواح المجـردة فتحـصل لـه المكاشفة التامة لجميع الموجودات أزلا وأبدا، وربما يتصل بالألواح السافلة فيكتشف مدة مقدرة. وتمام صفحة الكون حاضرة في محضرة الولوي وكل أمر يقع يكون منظورا لهم عليهم السلام وقد ورد في روايات عرض الأعمال على ولي الأمر أنه كان في كل خميس وأثنـين تعـرض الأعمـال على رسول الله وأئمة الهدى عليهم السلام.

وفي بعض الروايات أنها تعرض في صبيحة كل يوم. وفي بعضها تعـرض علـيهم أعمـال العبـاد صباحا ومساء وهذه كلها أيضا على حسب الإجمال والتفصيل والجمع والتفريق، وقد وردت فـي هذه الأبواب روايات شريفة عن أهل بيت العصمة والطهارة مذكورة في كتـب التفاسـير كتفـسير البرهان والصافي.

قوله تعالى: سلام هي حتى مطلع الفجر:

هذه الليلة المباركة هي السلامة من الشرور والبليات والآفات الشيطانية حتى مطلع الفجـر أو أنهـا سلام على أولياء الله وأهل الطاعة، أو أن ملائكة الله التي تلاقيهم لتسلم عليهم من الله تعـالى إلـى طلوع الفجر.

تنبيه عرفاني

كما ذكر سابقا في بيان حقيقة ليلة القدر أنها تعبّر عن مراتب الوجود وتعينـات الغيـب والـشهود بالليل باعتبار احتجاب شمس الحقيقة في أفقهم وبناء عليه فليلة القدر هي ليلة احتجب فيها الحق تعالى بجميع الشؤون وأحدية جمع الأسماء والصفات التي هي حقيقة الاسم الأعظم وهي التعـين والبنية للولي الكامل وهو في زمان رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه المقدسة وبعده أئمة الهدى واحدا بعد واحد، فبناء على هذا ففجر ليلة القدر هو وقت ظهور آثار شمس الحقيقـة مـن خلـف حجب التعينات، وطلوع الشمس من أفق التعينات فجر يوم القيامـة أيـضا وحيـث أنـه مـن مـدة الغروب واحتجاب شمس الحقيقة في أفق تعينات هؤلاء الأولياء الكمل إلى وقت طلوع الفجر وهو مدّة ليلة القدر تلك الليلة صاحبة الشرف سالمة من التصرفات الشيطانية مطلقـا، وكمـا احتجبـت الشمس من دون كدورة وبلا تصرفات شيطانية تطلع بهذه الصفة فقال تعالى: " سـلام هـي حتـى مطلع الفجر " وأما سائر الليالي فهي: فإما أن السلامة ليست فيها أصلا وهي ليالي بني أميّة وأمثالهم أو أنها فاقدة للسلامة بمجموع معانيها وهي ليالي سائر الناس.

خاتمة:

قد علم من البيانات العرفانية والمكاشفات الإيمانية التي ظهرت بتأييد من الأولياء العظام على القلوب المنيرة لأهل المعرفة إن السورة المباركة التوحيد كما أنها نسبة الذات المقدسة للحق جل وعلا كذلك السورة الشريفة القدر نسبة أهل بيت العظام عليهم السلام، كما ورد في روايات المعراج مثل ما رواه محمد بن يعقوب بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في صلاة النبي صلى الله عليه وآله في السماء في حديث الإسراء قال عليه السلام " ثم أوحى الله عز وجل إليه اقرأ يا محمد نسبة ربك تبارك وتعالى الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وهذا في الركعة الأولى ثم أوحى الله عز وجل إليه اقرأ بالحمد لله فقرأها مثلما قرأ أولا ثم أوحى الله إليه: اقرأ: إنّا أنزلناه فإنها نسبتك ونسبة أهل بيتك إلى يوم القيامة".

والروايات الشريفة في فضل السورة المباركة القدر كثيرة منها ما في الكافي الشريف عن أبي جعفر عليه السلام قال " من قرأ إنّا أنزلناه في ليلة القدر يجهر بها صوته كان كالشاهر سيفه في سبيل الله ومن قرأها سرّا كان كالمتشحط بدمه في سبيل الله، ومن قرأها عشر مرات غفرت له على نحو ألف ذنب من ذنوبه ". وفي خواص القرآن روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله " من قرأ هذه السورة كان له أجر من قاتل في سبيل الله " والحمد لله أولا وآخرا.

اعتذار:

مع أنه كان في نية الكاتب في هذه الرسالة أن يكفّ عن المطالب العرفانية غير مأنوسة النوع، ويكتفي بالآداب القلبية فقط للصلاة.. والآن أرى أن القلم قد طغى وفي خصوص تفسير السورة الشريفة قد تجاوزت عن الموضوع المقرّر عندي فلا بدّ لي من أن أعتذر للأخوة الإيمانيين والأخلاّء الروحانيين، وفي ضمن الاعتذار أقول:

إذا رأيتم في هذه الرسالة مطلبا غير مطابق لذوقكم فلا ترموه بالباطل بلا تأمّل لأن كل علم له أهل ولكل طريق سالك رحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعدّ طوره.. ويمكن أن يغفل بعض عن حقيقة الحال ولعدم اطّلاعهم على المعارف القرآنية ودقائق السنن الإلهية يظنّون أن بعض مطالب هذه الرسالة تفسير بالرأي وهذا الظنّ خطأ محض وافتراء فاحش لأنه:

أولا: أن هذه المعارف واللطائف كلها مستفادة من القرآن الشريف والأحاديث الشريفة ولها شواهد سمعية كما ذكر بعضها في خلال المباحث ولم يذكر أكثرها رعاية للاختصار.

وثانيا: جميع تلك المعارف أو أكثرها موافقة للبراهين العقلية أو العرفانية، والأمر بهذه الصفة لا يكون تفسيرا بالرأي.

وثالثا: أن ما ذكرنا من المطالب أم نذكره في بيان الآيات الشريفة فهو مـن قبيـل بيـان مـصاديق المفاهيم غالبا وبيان المصداق ومراتب الحقائق ليس بتفسير أصلا حتى يكون تفسيراً بالرأي.

ورابعا: بعد جميع المراحل ذكرنا المطالب في الموارد غير الضرورية على سبيل الاحتمـال وبيـان أحد المحتملات رعاية لغاية الاحتياط في الدين مع أنه ليس هنا محل للاحتياط، ومن المعلـوم أن باب الاحتمال ليس مسدودا على أحد وليس مربوطا بالتفسير بالرأي وهنا مطالب أخرى كففنا عنها رعاية للاختصار.

الباب الخامس

في نبذة من آداب الركوع وأسراره

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في التكبير قبل الركوع

والظاهر أن هذا التكبير من متعلقات الركوع ولأجل تهيّؤ المصلي للدخول إلى منزل الركوع. وأدبه أن ينظر المصلي إلى مقام عظمة الحق وجلاله وعزة الربوبية وسلطنتها ويجعل ضعف العبودية وعجزها وفقرها وذلّها نصب عينه. وفي هذا الحال يكبر الحق تعالى عن التوصيف بمقدار معرفته عن الربوبية وذل العبودية، ويلزم أن يكون توصيف العبد السالك الحق تعالى وتسبيحه وتقديسه إيّاه لإطاعة الأمر محضا ولأذن الحق تعالى في التوصيف والعبادة وإلا فليس له تلك الجسارة أن يجازف بالتوصيف والتعظيم في المحضر الربوبي، عبد ضعيف مثله وهو في الحقيقة لا شيء. وما فيه فهو أيضا من المعبود العظيم الشأن.

في مقام يقول علي بن الحسين بلسانه الولوي الأحلى الذي هو كلام الله " أفبلساني هذا الكالّ أشكرك ؟ ". (فما يتأتى من بعوضة ضئيلة) (مصراع بيت لشعر معروف كمثل رايج:

جتئي كه عقاب بربريزد   از بيشه لاغري جه خيزد

في مكان يسقط جناح العقاب ويعجز عن الطيران فماذا يتأتى من بعوضة ضئيلة.) فإذا أراد العبد السالك أن يرد منزل الركوع الخطير فلا بد له من التهيّؤ لذاك المقام وأن يلقي بيده توصيفه وتعظيمه وعبادته وسلوكه على قفاه ويرفع يده إلى حذاء الأذن ويقلب كفيه الخاليتين حذاء القبلة ويرد منزل الركوع صفر اليدين وخالي الكفين وبقلب مملوء بالخوف والرجاء. خوف التقصير عن القيام بمقام العبودية والرجاء الواثق بمقام الحس المقدس حيث شرّفه وأذن له بالدخول إلى هذه المقامات التي هي للخلّص من الأولياء والكمّل من الأحبّاء.

ولعل الرفع بهذه الكيفية هو ترك لمقام القيام وترك الوقوف إلى ذاك الحدّ وإشارة إلى عدم التزوّد من منزل القيام. والتكبير إشارة إلى التعظيم والتكبير عن التوصيفات التي صدرت في منزل القيام. وعند أهل المعرفة حيث أن الركوع منزل توحيد الصفات فتكبير الركوع تكبير عن هذا التوحيد، ورفع اليد إشارة إلى رفض صفات الخلق.

الفصل الثاني

في آداب الانحناء الركوعي

اعلم أن عمدة أحوال الصلاة ثلاثة، وسائر الأعمال والأفعال مقدّماتها ومهيئات لها، الأول: القيام. والثاني: الركوع. والثالث: السجود. وأهل المعرفة يرون هذه الثلاثة إشارة إلى التوحيدات الثلاثة، ونحن ذكرنا تلك المقامات في كتاب (سر الصلاة) على حسب الذوق العرفاني والآن نبين هذه المنازل بلسان آخر يناسب العامة فنقول:

بما أن الصلاة معراج كمالي للمؤمن مقرّب لأهل التقوى فهي متقوّمة بأمرين أحدهما مقدمة للآخر:

الأول: ترك رؤية النفس الذي هو باطن التقوى.

الثاني: حبّ الله وطلب الحق وهو حقيقة المعراج والقرب، ولهذا ورد في الروايات الشريفة: الصلاة قربان كل تقيّ كما أن القرآن أيضا نور الهداية ولكن للمتقين: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ـ ٣).

وبالجملة هذان المقامان، يحصلان في هذه المقامات الثلاثة بالتدريج، ففي حال القيام ترك لرؤية النفس على حسب مقام الفاعلية ورؤية فاعلية الحق وقيّومية الحق المطلق، وفي الركوع ترك لرؤية النفس على حسب مقام الصفات والأسماء ورؤية لمقام أسماء الحق وصفاته، وفي السجود ترك لرؤية النفس مطلقا وحب لله وطلب لله مطلقا وجميع منازل السالكين من شؤون هذه المقامات الثلاثة كما هو واضح لأصحاب البصيرة ولأهل العرفان والسلوك، فإذا توجّه السالك في هذه المقامات بأن سرّ هذه الأعمال والتوحيدات الثلاثة لكل مقام هو أدقّ وألطف، فمن الضروري للسالك أن يراقبه مراقبة أكثر لأن خطر المقام أشدّ والزلل فيه أكثر، ففي مقام الركوع حيث أن للسالك دعوى أنه ليس في دار الوجود علم ولا قدرة ولا حياة ولا إرادة سوى من الحق تعالى، وهذه الدعوى دعوة عظيمة والمقام دقيق للغاية ولا ينبغي هذه الدعاوى لأمثالنا فلا بد أن نتوجه بباطن ذاتنا إلى جناب الحق المقدّس يالتضرّع والمسكنة و الذلّة ونعتذر عن القصور والتقصير ونجد نقصاننا بعين العيان وشهود الوجدان، فلعله يصدر عن هذا المقام المقدس توجّه وعناية ويصير حال الاضطرار سببا للمساعدة من الذات المقدسة: أمّن يجيب المضّطر إذا دعاه ويكشف السوء.

الفصل الثالث

تعظيم وتنبيه وتحقيق

قد ورد في صلاة المعراج لرسول الله صلى الله عليه وآله وأنه خاطبه العزيز " فانظر إلى عرشي ". قال رسول الله: " فنظرت إلى عظمة ذهبت لها نفسي وغشي عليّ فألهمت أن قلت سبحان ربي العظيم وبحمده لعظم ما رأيت. فلما قلت ذلك تجلّى الغشي عني حتى قلتها سبعا ألهم ذلك فرجعت إليّ نفسي كما كانت ".

فأنظر أيها العزيز إلى مقام عظمة سلوك سيد الكلّ وهادي السبل صلى الله عليه وآله أنه رأى في حال الركوع وهو حال النظر إلى ما دون نفسه نور العرش، وحيث أن نور العرش في نظر الأولياء عبارة عن تجلي الذات بلا مرآة، فالتعين النفسي يرتفع وتحصل حالة الغشي والصعق فساعدت الذات المقدسة بالعنايات الأزلية وجوده الشريف ولقّن سبحانه الذات النبوية المقدسة التسبيح والتعظيم و التحميد بالإلهام الحبّي حتى سرى عنه الصعق بعدما قالها سبعا بعدد الحجب وعدد مراتب الإنسان وحصلت له حالة الصحو. وهذه الأحوال كانت تداومه في جميع صلاة المعراج. وحيث أنه لا سبيل لنا إلى خلوة الأنس ولا مكان لنا في مقام القدس فالجدير أن نجعل رأس مالنا للوصول إلى المقصد و عروتنا لحصول المطلوب عجزنا و ذلّتنا (ولا نرفع اليد عن ذيل المقصود حتى نحصل ما يأمله القلب من اللذة) (لا أظن أن أحدا يستطيع أن يترجم هذه الجملة بما لها من الرقة والجمال لأنه روحي فداه ركّبها من جملة كنائية لطيفة ومن قطعة من شعر الحافظ الشيرازي وهي (تاكام دل برآيد) فأصبحت ذات جمال وحسن لا يوصف ولها في نفس الحال من الوزن والموسيقى ما تهتز به أوتار وجود القارئ إن كان له قلب " المترجم " وإذا لم نكن من رجال هذا الميدان فلعله تستشم أرواحنا رائحة من المعارف ويهبّ نسيم لطف لقالبنا الميّت وذلك لأن عادة الحق تعالى الإحسان وشيمته التفضّل والأنعام وليعلم أن الركوع مشتمل على تسبيح الرب جلّ وعلا وتعظيمه وتحميده، فالتسبيح تنزيه عن التوصيف وتقديس عن التعريف.. وإن التعظيم و التحميد خروج عن حدّي التشبيه والتعطيل لأن التحميد يفيد الظهور في المرائي الخلقية والتعظيم يرى سلب التحديد فهو الظاهر وليس في العالم أظهر منه وفي الوقت نفسه ليس متلبّسا بلباس التعيّنات الخلقية.

الفصل الرابع

أدب الركوع

عن مصباح الشريعة، قال الصادق عليه السلام " لا يركع عبد لله ركوعا على الحقيقة إلاَّ زيّنه الله بنور بهائه وأظلّه في ظلال كبريائه وكساه كسوة أصفيائه، والركوع أول والسجود ثان فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني، وفي الركوع أدب وفي السجود قرب ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب، فأركع ركوع خاضع لله بقلبه متذلل وجِلٍ تحت سلطانه خافض له جوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين. وحكي أنَ الربيع بن خيثم كان يسهر بالليل إلى الفجر في ركعة واحدة فإذا هو أصبح رفع " يزفر " وقال آه سبق المخلصون وقطع بنا، واستوف ركوعك باستواء ظهرك وانحط على همتك في القيام بخدمته إلاَّ بعونه وفرّ بالقلب من وساوس الشيطان و خدائعه ومكائده فإن الله تعالى يرفع عباده بقدر تواضعهم له ويهديهم إلى أصول التواضع والخضوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم ".

وفي هذا الحديث الشريف إشارات وبشارات وآداب ووظائف، كما أن التزين بنور بهاء الله بشارات للوصول إلى مقام التعلم الأسمائي: وعلّم آدم الأسماء كلها.. والتحقق بمقام الفناء الصفاتي وحصول حالة الصحو من ذلك المقام لأن تزيين الحق تعالى العبد بمقام نور البهاء هو تحقيق الله العبد بمقام الأسماء الذي هو حقيقة تعليم الأسماء وإظلاله في ظلّ الكبرياء وهو من الأسماء القهرية وتمكين الله العبد في فنائها إفناء العبد عن نفسه وبعد هذا المقام إكساؤه بكسوة الأصفياء إبقاؤه بعد الإفناء. ومن هنا يعلم أن السجود فناء ذاتي كما قال أهل المعرفة لأن الركوع أول وهو هذه المقامات، والسجود ثان فليس هو إلاَّ مقام الفناء في الذات، ويعلم أيضا أن القرب المطلق الذي يحصل في السجود لا يتيسّر إلاَّ بحصول الركوع على الحقيقة، ومن أراد أن يصلح للثاني لا بد أن يحصّل القرب الركوعي وأدب الركوع، ثم أنه عليه السلام بعد بيان لطائف الركوع والسجود وسرائرهما أشار إلى آدابه القلبية للمتوسطين وهي أمور بعضها من الأمور العامة ذكرناها في المقدمات وبعضها خاص بالركوع. وحيث أنّا بيّنّا أكثر هذه الأمور أغمضنا النظر عن تفصيلها.

الفصل الخامس

في رفع الرأس من الركوع

وسرّه الرجوع عن الوقوف في الكثرات الأسمائية، كما قال عليه السلام: وكمال التوحيد نفي الصفات عنه لأن العابد السالك بعدما حصلت له حالة الصحو من الفناء الأسمائي يشاهد قصوره وتقصيره وذلك لأن مبدأ الخطيئة الآدمية التي على الذرّية أن تجبرها هو التوجه إلى الكثرات الأسمائية التي هي باطن الشجرة فإذا عرف العبد لنفسه وهي ذرية آدم خطيئتها ولآدم وهو الأصل خطيئته فيطلع على مقام تذلّله ونقصانه ويتهيأ لرفع خطيئته بخفض الجناح في حضرة الكبرياء ويقيم صلبه عن هذا المقام ويرفع الكثرات الأسمائية بعد رفع الرأس بالتكبير ويتوجّه إلى منزل الذلّة والمسكنة وأصل الترابية صفر اليد. وآدابه المهمّة هي عرفان عظم خطر المقام وإذاقته القلب بالتذكر والمجاهدة في التوجّه إلى حضرة الذات وترك التوجّه إلى النفس حتى إلى مقام ذلّة نفسه. واعلم أيها العزيز أن التذكر التام لحضرة الحق والتوجّه المطلق بباطن القلب إلى تلك الذات المقدسة موجب لانفتاح العين الباطنية للقلب ويحصل به لقاء الله وهو قرّة عين الأولياء ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت ـ ٦٩).

الباب السادس

في الإشارة الإجمالية إلى أسرار السجود وآدابه

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

في سرّه الإجمالي

وهو عند أصحاب العرفان وأرباب القلوب ترك النفس وغمض العين عمّا سوى الحق والتحقيق بالمعراج اليونسي الذي حصل بالنزول والدخول في بطن الحوت بالتوجّه إلى أصله بلا رؤية الحجاب، وفي وضع الرأس على التراب إشارة إلى رؤية جمال الجميل في باطن قلب التراب وأصل عالم الطبيعة وآدابه القلبية عرفان حقيقة النفس وأصل جذر وجوده ووضع أم الدماغ وهي مركز سلطان النفس وعرش الروح على أدنى عتبة مقام القدس ورؤية عالم الأرض والتراب عتبة لمالك الملوك، فسرّ الوضع السجودي غمض العين عن النفس وأدب وضع الرأس على التراب إسقاط أعلى مقامات نفسه عن عينه ورؤيتها أقل من التراب وإذا كان في القلب شائبة في الدعاوى التي تكون الأوضاع الصلاتية إشارة إليها فهو نفاق عند أرباب المعرفة، وحيث أن خطر هذا المقام أعظم الأخطار فيلزم السالك إلى الله أن يتمسّك بذيل عناية الحق جلّ وعلا بجبلته الذاتية وفطرته القلبية ويسأله العفو عن التقصيرات بالذلّة و المسكنة لأن هذا المقام مقام خطير خارج عن عهدة أمثالنا وحيث ذكرنا في رسالة سر الصلاة هذه المقامات بالتفصيل فنكفّ عن التفصيل ها هنا ونكتفي في آدابه بالرواية الشريفة لمصباح الشريعة.

الفصل الثاني

آداب السجود عند الإمام الصادق (عليه السلام)

عن مصباح الشريعة، قال الصادق عليه السلام: " ما خسر والله من أتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرّة واحدة وما أفلح من خلا بربّه في مثل ذلك الحال تشبيها بمخادع نفسه غافلا لاهيا عمّا أعده الله للساجدين من أنس العاجل وراحة الأجل. ولا بعد عن الله أبدا من أحسن تقرّبه في السجود ولا قرب إليه أبدا من أساء أدبه وضيّع حرمته بتعلّق قلبه بسواه في حال سجوده فاسجد سجود متواضع لله تعالى ذليل علم أنه خلق من تراب يطؤه الخلق وأنه اتخذك (ركب) من نطفة يستقذرها كل أحد وكوّن ولم يكن وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسرّ والروح فمن قرب منه بعد من غيره، إلاَّ ترى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلاَّ بالتواري عن جميع الأشياء والاحتجاب عن كل ما تراه العيون، كذلك أمر الباطن فمن كان قلبه متعلقا في صلاته بشيء دون الله تعالى فهو قريب من ذلك الشيء بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته، قال عز وجل: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى: لا أطلّع على قلب عبد فاعلم فيه حب الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي إلاَّ توليت تقويمه وسياسته ومن اشتغل بغيري فهو من المستهزئين بنفسه ومكتوب اسمه في ديوان الخاسرين ".

ففي هذا الحديث الشريف قد جمع عليه السلام بين الأسرار والآداب، والتفكر فيه يفتح للسالك طرقا من المعرفة ويهدم تأبّي المفكرين وجحودهم ويؤيد ويشيد أولياء العرفان وأصحاب الإيقان ويقرع السمع بحقيقة الأنس والخلوة مع الحق وترك غير الحق (لقد ترجم المؤلف دام ظله بعد كلامه هذه الرواية الشريفة بالفارسية تركنا الترجمة حذرا من التكرار " المترجم ").

الفصل الثالث

في ذكر السجود

في الحديث الشريف أنه لما نزلت فسبّح باسم ربّك العظيم قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله: اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت: سبّح اسم ربك الأعلى، قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله: اجعلوها في سجودكم.

وفي الحديث الشريف في الكافي: فأول ما اختار لنفسه العلّي العظيم " الحديث ". ولعل العلّي هو الأول من الأسماء الذاتية، والعظيم الأول في الأسماء الصفاتية.

واعلم أن في السجود كسائر الأوضاع الصلاتية هيئة وحالة وذكراً وسرّاً وهذه الأمور للكمّل على نحو، وقد بيّنت في هذه الرسالة إشارة وأما بيانها تفصيلا فغير مناسب وأما للمتوسطين فهيئته إراءة المتربة وترك الاستكبار والعجب وكذلك إرغام الأنف وهو من المستحبات المؤكدة بل تركه خلاف الاحتياط إظهارا لكمال التخضع والتذكّر والتواضع، وأيضا هو التوجّه إلى أصله والتذلل لنشأته. ووضع رؤساء الأعضاء الظاهرة على أرض الذلّة والمسكنة وتلك الأعضاء هي محال الإدراك، وظهور التحريك والقدرة وهي الأعضاء السبعة أو الثمانية علامة التسليم التام وتقديم جميع القوى والخروج عن الخطيئة الآدمية فإذا قوي تذكر هذه المعاني في القلب فينفعل القلب بها تدريجا فتحصل حالة هي حالة الفرار من النفس وترك رؤية النفس، ونتيجة هذه الحالة حصول حالة الأنس وتعقبها الخلوة التامة وتظهر المحبة الكلية.

وأما ذكر السجدة فمتقوّم بالتسبيح وهو التنزيه عن التوصيف وعن القيام بالأمر أو التنزيه عن التكثير الأسمائي أو التنزيه عن التوحيد لأن التوحيد تفعيل وهو الذهاب من الكثرة إلى الوحدة وهذا لا يخلو عن شائبة التكثير والتشريك كما أن التوصيف بالعلو الذاتي والتحميد أيضا ليس خاليا عن شائبة هذه المعاني، والعلّي من الأسماء الذاتية وعلى رواية الكافي هو أول اسم هو أول اسم اتخذه الله لنفسه يعني هو أول تجلي الذات لنفسه، والعبد السالك إذا فني عن نفسه في هذا المقام وترك العالم وما فيه فيناله الفخر بهذا التجلي الذاتي.

واعلم أن الركوع حيث إنه أول والسجود ثان فيفترق التسبيح والتحميد فيها بفروق وأيضا يفرق الرب في المقامين لأن الرب كما قاله أهل المعرفة من الأسماء الذاتية و الصفاتية والأفعالية بالإعتبارات الثلاثة، فبناء على ذلك فالرب في الحمد لله رب العالمين لعله من الأسماء الفعلية بمناسبة مقام القيام وهو مقام التوحيد الأفعالي وفي الركوع من الأسماء الصفاتية بمناسبة أن

الركوع مقام توحيد الصفات وفي السجود من الأسماء الذاتية بمناسبة أن السجود مقام توحيد الذات. والتسبيح والتحميد الواقعان في كل مقام يكونان مرتبطين بذلك المقام.

تنبيه عرفاني:

نقل القيصري (كتب المؤلف دام ظلّه في الهامش أن هذا التنبيه زائد يمحى) في مقدمات شرح الفصوص عن إنشاء الدوائر للشيخ الكبير ما معناه: أن الأسماء تنقسم بنوع من القسمة إلى أسماء الذات وأسماء الصفات وأسماء الأفعال وأن كانت كلها أسماء الذات ولكن باعتبار ظهور الذات فيها تسمى أسماء الذات وباعتبار ظهور الصفات فيها تسمى أسماء الصفات وبظهور الأفعال تسمى أسماء الأفعال وأكثر الأسماء جامعة للاعتبارين أو الاعتبارات الثلاثة لأن فيها ما يدلّ على الذات باعتبار ويدل على الصفات باعتبار ثان ويدل على الأفعال باعتبار ثالث مثل الرب فهو بمعنى الثابت من الأسماء الذاتية وبمعنى المالك من الأسماء الصفاتية وبمعنى المصلح من الأسماء الأفعالية.. ″ انتهى كلامه″. ونحن ذكرنا في سالف الأيام في حاشية الفصوص أن الميزان في تمييز الأسماء ليس ما يستفاد من ظاهر كلام الشيخ بل ما يقضيه الذوق الأحلى العرفاني.

إن السالك إلى الله إذا فني عن فعله بالقدم العرفانية وحصلت له حالة التوحيد الإفعالي والمحو في المجال الفعلي. فالحق تعالى يتجلى لقلبه على ما يناسبه وكل تجلّ يحصل له في هذه الحالة فهو تجلّ إفعالي، ومن الأسماء الإفعالية فإذا تجاوز عن التجليات الإفعالية وأمّحى في حضرة الأسماء والصفات وحصل له الفناء الصفاتي فتجليات الحق تعالى لقلبه تجليات بأسماء الصفات وإخباراته أيضا من الأسماء الصفاتية. فإذا حصل له مقام المحو الذاتي والفناء الذاتي يتجلى الحق تعالى لقلبه بالأسماء الذاتية وتكون مشاهداته مشاهدات الأسماء الذاتية وإخبارته تكون عن هذا المقام.

والآن نقول: إن تجليات الحق في حضرة الأحدية تجلّ بالأسماء الذاتية وتجلّيه في الحضرة الواحدية تجلّ بأسماء الصفات وتجلّيه في حضرات الأعيان الخارجية تجلّ بأسماء الأفعال، ولعل الآيات الشريفة في آخر سورة الحشر من: هو الله الذي لا إله إلاَّ هو.. إلى آخر السورة تكون إشارة إلى المقامات الثلاثة والله العالم.

وعلى السالك أن يكون منظوره نظره في الأكوان الثلاثة في الصلاة وهي: الكون القيامي والكون الركوعي والكون السجودي حصول هذه المقامات وهذا يحصل من التذكر الذي هو مبدأ السلوك (كتب المؤلف دام ظلّه في الهامش أن هذا التنبيه زائد يمحى).

الفصل الرابع

في بعض أسرار السجدة وذكرها ورفع الرأس منها

سجدة الغشي والصعق كما في حديث المعراج نتيجة مشاهدة أنوار العظمة للحق فإذا صار العبد بلا حواس عن نفسه وحصلت له حالة المحو والصعق فتشمله العناية الأزلية ويلهم بالإلهام الغيبي وذكر السجود وتكراره لحصول حالة الصحو والإفاقة، فإذا أفاق تشتعل في قلبه نار اشتياق مشاهدة نور الحق ويرفع الرأس عن السجدة فيرى في نفسه بقايا من الأنانية فيشير باليد إلى رفضها فتتجلى له نور العظمة ثانيا ويحرق بقية الأنانية ويفنى من الفناء وتحصل له حالة المحو الكلي المطلق والصعق التام الحقيقي وهو يكبّر الله فالمساعد الغيبي بإلهامه الأذكار يمكنه في المقام وتعرض له حالة الصحو في هذا المقام وهو صحو الولاية ومنزه عن كل احتجاب واختلاط خلقي وحالة التشهد والسلام وهما من أحكام الكثرة، تحصل له أيضا في هذا الصحو بعد المحو وعند الوصول إلى هنا تتم وتكمل دائرة السير الإنساني.

الباب السابع

في الإشارة الإجمالية إلى آداب التشهُّـد

وفيه فصلان

الفصل الأول

في التشهُّـد

اعلم أن الشهادة بالوحدانية والرسالة في الأذان والإقامة وهما من متعلقات الصلاة ومهيّئات الورود فيها، وفي التشهد وهو الخروج من الفناء إلى البقاء ومن الوحدة إلى الكثـرة. وفـي آخـر الـصلاة تذكّر العبد السالك أن حقيقة الصلاة حصول التوحيد الحقيقي والشهادة بالوحدانيـة مـن مقاماتهـا الشاملة التي تكون مع السالك من أول الصلاة إلى آخرها وفيها أيضا سرّ أولية الحق جل وعـلا و آخريته، و فيها أيضا سرّ عظيم وهو أن سفر الـسالك مـن الله وإلـى الله كمـا بـدأكم تعـودون.. فللسالك أن يتوجّه في جميع المقامات إلى هذا المقصد ويوصل إلى القلب حقيقة وحدانية الحـق وألوهيته ويصنع القلب إلهيا في هذا السفر المعراجي لتكون شهادته حقيقيـة وتتنـزّه عـن النفـاق والشرك، وفي الشهادة بالرسالة أيضا لعلها إشارة إلى أن مساعدة الوليّ المطلق والنبي الخاتم فـي هذا المعراج السلوكي من المقامات الشاملة التي لا بدّ للسالك أن يتوجه إليها في جميع المقامات ويتضح سرّ الأولية والآخرية الذي هو من مقامات الولاية لأهلها وليعلم أن ثمة فرقا بـين الـشهادة في أول الصلاة والشهادة في التشهّد، لأن الشهادة في أولها شهادة قبل السلوك وهي شهادة تعبدية أو تعقلية وهذه التي في آخرها شهادة بعد الرجوع وهي شهادة تحققية أو تمكّنيّـة فللـشهادة فـي التشهد خطر عظيم لأنها دعوى التحقق والتمكن ودعوى الرجوع إلى الكثرة بلا احتجاب وحيث أن هذا المقام الشامخ غير حاصل لأمثالنا بل ليس من المتوقع أيضا حصوله ونحن فـي هـذه الحـال، فالأدب في حضرة الباري أن ننظر إلى قصورنا وذلّتنا ونقصنا وعجزنا ومسكنتنا ونتوجّه إلى جنابـه المقدس بحالة الانفعال ونقول: إلهنا ليس لنا مـن مقامـات الأوليـاء و مـدارج الأصـفياء وكمـال المخلصين وسلوك السالكين حظ سوى ألفاظ معدودة، واقتنعنا عن جميع المقامات بقيل وقال ولا تحصل منه كيفية ولا حال

(إشارة الى البيت المعروف ممن الشيخ البهائي قدس سره:
علم رسمي سر بسر قيل است وقال نه از او كيفيّتي حاصل نه حال)، إلهنا عن حب الدنيا و تعلقاتها حجبنا عن حضرة القدس ومحفل الأنس إلاّ أن تساعدنا نحن الساقطين بلطفك الخفيّ وتجبر ما سبق منا فلعلنا نستيقظ من نوم الغفلة ونجد طريقا إلى محضر القدس.

الفصل الثاني

آداب التَشهُّـد عند الإمام الصادق (عليه السلام)

عن مصباح الشريعة: قال الصادق عليه السلام: ″ التشهّد ثناء على الله فكن عبدا له في السرّ خاضعا له في الفعل كما أنك عبد له بالقول والدعوى وصل صدق لسانك بصفاء سرك فإنه خلقك عبـداً وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك وأن تحقق عبودتك له بربوبيته لك وتعلـم أن نواصـي الخلق بيده فليس لهم نفس ولا لحظ إلاَّ بقدرته ومشيئته وهم عاجزون عن إتيان أقـل شـيء فـي مملكته إلاَّ بإذنه وإرادته. قال الله عز وجل: وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهـم الخيـرة مـن أمرهم سبحان الله وتعالى عمّا يشركون فكن عبداً شـاكراً بالفعـل كمـا أنـك عبـد ذاكـر بـالقول والدعوى وصل صدق لسانك بصفاء سرّك فإنه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة ومشيئة لأحـد إلاَّ بسابق إرادته ومشيئته فاستعمل العبودية في الرضا بحكمه وبالعبـادة فـي أداء أوامـره وقـد أمـر بالصلاة على نبيه (حبيبه) صلى الله عليه وآله فأوصل صلاته بـصلاته وطاعتـه بطاعتـه وشـهادته بشهادته وانظر لا يفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم فائدة صلاته وأمره بالاستغفار لك والـشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب وتعلم جليل مرتبته عند الله عز وجل ″.

وفي هذا الحديث الشريف إشارات إلى الآداب القلبية للعبادات وحقائقها وأسرارها فيقول: التشهّد ثناء على الحق جل وعلا بل قد أشرنا سابقا أيضا أن مطلق العبادات ثناء على الحق إمـا باسـم أو بأسماء أو بتجل من التجليات وإما بأصل الهوية، ويشير عليه السلام إلى عمدة الأدب وهي انه كما أنك تعبد الله في الظاهر وتدّعي العبودية فاعبده في السر أيضا حتى تسري العبودية السريّة القلبيـة إلى الأعمال الجوارحية أيضا ويكون العمل والقول خارطة الباطن والسر وتسري حقيقـة العبوديـة إلى جميع أجزاء الوجود أعم من الأجزاء الظاهرية والأجزاء الباطنية ويحظى كـل مـن الأعـضاء بحظّ من التوحيد ويوصل اللسان الذاكر الذكر إلى القلب ويفيد القلب الموحّد المخلص التوحيـد والإخلاص إلى اللسان ويطلب العبد الربوبية من حقيقة العبودية (إشارة الـى الحـديث المـشهور: العبودية جوهرة كنهها الربوبية ″ الحديث ″) ويخرج عن عبادة النفس ويوصل إلوهية الحق إلـى القلب وليعلم أن ناصية العباد بيد الحق ولا يقدرون على التنفس والنظـر إلاَّ بقـدرة الحـق تعـالى ومشيئته وأنهم عاجزون عن التصرف في مملكة الحق بجميع أنواع التـصرفات وإن كـان تـصرفا تافها إلاَّ بإذن وإرادة من ذاته المقدسة كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء﴾ (القـصص ـ ٦٨) ويختار كل ما أراد ليس لأحد اختيار في أمره استقلالا والله منزه عن الـشريك فـي التـصرف فـي

مملكة الوجود فإذا أوصلت هذه اللطيفة إلى القلب يكون شكرك للحق على الحقيقة ويسري الشكر إلى أعضائك وأعمالك، فكما أن اللسان والقلب لا بد أن يكونا مترافقين في طريق العبودية ففي هذا التوحيد الفعلي أيضا لا بدّ أن يكون صدق اللسان موصولا بصفاء سرّ القلب لأن الحق جل وعلا هو الخالق ولا مؤثر غيره. وجميع الإرادات والمشيئات ظلّ إرادته ومشيئته الأزلية السابقة.

ثم أن العبد بعد آداب الشهادة بوحدانية الحق وألوهيته يتوجّه إلى المقام المقدس للعبد المطلق والرسول الخاتم. وعلى المصلّي أن ينتبه من تقدّم مقام العبودية على الرسالة إن قدم العبودية مقدمة لجميع مقامات السالكين.. والرسالة شعبة من العبودية، وبما أن الرسول الخاتم عبد حقيقي فان في الحق فإطاعته إطاعة الحق والشهادة بالرسالة موصولة بالشهادة بالوحدانية، والعبد السالك لا بدٍ أن يراقب نفسه إلاَّ يقصّر في طاعة الرسول التي هي طاعة الله لئلا يحرم من مساعدة الولّي المطلق في بركات العبادة وهي الوصول إلى جناب القدس ومحل الأنس إلاَّ بمساعدة ولّي النعم والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

الباب الثامن

في آداب السلام

وفيه فصلان

الفصل الأول

آداب السلام

اعلم أن العبد السالك إذا رجع عن مقام السجود الذي سره الفناء وحصلت له حالة الصحو والشعور ورجع من حالة الغيبة عن الخلق إلى حال الحضور فيسلم على الموجودات سلام من رجع من السفر والغيبة ففي ابتداء الرجوع من السفر يسلم على النبي الأكرم لأنه بعد الرجوع من الوحدة إلى الكثرة، فالحقيقة الأولية هي تجلي حقيقة الولاية ″ نحن الأولون السابقون ″ ثم يتوجّه إلى أعيان سائر الموجودات على طريق التفصيل والجمع ومن لم يكن في صلاته غائبا عن الخلق ولم يسافر إلى الله فالسلام بالنسبة إليه بلا حقيقة وليس إلاَّ لقلقة لسان فالأدب القلبي للسلام مرتبط بالأدب في جميع الصلاة وإذا لم يحصل له في هذه الصلاة التي هي حقيقة المعراج عروج ولم يخرج عن بيت النفس فلا سلام له، وأيضا إذا كان له السلامة من تصرفات الشيطان وتصرفات النفس الأمّارة ولم يكن للقلب علة في طول هذا المعراج الحقيقي فسلامه حقيقي وإلا فلا سلام له. نعم السلام على النبي صلى الله عليه وآله بناء على ذلك سلام حقيقي لأنه صلى الله عليه وآله في هذا السفر المعراجي وفي هذا السير إلى الله صعودا ونزولا متصف بالسلامة وفي جميع السير عار وبريء من تصرفات غير الحق كما أشرنا إليه في السورة المباركة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ (القدر ١) .

الفصل الثاني

آداب السلام عند الإمام الصادق (عليه السلام)

عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام " معنى السلام في دبر كل صلاة الأمان أي من أدّى أمر الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله خاشعا منه قلبه فله الأمان من بلاء الدنيا وبراءة من عذاب الآخرة والسلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإضافات وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم وصحة معاشرتهم، وإذا أردت أن تضع السلام موضعه وتؤدي معناه فلتتق الله وليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ولا تدنسها بظلمة المعاصي ولتسلم حفظتك من إلاَّ تبرمهم (تبرُمهم: تضجرهم). ولا تملّهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم ثم صديقك ثم عدوكّ فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا تسليم (سلّم) وكان كاذبا في سلامه وإن أفشاه في الخلق ".

يقول عليه السلام: معنى السلام عقيب الصلاة هو الأمان بمعنى أم من أدّى الأوامر الإلهية والسنن النبوية بالخشوع القلبي فيأمن من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة، أي يأمن من التصرفات الشيطانية في الدنيا لأن أداء الأوامر بالخشوع القلبي موجب لقطع تصرف الشيطان: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.. ثم يشير عليه السلام إلى سرّ من أسرار السلام ويقول: السلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه وهذه إشارة إلى مظهرية الموجودات للأسماء الإلهية ولا بد للعبد السالك أن يظهر هذه اللطيفة الإلهية التي أودعت واختفت في باطن ذاته وخميرته ويستعملها في جميع المعاملات والمعاشرات والأمانات والإرتباطات ويشير بها إلى مملكة باطنه وظاهره ويستعملها في المعاملات مع الحق ودين الحق تعالى لئلا يخون الوديعة الإلهية فتسري حقيقة السلام إلى جميع قواه الملكية والملكوتية وفي جميع عاداته وعقائده وأخلاقه وأعماله لتسلم نفسه من جميع التصرفات، وعرّف عليه السلام التقوى طريقا لتحصيل هذه السلامة.

وليعلم أن للتقوى مراتب ومنازل، فتقوى الظاهر هي حفظ الظاهر عن القذارات وظلمة المعاصي القالبية وهذه هي تقوى العامة.. وتقوى الباطن هي حفظه وتطهيره عن الإفراط والتفريط وعن التجاوز عن حد الاعتدال في الأخلاق والغرائز الروحية وهذه تقوى الخاصة. وتقوى العقل حفظه وتطهيره عن الصرف في العلوم الإلهية، والمراد من العلوم الإلهية ما يكون مرتبطا بالشرائع والأديان الإلهية وهذه تقوى أخصّ الخواص، وتقوى القلب حفظه عن مشاهدة غير الحق ومذاكراته وهذه تقوى الأولياء..

والمقصود من الحديث الشريف الذي يقول الحق تعالى فيه أنا جليس من جالسني.. هذه هي الخلوة القلبية. وهذه الخلوة هي أفضل الخلوات، والخلوات الأخر مقدمة لحصول هذه الخلوة. فمن اتصف بجميع مراتب التقوى يسلم دينه وعقله وروحه وقلبه وجميع قواه الطاهرة والباطنة وتسلم حفظته الموكلة به ولا تمل ولا تضجر ولا تتوحش منه، ومن كان بهذه الصفة تكون معاملاته ومعاشرته مع صديقه وعدوه بطريق السلامة بل ينقطع جذر العداوة عن باطن قلبه وإن كان الناس يعادونه، ومن لم يكن سالما في جميع المراتب فهو محروم من فيض السلام بمقدار عدم سلامته وقريب من أفق النفاق بمقدار ذلك نعوذ بالله منه والسلام.

خاتمة الكتاب

في آداب بعض الأمور الداخلة والخارجة للصلاة

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في التسبيحات الأربعة التي تقرأ في الركعة الثالثة والرابعة

من الصلاة وأسرارها وآدابها القلبية بالمقدار المناسب

وهي متقومة بأركان أربعة

الركن الأول: في التسبيح

التسبيح هو التنزيه عن التوصيف بالتحميد والتهليل. وهو من المقامات الشاملة، والعبد السالك لا بد أن يتوجّه إليه في جميع العبادات ويحفظ قلبه عن دعوى التوصيف والثناء على الحق ولا يظنن أن في إمكان العبد القيام بحق العبودية فضلا عن القيام بحق الربوبية الذي انقطعت عنه أعين آمال الكمل وتقاصرت عن ذيله أيدي الأكابر من أصحاب المعرفة (عنقا شكاركس نشود دام بازكير) (مصراع بيت للشاعر العارف الحافظ الشيرازي والمصراع الثاني " كانجا هميشة بادبه دست است دام را " يقول:

ليبست العنقاء تصطاد فخذ فخك واذهب إنه ليس له حظ سوى هب الرياح) فلهذه الجهة قالوا إن كمال المعرفة لأهل المعارف عرفان عجزهم. نعم حيث أن الرحمة الواسعة للحق جل وعلا شاملة لنا نحن العباد الضعاف فرخّص لنا نحن المساكين بالدخول إلى جناب خدمته بسعة رحمته. وتفضل بإجازة الورود في مثل هذا المقام المقدّس المنزّه الذي انقصمت ظهور الكروبيين عن الدنّو منه. وهذا من أعظم التفضلات والأيادي للذات المقدسة لولي النعمة على عباده يعرف قدره أهل المعرفة والأولياء الكمّل وأهل الله على قدر معرفتهم وأمّا نحن المحجوبين المتأخرين عن كل مقام ومنزلة والمحرومين المهجورين من كل كمال ومعرفة فعنه غافلون بالكلية. والأوامر الإلهية ـ وهي في الحقيقة أفضل النعم العظيمة غير المتناهية نحسبها من التكلف والكلفة ونقوم بها بالضجر والكسالة. ومن هذه الجهة حرمنا وحجبنا عن نورانيته بالكلية.

وليعلم أن التحميد والتهليل حيث إنهما متضمنان للتوحيد الفعلي وفيهما شائبة التحديد والتنقيص بل شائبة التشبيه والتخليط فيلزم العبد السالك أن يجعل نفسه في حصن التسبيح والتنزيه الحصين ليتهيأ للورود فيه ويفهّم باطن قلبه أن الحق جلّت عظمته منزّه عن التعينات الخلفية والتلبس بملابس الكثرات كي يتنزّه وروده في التحميد عن شائبة التكثير.

الركن الثاني: التحميد

وهو مقام التوحيد الفعلي الذي يناسب حال القيام ويناسب القراءة أيضا. فلهذا كانت هذه التسبيحات في الركعتين الأخيرتين قائمة مقام الحمد والمصلي مختار أن يقرأ الحمد مكانها. ونستفيد التوحيد الفعلي كما ذكرنا في الحمد من حصر الحمد بالحق تعالى، وتقصر يد العبد عن المحامد بالكلية ونوصل إلى سامعة القلب: هو الأول والآخر والظاهر والباطن، ونذيق ذائقة الروح حقيقة ″ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ″ ونضع رؤية النفس وحبها تحت قدمي السلوك كي نصل إلى مقام الحمد ونخلّص القلب من مشقة تحمل ثقل منّة الخلق.

الركن الثالث: التهليل وله مقامات أحدها، مقام نفي الألوهية الفعلية وهو عبارة أخرى عن لا مؤثر في الوجود إلاَّ الله، وهذا يؤكد حصر التحميد بل يوجب الحصر ويسبب له، لأن مراتب الوجود الإمكانية ظلّ حقيقة وجود الحق جلت قدرته وربط محض وليس لشيء منها بوجه من الاستقلال والقيام بنفسه فلهذا لا يصح أن ينسب التأثير الإيجادي إليها بوجه لأن اللازم في التأثير الاستقلال في الإيجاد والاستقلال في الإيجاد مستلزم الاستقلال في الوجود، وبعبارة أهل الذوق حقيقة الوجودات الظلّية ظهوره قدرة الحق في المرائي الخلقيّة. ومعنى لا إله إلاَّ الله مشاهدة فاعلية الحق وقدرته في الخلق ونفي التعينات الخلقيّة وإفناء مقام فاعلية الخلق في الحق وإفناء تأثيرهم فيه تعالى.

ومن مقامات التهليل نفي المعبود غير الحق ولا إله إلاَّ الله أي لا معبود سوى الله. وبناء على هذا مقام التهليل نتيجة لمقام التحميد لأنه إذا انحصرت المحمدة في ذات الحق المقدسة فالعبودية أيضا تنزل حملها في ذلك المقام المقدس وتنتفي جميع عبوديات الخلق للخلق وكلها لرؤية المحمدة ويكون هذا هو المعبود وتنكسر الأصنام بأجمعها.. وللتهليل مقامات أخر لا تناسب هذا المقام.

الركن الرابع: التكبير

وهو أيضا التكبير عن التوصيف، فكأن العبد في بدء وروده في التحميد والتهليل ينزّه الله عن التوصيف وبعد الفراغ منه أيضا ينزهّه ويكبّره عن التوصيف حتى يكون تحميده وتهليله محفوفا بالاعتراف بالتقصير والتذلل، ولعل التكبير في هذا المقام هو التكبير عن التحميد والتهليل لأن فيه

شائبة الكثرة كما ذكر. ولعل في التسبيح تنزيها عن التكبير، وفي التكبير تكبيرا عن التنزيه لتسقط دعاوى العبد بالكلية ويتمكن في التوحيد الفعلي ويكون مقام القيام بالحق ملكة لقلبه ويخرج عن التلوين وتحصل له حالة التمكين. والعبد السالك لا بد أن يحصّل لقلبه في هذه الأذكار الشريفة، وهي روح المعارف حالة التبتّل والتضرّع والانقطاع والتذلّل ويعطى لباطن القلب صورة الذكر بكثرة المداومة، ويمكّن في باطن القلب حقيقة الذكر حتى يكون القلب متلبّسا لباس الذكر وينزع عن نفسه لباسها وهو لباس البعد. فيصير القلب إلهيا حقانيا وتتحقق فيه حقيقة الآية: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ (التوبة ـ ١١١) وروحها.

الفصل الثاني

في الآداب القلبية للقنوت

اعلم أن القنوت من المستحبات المؤكدة لا ينبغي تركه بل الأحوط الإتيان به لأن بعض الأصحاب قال بوجوبه، وظاهر بعض الروايات أيضا الوجوب وإن كان الأقوى في الصناعة الفقهية عدم الوجوب كما هو المشهور بين العلماء الأعلام وهو على هذه الكيفية الخاصة المتعارفة بين الإمامية رضوان الله عليهم بمعنى أنه متقوم برفع اليد حذاء الوجه وبسط باطن الكفين نحو السماء والدعاء بالمأثور أو غير المأثور ويجوز الدعاء بكل لسان عربيا كان أم غير عربي والعربي أحوط وأفضل وقال الفقهاء أفضل الأدعية فيه دعاء الفرج، ولم ير الكاتب دليلا فقهيا معتدا به للأفضلية ولكن مضمون الدعاء دالّ على أفضليته التامة لأنه مشتمل على التهليل والتسبيح والتحميد وهي روح التوحيد كما ذكرنا. وهو مشتمل أيضا على الأسماء العظيمة الإلهية كالله والحليم والكريم والعليّ والعظيم والرب، وهو أيضا مشتمل على ذكر الركوع والسجود وهو مشتمل أيضا على أسماء الذات والصفات والأفعال، وهو مشتمل أيضا على تجليات الحق جل وعلا، وهو مشتمل أيضا على السلام على المرسلين، وإن كان الأحوط تركه ولكن الأقوى جوازه، وهو مشتمل أيضا على الصلاة على النبي وآله عليهم السلام. فكان هذا الدعاء باختصاره مشتملا على جميع الوظائف الذكرية للصلاة، ويمكن إثبات أفضليته. بقول الفقهاء رضوان الله عليهم، إما بالتسامح في أدلّة السنن، وإن كان للكاتب فيه تأمّل وأمّا بالكشف عن دليل معتبر خفي عنّا كما هو مبنى الإجماع في نظر المتأخرين.

وعن الأدعية الشريفة التي لها فضل عظيم، وهو مشتمل أيضا على آداب مناجاة العبد الحق. ومشتمل على تعداد العطايا الكاملة الإلهية الذي يناسب حال القنوت وهو حال المناجاة والانقطاع إلى الحق مناسبة تامة وبعض المشايخ العظام رحمه الله كان مواظبا ومداوما عليه تقريبا، وهو دعاء " يا من أظهر الجميل ". وهو من كنوز العرش وتحفة الحق تعالى لرسول الله ولكل من فقراته فضائل وثواب كثير كما في توحيد الشيخ الصدوق رحمه الله.

ومع أن الصلاة جميعها إظهار للعبودية وثناء على الله فإن الذات المقدسة للحق جل وعلا فتح باب المناجاة والدعاء للعبد بالخصوص في حال القنوت وهو حال المناجاة والانقطاع إلى الحق وشرّفه بهذا التشريف، فالأفضل في أدب عبودية العبد السالك أيضا أن يراعي أدب المقام المقدس الربوبي ويراقب أدعيته لتكون مشتملة على تسبيح الحق تعالى وتنزيهه، وتتضمن ذكر

الحق وتذكّره ويكون ما يسأل الحق تعالى في هذه الحالة الشريفة من سنخ المعارف الإلهية وطلب فتح باب المناجاة والأُنس والخلوة والانقطاع إليه ويحترز عن سؤال الدنيا والأمور الخسيسة الحيوانية والشهوات النفسانية فيصيبه الخجل في محضر الأطهار ويصير بلا حرمة ووقار في محضر الأبرار.

أيها العزيز.. إن القنوت هو قطع اليد عن غير الحق والإقبال التام على عزّ الربوبية ومدّ يد السؤال خالية الكف إلى الغني المطلق والكلام عن البطن والفرج وذكر الدنيا في هذا الحال، حال الانقطاع كمال النقصان وتمام الخسران.

أيا روحي.. حيث إنك الآن بعدت عن وطنك وهجرت مجاورة الأحرار وابتليت بهذه الدار المظلمة ذات التعب والمحن الكثيرة فلا تنسج على نفسك كدود القزّ.

أيا عزيزي.. إن الله الرحمن قد خمّر فطرتك بنور المعرفة ونار العشق، وأيّدها بأنوار كالأنبياء وعشاق كالأولياء فلا تطفئ هذه النار بتراب الدنيا الدنيّة ورمادها، ولا تكدّر ذاك النور بكدورة التوجّه إلى الدنيا وظلمتها وهي دار الغربة، فإنك إذا توجّهت إلى الوطن الأصلي وطلبت الانقطاع إلى الحق من الحق وعرضت عليه حالة هجرانك وحرمانك بقلب موجع وأظهرت حال مسكنتك واضطرارك ووجعك فيدركك الإمداد الغيبي وتساعد مساعدة باطنية وتجبر النقائص إذ من عادته الإحسان ومن شيمته التفضلّ، وإذا قرأت في القنوت من فقرات المناجاة الشعبانية لإمام المتقين وأمير المؤمنين وأولاده المعصومين عليهم السلام وهو أئمة المعارف والحقائق وخصوصا قوله عليه السلام: " إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك.." إلى آخره.. ولكن تقرؤه بحال الاضطرار والتبتّل والتضرّع، لا بقلب ميّت كقلب الكاتب فهو أنسب لهذه الحال.

وبالجملة، مقام القنوت في نظر الكاتب كمقام السجود، فذاك توجّه وإقبال على ذلّ العبودية وتذكّر مقام عزّ الربوبية، وهذا إقبال على العز الربوبي وتذكّر عجز العبودية وذلّها وهذا على حسب مقام المتوسطين، وأمّا على حسب مقام الكمّل فكما أن السجود مقام فناء العبد وترك الغير والغيرية، فالقنوت مقام الانقطاع إلى الحق وترك الاعتماد على الغير وهو روح مقام التوكل.

وبالجملة، حيث إن القيام مقام التوحيد الإفعالي وهذا التوحيد يتمكن من الركعة الثانية ففي القنوت تظهر نتيجته فيقدم العبد كشكول (الكشكول: وعاء يجمع فيه المتسول رزقه) السؤال إلى الحق وينقطع عن الخلق ويفرّ منهم.

الفصل الثالث

في التعقيب

وهو من المستحبات المؤكدة ويكره تركه أيضا، ويتأكد الاستحباب في الصبح والعصر، والتعقيبات المأثورة كثيرة: منها التكبيرات الثلاثة الاختتامية والمشايخ العظام يواظبون بأن يرفعوا أيديهم في كل تكبيرة منها إلى حذاء الأذن ويبسطون باطن كفهم حذاء القبلة كالتكبيرات الافتتاحية، وإثباتها مشكل، وإن أمكن استفادة رفع اليد ثلاث مرات من بعض الروايات ولعله يكفي رفع اليد والتكبير ثلاثا وقراءة دعاء ″ لا إله إلاَّ الله وحده ″ إلى آخره..

وإذا كان رفع اليد مستحبا كما يواظب عليه المشايخ فهو تمكين للأسرار التي ذكرناها.

ولعله إشارة إلى طرد صلاته وعباداته لئلا يتطرق العجب ورؤية النفس إلى قلبه. والتكبيرات الثلاثة لعلها إشارة إلى التكبير عن التوحيدات الثلاثة التي هي مقومة روح جميع الصلاة، فالأدب القلبي لهذه التكبيرات هو أن يطرد المصلي في كل رفع لليدين توحيدا من التوحيدات الثلاثة ويكبر وينزه الحق جل وعلا عن توصيفات نفسه وتوحيداته ويعرض عجزه وذلّته وقصوره وتقصيره في المحضر المقدّس للحق جل وعلا، ونحن ذكرنا في رسالة سرّ الصلاة الأسرار الروحية لهذه التكبيرات، وذكرنا رفع اليد على نحو لطيف في تلك الرسالة وهو من ألطاف الحق تعالى لهذا المسكين وله الشكر والحمد.

ومن جملة التعقيبات الشريفة، التسبيحات للصديقة الطاهرة سلام الله عليها التي علّمها رسول الله صلى الله عليه وآله لتلك المعظمة وهي أفضل التعقيبات. وفي الحديث ″ أنه لو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله فاطمة عليها السلام ″.

وعن أبي خالد القماط قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:″ تسبيح فاطمة عليها السلام في كل يوم في دبر كل صلاة أحب إلي من صلاة ألف ركعة في كل يوم ″. والمعروف عند الأصحاب في ترتيبها التكبير أربعا وثلاثين مرة والتحميد ثلاثا وثلاثين مرة والتسبيح ثلاثا وثلاثين مرة، ولا يبعد أن يكون هذا الترتيب أفضل لا المتعين، بل الإنسان مخير في التأخير والتقديم في التحميد والتسبيح، بل لعله مخير في تأخير التكبير وتقديم التسبيح أيضا، ولكن الأفضل والأحوط هو الترتيب المشهور، وآدابها القلبية هي التي ذكرت في التسبيحات الأربعة والزائد عليها أن هذه الأذكار حيث أنها وردت بعد الصلاة والتسبيح فيها هو التكبير والتنزيه عن القيام بحق العبودية، وفي التكبير أيضا تنزيه وتكبير عن اللياقة للعبادة لمحضر قدسه، وأيضا تنزيه وتكبير عن المعرفة

وهي غاية العبادة، فعلى العبد السالك أن يتفكر في تعقيب الصلاة في نقصه وعبادته وغفلانه في حال الحضور وهي بنفسها ذنب في مذهب العشق والمحبة ويتوجه إلى حرمانه من حظوظ الحضور والمحضر المقدس للحق جل جلاله ويجبره بالمقدار الميسور في التعقيبات التي هي فتح باب آخر الرحمة من الحق تبارك وتعالى ويوصل هذه الأذكار الشريفة إلى القلب ويحيي بها قلبه فلعله تختم خاتمته بالحسن والسعادة.

وفي التحميد لتسبيحات الصديقة عليها الصلاة والسلام ثبت هذه المحمدة ـ وهي القيام بالعبودية ـ يثبتها للهوية الإلهية ويراها ويعدّها من تأييد الذات المقدسة وحولها وقوّتها ويوصل حقائق هذه الأمور إلى سر القلب ويذيق الفؤاد سر هذه اللطائف ليحيي القلوب بذكر الحق ويجد القلب الحياة الدائمة بالحق، وحيث أن الصبح افتتاح الاشتغال بالكثرات والورود على الدنيا، والإنسان مواجه لمخاطرة الاشتغال بالخلق والغفلة عن الحق فينبغي للإنسان السالك اليقظان أن يتوسّل إلى الحق تعالى في ذلك الوقت الدقيق للورود في هذه الدار المظلمة وينقطع إلى حضرته، فإذا رأى نفسه غير وجيه في ذلك المحضر الشريف فيتوسل بأولياء الأمر وخفراء الزمان وشفعاء الأنس والجان يعني الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام، ويجعل تلك الذوات الشريفة شفيعا وواسطة، وحيث إن لكل يوم خفيرا ومجيرا فيتعلق يوم السبت بالوجود المبارك لرسول الله صلى الله عليه وآله، ويوم الأحد لأمير المؤمنين عليه السلام ويوم الاثنين للإمامين الهمامين السبطين عليهما السلام، ويوم الثلاثاء للحضرات السجاد والباقر والصادق عليهم السلام، ويوم الأربعاء للحضرات الكاظم والرضا والتقيّ والنقيّ عليهم السلام، ويوم الخميس للعسكري عليه السلام، ويوم الجمعة لوليّ الأمر عجّل الله فرجه الشريف (هؤلاء الأئمة الإثنا عشر الواردة على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الخبر المتواتر أو المستفيض عن طرق العامة أن الخلفاء من بعدي أو الأئمة من بعدي اثني عشر كلهم من قريش وقد استقصينا البحث عن هذه الروايات في رسالتنا أولي الأمر)، فيناسب أن يتوسل بعد صلاة الصبح للورود في هذا البحر المهلك الظلماني والمصيدة المهيبة الشيطانية بخفراء ذلك اليوم ويسأل الحق تعالى رفع شر الشيطان والنفس الأمارة بالسوء بشفاعتهم فإنهم مقربون لجناب القدس والمحارم لخلوة الأنس ويجعلهم وسائط في الإتمام وقبول العبادات الناقصة والمناسك غير اللائقة، فالحق تعالى شأنه كما جعل محمدا صلى الله عليه وآله وأهل بيته وسائط الهداية وعيّنهم الهداة لنا ونجّى الأمة ببركاتهم من الضلالة والجهل فيرمّم بشفاعتهم قصورنا ويتمم نقصنا ويقبل إطاعتنا وعباداتنا غير اللائقة إنه وليّ الفضل والإنعام.

والتعقيبات المأثورة مذكورة في كتب الأدعية فلينتخب كل ما يناسب حاله ويتم هذا السفر الشريف بالخير والسعادة.

اختتام ودعاء

كان من المناسب أن نتمم هذه الرسالة بذكر الموانع المعنوية للصلاة من قبيل الرياء والعجب وأمثالهما ولكن بما أنّا ذكرنا في كتاب الأربعين في شرح بعض الأحاديث شرحا لهذه الموضوعات.

والآن بسب كثرة الاشتغال وتشتت القوى الفكرية نعتذر عن هذه الخدمة، فلذا نختم هذه الأوراق مع الاعتراف بالنقص والتقصير ونطلب من أرباب الأنظار النقية العفو عن الخطأ ونحتاج إلى دعاء الخير منهم والنفس الكريم لهم.

إلهنا أنت الذي ألبستنا نحن العبيد الضعفاء لباس الوجود بالتفضل والعناية ومحض الرحمة والكرامة من دون أن تسبقنا خدمة وطاعة أو نحتاج إلى عبودية وعبادة، وشرّفتنا بأنواع النعم الروحانية والجسمانية وأصناف الرحمات الباطنية والظاهرية من دون أن يتطرق من عدمنا خلل في قدرتك وقوّتك أو أن يزيد بوجودنا شيء على عظمتك وحشمتك، فالآن وقد فاز منبع رحمانيتك وتشعشعت عين شمس جمالك الجميل وأغرقتنا في بحار رحمتك ونوّرتنا بأنوار الجمال فأجبر أيضا نقائصنا وخطيئاتنا وذنوبنا وتقصيراتنا بنور التوفيق الباطني، والمساعدة والهداية السرية وأخلص قلوبنا التي هي كلها تعلّق من التعلقات الدنيوية وزيّنها بالتعلق بعز القدس.

إلهنا إنه لا يحصل من طاعتنا نحن الأقلّين بسط في مملكتك، ولا يعود إليك نفع من عذاب المذنبين وإيلامهم، ولا يحصل من العفو والرحمة للساقطين نقصان في قدرتك فالعين الثابتة للخاطئين طالبة للرحمة وفطرة الناقصين طالبة لتماميتهم، فعاملنا باللطف العميم ولا تنظر إلى سوء استعدادنا..

إلهي إن كنت غير مستأهل لرحمتك فأنت أهل أن تجود علي بفضل سعتك.. إلهي قد سترت عليّ ذنوباً في الدنيا وأنا أحوج إلى سترها عليّ منك في الآخرة.. إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة.

ها هنا أختتم كلامنا بتقدير الله حامدا شاكرا على نعمائه مصليّا على محمد وآله الطاهرين في تاريخ يوم الاثنين من ربيع الثاني سنة ألف وثلاثمئة وإحدى وستين ١٣٦١ هـ ق.

خاتمة المعرِّب

أقول وقد وفّقني المولى المنعم لتعريب هذا السفر الجليل من اللغة الفارسيّة في بلدة دمشق وقد تمّت ترجمته في صبيحة يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال سنة ألف وأربعمئة وثلاث من الهجرة النبوية على هاجرها الصلاة والسلام، والحمد لله أولا وآخرا، وأنا العبد المفتقر إلى رحمة ربه.

السيد أحمد الفهري.

محتويات الكتاب

المقالة الأولى

في الآداب التي تكون ضرورية في جميع حالات الصلاة

بل في جميع العبادات والمناسك.......... ٢

الفصل الأول: في التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية ٣

الفصل الثاني: في مراتب مقامات أهل السلوك ٥

الفصل الثالث: في بيان الخشوع.......... ٧

الفصل الرابع: في بيان الطمأنينة.......... ١١

الفصل الخامس: في بيان الحفاظ على العبادة من تصرف الشيطان ١٤

الفصل السادس: في بيان النشاط والبهجة في العبادة.......... ١٧

الفصل السابع: في بيان التفهيم.......... ٢٢

الفصل الثامن: في بيان حضور القلب ٢٥

الفصل التاسع: أحاديث في الترغيب في حضور القلب ٣٠

الفصل العاشر: في طريق تحصيل حضور القلب ٣٥

الفصل الحادي عشر: في بيان الدواء النافع في علاج كون الخيال فرار.......... ٣٩

الفصل الثاني عشر: في الإشارة إلى أن حب الدنيا منشأ لتشتت الخيال ومانع من ٤٢

حضور القلب وفي بيان علاجه بالمقدار الميسور ٤٢

المقالة الثانية

في مقدمات الصلاة وفيها خمسة أبواب

الباب الأول

في التطهيرات والوضوء وآدابهما

الفصل الأول: في التطهيرات الثلاثة.......... ٤٧

الفصل الثاني: في الإشارة إلى مراتب الطهور.......... ٥٢

الفصل الثالث: في الآداب القلبية للسالك حينما يتوجه إلى الماء للطهارة.......... ٥٣

الفصل الرابع: في الطهور وهو إما الماء وهو الأصل في هذا الباب وإما الأرض.......... ٥٦

الفصل الخامس: في نبذة من آداب الوضوء الباطنية والقلبية ٥٩

الفصل السادس: في الغسل وآدابه القلبية ٦٨
الفصل السابع: في نبذة من الآداب الباطنية لإزالة النجاسة والتطهير من الخبائث..................... ٧٠

الباب الثاني
في نبذة من آداب اللباس وفيه مقامان
المقام الأول: في آداب مطلق اللباس.. ٧٧
المقام الثاني: في نبذة من آداب لباس المصلى وفيه فصلان:...................................... ٨١
الفصل الأول: في سر طهارة اللباس ٨١
الفصل الثاني: في الاعتبارات القلبية لستر العورة ٨٤

الباب الثالث
في الآداب القلبية لمكان المصلّى وفيه فصلان:
الفصل الأول: في معرفة المكان... ٨٩
الفصل الثاني: في بعض آداب إباحة المكان.. ٩٧
الباب الرابع
في الآداب القلبية للوقت وفيه فصلان:
الفصل الأول: في آداب أوقات الصلاة ٩٨
الفصل الثاني: في الآداب القلبية للصلاة.. ١٠٠
الباب الخامس
في بعض آداب الاستقبال وفيه فصلان:
الفصل الأول: في السر الجمالي للاستقبال... ١٠٢
الفصل الثاني: في بعض الآداب القلبية للاستقبال.. ١٠٣

المقالة الثالثة
في مقارنات الصلاة وفيها ثمانية أبواب
الباب الأول
بعض آداب الأذان والإقامة وفيه خمسة فصول
الفصل الأول: في سرّهما الجمالي وآدابهما الإجمالية ١٠٧

الفصل الثاني: في بعض آداب تكبيرات الأذان والإقامة وأسرارهما ١٢٠
الفصل الثالث: في بعض آداب الشهادة بالإلوهية.. ١٢٣
الفصل الرابع: في بعض آداب الشهادة بالرسالة، وفيها إشارة إلى الشهادة بالولاية ١٢٧
الفصل الخامس: في بعض آداب الحيّعلات.. ١٣٢

الباب الثاني

في القيام وفيه فصلان

الفصل الأول: في السر الإجمالي للقيام... ١٣٥
الفصل الثاني: في آداب القيام ١٣٧

الباب الثالث

في سر النية وآدابها وفيها خمسة فصول

الفصل الأول: في حقيقة النية في العبادات ١٤٢
الفصل الثاني: في الإخلاص... ١٤٥
الفصل الثالث: في بيان بعض مراتب الإخلاص.. ١٤٨
الفصل الرابع: في تحذير منكري المقامات وطوائفهم ١٥٠
الفصل الخامس: في ذكر بعض درجات الإخلاص... ١٥٤

الباب الرابع

في ذكر نبذة من آداب القراءة وقطعة من أسرارها وفيه مصباحان

المصباح الأول: في آداب قراءة القرآن الشريف المطلقة وفيه ستة فصول

الفصل الأول: في آداب القراءة.. ١٥٨
الفصل الثاني: في بيان مقاصد الكتاب الشريف الإلهي ١٦١
الفصل الثالث: في بيان طريق الاستفادة من القرآن الكريم.. ١٦٦
الفصل الرابع: في بيان رفع الموانع والحجب بين المستفيد والقرآن ١٧٠
الفصل الخامس: في التفكّر ١٧٥
الفصل السادس: في التطبيق.. ١٧٧
خاتمة الفصل ١٧٩

المصباح الثاني

الفصل الأول: في آداب القراءة في الصلاة خاصة ١٨٢
الفصل الثاني: في بعض آداب الاستعاذة ١٨٧
الفصل الثالث: في أركان الاستعاذة وهي أربعة: ١٩٢
الفصل الرابع: في بعض آداب التسمية ١٩٦
الفصل الخامس: في البيان الإجمالي من تفسير سورة الحمد المباركة.. ٢٠٠
الفصل السادس: في نبذة من تفسير السورة المباركة التوحيد: ٢٤٢
الفصل السابع: في نبذة في تفسير السورة المباركة القدر ٢٥٦

الباب الخامس

في نبذة من آداب الركوع وأسراره وفيه خمسة فصول

الفصل الأول: في التكبير قبل الركوع ٢٧٥
الفصل الثاني: في آداب الانحناء الركوعي ٢٧٦
الفصل الثالث: تعظيم وتنبيه وتحقيق ٢٧٧
الفصل الرابع: أدب الركوع ٢٧٨
الفصل الخامس: في رفع الرأس من الركوع ٢٧٩

الباب السادس

في الإشارة الإجمالية إلى أسرار السجود وآدابه وفيه أربعة فصول

الفصل الأول: في سرّه الإجمالي.. ٢٨٠
الفصل الثاني: آداب السجود عند الإمام الصادق (عليه السلام) ٢٨١
الفصل الثالث: في ذكر السجود.. ٢٨٢
الفصل الرابع: في بعض أسرار السجدة وذكرها ورفع الرأس منها ٢٨٤

الباب السابع

في الإشارة الإجمالية إلى آداب التشهُّد وفيه فصلان

الفصل الأول: في التشهُّد ٢٨٥
الفصل الثاني: آداب التَشهُّد عند الإمام الصادق (عليه السلام) ٢٨٧

الباب الثامن

في آداب السلام وفيه فصلان

الفصل الأول: آداب السلام ٢٨٩
الفصل الثاني: آداب السلام عند الإمام الصادق (عليه السلام) ٢٩٠

خاتمة الكتاب

في آداب بعض الأمور الداخلة والخارجة للصلاة وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول: في التسبيحات الأربعة التي تقرأ في الركعة الثالثة والرابعة ٢٩٢
الفصل الثاني: في الآداب القلبية للقنوت ٢٩٥
الفصل الثالث: في التعقيب ٢٩٧
اختتام ودعاء ٢٩٩
خاتمة المعرِّب ٣٠٠
محتويات الكتاب ٣٠١